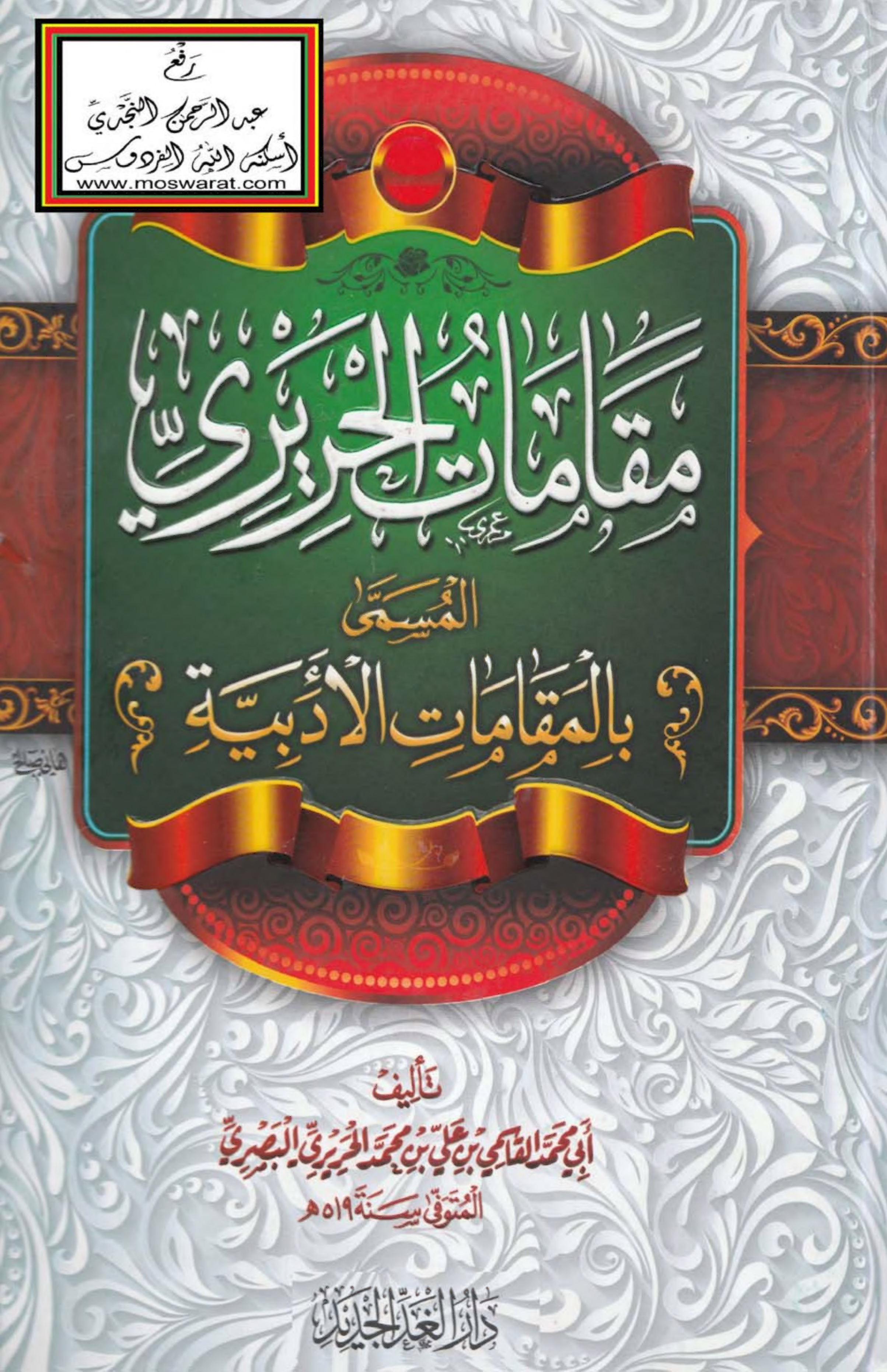


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
مقامات الحريري
المسمى
بالمقامات الأدبية
تأليف
أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري
المتوفى سنة ٥١٩هـ
دار الغد الجديد


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقامات الحريري

المسمى

بالمقامات الأدبية

تأليف

أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري
المتوفى سنة ٥١٩ هـ

علق عليه وضبطه
ووضع هوامشه
عزت زينهم

دار الغد الجديد





الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



القاهرة: ٧ ش درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
المنصورة: ش عبد السلام عارف أمام جامعة الأزهر
ت فاكس: ٢٥١٤٨٢١٦ / ٠٠٢٠٢
ت فاكس: ٢٢١٦٨٩٨ / ٠٠٢٠٥٠
صندوق بريد: ٣٥١١١

E.Mail: dar.alghad@yahoo.com

رقم الإيداع: ١٩٧١٢ / ٢٠١٥
I.S.B.N: 978-977-372-482-7

مقدمة التحقيق

الحمد لله خالق الألسن واللغات، واضع الألفاظ للمعاني بحسب ما اقتضته حكمه البالغات، الذي علم آدم الأسماء كلها، وأظهر بذلك شرف اللغة وفضلها.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أفصح الخلق لسانا، وأعربهم بيانا، وعلى آله وصحبه ، أكرم بهم أنصارا وأعوانا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب].

يقول الثعالبي في مقدمة كتابه «فقه اللغة»: من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً ﷺ ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وأتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمدا ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب كالينبوع للماء والزند للنار، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها والتبحر في جلائها ودقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان لكفى بهما فضلا يحسن فيهما أثره، ويطيب في الدارين ثمره.

وإسهاما منا في خدمة لغتنا العربية لغة القرآن الكريم نقدم لك أخي القارئ الكريم كتاب مقامات الحريري المسمى بـ «المقامات الأدبية»لمؤلفه أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري المتوفى سنة (٥١٦هـ)، وهو ثاني كتب المقامات شهرة وأجلها أثراً، لم يلق واحد منها ما لقيه من عناية العلماء به، وتنافسِ الأمراء

باقتناء نسخه.

قال حاجي خليفة: كتاب لا يحتاج إلى تعريف لشهرته.

وقد **قال الزمخشري** في مدحه وهو من معاصري الحريري: أقسم بالله وآياته، ومشعر الحج وميقاته، أن الحريري حريٌّ بأن نكتُبَ بالتبر مقاماته، وهو الكتاب الرابع من كتب المقامات حسب التسلسل التاريخي.

وأولها: مقامات بديع الزمان.

وثانيها: مقامات أبي النصر عبد العزيز بن عمر السعدي المتوفى سنة ٤٠٥هـ.

وثالثها: مقامات ابن تاقيا عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٨٥هـ.

ورابعها: مقامات الحريري، ويضم خمسين مقامة، على غرار مقامات بديع الزمان، جعل الحريري بطلها الحارث بن همام البصري، وهو اسم بلا مسمى، وراويها أبا زيد السروجي وهو شخصية حقيقية، ورد البصرة، وكان شيخًا بليغًا، وسحر الناس بفصاحته في مسجد بني حرام وهو يسألهم أن يعينوه في فك ولده من أسر الروم.

قال الحريري: فاجتمع عندي فضلاء، وأخبروني بما سمعوه وتعجبوا منه، فأنشأت المقامة الحرامية، ثم بنيت عليها سائر المقامات.

قال ابن الجوزي: وعرض المقامة الحرامية على الوزير أنوشروان فاستحسنها وأمر أن يضيف إليها ما شاكلها فأتمها خمسين مقامة.

وعثر ابن خلكان سنة ٦٧٦هـ على نسخة منها بخط الحريري، وقرأ فيها أنه ألفها للوزير جلال الدين ابن صدقة، وذلك مخالف لما أثبته في ترجمته للحريري من أنه ألفها للوزير أنوشروان بن خالد القاشاني: وزير المسترشد العباسي.

ولها شروح كثيرة جدًا، عدَّ منها حاجي خليفة أربعين شرحًا، ونص على أن أجودها شروح أبي العباس الشريشي المتوفى سنة ٦١٩هـ، وأضخمها شرح ابن الساعي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤هـ، وهو في خمسة وعشرين مجلدًا، وأقدمها: شرح أبي سعيد الحلي تلميذ الحريري، وقد قرأ شرحه عليه.

طبع الكتاب لأول مرة في كلكتة من سنة ١٨٠٩ إلى ١٨١٢م، ثم في باريس سنة ١٨٢٢هـ بعناية (دي ساسي) مع شروح منتخبة، وفي (لايبسك) سنة ١٨٣٦ وفي بولاق ١٢٨٨هـ.

وقد وصلتنا نسخ منه مزينة بالمنمنمات التي أبدعتها ريشة الفنان يحيى بن محمود الواسطي، فرغ منها في رمضان ٦٣٤هـ. وانظر كتاب (الأثر العربي في الفكر اليهودي) إبراهيم موسى هنداوي، وفيه فصل المقامات ص١٢٩ (وأهم إنتاج أدبي من هذا النوع ما لقيه الشاعر يهوذا الحريزي في القرن (١٢م) ويعتبر إنتاجه أشهر ما أنتج في الأدب العبري، وقد ترجم (مقامات الحريري) إلى العبرية تلبية لرغبة أصدقائه الذين شغفوا بالأدب العربي في طليطلة، وسمى ترجمته (حكايات إيتيئيل) نسبة إلى البطل الذي اختاره لمقاماته بدلًا من الاسم العربي، وقد استعاره من (سفر الأمثال: إصحاح ٣٠) أما كتاب (مقاماته) هو فأهمها المقامة (٤٧) ص٢٥٠ في وصف من لقيهم في أسفاره من يهود المشرق، وفي مقامة أخرى يذكر أسماء شعراء اليهود، وشهرة كل واحد منهم.

أما عن تاريخ دخول (مقامات الحريري) إلى المغرب، فقد ذكر أبو عبد الله ابن القاضي عياض في كتابه (التعريف بالقاضي عياض) (ص١٠٩) أن بعض أصحابه سمعه يقول: (لما وصل إلى بلدنا كتاب المقامات للحريري، وكنت لم أرها قبل، لم أنم ليلة طالعتها حتى أكملت جميعها بالمطالعة) قال محقق الكتاب د. محمد بن شريفة: أما في الأندلس فقد أدخلها من أخذها مباشرة عن الحريري كما ذكر د. إحسان عباس في كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي (ص٣٠٣)، وننوه هنا إلى ما ذهب إليه رفاعة الطهطاوي من أن فينيلون الفرنسي استفاد كثيراً من مقامات الحريري في كتابه (مواقع الأفلاك في وقائع تيلماك) الذي قام الطهطاوي بترجمته إلى العربية سنة ١٨٤٩م. انظر مجلة العرب (س٣ ص٧٧٧) . وفيها إشارة إلى مقامات علي مبارك، التي سماها باسم بطلها (علم الدين).

عملنا في الكتاب:

وقد قمت في هذا الكتاب بعمل الآتي:

١ــ ضبط متن الكتاب من حيث التصحيف والتحريف.

٢ــ ضبط كلمات الكتاب ضبطًا تاما ؛ لتوضيح المعنى، ولإزالة اللبس.

٣ــ تخريج آيات الكتاب بعزوها إلى سورها، وذكر رقم الآية.

٤ــ تعريف الكثير من الكلمات الغريبة.

٥ــ عمل الفهارس العلمية الشاملة، وتشمل:

أــ فهرس الآيات القرآنية. ب ــ فهرس الأحاديث النبوية.

جــ فهرس الأماكن الواردة في الكتاب.

د ـ فهرس الأمثال الواردة في الكتاب.

هـ ـ فهرس الأشعار الواردة في الكتاب.

و ـ فهرس القبائل والفرق والمذاهب والشعوب.

ز ـ فهرس موضوعات للكتاب.

والله أسأل أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعني الله به وجميع المسلمين، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

عزت زينهم



ترجمة الحريري

(٤٤٦ - ٥١٦هـ)

هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، الأديب أبو محمد البصريُّ الحراميُّ الحريريُّ، مصنِّف «المقامات».

كان يسكن ببني حرام إحدى محال البصرة مما يلي الشَّط، كان مولده ومرباه بقرية المشان من نواحي البصرة، وكان أحد أئمة عصره في الأدب والنَّظْم والنَّثْر والبلاغة والفصاحة، رُزِقَ الحظوة التَّامة في مقاماته.

ذكر المُوقاني وغيره أنَّ الحريري قرأ الأدب بالبصرة على القصباني، فحُكيَ أن القصباني قال: إذا قلت: ما أسود زيداً! وما أسمر عمراً! وما أصفر هذا الطَّير! وما أبيض هذه الحمامة! وما أحمر هذا الفرس! لا تصح إن أردت الألوان، وتصح إن أردت التَّعجب من سُؤدد زيد، وسمر عمرو، وصفير الطَّير، وكثرة بيض الحمامة، وحمرَ الفَرس وهو أن ينتن فوه، وحكى الحريري، قال: كان أبو زيد السُّروجي شيخًا شحَّاذًا بليغًا، ومكدِّيًا فصيحًا، ورد علينا البصرة فوقف في مسجد بني حرام، فسلَّم ثم سأل، وكان بعض الولاة حاضراً والمسجد غاص بالفُضَلاء، فأعجبتهم فصاحته وحسن صياغة كلامه، وذكر أسر الرُّوم ولده كما ذكرناه في المقامة الحرامية، فاجتمع عندي عشية جماعة، فحكيت ما شاهدت من ذلك السَّائل، وما سمعت من لطافة عبارته وظرافة إشارته في تحصيل مراده، فحكى لي كلُّ واحد من جُلسائي أنَّه شاهد من هذا السَّائل في مسجده مثل ما شاهدت، وأنه سمع منه في معنى آخر فصلًا أحسن مما سمعتُ، وكان يُغيِّرُ في كلِّ مسجد شكله وزيَّه، فتعجبوا من جريانه في ميدانه وتصرُّفه في تلوُّنه وإحسانه، فأنشأتُ المقامة الحرامية ثم بنيتُ عليها سائر المقامات.

وذكر ولد الحريري، أبو القاسم عبد الله، قال: كان السَّبب في وضع هذه «المقامات» أنَّ أبي كان جالسًا في مسجده ببني حرام فدخل شيخ ذو طمرين، عليه أهبة السَّفر فصيح الكلام، حسنُ العبارة فسأله الجماعة: من أين الشَّيخ؟ فقال: من سروج، فاستخبروه عن كنيته فقال: أبو زيد، فعمل أبي المقامة المعروفة «بالحرامية» وهي الثَّامنة والأربعون، وعزاها إلى أبي زيد المذكور واشتُهِرَت، فبلغ خبرها الوزير

شرف الدين أنوشروان بن خالد القاشاني، وزير المسترشد، فأعجبته وأشار على أبي أن يضمَّ إليها غيرها فأتمَّها خمسين مقامة، وإلى الوزير أشار الحريريُّ بقوله في الخطبة: فأشار من إشارته حكْم، وطاعته غُنْم. وأما تسمية الراوي بالحارث بن همَّام فإنما عني به نفسه، أخذه من قوله عليه السلام: «**كلُّكم حارث وكلُّكم همّام**»، فالحارث الكاسب والهمَّام الكثير الاهتمام؛ لأن كلَّ أحد كاسب ومهتمٌّ بأموره.

وقد سمع من أبي تمَّام محمد بن الحسن بن موسى المقرئ، وأبي القاسم بن الفضل القصباني الأديب، وأملى بالبصرة مجالس، وصنَّف أيضًا «دُرَّة الغواص في أوهام الخواص» و«الملحة» في النحو وصنَّف لها شرحًا، وله ديوان ترسُّل وشعر كثير.

روى عنه ابنه أبو القاسم، وأبو العباس المندائي الواسطي، وأبو الكرم الكرابيسي، والوزير علي بن طراد، وأبو علي ابن المتوكِّل، وقوام الدِّين علي ابن صدقة الوزير، وابن ناصر الحافظ، وعلي بن المظَفَّر الظَّهيري، ومنوجهر ابن تركانشاه، وأحمد بن علي ابن النَّاعم، وأبو بكر ابن النَّقَّور، ومحمد بن أسعد العراقي، وأبو المُعَمَّر المبارك بن أحمد الأزجي، وآخر مَنْ روى عنه بالإجازة أبو طاهر بركات بن إبراهيم الخُشُوعي.

ولد سنة ست وأربعين وأربعمائة، وقرأ الأدب بالبصرة على القصباني ثم استعان بذكائه وفطنته على اللُّغات والآداب.

قال قاضي القضاة ابن خلِّكان: وجدت في عدَّة تواريخ أنَّ الحريري صنَّف "المقامات" بإشارة أنوشروان إلى أن رأيت بالقاهرة سنة ست وسبعين نسخة مقامات كلها بخط مصنِّفها، وقد كَتَبَ بخطه أيضًا أنه صنَّفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن علي بن صدقة وزير المسترشد، ولا شك في أنَّ هذا أصح لأنه بخط المصنِّف، وتُوفي الوزير المذكور في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

وذكر الوزير جمال الدين علي بن يوسف الشَّيباني القفطي في "تاريخ النُّحاة": أن أبا زيد السَّروجي اسمه المُطهّر بن سلاَّر، وكان بصريًا لغويًا صحب الحريري، وتخرَّج به، وقد روى أبو الفتح محمد بن أحمد المندائي «مُلْحة الإعراب» عنه عن الحريري، حدَّثهم بها بواسط في سنة ثمان وثلاثين، وتوفي بعد الأربعين وخمسمائة، وقد شرح «المقامات» جماعة من الفضلاء.

قال القاضي: ورأيت في بعض المجاميع أن الحريري عمل «المقامات» أربعين

مقامة، وحملها إلى بغداد فاتهمه جماعة من أدباء بغداد، وقالوا: هي لرجل مغربي مات بالبصرة ووقعت أوراقه إلى الحريري، فظفر بها، فادعاها، فسأله الوزير عن صناعته، فقال: أنا رجل مُنْشئ، فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عيَّنها، فانفرد في ناحية من الدار وأخذ الدَّواة والورقة ومكث زمانًا، فلم يُفْتَح عليه بشيء يكتبه، فقام خجلًا، وكان ممن أنكر دعواه علي بن أفلح الشَّاعر، فعمل في ذلك:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما رماه وسط الدِّيوان بالخرس

وكان الحريري يذكر أنَّه من ربيعة الفرس، وكان يولع بنتف لحيته عند الفكرة، وكان يسكن في مشان البصرة، فلما رجع إلى بلده أكملها خمسين مقامة، وسير العشرة، واعتذر عن عيِّه بالهيبة.

وقيل: بل كره المُقام ببغداد فتجاهل.

ويُحْكَى أنه كان دميمًا قبيح المَنْظر، فأتاه غريب يزوره ويأخذ عنه، فلما رآه استزرى شكله، ففهم الحريري ذلك منه، فلما التمس أن يملي عليه، قال اكتب:

ما أنت أوَّل سارٍ غرَّهُ قمَرُ ورائد أعجبته خضرة الدِّمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المُعَيْدي فاسمع بي ولا ترني

وكان الحريري من الأغنياء بالبصرة، يقال: كان له ثمانية عشر ألف نخلة، وقيل: كان قذرًا في نفسه وشكله ولُبْسه، قصيرًا دميمًا، بخيلًا، مولعًا بنتف لحيته، فنهاه الأمير وتوعَّده على ذلك، وكان كثير المجالسة له، فبقي كالمُقيَّد لا يتجاسر أن يعبث بلحيته، فتكلَّم في بعض الأيام بكلام أعجب الأمير، فقال له: سلني ما شئت حتى أعطيك، فقال: أقطعني لحيتي، قال: قد فعلتُ!

وقال القاضي جابر بن هبة الله: قرأتُ «المقامات» على الحريري في سنة أربع عشرة، وكنت أظنُّ أنَّ قوله:

يا هل ذا المعنى وُقيتُم شرًا ولا لقيتُم ما بقيتُم ضرًا
قد دفع اللَّيل الذي اكفهرَّا إلى ذُراكم شعثًا مُغْبَرًّا

فقرأت «سغبًا معترًا» ففكر، ثم قال: والله لقد أجدت في التصحيف وإنه لأجود فرُبَّ شعث مُغْبَر غير محتاج، و«السغب المعتر» موضع الحاجة، ولولا أني قد كتبت خطِّي إلى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قُرِئتْ عليَّ لغيَّرته كما قلت.

ومن لُغَز الحريري وأجاد:

ميم موسى من نون نصر ففتش أيّهاذا الأديب ماذا عنيتُ

ميم: أي أصابه الموم، وهو البرسام، ويقال: هو أثر الجدري. والنون: السَّمكة، يعني: أكل سمكة نصر فأصابه الموم.

وله:

باء بكر بلام ليلى فما ينفـ ـك منها إلا بعين وهاء

البَكْر: الجَمَل، وباء: أقر، واللاَّمُ: الزرع، فلازمته ليلى فما ينفك منها مما تلطمه في وجهه إلا بعين واهية من اللطم.

وله:

لا تخطونَّ إلى خطأ ولا خطاء من بعد ما الشَّيْب في فودَيْك قد وخطَا

وأي عُذْر لمن شابت ذوائبه إذا سعى في ميادين الصبًا وخطَا

حدَّث جابر بن زهير، قال: حضرنا مع ابن الحريري دعوة لرئيس البصرة ظهير الدين ابن الوجيه في ختان ابنه أبي الغنائم، وحضر محمد البصري المغني فغنَّى:

بالذي ألهم تعذيـ ـبي ثناياك العذابا

ما الذي قالته عينا ك لقلبي فأجابا

فطَرِب الحاضرون وسألوا ابن الحريري أن يزيد لها مطلعًا فقال:

قل لمن عذَّب قلبي وهو محبوب محابى

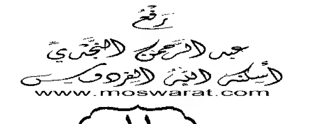
والذي إن سمته الوصـ ـل تغالى وتغابى

فألزم الحاضرون لمحمد ألاَّ يغنيهم غيرها، فمضى يومهم أجمع بها.

قال المُوقاني: مات الحريري في سادس رجب سنة ست عشرة بالبصرة.

وقال غيره: خلَّف ولدين: نجم الدين عبد الله، وقاضي البصرة ضياء الإسلام عبيد الله.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

اللَّهُمَّ إنّا نحمَدُكَ عَلَى مَا علّمْتَ من البَيان، وألْهَمْتَ من التّبْيان، كما نحْمَدُك عَلَى مَا أسْبغْتَ منَ العَطاء، وأسبَلْت[1] من الغطاء، ونَعوذُ بكَ من شِرّة[2] اللّسَنِ، وفضُول الهذَرِ، كما نَعوذُ بكَ منْ معرّةِ اللّكَنِ[3]، وفُضوح الحصَرِ[4]، ونَستكْفي بكَ الافتتانَ بإطْرَاءِ المَادحِ، وإغضاءِ المُسامحِ، كما نَستكْفي بكَ الانتصابَ لإزْراء القادحِ[5]، وهتْك الفاضحِ. ونسْتغْفرُك من سَوْق الشّهَوات إلَى سُوق الشُّبُهات، كما نستغْفرُكَ منْ نقْلِ الخطَوات إلَى خطَطِ الخَطيئَات، ونسْتَوْهبُ منْكَ توفيقاً قائداً إلَى الرُّشْد، وقَلْباً متقلِّباً مَعَ الحَقّ، ولِساناً متحلّياً بالصّدْق، ونُطْقاً مؤيَّداً بالحُجّة، وإصابةً ذائدَةً[6] عنِ الزّيْغ، وعَزيمةً قاهرةً هَوى النّفْس، وبصيرةً نُدْرِكُ بها عِرْفانَ القَدْر، وأنْ تُسعِدَنا بالهِدايَة، إلَى الدِّرايَة، وتَعْضُدَنا[7] بالإعانَة عَلَى الإبانَة، وتعْصِمَنا منَ الغَوايَة في الرّوايَة، وتصرِفَنا عنِ السّفاهَة، في الفُكاهَة، حتّى نأمَنَ حصائدَ الألْسنَة، ونُكْفَى غَوائِلَ[8] الزّخْرفَة، فلا نَرِدَ موْرِدَ مأثَمة، ولاَ نقفَ موْقفَ مَنْدمَةٍ، ولاَ نُرْهَقَ بتَبِعةٍ[9] ولاَ معتَبَةٍ، ولاَ نُلْجأَ إلَى معْذرَةٍ عنْ

---

(١) أسْبَلَ: أرخى وغطّى وستَرَ.
(٢) شرّة: فحش.
(٣) عجمة في اللسان وعدم تبيين الكلام.
(٤) فضوح الحصر: اشتهار العي وعدم القدرة على الكلام.
(٥) إزراء القادح: الطعن على الناقد الصادق.
(٦) ذائدة: بعيدة.
(٧) عضَدَ: أعان وساعد.
(٨) غوائل الزخرفة: مصائد التزيين وأخطاره.
(٩) تبعة: ما أتبع بظلم أو مظلمة.

بادرَة، اللَّهُمَّ فحقِّقْ لَنا هَذه المُنْيَةَ، وأنلْنا هَذه البُغْيَةَ، ولاَ تُضْحنا (١) عنْ ظلِّكَ السَّابِغِ، ولاَ تجْعَلْنا مُضغَةً للماضِغِ، فَقَدْ مدَدْنا إليْكَ يدَ المسْألَة، وبخَعْنا (٢) بالاسْتكانَة لَكَ والمَسْكَنة، واستَنْزَلْنا كرَمَك الجَمّ، وفضْلَكَ الَّذي عمّ، بضَراعَة الطّلَب، وبضاعَة الأمَلِ، بالتّوسّلِ بمحَمّد سيّد البشَرِ، والشّفيعِ المُشفَّعِ فِي المحْشَرِ، الّذي ختَمْتَ به النّبيّينَ، وأعليتَ درجتَهُ فِي علّيّينَ، ووَصفْتَه فِي كِتابك المُبينِ، فقُلتَ وأنتَ أصدَقُ القائلين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، اللَّهُمَّ فصَلِّ علَيه وعلى آله الهادينَ، وأصحابه الذين شادوا الدّين، واجْعَلْنا لهَدْيِه وهَديهمْ متّبعينَ، وانْفَعْنا بمحبّته ومحبّتهِمْ أجْمَعينَ، إنّك علَى كُلِّ شيء قديرٌ، وبالإجابةِ جَديرٌ، وبعْدُ فإنّهُ قَدْ جرَى ببَعْضِ أنْديَةِ الأدَبِ الَّذي ركدَتْ (٣) فِي هَذَا العصْرِ ريحُهُ، وخبَتْ (٤) مصابيحُهُ، ذِكْرُ المَقامات الَّتي ابْتَدعَها بَديعُ الزّمانِ، وعلاّمَةُ همَذانَ، رحِمَهُ اللهُ تعالى، وعَزا إلَى أبي الفتْحِ الإسكنْدَريّ نشْأتَها، وإلَى عيسى بنِ هِشامٍ روايتَها، وكلاهُما مجْهولٌ لا يُعرَفُ، ونكِرةٌ لا تتَعرّفُ! فأشارَ مَنْ إشارتُه حُكْمٌ (٥)، وطاعَتُه غُنْمٌ، إلَى أنْ أُنْشِئَ مَقاماتٍ أتْلو فيها تلْوَ (٦) البَديعِ، وإنْ لَمْ يُدْرِكِ الظّالِعُ (٧) شأوَ الضّليعِ، فذاكَرْتُهُ بما قِيلَ فيمَنْ ألّفَ بينَ كَلمتَينِ، ونظَم بيْتاً أو بيتَينِ، واستَقلْتُ (٨) منْ هَذَا المَقامِ الَّذي فيه يَحارُ الفَهْمُ، ويفرُطُ الوهْمُ، ويُسْبَرُ غورُ العقْلِ، وتتَبيّنُ قيمَةُ المَرْء فِي الفضْلِ، ويُضْطَرّ

---

(١) تُضْحنَا: تطردنا من ظلك إلى حرِّ المعصية والنار.

(٢) بَخَعْنَا: أقررنَا وأنبنا. (٣) ركدت: كسدت.

(٤) خبت: طفئت. (٥) المقصود: وزير الخليفة، أو الخليفة نفسه.

(٦) أتلو فيها تلو: أحذو حذوه، وأسير على طريقته.

(٧) الظالع: من يميل في مشيه ولا يعتدل من مرض. (٨) استقلت: استعفيت وطلب الإقالة.

صاحِبُه إلَى أَنْ يكُونَ كحَاطِبِ لَيْلٍ [(١)]، أو جالب رَجْلٍ [(٢)] وخَيْلٍ، وقلّما سلِمَ مكْثارٌ، أو أُقيلَ لَهُ عِثارٌ [(٣)]، فَلَمَّا لَمْ يُسْعِفْ بالإقالَة، ولاَ أعْفَى مِنَ المَقالَة، لبّيْتُ دعْوَتَهُ تلبيَةَ المُطيعِ، وبذَلْتُ فِي مُطاوَعَتِه جُهْدَ المُستَطيعِ، وأنْشأتُ عَلَى مَا أُعانيه منْ قَريحة [(٤)] جامدة، وفطْنَة خامدة، ورَوِيّة ناضِبَة [(٥)]، وهُمومٍ ناصبَة، خمْسينَ مَقامةً تحْتَوي عَلَى جِدّ القَوْلِ وهزْله، ورَقيقِ اللّفْظِ وجزْلِه، وغُررِ البَيَانِ ودُرَرِه، ومُلَحِ الأدَبِ [(٦)] ونوادِرِه، إلَى مَا وشَّحْتُهَا [(٧)] بِه من الآيات، ومَحاسنِ الكنايات، ورصّعْتُهُ فيها من الأمْثال العربيّة، واللّطائف الأدبيّة، والأحاجيّ [(٨)] النّحْويّة، والفَتاوَى اللّغويّة، والرّسائلِ المُبتكَرة، والخُطَبِ المُحَبّرة [(٩)]، والمواعظ المُبْكِية، والأضاحيك المُلْهِيَة، ممَّا أمْلَيْتُ جميعَهُ عَلَى لِسانِ أبي زيْد السَّرُوجيّ، وأسْنَدْتُ روايتَهُ إلَى الْحَارِث بن هَمَّام البصْريّ، وما قصَدْتُ بالإحْماضِ [(١٠)] فيه، إلا تنْشيطَ قارئيه، وتكْثيرَ سَواد طالبيه، ولَمْ أُودِعْهُ منَ الأشْعارِ الأجْنبيّة إلا بيْتَين فَذّين [(١١)] أسّسْتُ علَيْهما بُنْيَةَ المَقامَة الحُلْوانيّة، وآخَرَين توأمَين ضمّنْتُهُما خَواتِمَ المَقامَة الكرَجيّة، وما عَدَا ذلك فخاطِري أبو عُذْرِه [(١٢)]، ومُقْتَضِبُ حُلْوِه ومُرِّه، هَذَا مَعَ اعْترافي بأنّ البَديعَ ـ رحمَهُ اللهُ ـ سبّاقُ غاياتٍ، وصاحِبُ آياتٍ، وأنّ المتصَدّيَ بعدَهُ لإنْشاء مَقامةٍ، ولَوْ أُوتيَ بَلاغَة

---

(١) حاطب ليل: الذي لا يدري أي شيء يجمع وما يضر وما ينفع.
(٢) رجل: فارس.
(٣) المقصود: العثرات، وهي الزّلاّت والخطيئات.
(٤) قريحة: طبيعة ونفس.
(٥) المقصود: فكرة لا تساعد ولا تعين.
(٦) ملح الأدب: ما يستظرف من الأدب.
(٧) أي: زينتها وجمّلتها.
(٨) جمع أحجية، وهي ما يتطلب عمل العقل للفهم.
(٩) المُحبّرة: المزينة.
(١٠) المقصودُ: تعدد الأساليب.
(١١) فذّين: فردين لا ثالثَ لهما.
(١٢) المراد: ابتكرتها ولم يسبقني أحد لها.

قُدامَةَ(١)، لا يغْتَرِفُ إلا من فُضالَته، ولاَ يسْري ذلِك المَسْرى إلا بدَلالَتِه، ولله دَرُّ القائلِ:

فلوْ قبلَ مَبْكاها بكَيْتُ صَبابةً بسُعْدى شَفَيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التّنَدُّمِ
ولكِنْ بكَتْ قبْلي فهيّجَ لِي البُكا بُكاها فقُلتُ الفضْلُ للمتَقَدِّمِ

وأرْجو ألا أكونَ في هَذَا الهذَرِ(٢) الَّذي أورَدْتُه، والمَوْرِدِ الَّذي تورّدْتُهُ(٣)، كالباحِث عنْ حتْفِه بِظِلْفه(٤)، والجادِعِ مارِنَ(٥) أنْفه بكفّه، فألحَقَ بالأخْسَرِينَ أعْمالاً الذينَ ضلّ سعْيُهُمْ في الحياةِ الدُّنْيا، وهُمْ يحْسبونَ أنّهُمْ يُحسِنونَ صُنْعاً، علَى أني وإنْ أغْمَضَ لِي الفَطِنُ المُتغابي ونضَحَ عنّي المُحبُّ المُحابي، لا أكادُ أخْلُصُ منْ غُمْرٍ جاهِلٍ، أو ذِي غِمْرٍ(٦) متَجاهِلٍ، يضَعُ مني لهَذا الوضْعِ، ويندّدُ بأنّهُ من مَناهي الشّرْعِ، ومَنْ نقَدَ الأشْياءَ بعَيْنِ المعْقولِ، وأنْعَمَ(٧) النّظَرَ في مَباني الأُصُولِ، نظَمَ هَذه المَقاماتِ، في سِلْكِ الإفاداتِ، وسلكَها مَسْلَكَ الموْضوعاتِ، عنِ العَجْماواتِ والجَماداتِ، ولَمْ يُسْمَعْ بمَنْ نَبا سمْعُهُ عنْ تلكَ الحِكاياتِ، أو أثّمَ رُواتَها في وقْتٍ من الأوْقاتِ، ثُمَّ إذَا كانَت الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وبِها انْعقادُ العُقودِ الدِّينيّاتِ، فأيُّ حرَجٍ علَى مَنْ أنشأ مُلَحاً للتّنْبيهِ، لا للتّمويهِ، ونَحا به منحَى التّهْذيبِ، لا الأكاذيبِ؟ وهلْ هُوَ فِي ذلِك إلا بمنزِلَةِ مَنِ انتَدَبَ لتعْليمٍ، أو هدَى إلَى صِراطٍ مُستَقيمٍ؟

---

(١) المقصود: هو قدامة بن جعفر، الكاتب البغداديّ المعروف.
(٢) الهذر: الكلام الذي لا فائدة فيه، والهَذَيَان.
(٣) أي: تجرّأتُ عليه وأقبلت.
(٤) مثلٌ عربيّ، والمراد: من يسعى في هلاك نفسه.
(٥) أي: الجزء اللّيّن من الأنف.
(٦) غِمر: بكسر أوّله: حاقِد.
(٧) أنْعَمَ: أمعن وأعمل فكره.

على أنّني راضٍ بأنْ أحْمِلَ الهَوى   وأخْلُصَ منْهُ لا علَيَّ ولاَ لِيا

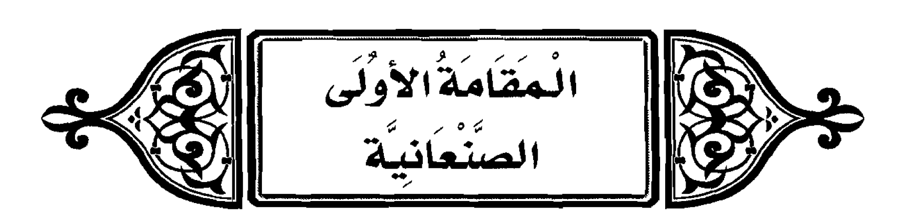
وَبالله أعْتَضِدُ، فيما أعْتَمِدُ، وأعْتَصِمُ، ممَّا يصِمُ(١)، وأسْتَرْشِدُ، إلَى مَا يُرْشِدُ، فما المَفْزَعُ إلاّ إليْه، وَلاَ الاستعانةُ إلا به، وَلاَ التّوفيقُ إلا منْهُ، وَلاَ المَوْئِلُ(٢) إلا هُوَ، علَيْهِ توكّلتُ وإليْهِ أُنيبُ، وبهِ نسْتَعينُ، وهو نِعْمَ المُعِينُ.

۞۞۞

---

(١) يصم: يعيب ويشوّه.

(٢) الموئل: المنجي من الأضرار.



المَقامَةُ الأُولَى الصَّنْعَانِيَّة

حدّثَ الْحَارِث بن هَمَّام قالَ: لَمَّا اقتَعدْتُ غارِبَ الاغتِراب(١)، وأنْأتْني المَتربَةُ(٢) عنِ الأتْرابِ(٣)، طوّحَتْ بي طَوائِحُ الزّمَنِ، إلَى صنْعاء اليَمَنِ، فدَخَلْتُها خَاوِيَ الوِفاضِ، باديَ الإنْفاضِ، لا أملِكُ بُلْغَةً، ولاَ أجِدُ فِي جِرابي مُضْغَةً، فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثلَ الهائِمِ، وأجولُ فِي حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ، وأرُودُ فِي مَسارِحِ لَمَحاتي، ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي(٤)، كريماً أُخْلِقُ لَهُ ديباجَتي(٥)، وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي، أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي، وتُرْوي رِوايتُه غُلّتي(٦)، حَتَّى أدّتْني خاتِمَةُ المَطافِ، وهدَتْني فاتِحَةُ الألْطافِ، إلَى نادٍ رَحيبٍ، مُحتَوٍ عَلَى زِحامٍ ونَحيبٍ، فولَجْتُ غابَةَ الجمْعِ، لأسْبُرَ(٧) مَجْلَبَةَ الدّمْعِ، فرأيتُ فِي بُهْرَةِ الحَلْقَةِ، شخْصاً شخْتَ الخِلْقَةِ(٨)، علَيْهِ أُهْبَةُ السِّياحَةِ، وله رنّةُ النِّياحَةِ، وَهُوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بِجواهِرِ لفظِهِ، ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِهِ، وقدْ أحاطَتْ به أخلاطُ الزُّمَرِ، إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَرِ، والأكْمامِ بالثّمرِ، فدَلَفْتُ إليهِ لأقْتَبِسَ مِنْ فوائِدِه، وألْتَقِطَ بعضَ فرائِدِه، فسمِعْتُهُ يقولُ حينَ خبّ فِي مجالِه، وهدَرَتْ شَقاشِقُ ارتِجالِه(٩)،

---

(١) أي: ابتعدتُ عن وطني واغتربتُ.
(٢) المتربة: الحاجة والفقر الشديد.
(٣) الأتراب: الرجال والنساء في سن واحدة.
(٤) أي: أتأمّل الأماكن في ذهابي وعودّتي.
(٥) أي: أقدم كل ما أستطيع عليه.
(٦) غلّتي: عطشي الشّديد.
(٧) لأسْبُرَ: لأمتحن وأختبر.
(٨) شَخْتَ الخِلْقَة: نحيف وضعيف.
(٩) أي: ظهرت فصاحته وتتابعت بلاغته.

أيّها السّادرُ في غُلَوائه(١)، السّادلُ (٢) ثوبَ خُيَلائه، الجامحُ في جَهالاته، الجانحُ إلَى خُزَعْبَلاته (٣)، إلامَ تستَمرُّ عَلَى غَيِّكَ، وتَستَمْرِئُ (٤) مرْعَى بغْيِكَ؟ وحتّامَ تتناهَى في زهوِكَ، ولاَ تَنْتَهي عن لَهوِكَ؟ تُبارِزُ بمَعصيَتِكَ، مالكَ ناصيَتِكَ! وتجْتَرِئُ بقُبْحِ سيرَتِك، عَلَى عالِمِ سَريرَتِكَ! وتَتَوارَى عَن قَرِيبِكَ، وأنتَ بمَرأى رَقيبِكَ! وتَستَخْفِي من مَمْلوكِكَ وما تَخْفَى خافيَةٌ عَلَى مَليكِكَ! أتَظُنُّ أنْ ستَنْفَعُكَ حالُكَ، إذَا آنَ ارتحالُكَ؟ أو يُنقذُكَ مالُكَ، حينَ توبِقُكَ (٥) أعمالُكَ؟ أو يُغْني عنْكَ ندَمُكَ، إذَا زلّتْ قدَمُكَ؟ أو يعْطِفُ عليْكَ معشَرُكَ، يومَ يضُمّكَ مَحْشَرُكَ؟ هلاّ انتَهَجْتَ مَحَجّةَ اهتدائِكَ، وعجّلْتَ مُعالجَةَ دائِكَ، وفَلَلْتَ شَباةَ (٦) اعتدائِكَ، وقدَعْتَ نفْسَكَ فهِيَ أكبرُ أعدائِكَ؟ أما الحِمام ميعادُكَ، فما إعدادُكَ؟ وبالمَشيبِ إنذارُكَ، فما أعذارُكَ؟ وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ، فما قِيلُكَ؟ وإلى الله مَصيرُكَ، فمَن نصيرُكَ؟ طالما أيْقَظَكَ الدّهرُ فتَناعَسْتَ، وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْتَ!

وتجلّتْ لَكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ، وحَصْحَصَ لَكَ الحقُّ فتَمارَيْتَ، وأذْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيتَ، وأمكنَكَ أنْ تُؤاسِي فما آسيْتَ! تُؤثِرُ فِلساً توعيه، عَلَى ذِكْرٍ تَعيه، وتَختارُ قَصْراً تُعْليه، عَلَى بِرٍّ تُولِيه، وترْغَبُ عَنْ هادٍ تَستَهْديه، إلَى زادٍ تَستَهْديه، وتُغلِّبُ حُبّ ثوبٍ تشْتَهيه، عَلَى ثَوابٍ تشْتَريه، يَواقيتُ الصِّلاتِ، أعْلَقُ بقَلبِكَ منْ مَواقيتِ الصّلاةِ، ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ، آثَرُ(٧) عندَكَ من مُوالاةِ الصَّدَقاتِ، وصِحافُ الألْوانِ، أشْهى إلَيْكَ منْ صَحائفِ

---

(١) غلوائه: مجاوزته الحدّ.

(٢) السّادل: المرخي، والمقصود: المتكبّر.

(٣) خزعبلاته: أباطيله وخرافاته.

(٤) أي: تستحسن وتستطاب.

(٥) توبقك: تقضي عليك وتهلكك.

(٦) أي: أزلت أسباب كبرك وحدته.

(٧) آثر: أفضل وأحسن.

الأدْيانِ، ودُعابَةُ الأقْران، آنَسُ لَكَ منْ تلاوَةِ القُرْآن! تأمُرُ بالعُرْف وتَنتَهكُ حِماهُ، وتَحْمي عنِ النُّكْرِ(١) وَلاَ تَتحاماهُ! وتُزحزِحُ عنِ الظُلْمِ ثمَّ تغْشاهُ، وتخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخْشاهُ! ثُمَّ أنْشَدَ:

تبّاً لطالب دُنْيَا ... ثَنى إلَيها انصبابَهْ(٢)

ما يسْتَفيقُ غَراماً ... بها وفَرْطَ صَبابَهْ(٣)

ولوْ دَرى لَكَفَاهُ ... مما يَرومُ صُبابَهْ(٤)

ثمّ إنّهُ لبّدَ عَجاجَتَهُ(٥)، وغيّضَ مُجاجتَهُ(٦)، واعْتَضَدَ شكْوَتَهُ، وتأبّطَ هراوتَهُ(٧)، فَلَمَّا رنَت(٨) الجَماعَةُ إلَى تحفُّزِه، ورأتْ تأهُّبَهُ لمُزايَلَة مركَزِه، أدْخَلَ كلُّ منهُمْ يدَهُ في جيْبِهِ، فأفْعَمَ لَهُ سَجْلاً منْ سَيْبِه(٩)، وقَالَ: اصْرِفْ هَذَا في نفقَتِكَ، أو فرّقْهُ عَلَى رُفْقَتِكَ، فقبلَهُ منهُم مُغضِياً(١٠)، وانْثَنى عنْهُم مُثْنياً، وجعَلَ يودِّعُ مَنْ يُشيّعُهُ، ليَخْفَى علَيْه مَهْيَعُهُ(١١)، ويُسرّبُ منْ يتْبَعُهُ، لكَيْ يُجْهَلَ مرْبَعُهُ.

قَالَ الْحَارِثُ بن هَمَّام: فاتّبعْتُهُ مُوارِياً عنْهُ عِياني(١٢)، وقَفَوْتُ أثَرَهُ منْ حيثُ لا يَراني، حَتَّى انْتَهى إلَى مَغارَة، فانْسابَ فيها عَلَى غِرارَة(١٣)، فأمْهَلْتُه ريثَما خلَعَ نَعْلَيْهِ، وغسَلَ رِجلَيْهِ، ثُمَّ هجَمْتُ علَيهِ، فوجدْتُهُ

---

(١) النُّكْر: الشر وكل ما ينكره الشَّرع.
(٢) مال واتجه إليها.
(٣) أي شديد الحبّ لدنياه.
(٤) صبابة: الشيء اليسير.
(٥) العجاجة: الريح تحمل الغبار والدخان، والمرادُ: أنهى كلامه.
(٦) مُجاجة: الريق، والمراد: توقف عن الكلام وبلع ريقه.
(٧) هراوته: عصاه.
(٨) رنت: نظرت إليه طويلاً وأعجبت بكلامه.
(٩) المقصود: قدم كل منهم ما معه من مالٍ.
(١٠) مغضيا: حَيا.
(١١) مهيعه: طريقه.
(١٢) عِيَاني: شخصي.
(١٣) الغِرة: الغفلة.

مُثافناً (١) لتلْميذ، علَى خبْزِ سَميذ، وجَدْي حَنيذ، وقُبالَتَهُما خابيةُ نبيذ، فقلتُ لهُ: يَا هَذَا أيكونُ ذاكَ خبرَكَ، وهَذَا مُخْبَرَكَ؟ فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظ، وكادَ يتميّزُ مِنَ الغيْظ، ولَمْ يزَلْ يُحَمْلقُ إليّ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ يسطُوَ عليّ، فَلَمَّا أَنْ خبَتْ نارُهُ، وتَوارَى أُوارُهُ، أنْشَدَ:

لبِسْتُ الخَميصةَ(٢) أبغي الخَبيصَهْ(٣) وأنْشَبْتُ شصّيَ (٤) في كل شيصَهْ

وصَيّرتُ وعْظِيَ أُحبولَةً أُريغُ (٥) القَنيصَ بهَا والقَنيصَهْ

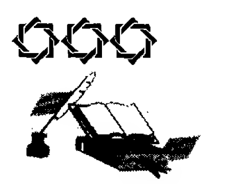
وألْجأني الدّهْرُ حَتَّى ولَجْتُ بلُطْف احتيالي عَلَى اللّيث عيصَهْ(٦)

علَى أنّني لم أهَبْ صرفَهُ وَلاَ نبَضَتْ لي منْهُ فَريصَهْ (٧)

وَلاَ شرَعَت بي علَى موردٍ يُدنّسُ عرضِيَ نفْسٌ حَريصَهْ

ولَو أنْصَفَ الدّهرُ في حُكمِهِ لَمَا مَلَّكَ الحُكْمَ أَهْلَ النَّقيصَهْ

ثمّ قَالَ لِيَ: ادْنُ فكُلْ، وإنْ شِئْتَ فقُم وقُلْ، فالتَفَتّ إلَى تلميذه وقُلْتُ: عزَمْتُ عليْكَ بمَن تستَدفِعُ بِهِ الأذى، لتُخْبرَنّي مَنْ ذَا، فَقَالَ: هَذَا أبو زيْدِ السَّروجيُّ، سِراجُ الغُرَباء، وتاجُ الأدَباء، فانصرَفْتُ من حيثُ أتيتُ، وقضَيْتُ العجَبَ مِمَّا رأيْتُ.



(١) مثافنا: مجاورًا ومُحَاذيا.

(٢) الخميصة: ثياب أسود تكون من صوف أو خز به أعلام.

(٣) الخبيصة: نوع من أنواع الحلوى.

(٤) حديدة تشبه الصنارة.

(٥) أريغ: أخدع وأحتال.

(٦) عيصة: بيته ومخدعه.

(٧) فريصة: المراد: لم أرتعدْ ولم أخفْ، وهي لحم عند الكتف ترعد عِنْدَ الخَوفِ.

المقامة الثانية
الحلْوانيَّة

حكَى الْحارِثُ بن هَمَّام قَالَ: كَلِفْتُ (١) مُذْ ميطَتْ (٢) عني التّمائمُ، ونِيطَتْ (٣) بيَ العَمائمُ، بأنْ أغْشى مَعانَ (٤) الأدَب، وأُنضيَ إليْه ركَاب الطّلَب، لأعْلَقَ منْهُ بمَا يكونُ لِي زينَةً بينَ الأنام، ومُزنَةً عندَ الأُوام(٥)، وكُنْتُ لفَرْط اللهَج باقْتباسه، والطّمَع في تقمّص لباسه، أُباحثُ كلّ مَنْ جَلّ وقَلّ، وأستَسْقي الْوَبْلَ وَالطَّلّ، وأَتَعَلَّلُ بعَسَى ولَعلَّ، فَلَمَّا حلَلْتُ حُلْوَانَ، وقدْ بلَوْتُ الإخْوانَ، وسبَرْتُ الأوْزانَ، وخبَرْتُ مَا شانَ وَزانَ، ألفَيْتُ بها أبا زيْد السَّروجيَّ يتقلّبُ في قَوالِب الانتسَاب، ويخبِطُ في أساليب الاكتساب، فَيَدَّعِي تَارَةً أنّهُ من آل سَاسَانَ (٦)، ويعْتَزي مرّةً إلَى أقْيال غسّانَ (٧)، ويبرُزُ طَوْراً في شِعَار الشُّعَراء، ويَلبَسُ حيناً كِبرَ الْكُبَراء، بيْدَ أنّهُ مَعَ تلوّن حالِه، وتبيّن مُحالِه، يتحلّى برُواء(٨) ورِوايَة، ومُدراة ودرايَة، وبَلاغَة رائعَة، وبَديهة مُطاوعَة، وآدَاب بارعَة، وقدَم لأعْلامِ العُلُومِ فَارعة (٩)، فكانَ لمحَاسنِ آلاته، يُلْبَسُ عَلَى علاّته(١٠)، ولسَعَة روايَته، يُصْبى إلَى رؤيَته، ولخلابَة عارِضَته، يُرْغَبُ عنْ مُعارضَته، ولعُذوبَة إيراده، يُسْعَفُ بمُراده، فتعلّقتُ بأهْدابه، لخَصائصِ آدابِه، ونافَسْتُ في مُصافاته، لنَفائسِ صِفاته.

---

(١) كلف: بكسر الكاف: عشق.
(٢) ميطت: من أماط؛ أي: أبعد وأزال.
(٣) نيطت: أحاطت وعلقت.
(٤) معان: منازل.
(٥) اسم امرأة، هي أُمّ الأوس والخزرج.
(٦) آل ساسان: هم ملوك الفرس.
(٧) أقيال غسَّان: هم ملوك الشَّام.
(٨) رواء: زينة.
(٩) فارعة: مطاولة وصاعدة.
(١٠) علاته: عيوبه.

فكُنتُ به أجْلو هُمومي وأجْتَلي ... زمانيَ طلقَ الوجْه مُلتَمعَ الضّيا
أرَى قُربَهُ قُربى ومَغناهُ غُنْيَةً ... ورؤيَتَهُ رِيّاً ومَحْياهُ لِي حَيا

ولَبِثْنا عَلَى ذلكَ بُرْهَةً، يُنْشِئ لِي كلَّ يومٍ نُزهَةً، ويدْرأُ عن قلبي شُبهَةً، إلَى أنْ جدَحَتْ لَهُ يَدُ الإمْلاق(١)، كأس الفِراقِ، وأغْراهُ عدَمُ العُراقِ، بتَطْليقِ العِراق، ولفَظَتْهُ مَعاوزُ الإرْفاقِ، إلَى مَفاوزِ الآفاقِ، ونظَمَهُ فِي سلْكِ الرّفاقِ، خُفُوقُ رايةِ الإخْفاقِ، فشحَذَ للرّحْلَةِ غِرارَ عزْمَتِهِ، وظَعَنَ يقْتادُ القلْبَ بأزِمّته.

فما راقَني مَنْ لاقَني بعْدَ بُعْده ... ولاَ شاقَني مَنْ ساقَني لِوِصالِه
ولاَ لاحَ لِي مُذْ ندّ(٢) ندٌّ لِفَضْلِه ... ولاَ ذو خِلالٍ حازَ مِثلَ خِلالِه

واستَسَرّ عني حيناً، لا أعرِفُ لَهُ عَريناً، ولاَ أجدُ عنْهُ مُبيناً، فَلَمَّا أُبْتُ منْ غُربَتي، إلَى منْبتِ شُعْبَتي، حضَرْتُ دارَ كُتُبِها الَّتي هيَ مُنتَدى المتأدّبينَ، ومُلْتَقَى القاطِنينَ منهُمْ والمُتغرّبِينَ، فدخَلَ ذو لِحْيَةٍ كثّة(٣)، وهيئَةٍ رثّة، فسلّمَ عَلَى الجُلاّسِ، وجلَسَ في أُخرَياتِ النّاسِ، ثُمَّ أخَذَ يُبْدي مَا فِي وِطابه(٤)، ويُعْجِبُ الحاضِرينَ بفصْلِ خِطابِهِ، فَقَالَ لِمَنْ يَلِيه: مَا الكتابُ الَّذي تنظُرُ فيه؟ فَقَالَ: ديوانُ أبي عُبادةَ، المشْهودِ لَهُ بالإجادَة، فَقَالَ: هلْ عثَرْتَ لَهُ فيما لمحْتَهُ، عَلَى بَديعٍ استَملَحْتَهُ(٥)؟ قَالَ: نعمْ قولُه:

كأنّما تبْسِمُ عن لُؤلُؤٍ ... منضّدٍ(٦) أو برَدٍ(٧) أو أقاحْ(٨)

---

(١) أي: مزج الفقر عليه عيشته الهنية.
(٢) نَدَّ: بالفتح؛ أي: هرب.
(٣) كثة: كثيفة.
(٤) المراد: يظهر أفضل ما لديه من بلاغة.
(٥) استملحته: استحسنته.
(٦) لؤلؤ منضد: أي: منظوم في سلك.
(٧) برد: البرد: الثلج الأبيض شبَّهَ الأسنان في شدَّة بيضاها بالثلج.
(٨) أقاح: جمع أقحوان، وهو: نبات طيب الريح.

فإنّهُ أبدَعَ فِي التّشبيه، المُودَعِ فيه، فَقَالَ لهُ: يَا لَلعجَبِ، ولضَيْعَةِ الأدب! لقد استَسْمَنْتَ يَا هَـذَا ذا ورَمٍ، ونَفَخْتَ فِي غيرِ ضرَمٍ[1]! أينَ أنتَ منَ البيْتِ النّدْرِ، الجامعِ مُشبّهات الثّغْرِ؟ وأنْشَدَ:

نفْسي الفداءُ لثَغْرِ راقَ مبسمُهُ   وزانَهُ شنَبٌ ناهيكَ من شنَبِ
يفترُّ[2] عن لُؤلُؤٍ رطْبٍ وعن برَدٍ   وعن أقاحٍ وعن طلْعٍ وعن حبَبِ

فاستَجادَهُ مَنْ حضرَ واستَحْلاهُ، واستَعادَهُ منْهُ واستَمْلاهُ، وسُئِلَ: لمنْ هَـذَا البيتُ، وهلْ حيٌّ قائلُهُ أو ميتٌ؟ فَقَالَ: ايْمُ الله لَلحقُّ أحقُّ أنْ يُتّبَعَ، ولَلصّدْقُ حَقيقٌ بأنْ يُستَمعَ! إنّهُ يَا قَوْمُ، لنَجيّكُمْ مُذُ اليوْمَ، قَالَ: فكأنّ الجَماعَةَ ارْتابَتْ[3] بعزْوَته، وأبَتْ تَصْديقَ دعْوَته، فتوجّسَ مَا هجَسَ فِي أفْكارِهمْ، وفطِنَ لِما بَطَنَ منِ استنْكارِهمْ، وحاذَرَ أنْ يفْرُطَ إليْه ذمٌّ، أو يَلْحَقَهُ وصْمٌ، فقرأ: ﴿إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ثُمَّ قَالَ: يَا رُواةَ القَريضِ، وأُساةَ القوْلِ المَريضِ[4]، إنّ خُلاصَةَ الجوهَرِ تظهَرُ بالسّبْكِ، ويدَ الحقّ تصْدَعُ رِداءَ الشّكّ، وقدْ قيلَ فيما غبَرَ منَ الزّمانِ: عندَ الامتِحانِ، يُكرَمُ الرّجُلُ أو يُهانُ، وهَا أنَا قَدْ عرَضْتُ خبيئَتي للاخْتبارِ، وعرَضْتُ حَقيبَتي عَلَى الاعْتبارِ، فابْتَدَرَ أحدُ مَنْ حضَرَ، وقَالَ: أعرِفُ بيْتاً لَمْ يُنسَجْ عَلَى منْواله، وَلاَ سمَحَتْ قَريحةٌ بِمثاله، فإنْ آثَرْتَ اختِلابَ القُلوبِ، فانْظِمْ عَلَى هَـذَا الأسْلوبِ، وأنْشَدَ:

فأمطَرَتْ لؤلؤاً منْ نرْجسٍ وسقَتْ   ورْداً وعضّتْ عَلَى العُنّابِ بالبَرَدِ

---

(١) يقصد بأنَّهُ لم يأتِ بشيءٍ جيد، وإنَّمَا أساء البحث.

(٢) يفتر: يتبسم.   (٣) ارتابت: شكت.

(٤) أراد: يا من تروا وتتناقلوا الأشعار، ويا من على علم بمعرفة الصحيح من السقيم من الأقوال.

فلم يكُنْ إلا كلَمْحِ البَصَرِ أو هُوَ أقرَبُ، حتَّى أنْشَدَ فأغْرَب:

سألتُها حينَ زارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِها الـ ـقاني وإيداعَ سمْعي أطيَبَ الخبَرِ
فزَحزَحَتْ شفَقاً غشّى سَنا قمَرٍ وساقَطَتْ لُؤلؤاً من خاتَمٍ عطِرِ

فحارَ الحاضِرونَ لبَداهتَه، واعتَرَفوا بنَزاهَته، فلَمَّا آنَسَ استِئْناسَهُمْ بكَلامه، وانصِبابَهُمْ إلَى شُعَبِ إكْرامِهِ، أطْرَقَ كطَرْفَةِ العَينِ، ثُمَّ قالَ: ودونَكُمْ بيتَينِ آخرَينِ، وأنشدَ:

وأقبلَتْ يومَ جدّ البينُ في حُلَلٍ سودٍ تعَضُّ بَنانَ النّادمِ الحَصِرِ
فلاحَ ليْلٌ علَى صُبْحٍ أقلّهُما غُصْنٌ وضرّسَتِ البِلّورَ بالدُّرَرِ

فحينَئذٍ استَسْنى(١) القوْمُ قيمَتَهُ، واستَغْزَروا ديمَتَهُ، وأجْمَلوا عِشْرَتَهُ، وجمّلوا قِشرَتَهُ، قالَ المُخْبِرُ بهَذه الحكايَة: فلَمَّا رأيتُ تلهُّبَ جذْوَته، وتألُّقَ جلْوَته(٢)، أمعَنْتُ النّظَرَ في توسُّمه، وسرّحْتُ الطّرْفَ في مَيْسِمِه، فإذَا هوَ شيخُنا السَّروجيّ، وقدْ أقمَرَ ليلُهُ الدّجُوجيُّ(٣)، فهنّأتُ نفسي بمَوردِه، وابتَدَرْتُ استِلام يدِه، وقلتُ لهُ: مَا الَّذي أحالَ صفَتَكَ، حتَّى جهِلْتُ معرِفَتَكَ؟ وأيّ شيء شيّبَ لحيَتَكَ، حتَّى أنْكَرْتُ حِليَتَكَ؟ فأنشأ يَقُولُ:

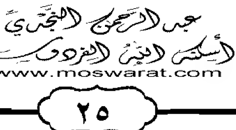
وقْعُ الشّوائبِ شيّبْ والدّهرُ بالناسِ قُلّبْ(٤)
إنْ دانَ يوماً لشَخْصٍ ففي غدٍ يتغلّبْ
فلا تثقْ بومَيضٍ منْ برْقِه فهُوَ خُلّبْ
واصْبِرْ إذَا هوَ أضْرى(٥) بكَ الخُطوبَ وألّبْ

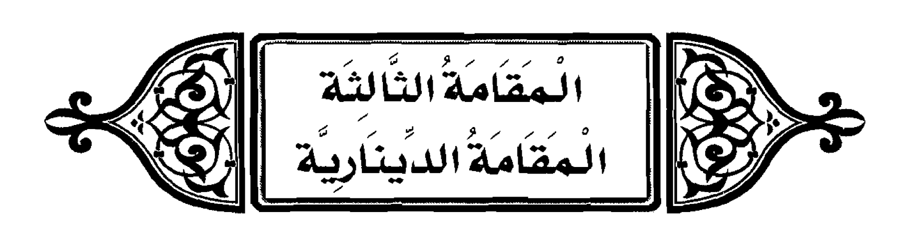
(١) استسنى القوم: أي أعلوا منزلته وقدَّروه قدره.
(٢) جلوته: التألق واللمعان.
(٣) كناية عن شيبه.
(٤) قلب: كثير التحوّل وتقليب الناس.
(٥) أضرى: أغرَى.

فَمَا عَلَى التِّبْرِ عَارٌ ... فِي النَّارِ حِينَ يُقَلَّبْ

ثمّ نهضَ مُفارِقاً موضِعَهُ، ومُستَصْحِباً القُلوبَ معَهُ.







الْمَقَامَةُ الثَّالِثَة
الْمَقَامَةُ الدِّينَارِيَّة

رَوَى الحَارِث بن هَمَّام قَالَ: نظَمَني (١) وأخْداناً (٢) لِي نادٍ، لَمْ يخِبْ فيه مُنادٍ(٣)، ولاَ كَبَا (٤) قدْحُ زِنادٍ، ولاَ ذكَتْ نارُ عِنادٍ، فبيْنَما نحنُ نَتجَاذَبُ أطْرافَ الأناشيدِ، ونَتواردُ طُرَفَ الأسانيدِ(٥)، إذْ وقَفَ بنا شخْصٌ علَيْه سمَلٌ(٦)، وفِي مِشيَتِه قزَلٌ (٧)، فقَالَ: يَا أخايرَ الذّخائرِ، وبشائرَ العَشائرِ(٨)، عِموا صَباحاً، وأنْعِموا اصطِباحاً، وانظُروا إلَى مَنْ كَانَ ذا نَديّ (٩) ونَدًى، وجِدَةٍ وجَداً (١٠)، وعَقارٍ (١١) وقُرًى (١٢)، ومَقارٍ وقِرًى (١٣)، فما زالَ به قُطوبُ الخُطوبِ، وحُروبِ (١٤) الكُروبِ (١٥)، وشَرَرُ شرِّ الحَسودِ، وانْتِيابِ (١٦) النّوَبِ (١٧) السّودِ، حتّى صفِرَت (١٨) الرّاحَةُ، وقرِعَت (١٩) الساحَةُ، وغارَ (٢٠) المنْبَعُ، ونَبا المَرْبَعُ، وأقْوى المجْمَعُ (٢١)، وأقَضّ المضْجَعُ (٢٢)،

---

(١) جمعني. (٢) أصحابا. (٣) متكلم.
(٤) شحّ ولم يُبْدِ نَارًا. (٥) الأخبار المسندة لأهلها.
(٦) ثوب خلق وأكثر ما تقول العرب: ثوب أسْمال وأخلاق فيوصف بالجمع؛ لأنَّهُ قطع متفرقة، وسمل: قليل.
(٧) عرج. (٨) مجلس اجتماع. (٩) جود وكرم.
(١٠) بالفتح عطية. (١١) المال الذي لا ينتقل كالنخل والدور.
(١٢) جمع قرية. (١٣) طعام الضيف. (١٤) القتال.
(١٥) الهموم. (١٦) نزول وقصود. (١٧) النّوازل.
(١٨) خلت من الدراهم. (١٩) خلت من المال وصارت قرعاء.
(٢٠) جَفَّ الماءُ النَّابِع. (٢١) موضع الاجتماع. (٢٢) موضوع رقاده.

واستَحالَت[١] الحالُ، وأعْوَلَ[٢] العِيالُ، وخلَتِ المَرابِطُ، ورَحِمَ الغابِطُ[٣]، وأودى النّاطِقُ والصّامتُ، ورَثى لَنا الحاسدُ والشّامتُ، وآلَ بِنا الدّهرُ[٤] الموقِعُ، والفَقْرُ المُدْقِعُ[٥]، إلَى أنِ احتَذَيْنا الوَجى[٦]، واغْتذَينا الشّجا، واستَبْطَنّا[٧] الجَوى[٨]، وطَوَيْنا الأحْشاءَ عَلَى الطّوى[٩]، واكْتَحَلْنا السُّهادَ[١٠]، واستَوطَنّا[١١] الوِهادَ[١٢]، واستوطأنا القتاد، وتناسينا الأقتاد[١٣]، واستطبنا الحين المجتاح واستَبْطأنا اليومَ المُتاحَ[١٤]، فهل من حُرٍّ آسٍ[١٥]، أو سمْحٍ[١٦] مُؤاسٍ[١٧]؟ فوَالّذي استَخْرَجَني من قَيلَه، لقَد أمْسَيتُ أخا عَيْلَه، لا أمْلِكُ بيْتَ ليْلَه.

قَالَ الْحَارِث بن هَمَّام: فأوَيْتُ[١٨] لمَفاقِره، ولَوَيْتُ[١٩] إلَى استِنْباطِ[٢٠] فِقَرِه[٢١]، فأبْرَزتُ ديناراً، وقُلتُ لَهُ اختباراً: إنْ مدَحْتَهُ نَظْماً، فهوَ لَكَ حتْماً، فانبَرى يُنشِدُ في الحالِ، من غيرِ انتحال[٢٢]:

أكْرِمْ به أصفَرَ راقَتْ[٢٣] صُفْرَتُهْ — جوّابَ[٢٤] آفاقٍ ترامَتْ سَفرَتُهْ[٢٥]
مأثورةٌ[٢٦] سُمعَتُهُ وشُهرَتُهْ — قد أُودِعَتْ[٢٧] سِرَّ الغِنى أسرَّتُهْ

---

(١)تغيَّرت.
(٢)بكى.
(٣)الّذي يتمنَّى أن يكون له ما لمغبوطه.
(٤)رجع بنا.
(٥)الملصق بالدقعاء؛ أي: التراب.
(٦)توجع باطن القدمين من الحفا.
(٧)جعلناه في بطوننا.
(٨)فساد الجوف.
(٩)الجوع.
(١٠)امتناع النوم.
(١١)سكنا واتخذناه وطنا.
(١٢)ما انخفض من الأرض.
(١٣)خشب الرِّحال.
(١٤)المقدر.
(١٥)طبيب يطب علَّة الفقر.
(١٦)كريم.
(١٧)المعين.
(١٨)أشفقت وحننت.
(١٩)انعطفت.
(٢٠)استخراج.
(٢١)فواصله.
(٢٢)ادعاء منه في شعر غير.
(٢٣)أعجبت.
(٢٤)قطَّاع بلاد.
(٢٥)بعدت سفرته.
(٢٦)محدث بها.
(٢٧)ضمنِّت.

وقارَنَتْ (١) نُجحَ (٢) المَساعي (٣) خطرتُه ... وحُـبِّبَـتْ إلَـى الأنـام غُـرَّتُـهْ (٤)
كـأنّـمـا مـنَ القُـلـوب نُقْـرَتُـهْ (٥) ... بـه يصـولُ مَـنْ حـوَتْهُ صُـرَّتُـهْ (٦)
وإنْ تَفانَـتْ أو توانَتْ (٧) عِتْرَتُهْ (٨) ... يـا حبّـذا نُضـارُهُ (٩) ونَـضْـرَتُـهْ
وحبّـذا مَـغْـنـاتُـهُ ونُـصْـرَتُـهْ ... كمْ آمرٍ به استَتَبّتْ (١٠) إمْرَتُهْ (١١)
ومُتْرَفٍ لـوْلاهُ دمَتْ حسْـرَتُهْ (١٢) ... وجيْشٍ هـمٍّ هزمَـتْـهُ كـرَّتُـهْ (١٣)
وبدرِ (١٤) تـمٍّ أنـزَلَـتْـهُ بـدْرَتُـهْ (١٥) ... ومُستَشيطٍ (١٦) تتلظّى جمْرَتُهْ (١٧)
أسَرّ (١٨) نجْواهُ (١٩) فلانَتْ شِرّتُهْ (٢٠) ... وكمْ أسيرٍ أسْلَمَتْهُ (٢١) أُسرَتُهْ (٢٢)
أنقَـذَهُ حَـتّـى صـفَتْ مسـرّتُـهْ (٢٣) ... وحقِّ مولًى (٢٤) أبدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ (٢٥)

لوْلا التُقَى (٢٦) لقُلتُ جلّتْ (٢٧) قُدرتُهْ

ثم بسَط يدَهُ، بعدَمـا أنْشدَهُ، وقَالَ: أنْجزَ (٢٨) حُرٌّ مَا وعَدَ، وسَحّ (٢٩)

---

(١) ساءت.
(٢) ضد الخيبة.
(٣) المشي في طلب الحوائج.
(٤) وجهه.
(٥) القطعة المسبوكة من الذهب والفضة.
(٦) الخرقة تصرّ فيها الدراهم.
(٧) أبطأت وضعفت عن نصرته.
(٨) قرابته الأدنون.
(٩) ذهبه.
(١٠) تمّت واستقامت.
(١١) ولايته.
(١٢) تفجعه وحزنه.
(١٣) رجعته.
(١٤) القمر ليلة الكمال.
(١٥) عشرة آلاف دينار.
(١٦) غضبان.
(١٧) شدة غيظه.
(١٨) أخفى.
(١٩) حديثه سرّا.
(٢٠) حدته وغضبه.
(٢١) تركته.
(٢٢) قومه.
(٢٣) فرحه.
(٢٤) أوجدته قبل أن يكون.
(٢٥) خلقته.
(٢٦) الخوف.
(٢٧) عظمت.
(٢٨) أحضر وهيأ.
(٢٩) صب وأمطر.

خالٌ[١] إذ رَعَدَ[٢]، فنبَذْتُ[٣] الدّينارَ إليه، وقُلْتُ: خُذْهُ غيرَ مأسوفٍ علَيْه، فوضَعهُ في فيه، وقَالَ: بارِك[٤] اللّهُمَّ فيه! ثُمَّ شمّرَ للانْثناء[٥]، بعْدَ توفِيَةِ الثّناء، فنشأتْ لِي مِنْ فُكاهَتِه نشوَةُ[٦] غرامٍ، سهّلَتْ علَيَّ ائْتنافَ[٧] اغْتِرامٍ، فجرّدْتُ ديناراً آخَرَ وقلتُ لهُ: هلْ لَكَ في أنْ تذُمّهُ، ثم تضُمّهُ؟ فأنشدَ مُرتَجِلاً، وشَدَا[٨] عجِلاً:

تبّاً لَهُ من خادِعٍ مُماذِقِ[٩] ... أصْفَرَ ذي وجْهَيْنِ كالمُنافِقِ
يَبدو بوَصْفَيْنِ لعَيْنِ الرّامِقِ[١٠] ... زينَةِ[١١] معْشوقٍ ولوْنِ عاشِقِ
وحُبّهُ عندَ ذَوي الحَقائِقِ[١٢] ... يدْعو إلَى ارتكابِ سُخْطِ الخالِقِ
لوْلاهُ لَمْ تُقْطَعْ يَمينُ سارِقِ ... وَلاَ بدَتْ مظْلَمَةٌ منْ فاسِقِ[١٣]
وَلاَ اشْمأزّ باخِلٌ[١٤] منْ طارِقِ[١٥] ... وَلاَ شكا المَطولُ مطلَ[١٦] العائِقِ[١٧]
وَلاَ استُعيذَ[١٨] منْ حَسودٍ راشِقِ[١٩] ... وشرُّ مَا فيهِ منَ الخَلائِقِ
أنْ ليسَ يُغْني عنْكَ في المَضايِقِ ... إلاّ إذَا فرَّ فِرارَ الآبِقِ[٢٠]
واهاً لِمَنْ يقْذِفُهُ منْ حالِقِ[٢١] ... ومَنْ إذَا ناجاهُ[٢٢] نجْوى الوامِقِ[٢٣]

---

(١) سحاب يخيل لك أن المطر فيه.
(٢) صوت.
(٣) رميت.
(٤) أي: ضع البركة فيه.
(٥) الرجوع.
(٦) سكْرةُ شوقٍ.
(٧) استقبال.
(٨) ابتدأ الغناء وطرب بنشيده.
(٩) لا يصفو وده لصاحبه.
(١٠) الناظر.
(١١) نقشه وتزيينه.
(١٢) هم أهل العرفان.
(١٣) خارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية.
(١٤) شحيح.
(١٥) قاصد بليل.
(١٦) تأخير الحق الواجب.
(١٧) الحابس.
(١٨) قرئ عليه المعوّذتان.
(١٩) عائن وأصله الرامي.
(٢٠) الهارب.
(٢١) جبل أملس منيف.
(٢٢) حدّثه سرّاً.
(٢٣) المحب.

قال لَهُ قولَ المُحقّ [1] الصّادقِ ... لا رأيَ في وصلِكَ لي ففارِقِ

فَقُلْتُ لَهُ: مَا أغزَرَ وبْلَكَ! فَقَالَ: والشّرْطُ [2] أمْلَكُ، فنفَحتُهُ بالدّينارِ الثّاني، وقلتُ لهُ: عوِّذهُما [3] بالمَثاني [4]، فألْقاهُ في فمِهِ، وقرَنَهُ بتوأمِهِ [5]، وانْكفأ يحمَدُ مغْداهُ، ويمْدَحُ النّاديَ ونَداهُ.

قالَ الحارِث بن هَمَّام: فناجاني قلبي بأنّهُ أبو زيدٍ، وأنّ تعارُجَهُ لكَيدٍ، فاستَعَدْتُهُ [6] وقلتُ له: قد عُرِفْتَ بوشْيِكَ [7]، فاستَقِمْ [8] في مشيِكَ، فَقَالَ: إنْ كُنتَ ابنَ هَمّامٍ، فحُيّيتَ [9] بإكْرامٍ، وحَييتَ [10] بينَ كِرامٍ! فقُلْتُ: أنا الحارثُ، فكيفَ حالُك والحوادِثُ [11]؟ فَقَالَ: أتقلّبُ في الحالَينِ بُؤسٍ [12] ورَخاءٍ [13]، وأنقَلِبُ مَعَ الرّيحَينِ زعزَعٍ [14] ورُخاءٍ [15]، فقُلْتُ: كيفَ ادّعَيْتَ القَزَلَ [16]؟ وما مثلُكَ مَن هزَلَ [17]، فاستَسَرّ [18] بِشْرُهُ الّذي كَانَ تجلّى، ثُمَّ أنشَدَ حينَ ولّى:

تعارَجْتُ لا رَغبَةً في العرَجْ ... ولكِنْ لأقْرَعَ [19] بابَ الفرَجْ [20]

---

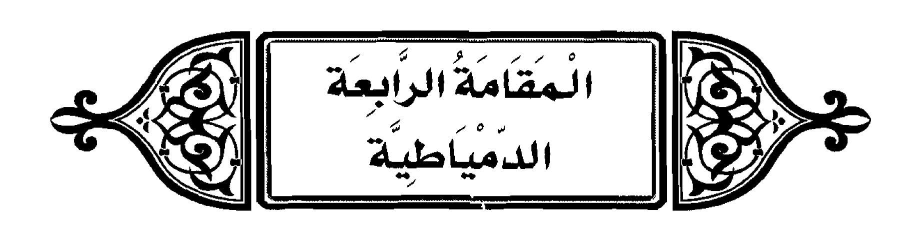
(١)القائل الحق.
(٢)ألزم وأحق.
(٣)رقاهما.
(٤)أم القرآن.
(٥)أي بأخيه، يعني: الدينار الأول.
(٦)طلبت عودته ورجوعه.
(٧)بحسن كلامك وتزيينه.
(٨)استعدل وأزل عوجك.
(٩)طال بقاؤك.
(١٠)عشت.
(١١)ما يحدث من الخير والشرّ.
(١٢)شدة العيش.
(١٣)لينه وسعته.
(١٤)ريح شديدة تحرك الشجر وتقلعه.
(١٥)ريح ليّنة سريعة.
(١٦)أسوأ العرج.
(١٧)الهزل ضد الجدّ.
(١٨)زال عنه سماحة وطلاقة وجهه.
(١٩)أضرب.
(٢٠)كشف الهمّ.

وأُلْـقيَ حــبْـلي عَـلَـى غـارِبـي[١] وأسلُكَ[٢] مسْلَكَ مَـن قد مرَجْ[٣]
فـإنْ لامَـني الـقـومُ قلـتُ اعـذِروا فلـيسَ عَـلَى أعْـرَجٍ مـن حـرَجْ[٤]

۞۞۞



(١)ما انحدر من السَّنام.
(٢)أي: أدخل مدخل.
(٣)خلط الجدّ بالهزل.
(٤)إثم.



المَقَامَةُ الرَّابِعَة الدِّمْيَاطِيَّة

أخبَرَ الْحَارِث بن هَمَّام قَالَ: ظَعَنْتُ [١] إلَى دُمْياطَ، عامَ هِياط[٢] ومِياط[٣]، وأنَا يومئذ مرْموقُ [٤] الرَّخاء[٥]، مَوموقُ [٦] الإخاء، أسْحَبُ مَطارِفَ[٧] الثّراء، وأجْتَلي[٨] معارِفَ السّرّاء، فرافَقْتُ[٩] صَحْباً قد شَقّوا عَصا الشِّقاقِ[١٠]، وارْتَضَعوا أفاويقَ الوِفاقِ[١١]، حتَّى لاحُوا [١٢] كأسْنانِ المُشْطِ[١٣] في الاستِواء، وكالنّفْسِ الواحِدَةِ في التِئامِ[١٤] الأهْواء[١٥]، وكُنّا مَعَ ذلك نسيرُ النّجاء[١٦]، ولاَ نرحَلُ إلا كُلّ هَوْجاء، وإذا نزَلْنا منزِلاً، أو وَرَدْنا مَنْهَلاً [١٧]، اختَلَسْنا[١٨] اللُّبْثَ، ولَمْ نُطِلِ المُكْثَ [١٩]، فعنّ لَنا إعْمالُ الرِّكابِ، في ليلةٍ فَتيّةِ الشّبابِ، غُدافيّةِ[٢٠] الإهابِ، فأسرَيْنا[٢١] إلَى أنْ نَضا

---

(١) رحلت.
(٢) صياح.
(٣) دفاع.
(٤) منظور إليه.
(٥) سعة المال.
(٦) محبوب.
(٧) ثياب لها أعلام في أطرافها.
(٨) أنظر.
(٩) صحبت في السفر.
(١٠) الخلاف.
(١١) ترك الخلاف.
(١٢) ظهروا.
(١٣) يقع على كل استواء في أي حال.
(١٤) اجتماع واتفاق.
(١٥) جمع هوى، وهو: ما تحبّه وتميل إليه النفس.
(١٦) السير السريع.
(١٧) أتينا ماء ننزل عليه.
(١٨) استرقنا.
(١٩) لا يستقرون بموضع ينزلون فيه إلا قليلاً.
(٢٠) مظلمة.
(٢١) سرنا ليلاً.

اللّيلُ شَبابَهُ، وسلَتَ(١) الصّبحُ خضابَهُ، فحينَ ملِلْنا السُّرَى(٢)، وملْنا إلَى الكَرى(٣)، صادَفْنا أرْضاً مُخضَلّةَ الرُّبا، مُعتلّةَ(٤) الصَّبا، فتخيّرْناها مُناخاً للعِيسِ(٥)، ومَحطّا للتّعريسِ(٦)، فَلَمَّا حلّها الخَليطُ(٧)، وهَدا(٨) بها الأطيطُ(٩) والغَطيطُ(١٠)، سمعْتُ صيّتاً(١١) منَ الرّجالِ، يقولُ لسَميرِه(١٢) في الرّحالِ: كيفَ حُكْمُ سيرَتِكَ(١٣)، مَعَ جيلِكَ(١٤) وجيرَتِكَ(١٥)؟ فَقَالَ: أرْعَى(١٦) الجارَ، ولَوْ جارَ(١٧)، وأبذُلُ(١٨) الوِصالَ، لِمَنْ صالَ(١٩)، وأحْتَمِلُ الخَليطَ(٢٠)، ولَوْ أبْدى التّخليطَ، وأَوَدُّ الحَميمَ(٢١)، ولو جرّعَني الحَميمَ(٢٢)، وأفضّلُ الشّفيقَ(٢٣)، عَلَى الشّقيقِ(٢٤)، وأفي للعَشيرِ(٢٥)، وإنْ لَمْ يُكافِئْ بالعَشيرِ(٢٦)، وأستَقِلّ(٢٧) الجَزيلَ، للنّزيلِ، وأغمُرُ(٢٨) الزّميلَ، بالجَميلِ، وأُنزّلُ سَميري منزِلَةَ أميري(٢٩)، وأُحِلّ أنيسي(٣٠)،

---

(١) أزال.

(٢) السير بالليل.

(٣) النوم.

(٤) لينة الريح.

(٥) الإبل يخالط بياضها حمرة.

(٦) النزول بالليل في آخره.

(٧) الأصحاب.

(٨) سكن.

(٩) أصوات الإبل.

(١٠) أصوات الناس النيّام.

(١١) جهير الصوت.

(١٢) رفيقه الذي يسمر معه بالحديث.

(١٣) عادتك.

(١٤) أهل عصر له.

(١٥) جيرانك.

(١٦) أحفظ.

(١٧) تعدّى ومالَ عن الحقّ.

(١٨) أعطى.

(١٩) صاح مخوفًا.

(٢٠) الصاحب.

(٢١) الصديق المخلص.

(٢٢) الماء الحارّ.

(٢٣) المحبّ.

(٢٤) الأخ من الأب.

(٢٥) أُعامل الصاحب بالوفاء.

(٢٦) يجازي بالعشر من فعل.

(٢٧) أراد قليلاً.

(٢٨) أعطى.

(٢٩) الحاكم عليَّ.

(٣٠) الذي يؤنس بحديثه.

محلّ رئيسي، وأودِعُ مَعارِفي عَوارِفي(١)، وأُولي مُرافِقي مَرافقي، وأُلينُ مَقالي للقالي(٢)، وأُديم(٣) تَسْآلي، عنِ السّالي(٤)، وأرْضى منَ الوَفاء باللَّفاء(٥)، وأقْنَعُ(٦) منَ الجَزاء(٧) بأقلّ الأجزاء، ولاَ أتظلّمُ(٨)، حينَ أُظلَمُ، ولاَ أنْقَمُ(٩)، ولو لدَغَني الأرقَمُ(١٠)، فَقَالَ لَهُ صاحبُه: ويْكَ يَا بُنيّ إنّما يُضَنّ(١١) بالضّنينِ، ويُنافَسُ فِي الثّمينِ، لكنْ أنا لا آتي غيرَ المُؤاتي(١٢)، ولاَ أسِمُ العاتي(١٣)، بمُراعاتي(١٤)، ولاَ أُصافي(١٥)، مَنْ يأبى إنْصافي(١٦)، ولاَ أُواخي، مَنْ يُلْغي الأَوَاخِي(١٧)، ولاَ أُمالي(١٨)، مَنْ يُخيّبُ آمالي، ولاَ أُبالي بمَنْ صرَمَ(١٩) حِبالي، ولاَ أُداري، مَنْ جهِلَ مِقداري، ولاَ أُعطي زِمامي(٢٠)، مَنْ يُخْفِرُ ذِمامي(٢١)، ولاَ أبْذُلُ وِدادي(٢٢)، لأضْدادي(٢٣)، ولاَ أدَعُ إيعادي للمُعادي، ولاَ أغرِسُ الأيادي(٢٤) فِي أرضِ الأعادي، ولاَ أسمَحُ بمُواساتي، لمَنْ يفْرَحُ

---

(١) هباتي.

(٢) المبغض.

(٣) كثرة سؤالي.

(٤) النّاسِي للمودة والتارك لها.

(٥) النُّقْصَان.

(٦) أرضى.

(٧) المكافأة.

(٨) أشتكي من الظُّلْمِ.

(٩) أنتقم.

(١٠) الثعبان المنقَّط.

(١١) يبْخَل.

(١٢) المساعد الموافق.

(١٣) المتكبّر الصَّعْب.

(١٤) المحافظة للودِّ.

(١٥) أخلص له ودِّي.

(١٦) إعطائي الحق من نفسه.

(١٧) أسباب الودّ.

(١٨) أعاون.

(١٩) قطع أسباب وصالي.

(٢٠) حبل من جلود يربط في أنف البعير.

(٢١) ينقض عهدي.

(٢٢) حبِّي.

(٢٣) أعدائي المناقضين لأفعالي.

(٢٤) النِّعم.

بمُساءاتي[١]، ولاَ أرى التفاتي[٢]، إلَى مَن يشْمَتُ بوَفاتي[٣]، ولاَ أخُصّ بحِبائي[٤]، إلا أحبّائي، ولاَ أستَطِبّ[٥] لدائي، غيرَ أوِدّائي، ولاَ أملِّكُ خُلّتي[٦] مَنْ لا يسُدّ خَلّتي، ولاَ أصَفّي نيّتي لمَنْ يتمنّى منيّتي، ولاَ أُخلِصُ دُعائي لمَنْ لا يُفعِمُ وِعائي، ولاَ أُفرِغُ ثَنائي[٧] علَى مَنْ يفْرِغُ إنائي، ومن حكمَ بأنْ أبذُلَ وتخْزُنَ[٨]، وأَلينَ وتخْشُنَ، وأذوبَ وتجْمُدَ، وأذْكو[٩] وتخْمُدَ؟ لا واللهِ بلْ نتَوازَنُ في المَقال، وزْنَ المِثْقال[١٠]، ونَتحاذَى[١١] في الفِعال حذْوَ النّعال، حَتَّى نأْمَنَ التّغابُنَ[١٢]، ونُكْفَى[١٣] التّضاغُنَ[١٤]، وإلا فلِمَ أعُلّكَ[١٥] وتُعلّني[١٦]، وأُقِلّكَ وتستَقِلّني[١٧]، وأجتَرِحُ[١٨] لَكَ وتجرَحُني، وأسْرَحُ إليْكَ وتُسرّحُني[١٩]؟ وكيف يُجْتَلَبُ إنْصافٌ بضَيْمٍ[٢٠]، وأنّى[٢١] تُشرِقُ شمْسٌ معَ غيْمٍ[٢٢]؟ ومتى أُصْحِبَ وُدٌّ بعَسْفٍ[٢٣]، وأيّ حُرّ رضيَ بخُطّةِ خسْفٍ[٢٤]؟ ولله أبوكَ حيثُ يَقولُ:

---

(١) أحزاني وما يسوءُني.
(٢) نظري وانعطافي إلى جهة.
(٣) موتي.
(٤) عطائي.
(٥) أطلب طبه.
(٦) صداقي.
(٧) أصب مدحي وأكوه أو يكون أفرغه: بلغ أجره.
(٨) تحبس.
(٩) أضيئ.
(١٠) الصنجة التي يوزن بها.
(١١) نتشَابَه.
(١٢) الغبن.
(١٣) نمنع.
(١٤) الْعَدَاوة.
(١٥) أسقيك عللاً.
(١٦) تمرضني.
(١٧) تحقرني.
(١٨) أكتسبه.
(١٩) تهملني.
(٢٠) ذلّ.
(٢١) كيف.
(٢٢) سحاب.
(٢٣) بِجَوْرٍ وَعُنْفٍ.
(٢٤) الإذلال والنقصان.

جَزَيْتُ مَنْ أعلَقَ[١] بي وُدَّهُ ... جَزاءَ مَنْ يبْني عَلَى أُسِّه[٢]
وكِلْتُ للخِلّ كما كالَ لي ... عَلَى وَفاء الكَيْلِ أو بَخْسه[٣]
ولَمْ أُخَسِّرْهُ[٤] وشَرُّ الوَرى[٥] ... مَنْ يومُهُ أخْسَرُ مِنْ أمْسه
وكلُّ منْ يطلُبُ عندي جَنى[٦] ... فما لَهُ إلا جَنى غَرْسه
لا أبتَغي الغَبْنَ[٧] ولاَ أنْثَني[٨] ... بصَفقَة[٩] المغْبون في حسِّه
ولسْتُ بالموجِب حقاً لمَنْ ... لا يوجِبُ الحقَّ عَلَى نفسه
ورُبّ مَذاق[١٠] الهَوى[١١] خالَني ... أصْدُقُهُ الوُدّ عَلَى لَبْسه[١٢]
وما دَرى منْ جهلِه أنّني ... أقْضي غَريمي[١٣] الدّينَ منْ جنسه[١٤]
فاهجُرْ منِ استَغباكَ[١٥] هجرَ القِلى[١٦] ... وهَبْهُ كالمَلْحود[١٧] في رمْسه[١٨]
والبَسْ لمَنْ في وصْله لُبْسَةٌ ... لِباسَ مَنْ يَرْغَبُ عنْ أُنْسه
ولاَ تُرَجِّ الوُدَّ ممّنْ يرَى ... أنّك مُحْتاجٌ إلَى فَلْسه

قَالَ الْحَارِثُ بْن هَمَّام: فَلَمَّا[١٩] وعَيتُ مَا دارَ بينهُما، تُقْتُ[٢٠] إلَى أَنْ أعرِفَ عينَهُما، فَلَمَّا لاحَ ابنُ ذُكاء[٢١]، وألحَفَ[٢٢] الجوَّ[٢٣] الضّياءُ،

(١) بمعنى: علق؛ أي: ألصق.
(٢) أصل بنائه.
(٣) نقصه.
(٤) أنقصه.
(٥) الخلق من الناس.
(٦) ما يجنى من الثمر.
(٧) أطلب الخداع.
(٨) أرجع.
(٩) بيعة المخدوع.
(١٠) خلاَّط غير مخلص.
(١١) الحُبّ.
(١٢) تخليطه وتلبيسه.
(١٣) صاحب دَيْنٍ.
(١٤) من نوع ما أعطاني.
(١٥) أستجهلك.
(١٦) البغض.
(١٧) المدفون.
(١٨) قبره.
(١٩) حفظت.
(٢٠) اشتقت.
(٢١) الصبح. وذَكَاء: هي الشَّمْس.
(٢٢) غطى.
(٢٣) الهواء بين السماء والأرض.

غدَوْتُ(١) قبلَ استقلالِ(٢) الرّكابِ، ولاَ اغتداءَ الغُرابِ، وجعلْتُ أستَقْري صوبَ الصّوتِ اللّيْليّ، وأتوسّمُ الوُجوهَ بالنّظَرِ الجَليّ، إلَى أنْ لمحْتُ أبا زيْدٍ وابنَهُ يتحادَثـان، وعليهِما بُرْدانِ رثّان، فعَلِمتُ أنّهُما نجيّا ليلَتي، ومُعْتَزَى روايَتي، فقصَدْتُهُما قصْدَ كَلِفٍ(٣) بدَماثَتِهما(٤)، راثٍ(٥) لرَثاثَتِهما، وأبَحْتُهُما(٦) التحوّلَ إلَى رحْلي، والتّحكّمَ فِي كُثْري(٧) وقُلّي، وطَفِقْتُ أُسيّرُ بينَ السّيّارةِ(٨) فضْلَهُما، وأهُزّ الأعْوادَ المُثمرَةَ لهُما، إلَى أنْ غُمِرا بالنُّحْلانِ(٩)، واتُّخِذا مِنَ الخُلاّن، وكُنّا بمعرَّسٍ(١٠) نتبيّنُ منْهُ بُنْيانَ القُرَى، ونتنوّرُ(١١) نيرانَ القِرَى، فلَمّا رأى أبو زيدٍ امتِلاءَ كيسِهِ(١٢)، وانجِلاءَ بُوسِهِ(١٣)، قَالَ لي: إنّ بدَني قد اتّسخَ، ودرَني قد رسَخَ، أفتأذَنُ لي فِي قصْدِ قريَةٍ لأستَحِمّ(١٤)، وأقضيَ هَذَا المُهِمَّ(١٥)؟ فقُلْتُ: إذَا شئْتَ فالسّرعَةَ السّرْعَةْ، والرّجعةَ الرّجْعَةْ! فقَالَ: ستجِدُ مطْلَعي(١٦) عليْكَ، أسرَعَ منِ ارْتِدادِ(١٧) طرْفِكَ إليْكَ، ثُمَّ استَنّ استِنانَ الجَوادِ فِي المِضْمارِ، وقال لابْنِه: بَدارِ(١٨) بَدارِ! ولَمْ نخَلْ أنّهُ غَرَّ، وطلَبَ المفَرّ، فلبِثْنا نرقُبُهُ(١٩) رِقبَةَ

---

(١) غدت؛ أي: بكرت.
(٢) ارتفاع وقيام.
(٣) محبّ.
(٤) سهولتهما، والدَّمَاثَةُ: سهولة الأرض.
(٥) بَاكٍ مُشْفِقٌ.
(٦) جعلته له مباحًا.
(٧) كثير مالي وقليله.
(٨) القافلة.
(٩) العطايا.
(١٠) موضع النزول آخر الليل.
(١١) ننظر النيران.
(١٢) وعاء دراهمه.
(١٣) انكشاف فقره.
(١٤) أدخل الحمام، واستحمَّ الرَّجُلُ: اغتسل بالحميم وهو الماء الحارّ.
(١٥) أراد به فرض الصلاة.
(١٦) مصدر بمعنى: طلوعي.
(١٧) رجوع نظرك.
(١٨) سبقا مسبقا.
(١٩) ننظر من أين يجيء.

الأعْيـادِ، ونستَطـلعُهُ بالطّـلائعِ والرّوّادِ [١]، إلَى أنْ هَرِمَ [٢] النّهـارُ، وكادَ جُرُفُ الـيومِ ينْـهارُ [٣]، فَلَمَّـا طالَ أمَـدُ الانتظارِ، ولاحَـتِ الشمـسُ فِي الأطْمارِ [٤]، قُلتُ لأصْـحابي: قـد تَناهَـيْنا [٥] فِي المُهْلَةِ [٦]، وتمادَيْنا فِي الرّحلَةِ، إلَى أنْ أضَعْنا الزّمانَ [٧]، وبَانَ أنّ الرجُلَ قَدْ مَانَ [٨]، فتأهّبوا [٩] للظّعَنِ [١٠]، ولاَ تَلْوُوا علَـى خضْراء الدِّمـنِ، ونَهَضْتُ لأحـدِجَ راحِلَتي، وأتحمّلَ لرِحلَتي، فوجدْتُ أبا زيْدٍ قد كتبَ، علَى القَتَبِ:

يا مَنْ غَـدا لـي سـاعـداً [١١] ومُـسـاعـداً [١٢] دونَ الـبَـشَـرْ
لا تحْـسَـبَـنْ أنّـي نَـأيْـتُـكَ [١٣] عـنْ مَـلالٍ أو أشَـرْ
لـكـنّـنـي مُـذْ لَـمْ [١٤] أزَلْ مـمّـنْ إذا طَـعِـمَ انـتـشَـرْ [١٥]

قال: فأقْـرأتُ الجَماعةَ القـتَبَ، ليعْذِرَهُ منْ كَـانَ عتَبَ [١٦]، فأُعجِبوا بخُرافَتِهِ [١٧]، وتعوّذوا منْ آفَتِه، ثُمَّ إنّا ظعَنّا [١٨]، ولَمْ ندْرِ منِ اعتاضَ عنّا.

---

(١) الطَّالبون له.
(٢) شاخ.
(٣) ينهدم.
(٤) الثياب الخلقة.
(٥) بلغنا النهاية.
(٦) التراخي.
(٧) اليوم.
(٨) كذب.
(٩) استعدُّوا.
(١٠) الرَّحيل.
(١١) ذراعًا يستعين به.
(١٢) موافقًا.
(١٣) بعدت عنك.
(١٤) أي: مذ بَنْتَ ووجدت.
(١٥) ذهب.
(١٦) لام وسخط فعله.
(١٧) حديثه الملهي.
(١٨) ارتحلنا وَسِرْنَا.

المَقَامَةُ الخَامِسَةَ الكُوفِيَّة

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: سمَرْتُ [١] بالكوفَةِ فِي ليلَةٍ أديمُها[٢] ذو لونَين، وقمرُها كتَعْويذٍ [٣] من لُجَين[٤]، مَعَ رُفقَةٍ غُذوا بلِبان البَيان، وسحَبوا [٥]علَى سَحْبانَ [٦] ذيلَ النّسْيانِ [٧]، مَا فيهِمْ إلا مَنْ يُحْفَظُ عنْهُ ولاَ يُتَحفَّظُ [٨] منْهُ، ويَميلُ الرّفيقُ [٩] إليهِ ولاَ يَميلُ [١٠] عنهُ، فاستَهْوانا السّمَرُ [١١]، إلَى أنْ غرَبَ القمرُ، وغلَبَ السّهَرُ، فلَمَّا روّقَ [١٢] الليْلُ البَهيمُ [١٣]، ولَمْ يبْقَ إلا التّهْويمُ [١٤]، سمِعْنا منَ البابِ نبْأةَ [١٥] مُستَنْبِحٍ[١٦]، ثُمَّ تلَتْها[١٧] صكّةُ [١٨] مُستفْتِحٍ، فقُلْنا: منِ المُلِمّ، فِي اللّيلِ المُدْلَهِمّ؟ فقَالَ:

يا أهلَ ذا المَغْنى[١٩] وُقيتُمْ [٢٠] شرّا ... ولاَ لَقيتُمْ مَا بَقيتُمْ ضُرّا

---

(١) سهرتُ.
(٢) الأديم: الجلد.
(٣) طوق.
(٤) الفضة.
(٥) جرُّوا.
(٦) فصيح العرب.
(٧) طرفه.
(٨) يُتحذّر.
(٩) ملت إلى فلان: إذا أحببته وتقربت منه.
(١٠) كرهته وبعدت عنه.
(١١) لحديث.
(١٢) ضرب رواقه.
(١٣) الخالص السَّواد.
(١٤) النوم بالليل.
(١٥) صوت.
(١٦) يحكي نُباح الكلب.
(١٧) تبعتها.
(١٨) ضربة.
(١٩) المنزل.
(٢٠) كُفِيتُم.

قَدْ دفَعَ الليلُ الَّذي اكْفَهَرّا [١] إلَى ذَراكُمُ [٢] شَعثاً مُغْبَرّا [٣]
أخَا [٤] سفَار طالَ واسْبَطَرّا [٥] حتى انْثَنى مُحْقَوْقِفاً [٦] مُصْفَرّا
مثلَ هلالِ الأُفْقِ حينَ افْتَرّا [٧] وقد عَرا [٨] فناءكُمْ مُعْتَرّا
وأمَّكُمْ [٩] دونَ الأنامِ طُرّا [١٠] يبْغي [١١] قِرًى منكُمْ ومُستَقَرّا
فَدونَكُمْ ضَيْفاً قَنوعاً حُرّا يرْضَى بما احْلَوْلى [١٢] وما أمَرّا
وينثَني عنكُمْ ينُثّ [١٣] البِرّا [١٤]

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّام : فَلَمَّا خلَبَنا [١٥] بعُذوبَةِ نُطقه ، وعلِمْنا مَا وَراء برْقِه، ابتَدَرْنا [١٦] فتْحَ البابِ، وتلَقّيناهُ بالتّرْحابِ [١٧]، وقُلْنا للغُلامِ : هيّا هَيّا [١٨]، وهلُمّ مَا تَهيّا [١٩]! فقَالَ الضّيفُ : وَالّذي أحَلّني ذِراكُمْ، لا تلَمّظْتُ [٢٠] بقِراكُمْ، أو تَضْمَنوا لِي ألا تتّخِذوني كَلا [٢١]، ولاَ تجَشّموا [٢٢] لأجْلي أكْلاً، فرُبّ أكْلَةٍ هاضَتِ [٢٣] الآكِلَ، وحرَمَتْهُ مآكِلَ، وشَرُّ الأضْيافِ

(١) تَرَاكَمَ ظَلامُهُ وَكَثُرَ.
(٢) منزلكم وكنكم.
(٣) عليه الغبار.
(٤) صاحب أسفار؛ أي: ملازم لها.
(٥) امتدّ وطال.
(٦) منحنيًا.
(٧) انفتحت أطرافه ولم يتقارب.
(٨) قصد.
(٩) أي قصدكم.
(١٠) أجمع.
(١١) يطلب طعامًا.
(١٢) اشتدّت حلاوته.
(١٣) يفشي وينتشر.
(١٤) الإحسان.
(١٥) خدعنا.
(١٦) استبقنا.
(١٧) من قولهم: مرحبًا مرحبًا.
(١٨) أي: أقبل مسرعا.
(١٩) تيسّر.
(٢٠) لا تذوقت طعامكم.
(٢١) ثقيلاً.
(٢٢) تكلّفوا.
(٢٣) أضعفت وأدخلت على هيضة وهي: القيء والإسهال.

مَنْ سامَ التّكليفَ، وآذَى المُضيفَ، خُصوصاً أذًى يعْتَلِقُ بالأجْسامِ، ويُفْضي(١) إلَى الأسْقامِ، وما قيلَ فِي المَثَلِ الَّذي سارَ سائرُهُ(٢): خيرُ العَشاء سَوافِرُهُ(٣)، إلا ليُعَجَّلَ التّعَشّي(٤)، ويُجْتَنَبَ أكْلُ اللّيلِ الَّذي يُعْشي(٥).

اللَّهُمَّ إلاّ أنْ تقِدَ نارُ الجوعِ، وتَحولَ دونَ الهُجوعِ(٦)، قالَ: فكأنّهُ اطّلعَ علَى إرادَتنا، فرَمى عنْ قوْسِ عَقيدَتنا(٧)، لا جرَمَ أنّا آنَسْناهُ بالتِزامِ الشّرْطِ، وأثْنَينا علَى خُلُقه السَّبْطِ(٨)، ولَمّا أحْضَرَ الغُلامُ مَا راجَ(٩)، وأذْكى بيننا السّراجَ(١٠)، تأمّلْتُهُ فإذَا هوَ أبو زيْدٍ فقُلتُ لصَحْبي: ليُهْنَأْكُمُ(١١) الضّيفُ الوارِدُ(١٢)، بلِ المَغْنَمُ البارِدُ(١٣)، فإنْ يكُنْ أفلَ(١٤) قمرُ الشِّعْرَى فَقَدْ طلَعَ قمَرُ الشِّعْرِ، أوِ استَسَرّ(١٥) بدْرُ النّثْرَةِ(١٦) فَقَدْ تبلّجَ(١٧) بدْرُ النّثْرِ، فسرَتْ(١٨) حُمَيّا المسَرّةِ(١٩) فيهِمْ، وطارَتِ السِّنَةُ(٢٠) عنْ مآقيهِمْ(٢١)، ورَفَضوا الدَّعَةَ التي كانوا نَوَوْها، وثابُوا إلَى نشْرِ الفُكاهَةِ بعْدَما طوَوْها، وأبو زيْدٍ مُكِبٌّ(٢٢) علَى إعْمالِ يدَيْهِ(٢٣)، حتى إذَا استَرْفَعَ مَا لدَيْهِ، قلتُ

(١) يؤول.
(٢) انتشر التحدّث به ومشى في الناس.
(٣) بواكره: أي: ما أكل منه بضوء النهار.
(٤) أكل العشاء؛ وهو ما يُؤْكَلُ بالعشيّ.
(٥) يورث العشا، وهو ضعف البصر ليلاً.
(٦) النوم.
(٧) أي: ما انعقدت عليه نيّتنا.
(٨) السهل.
(٩) تيسر.
(١٠) المصباح.
(١١) أي: ليسرّكم.
(١٢) القاصد.
(١٣) الهنيئ الذي يُغنم دون قتال ولا تعب.
(١٤) غاب.
(١٥) غاب وخَفِيَ.
(١٦) ثلاثة أنجم مجتمعة.
(١٧) ظهر وأضاء.
(١٨) مشت.
(١٩) شدّة السرور.
(٢٠) أخفّ من النوم.
(٢١) عيونهم.
(٢٢) مائل الرأس.
(٢٣) استعملها بالأكل.

لهُ: أطْرِفْنا(١) بغَريبَةٍ منْ غَرائِبِ أسْمارِكَ، أو عَجِيبَةٍ منْ عَجائِبِ أسفارِكَ، فَقَالَ: لقدْ بلَوْتُ (٢) منَ العَجائبِ مَا لَمْ يرَهُ الرّاؤونَ (٣)، ولاَ رواهُ الرّاوونَ، وإنّ منْ أعجبِها مَا عايَنْتُهُ الليلَةَ قُبيلَ انْتِيابِكُمْ(٤)، ومَصيري إلَى بابِكُمْ، فاستَخْبَرْناهُ عَنْ طُرفَةِ مَرْآهُ (٥)، في مسرَحِ(٦) مسْراهُ، (٧) فَقَالَ: إنّ مَرَاميَ(٨) الغُربَةِ، لفَظَتْني إلَى هَـٰذِهِ التُّربَةِ(٩)، وأنَا ذو مَجاعَةٍ (١٠) وبوسَى، وجِرابٍ(١١) كفؤادِ أمّ موسَى، فنهَضْتُ(١٢) حينَ سَجا الدُّجَى(١٣)، علَى مَا بي منَ الوَجَى(١٤)، لأرْتادَ (١٥) مُضيفاً (١٦)، أو أقْتادَ (١٧) رَغيفاً، فساقَني حادِي السَّغَبِ(١٨)، والقضاءُ المُكنّى أبا العجَبِ، إلَى أنْ وقفْتُ علَى بابِ دارٍ، فقلْتُ علَى بِدارٍ:

حُيِّيتُمُ(١٩) يَا أهلَ هَـٰذَا المنزلِ ... وعِشتُمُ في خفضِ(٢٠) عيشٍ خضِلِ(٢١)
ما عندكُمْ لابنِ سَبيلٍ(٢٢) مُرمِلِ(٢٣) ... نِضْوِ سُرًى(٢٤) خابِطِ ليْلٍ ألْيَلِ(٢٥)

---

(١) أي أتحفنا.
(٢) اختبرت.
(٣) الناظرون إليه.
(٤) أي قبل قصدي إيّاكم.
(٥) رؤيته.
(٦) حيث يسرح ويمشي.
(٧) سيره بالليل.
(٨) قواذف.
(٩) الأرض.
(١٠) جوع.
(١١) وعاء الزاد.
(١٢) مشيت.
(١٣) انتشر الظلام وغطى كل شيء.
(١٤) الحفا.
(١٥) أطلب.
(١٦) منزلاً.
(١٧) أقود.
(١٨) سائق الجوع.
(١٩) طابت حياتكم والتحية البقاء.
(٢٠) لين.
(٢١) ناعم.
(٢٢) خاطر طريق، وهو الغريب.
(٢٣) لا زاد له.
(٢٤) أيّ هزيل من مشي الليل في الأسفار.
(٢٥) شديد السواد.

جَوِي الحَشى عَلَى الطّوى مُشتَمِلِ[١] ... مـا ذاقَ مـذْ يـومـانِ طـعمَ مـأكَـلِ
وَلاَ لَـهُ فِي أرضِـكُـمْ مـنْ مَـوْئِـلِ[٢] ... وقد دَجَـا[٣] جُنْحُ الـظّلامِ المُسبِلِ[٤]
وهُـوَ مِـنَ الحَـيـرَةِ فِـي تمَـلْـمُـلِ[٥] ... فـهلْ بـهَـذا الرَّبـعِ[٦] عـذبُ المنـهَلِ
يـقـول لـي: ألْـقِ عَـصـاكَ وادخُـلِ ... وابْـشِـرْ بِـبِـشْـرٍ وقِـرًى مُـعـجَّـلِ

قال: فبرزَ إليّ جوْذَرٌ، عليهِ شَوْذَرٌ، وقَالَ:

وحُرمَـةِ الشّيـخِ الَّذِي سنّ [٧] القرَى ... وأسّسَ المحْجوجَ[٨] فِي أُمِّ القُرَى[٩]
مـا عـنـدَنـا لـطـارقٍ[١٠] إذَا عَـرا ... سوى الحديث والمُناخِ[١١] فِي الذَّرَى
وكيفَ يقْري[١٢] مَنْ نَفى عنه الكَرى[١٣] ... طوًى بَرَى أعظُـمَهُ[١٤] لمَّا انْبَرى [١٥]

فـمـا تَـرى فـيـمـا ذكـرتُ مَـا تـرى

فقُلتُ: مَا أصنَعُ بمنزِلٍ[١٦] قَفرٍ، ومُنزِلٍ[١٧] حلفِ[١٨] فَقْرٍ؟ ولكِنْ يَا فَتى مَا اسـمُكَ، فَقَـدْ فتَنَنـي فهْمُـكَ؟ فَقَالَ: اسـمي زيْدٌ، ومَنْشَـئِي[١٩] فَيْدٌ، ووَردتُ[٢٠] هَـذِهِ المَدَرَةَ[٢١] أمْسِ، مَعَ أخْوالي منْ بَني عبْسٍ[٢٢]، فقلتُ لهُ:

---

(١) منظم.
(٢) ملجأ.
(٣) ألبس.
(٤) المطبق.
(٥) تقلّب وتوجّع.
(٦) المنزل.
(٧) ابتدأ وجعله سُنَّة.
(٨) أي: بنى أساس البيت الحرام.
(٩) مكة.
(١٠) الآتي بالليل.
(١١) موضع البروك.
(١٢) يضيف.
(١٣) النوم.
(١٤) أي: أزال اللحم عنها.
(١٥) اعترض.
(١٦) مكان خالي لا نبات به.
(١٧) مضيف.
(١٨) صاحب.
(١٩) موضعي الذي نشأت فيه.
(٢٠) أتيت.
(٢١) البلد.
(٢٢) قبيلة.

زِدْني إيضـاحاً (١) عِشْتَ، ونُـعِشْتَ(٢)! فَقَـالَ: أخبرَتْنـي أمّي بَرّةُ، وهيَ كاسْـمِهـا برّةٌ، أنّها نـكَحَتْ (٣) عامَ الغارَةِ (٤) بماوانَ، رجُلاً مـن سَراة(٥) سَروجَ وغسّـانَ، فَلَمَّا آنَسَ (٦) منْهـا الإثْقال(٧)، وكان باقِـعةً (٨) عَلَى مَا يُقال، ظعَنَ(٩) عنْها سِراً، وهَلُمّ جرّا (١٠)، فما يُعْرَفُ أحَيٌّ هوَ فيُتوقّعَ، أم أودِعَ اللّحْـدَ البَلْقَعَ؟ قَـالَ أبو زيْد: فعَـلِمْتُ بصِحّـةِ العَلامـاتِ أنّه ولَدي، وصدَفَني (١١) عنِ التّـعرُّفِ إليْهِ صَـفْرُ (١٢) يدي، ففَـصَلْتُ (١٣) عنْهُ بكَـبِدٍ مرْضوضَةٍ (١٤)، ودُموعٍ مفْـضوضة (١٥)، فهلْ سـمِعْتُمْ يَا أولـي الألْبابِ، بأعْجَـبَ مـنْ هَـذَا العُجابِ؟ فـقُلْنَا: لا ومَنْ عندَهُ عِـلمُ الكتابِ، فَـقَالَ: أثْبِتـوها فِي عَجـائِبِ الاتّفاقِ، وخَـلِّدُوها (١٦) بُطونَ الأوْراقِ، فمـا سُـيّرَ مثلُـهَا فِي الآفاقِ(١٧)، فأحْضَرْنا الدّواةَ وأساوِدَها (١٨)، ورَقَشْنا (١٩) الحكايَةَ عَلَى مَا سرَدَها (٢٠)، ثُمَّ استَبْطنّاهُ عنْ مُرْتآهُ (٢١)، فِي استِضْمام فَتاهُ، فَقَالَ: إذَا ثَقُلَ رُدْنـي، خفّ عَلَيَّ أنْ أكْـفُلَ (٢٢) ابْنـي، فقُلْـنا: إنْ كَـانَ يكْفـيكَ

---

(١) بيانًا.
(٢) جُبرت.
(٣) تزوّجت.
(٤) أي: عام أغار عليهم عدوّهم.
(٥) سادة.
(٦) أبصر.
(٧) الامتلاء بالولد.
(٨) داهية.
(٦) رحل وسار.
(١٠) على هينتكم.
(١١) أمالني.
(١٢) فراغها من الدّراهم.
(١٣) زلت.
(١٤) مدقوقة ومكسورة.
(١٥) مفترقة.
(١٦) كناية عن الحفظ والكتابة في الأوراق.
(١٧) البلدان وجهات الأرض جميعها.
(١٨) أقلامها.
(١٩) كتبنا.
(٢٠) أي: كما حكاها وتكلّم بها.
(٢١) رأيه وغرضه.
(٢٢) أضُمُّ.

نِصابٌ(١) منَ المال، ألْفناهُ (٢) لَكَ فِي الحالِ، فَـقَالَ: وكيْفَ لا يُقْـنِعُني(٣) نِصابٌ، وهلْ يحتَقِرُ قدْرَهُ إلا مُصابٌ (٤)؟ .

قالَ الرّاوي: فالتزَمَ منْهُ كلٌ منّا قسطا(٥)، وكتبَ له بِهِ قطّا(٦)، فشكرَ عندَ ذلك الصُنْعَ، واستَنْفَدَ (٧) فِي الثّناء الوُسْعَ (٨)، حتَّى إنّنا اسْتَطَلْنا(٩) القوْلَ، واستَقلَلْنا الطَّوْلَ(١٠)، ثُمَّ إنّهُ نشَرَ منْ وشْيِ(١١) السّمَرِ، مَا أزْرَى بالحِبَرِ(١٢)، إلَى أنْ أظَلّ التّنْويرُ، وجَشَرَ (١٣) الصبْحُ المُنيرُ، فقضَيْناها ليلَةً غابَتْ شوائبُها، إلَى أنْ شابَتْ ذَوائبُها(١٤)، وكمُلَ سُعودُها، إلَى أن انْفطَرَ(١٥) عودُها، ولَـمَّا ذَرّ قرْنُ الغَزالَةِ (١٦)، طمرَ طُمورَ الغَزالَةِ (١٧)، وقَالَ: انْهَضْ(١٨) بنا لنَقبضَ الصِّلاتِ(١٩)، ونستَـنْضَّ (٢٠) الإحالاتِ(٢١)، فَقَـدْ استَـطارَتْ(٢٢) صُدوعُ كَبدي، منَ الحَنينِ(٢٣) إلَى ولَدي، فوَصَلْتُ جَناحَهُ(٢٤)، حَتَّى سَنّيتُ نَجاحَهُ، فحينَ أحْرَزَ الـعَيْنَ فِي صرّتِهِ، برَقَتْ أساريـرُ مسرّتِهِ(٢٥)، وقال لي: جُزيتَ

---

(١) عشرون دينار.

(٢) جمعناه.

(٣) يكفيني.

(٤) مجنون.

(٥) نصيبًا.

(٦) كتابًا.

(٧) استفرغ وأتم.

(٨) الطاقة.

(٩) استكثرنا ووجدناه كثيرًا طويلاً.

(١٠) الإنعام والفضل.

(١١) ثياب مرقومة بألوان شتى من الحرير.

(١٢) ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة.

(١٣) طلع.

(١٤) الشعر الطويل الأسود، وأراد به: ظلام الليل.

(١٥) انشقّ وطلع.

(١٦) شعاعها وحاجبها.

(١٧) الظبية.

(١٨) قم.

(١٩) العطايا.

(٢٠) نستحضر ونستنجز.

(٢١) الديون التي وعدوه بها.

(٢٢) توسّعت وانتشرت.

(٢٣) الشوق والرحمة.

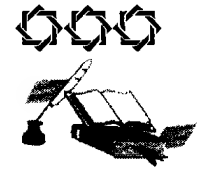
(٢٤) مشيت معه ويدي في يده.

(٢٥) سروره وفرحته.

خَيراً عن خُطا قدَمَيكَ، واللهُ خَليفَتي علَيْكَ، فقُلتُ: أُريدُ أَنْ أتّبعَكَ لأشاهدَ ولَدَكَ النّجيبَ، وأُنافثَهُ(١) لكَيْ يُجيبَ، فنظَرَ إليّ نظْرَةَ الخادعِ إلَى المَخْدوعِ، وضحِكَ حَتَّى تغَرْغَرَتْ(٢) مُقلَتاهُ بالدّموعِ، وأنشَدَ:

يا مَنْ تظَنّى (٣)السّرابَ ماءً ... لمّا روَيْتُ الّذي روَيْتُ
ما خِلْتُ أنْ يستَسِرّ (٤) مَكري(٥) ... وأنْ يُخيلَ الّذي عنَيْتُ
واللهِ ما بَرّةٌ بعِرْسي(٦) ... ولاَ لِيَ ابنٌ بهِ اكتَنَيْتُ
وإنّما لي فُنونُ (٧) سِحرٍ ... أبدَعْتُ فيها وما اقتَدَيتُ
لمْ يحْكِها(٨) الأصمَعيُّ فيما ... حكَى ولاَ حاكَها(٩) الكُمَيتُ
تَخِذْتُها وُصلَةً إلَى ما ... تَجْنيهِ كَفّي متى اشتَهَيْتُ
ولوْ تَعافَيتُها(١٠) لحالَتْ ... حالي ولَمْ أحْوِ(١١) مَا حوَيْتُ
فمهّدِ(١٢) العُذْرَ أو فسامِحْ ... إنْ كُنتُ أجرَمْتُ(١٣) أو جنَيْتُ(١٤)

ثمّ إنّه ودّعني ومَضى، وأوْدَعَ (١٥) قلْبي جمرَ الغَضا (١٦).



(١) أكلمه.
(٢) امتلأت.
(٣) حسب.
(٤) يخفى.
(٥) خداعي.
(٦) زوجتي.
(٧) أنواع.
(٨) يحدث بها.
(٩) أي: نسجها.
(١٠) تكارهتها.
(١١) أجمع.
(١٢) أقبل وسهل.
(١٣) أذنبت لنفسي.
(١٤) أذنبت لغيري.
(١٥) ضمّن وجعل فيه.
(١٦) شجر جمره يثبت في النار.

المَقَامَةُ السَّادِسَة
الْمَرَاغِيَّةُ

رَوى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ، قالَ: حضَرْتُ ديوانَ النّظرِ بالمَراغَةِ (١)، وقدْ جَرى بِهِ ذكْرُ البَلاغَةِ، فأجمَعَ مَنْ حضَرَ منْ فُرْسانِ اليَراعَةِ (٢)، وأرْبابِ البَراعةِ، عَلَى أنّهُ لَمْ يبْقَ مَنْ يُنقّحُ (٣) الإنْشاءَ، ويتصرّفُ فيهِ كيفَ شاءَ، ولاَ خلَفَ، بعْدَ السّلَفِ، مَنْ يبتَدِعُ طريقةً غَرّاء(٤)، أو يفتَرِعُ (٥) رسالةً عذْراءَ، وأنّ المُفلِقَ من كُتّابِ هَذَا الأوانِ، المُتمكّنَ من أزِمّةِ البَيانِ، كالعِيالِ(٦) عَلَى الأوائِلِ، ولو ملَكَ فَصاحَةَ سحْبانِ وائِلٍ، وكان بالمجْلِسِ كهْلٌ جالِسٌ في الحاشيةِ، عندَ مَواقفِ الحاشِيَةِ(٧)، فكانَ كلّما شطّ القوْمُ في شوْطِهِمْ(٨)، ونَشَرُوا العَجْوَةَ والنّجْوَةَ من نوْطِهِمْ (٩)، يُنْبِئُ تَخازُرُ طرْفِهِ، وتشامُخُ أنْفِهِ(١٠)، أنّهُ مُخْرَنْبِقٌ (١١) لِيَنْباعَ، ومُجْرَمِّزٌ سيَمُدّ الباعَ، ونابِضٌ يبْري النِّبالَ(١٢)، ورابِضٌ (١٣) يبْغي النّضالَ، فَلَمَّا نُثِلَتِ الكَنائِنُ، وفاءَتِ

---

(١) موضع بأذربيجان.
(٢) في الأصل: القصبة، ويُرادُ بها هَاهُنَا القلم وفرسانها مهرة الكتاب.
(٣) يحرر ويهذب.
(٤) حسناء واضحة.
(٥) يفتض.
(٦) جمع عيل مخفف عيّل.
(٧) أي طرف المجلس، والحاشية: هي الخدم والغِلْمَان.
(٨) غاية جريهم وجمع الشوط: أشواط.
(٩) جلد يُجْمَعُ فيه التَّمْر.
(١٠) تعاظمه وتكبّره.
(١١) أي مَرْخِيٌّ عينه ينظر ساكتًا.
(١٢) ينحت السِّهَام.
(١٣) جَالِسٌ عَلَى رُكَبِهِ.

السَّكَائِنُ(١)، وركَدَتِ الزّعازعُ ، وكفّ المُنازِعُ، وسكنَتِ الزَّمَاجِرُ (٢)، وسكتَ المزْجورُ والزّاجِرُ، أقبلَ علَى الجماعَةِ وقَالَ: لقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدا، وجُرْتُمْ عنِ القصْدِ جِدّا، وعظّمتُمُ العظامَ الرُّفاتَ (٣)، وافْتَتُّمْ فِي المَيْلِ إلَى مَنْ فات، وغَمَصْتُمْ (٤) جيلكُمُ الَّذينَ فِيهِمْ لكُمُ اللِّدَّاتُ، ومَعَهُمْ انعَقَدَتِ المودَّاتُ، أنَسيتُمْ يَا جهابذَةَ النَّقْدِ، ومَوابذَةَ (٥) الحَلِّ والعَقْدِ، مَا أبرزَتْهُ طَوارِفُ(٦) القَرائِحِ (٧)، وبرّزَ فيهِ الجذَعُ علَى القارِحِ ، مِنَ العبارات المهذَّبَة، والاستعارات المُستَعْذَبَة، والرّسائِلِ الموشّحَةِ (٨)، والأساجيعِ(٩) المُستَمْلَحَة؟ وهلْ للقُدَماء إذَا أنعمَ النّظَرَ ، مَنْ حضَرَ ، غيرُ المَعاني المطْروقَةِ المَوارِدِ، المعْقولَةِ الشّوارِدِ، المأثورَةِ عنهُمْ لتَقادُمِ المَوالِدِ ، لا لتقدُّمِ الصّادِرِ علَى الوارِدِ؟ وإني لأعْرِفُ الآنَ مَنْ إذَا أنْشا وشَّى(١٠)، وإذا عبّرَ، حبّرَ، وإنْ أسهَبَ(١١)، أذْهَبَ، وإذا أوْجزَ، أعْجزَ ، وإنْ بَدَهَ، شَدَهَ ، ومتى اخْتَرَعَ ، خرَعَ (١٢)، فَقَالَ لَهُ ناظورَةُ الدّيوانِ، وعينُ أولَئكَ الأعْيانِ: مَنْ قارِعُ هَذه الصّفاة، وقَريعُ هَذه الصّفات ؟ فَقَالَ : إنّه قِرْنُ مَجالِكَ ، وقَرينُ جدالِكَ (١٣)، وإذا شِئْتَ ذاكَ فرُضْ نَجيباً (١٤)، وادْعُ مُجيباً ، لتَرى عَجيباً ، فَقَالَ لهُ : يَا هَذَا إنّ البُغاثَ بأرضِنا لا يَستَنْسِرُ (١٥)، والتّمييزَ عندَنا بينَ الفضّةِ والقضة

(١) جمع سكينة، مصدر كالسُّكُون.
(٢) جمع زمجرة، وهو: صوت المغتاظ.
(٣) كناية عن الـمَوْتَى البالية.
(٤) عبتم وحقَّرتم.
(٥) هو حاكم المجوس.
(٦) ما استحدثته من المال خلاف التالدة.
(٧) الفِطْنَة.
(٨) المزينة.
(٩) المزدوج من الكلام المُقَفَّى.
(١٠) أي: زيّن وخلط لون بلون.
(١١) أطال الكلام وأبعد فيه.
(١٢) أفزع.
(١٣) الجدال؛ أي: المجادلة.
(١٤) كريمًا.
(١٥) لا يتشبه بالنِّسْرِ.

متيَسِّرٌ، وقَلَّ منِ استهدَفَ للنّضالِ، فخلّصَ منَ الدّاء العُضالِ[١]، أوِ استَسارَ نقْعَ الامْتحانِ، فَلَمْ يُقْذَ بالامتهانِ[٢]، فلا تُعرِّضْ عِرْضَكَ للمَفاضحِ، ولاَ تُعْرِضْ عنْ نَصاحَةِ النّاصِحِ، فَقالَ: كُلُّ امرِئٍ أعْرَفُ بوسْمِ قِدْحه[٣]، وسيَتَفرّى الليلُ عنْ صُبْحه، فتَناجَتِ الجَماعَةُ فيما يُسْبَرُ[٤] به قُلَيْبُهُ، ويُعْمَدُ فيه تقْليبُهُ، فَقَالَ أحدُهُمْ: ذَرُوهُ فِي حِصّتي [٥]، لأرْميَهُ بحَجَرِ قِصّتي، فإنّها عُضْلَةُ العُقَدِ، ومحَكُّ المُنْتَقَدِ [٦]، فقلّدوهُ فِي هَذَا الأمْرِ الزّعامَةَ [٧]، تقْليدَ الخوارِجِ أبا نَعامَةَ، فأقْبَلَ عَلَى الكهْلِ وقالَ: اعْلَمْ أني أُوالِي[٨]، هَذَا الوالي، وأُرَقّحُ حالي، بالبَيانِ الحالي، وكُنْتُ أستَعينُ عَلَى تقْويمِ أوَدي[٩]، فِي بَلَدي، بسعَةِ ذات يَدي، مَعَ قِلّةِ عدَدي، فَلَمَّا ثَقُلَ حاذي، ونفِدَ رَذَاذي[١٠]، أمّمْتُهُ منْ أرْجائي، برَجائي ودعوْتُهُ لإعادَةِ رُوائي وإرْوائي، فهَشَّ[١١] للوِفادَةِ وراحَ، وغَدا بالإفادَةِ وراحَ، فَلَمَّا استأذَنْتُهُ في المَراحِ، إلَى المُراحِ، عَلَى كاهِلِ المِراحِ، قَالَ: قَدْ أزْمَعْتُ [١٢] أنْ لا أزوّدَكَ بَتاتاً، ولاَ أجْمعَ لَكَ شَتاتا [١٣]، أو تُنْشِئَ لِي أمامَ ارتحالكَ، رِسالَةً تودعُها شرْحَ حالكَ، حُروفُ إحْدى كلمتَيْها يعُمّها النَّقْطُ [١٤]، وحُروفُ الأخْرى لَمْ يُعْجَمْنَ [١٥] قطّ، وقدِ استأنَيْتُ بَياني حَوْلاً، فَما أحارَ قوْلاً، ونَبّهْتُ

---

(١) هو عسر الإزالة.
(٢) الاحتقار.
(٣) القدح ـ بالكسر ـ وهو: السهم.
(٤) يختبر به.
(٥) نصيبي.
(٦) النقاد، ،المنتقد والانتقاد بمعنى.
(٧) السيادة أو الكفالة.
(٨) أُصادق.
(٩) تعديل عوَجي.
(١٠) فَنِيَ زادي.
(١١) اهتَزَّ وفَرِحَ.
(١٢) عزمتُ.
(١٣) مصدر شت: إذَا تَفَرّقَ.
(١٤) أي: حروفها معجمة.
(١٥) مهملة لا نقط بها.

فِكْري سَنَةً، فما ازْدادَ إلا سِنَةً ، واستَعَنْتُ بقاطِبَةِ الكُتّابِ ، فكلٌ منْهُمْ قطَّبَ (١) وتابَ، فإنْ كُنتَ صدَعْتَ عنْ وصْفِكَ باليَقينِ، فأْتِ بآيَةٍ إنْ كُنتَ منَ الصّادِقين، فَقَالَ لهُ: لقَد استَسْعَيْتَ يَعْبوباً (٢)، واستَسْقَيْتَ أُسْكوباً، وأعطَيْتَ القوْسَ بارِيَها(٣)، وأسْكَنْتَ الدّارَ بانِيَها، ثُمَّ فكّرَ ريثَما (٤) استَجَمّ قريحَتَهُ (٥)، واستَدَرّ لَقْحَتَهُ (٦)، وقالَ: ألْقِ دَواتَكَ واقْرُبْ، وخُذْ أداتَكَ واكتُبْ: الكرَمُ ثبّتَ اللهُ جيْشَ سُعودِكَ يَزينُ، واللّؤمُ غَضّ الدّهرُ جَفْنَ حَسودِكَ يَشينُ، والأرْوَعُ يُثيبُ، والمُعْوِرُ (٧) يَخيبُ، والحُلاحِلُ (٨) يُضيفُ، والماحِلُ يُخيفُ، والسّمْحُ يُغْذي، والمَحْكُ (٩) يُقذي، والعطاء ينجي والمطال يشجي، والدعاء يقي والمدح ينقي، والحُرُّ يَجزي، والإلْطاطُ (١٠) يُخْزي، واطّراحُ ذي الحُرْمَةِ غَيٌّ، ومَحْرَمَةُ بَني الآمالِ بغْيٌ، وما ضنّ إلا غَبينٌ (١١)، ولاَ غُبِنَ إلا ضَنينٌ، ولاَ خزَنَ إلا شَقيٌ، ولاَ قبَضَ راحَهُ تقيٌ، ومَا فَتِئَ(١٢) وَعْدُكَ يَفي، وآراؤكَ تَشْفي، وهِلالُكَ يُضي، وحِلْمُك يُغْضي، وآلاؤكَ (١٣) تُغْني، وأعداؤكَ تُثْني(١٤)، وحُسامُك يُفْني، وسؤدَدُكَ (١٥) يُقْني، ومُواصِلُكَ

---

(١) عبس وجهه ورجع.
(٢) النهر شديد الجري.
(٣) ناحتها وصانعها.
(٤) أي قدر ما.
(٥) جمعها أو طلب استراحتها.
(٦) الناقة ذات الدرّ وهو اللّبن.
(٧) قبيح الفعل من العوار وهو العيب.
(٨) السيد الركين الرَّزين.
(٩) البخيل اللجوج.
(١٠) ستر الحق وكتمانه.
(١١) البُخْل.
(١٢) ما زال.
(١٣) أي نعمك.
(١٤) من الثَّناء وهُوَ الشُكْر.
(١٥) شرفك وسيادتك.

يجتَني، ومادحُك يقتَني، وسماحُكَ يُغيثُ، وسماؤكَ تَغيثُ، ودرُّكَ(١) يَفيضُ، وردُّكَ يَغيضُ، ومؤمِّلُكَ(٢) شيْخٌ حكاهُ فَيْءٌ، ولَمْ يبْقَ لَهُ شيءٌ، أمّكَ بظَنٍّ حِرصُهُ يثِبُ(٣)، ومدَحَكَ بنُخَبٍ، مُهورُها تجِبُ، ومَرامُهُ يخفُّ، وأواصِرُهُ(٤) تشِفُّ، وإطْراؤهُ يُجْتَذَبُ، وملامُهُ يُجتَنَبُ، ووراءَهُ ضَفَفٌ(٥)، مَسّهُمْ شظَفٌ، وحصّهُم جنَفٌ، وعمّهُمْ قشَفٌ(٦)، وهُوَ فِي دمْعٍ يُجيبُ، وولَهٍ يُذيبُ، وهَمٍّ تَضيّفَ، وكَمَدٍ نيّفَ، لمأمولٍ خيّبَ، وإهْمالٍ شيّبَ، وعدوٍّ نَيّبَ، وهُدُوٍّ تغيّبَ، ولَمْ يزِغْ ودُّهُ(٧) فيغْضَبَ، ولاَ خَبُثَ عودُهُ فيُقْضَبَ، ولاَ نفَثَ صدْرُهُ فيُنْفَضَ(٨)، ولاَ نشَزَ وصلُهُ فيُبْغَضَ، وما يقْتَضي كرَمُكَ نبْذَ حُرَمِهِ، فبيِّضْ أمَلَهُ بتَخْفيفِ ألَمِهِ، ينُثَّ حمدَكَ بينَ عالَمِهِ، بقيتَ لإماطَةِ شجَبٍ، وإعْطاءِ نشَبٍ، ومُداواةِ شجَنٍ، ومُراعاةِ يفَنٍ(٩)، موصولاً بخَفْضٍ، وسُرورٍ غَضٍّ. ما غُشِيَ معْهَدُ غنيٍّ، أو خُشِيَ وهْمُ غبيٍّ(١٠)، والسّلامُ، فَلَمَّا فرَغَ منْ إمْلاءِ رِسالَتِهِ، وجلّى فِي هَيْجاءِ البَلاغَةِ عنْ بَسالَتِهِ(١١)، أرضَتْهُ الجماعَةُ فِعْلاً وقوْلاً، وأوْسَعَتْهُ(١٢) حَفاوَةً وطَوْلاً، ثُمَّ سُئِلَ منْ أيّ الشّعوبِ نِجارُهُ، وفِي أيّ الشِّعابِ(١٣) وِجارُهُ؟ فَقَالَ:

---

(١) أي: خيرك.

(٢) راجيك.

(٣) أي: يقفز من النشاط.

(٤) أي: وسائله.

(٥) بالتحريك: كثرة العيال وسوء الحال.

(٦) الخشونة واليبس من شدّة العيش.

(٧) أي: لم تَمَلّ مودته.

(٨) فيبعد.

(٩) الشيخ الفاني.

(١٠) أي: ما أتى منزل، والوهم: الغلط والسَّهو.

(١١) أي: شجاعته.

(١٢) أكثرته.

(١٣) الشِّعاب: جمع شِعْب، وهو: ما انفرج بين الجبلين.

غسّانُ أُسرَتيَ الصّميمَهْ(١) وسُروجُ تُرْبَتي القَديمَهْ
فالبَيتُ مثلُ الشّمْسِ إشْـ ـراقاً ومنزِلَةً جسيمَهْ(٢)
والرّبْعُ كالفِرْدَوْسِ مطْـ ـيَبَةً ومَنْزَهَةً وقيمَهْ
واهاً لعَيْشٍ كانَ لي فيها ولذاتٍ عَميمَهْ(٣)
أيّامَ أسْحَبُ مُطْرَفي(٤) في روضِها ماضي العَزيمَهْ
أخْتالُ في بُرْدِ الشّبا بِ وأجْتَلي(٥) النِّعَمَ الوَسيمَهْ
لا أتّقي نُوَبَ الزّما نِ ولاَ حَوادثَهُ المُليمَهْ(٦)
فلوَ أنّ كرْباً مُتْلِفٌ لَتَلِفْتُ منْ كُرَبي المُقيمَهْ
أو يُفْتَدَى عَيْشٌ مضى لفَدَتْهُ مُهجَتيَ الكَريمَهْ
فالموْتُ خيرٌ للفتى منْ عيشِهِ عيْشَ البَهيمَهْ
تقْتادُهُ(٧) بُرَةُ الصَّغا رِ إلَى العَظيمَةِ(٨) والهضيمَهْ(٩)
ويرَى السّباعَ تَنوشُها(١٠) أيْدي الضّبَاعِ المُستَضيمَهْ(١١)
والذّنْبُ للأيّامِ لوْ لا شُؤمُهَا لَمْ تنْبُ شيمَهْ
ولوِ استَقامَتْ كانتِ الـ أحْوالُ فيهَا مُستَقيمَهْ

ثمّ إنّ خبَرَه نَما إلَى الْوَالِـي، فمَلأ فاهُ باللآلي(١٢) وسامَهُ أنْ ينضَويَ(١٣)

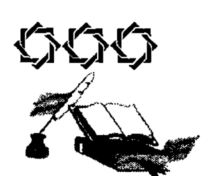
---

(١) الخالصة الأصيلة.
(٢) عظيمة.
(٣) عامة كثيرة.
(٤) أي: أجُرّ ردائِي.
(٥) أي: أنظر.
(٦) التي تأتي بما يلام عليه.
(٧) أي تجرّه.
(٨) الـخَطْب الشديد.
(٩) الظلم، مصدر كالشتيمة.
(١٠) تتناولها وترفعها.
(١١) الجائرة والمضامة.
(١٢) جمع لؤلؤة، والمعنى: أجزل عطاؤه.
(١٣) أي: ينظم.

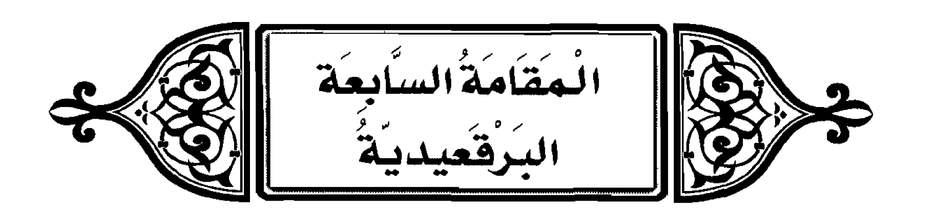
إلَى أحشائه، ويَـلي ديوانَ إنْشائه، فأحْسَـبَهُ الحِباءُ[١]، وظلَفَهُ[٢] عنِ الوِلايَة الإباءُ، قَالَ الراوي: وكُنتُ عـرَفْتُ عُودَ شجرَتِه، قبلَ إينـاعِ ثمرَتِه، وكِدْتُ أنبِّهُ عَلَى عُلوِّ قدْرِه، قبلَ استِنارَةِ بدْرِه.

فأوْحى إليّ بإيماضِ[٣] جفْنِه، ألَا أجـرِّدَ عضْبَهُ منْ جفْنِه، فَـلَمَّا خرَجَ بَطينَ الخُرْجِ، وفصَلَ فائِزاً بالفُلْجِ[٤]، شيّعْتُهُ قاضِيـاً حقّ الرِّعايَةِ، ولاحِيا لَهُ عَلَى رفْضِ الوِلايَةِ، فأعْرَضَ مُتَبَسّماً، وأنْشَدَ مترنّماً[٥]:

لَجَـوْبُ الـبِـلادِ مَـعَ المَتْـرَبَـهْ أحَـبُّ إلـيّ مـنَ المرْتَـبَـهْ[٦]
لأنّ الـوُلاةَ لـهُـمْ نَـبـوَةٌ ومـعْـتَـبَـةٌ يَا لَـهـا مَـعْـتَـبَـهْ[٧]
ومـا فـيـهـم مَنْ يـربُّ الصّـنيعَ[٨] وَلاَ مَـنْ يُـشَـيِّـدُ مَـا رتّـبَـهْ
فـلا يخـدَعـنْكَ لُمـوعُ[٩] السّـراب وَلاَ تـأتِ أمْـراً إذَا مَـا اشْـتَـبَـهْ
فـكَـمْ حـالِـمٍ سَـرّهُ حُـلْـمُـهُ وأدركَـهُ الـرّوْعُ[١٠] لَمّا انْـتَـبَـهْ



(١) أي: كفاه العطاء حتى قال: حسبي، حسبي.
(٢) أي: صرفه ومنعه.
(٣) بإشارة خفيفة من جفنه.
(٤) الظفر.
(٥) أي: مرجعًا صوته.
(٦) يقصد بالبيت: لقطع فيافي البلاد في-الفقر أحسن لي من المنزلة في الولاية.
(٧) موجده، وهي: الغضب.
(٨) أي: يحفظ المعروف والإحسان.
(٩) لمعان.
(١٠) الفزع.



المَقَامَةُ السَّابِعَة البَرْقَعِيدِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ، قَالَ: أزْمَعْتُ (١) الشّخوصَ منْ بَرْقَعيدَ، وَقَدْ شمْتُ برْقَ عيدٍ، فكرِهتُ الرّحلةَ عنْ تلكَ المَدينَةِ، أو أشهَدَ بها يومَ الزّينَةِ(٢)، فَلَمَّا أظَلّ بفَرْضِه ونفْله، وأجلَبَ بخَيْله ورَجْله، اتّبَعْتُ السُنّةَ في لُبسِ الجَديدِ، وبرَزْتُ معَ مَنْ برزَ للتّعييدِ(٣)، وحينَ التَأمَ (٤) جمْعُ المُصَلّى وانْتَظَمَ، وأخذَ الزّحامُ بالكَظَمِ(٥)، طلَعَ شيخٌ في شمْلَتَينِ(٦)، محْجوبُ المُقلتَيْنِ(٧)، وقد اعتَضَدَ شبْهُ المِخْلاة (٨)، واستَقادَ لعَجوزٍ كالسِّعْلاة (٩)، فوقَفَ وِقْفَةَ مُتَهافتٍ، وحيّا تحيّةَ خافتٍ، ولَمّا فرَغَ منْ دُعائه، أجالَ (١٠) خَمْسَهُ في وِعائه، فأبْرَزَ منْهُ رِقاعاً قَدْ كُتبنَ بألوانِ الأصْباغِ (١١)، في أوانِ الفَراغِ، فناولَهُنّ عَجوزَهُ الحَيْزَبونَ (١٢)، وأمرَها بأنْ تتوسّمَ الزّبُونَ (١٣)، فمَنْ آنسَتْ نَدى يدَيْهِ، ألْقَتْ ورَقَةً منهُنّ لديْهِ، فأتاحَ ليَ القدَرُ المعْتوبُ رُقْعَةً فيها مكْتوبٌ:

---

(١) عزمت. (٢) يوم العيد.

(٣) لصلاة العيد. (٤) اتصل.

(٥) بضيق النفس وأصله من كظم الغيظ: حَبْسُهُ.

(٦) تثنية شملة، وهي: كساءٌ من صوف أسودٍ يشتمل به.

(٧) مُغَطّى العينيْن. (٨) أي: حمل شيئًا يشبه المخلاة.

(٩) السعلاة: أخبث الغيلان، وهي كثيرة التَلَوُّن.

(١٠) أدار. (١١) جمع صبغ، وصبغة: ما يصبغ به.

(١٢) المُسِنَّة الـمكَّارَة. (١٣) بالفتح، وهو: الكريم الغني.

لَقَدْ أصبَحْتُ موقوذاً ... بأوجاعٍ وأوْجال[١]
ومَمْنُوا بمُخْتالٍ[٢] ... ومُحْتالٍ ومُغْتالِ
وخَوّانٍ منَ الإخْوا ... نِ قالٍ لي لإقْلالي[٣]
وإعْمالٍ مِنَ العُمّا ... لِ في تضْليعِ[٤] أعْمالي
فكمْ أُصْلَى بإذحالٍ ... وإمْحالٍ[٥] وتَرْحالِ
وكَمْ أخْطُرُ في بالٍ ... ولاَ أخْطُرُ في بالِ
فلَيْتَ الدّهْرَ لَمّا جا ... رَ أطْفا ليَ أطْفالي[٦]
فلَوْلا أنّ أشْبا ... ليَ أغْلالي[٧] وأعْلالي[٨]
لَمَا جهّزْتُ آمالي ... إلى آلٍ ولاَ والي
ولاَ جرّرْتُ أذْيالي[٩] ... علَى مَسْحَبِ إذْلالي
فمِحْرابيَ[١٠] أحْرَى بي ... وأسْماليَ أسْمَى لي
فهلْ حُرٌّ يَرى تخْفيـ ... ـفَ أثْقالي بمِثْقالِ
ويُطْفي حَرَّ بَلْبالي[١١] ... بسِرْبالٍ[١٢] وسِرْوالِ[١٣]

---

(١) جمع وجل بالتحريك، وهو: الخَوْف.
(٢) بِمُتَكَبِّر.
(٣) لفقري.
(٤) اعوجاج من الضلع ـ بفتح اللام ـ وهو: الميل.
(٥) بالكسر ـ كناية عن الفقر، وبالفتح ـ جمع محل، وهو: القحط.
(٦) الأول: من أطفأ النار إذا أخمدها وقلب الهمزة للازدواج.
الثاني: جمع طفل؛ أي: أمات لأجلي أولادي.
(٧) جمع الغلّ ـ بالضمّ ـ وهو ما يُوضع في العُنُق.
(٨) علل ـ بالكسر ـ جمع عِلَّة.
(٩) جمع ذيل، وهو ما وصل إلى الأرض من الثَّوْبِ.
(١٠) المحراب: أشرف مكان في المسجد، يريد به: مقامه.
(١١) همّ قلبي أو حزني.
(١٢) هو القميص.
(١٣) واحد السراويل، ويُؤَنَّثُ. قال: عليه من اللؤم سرواله.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فلما استعرضْتُ حُلةَ الأبياتِ تُقْتُ (١) إلَى معرِفَةِ مُلْحمها(٢)، وراقِمِ علَمِها، فناجاني الفِكْرُ بأنّ الوُصْلَةَ إلَيْه العَجوزُ، وأفْتاني بأنّ حُلوانَ المُعرِّف يَجوزُ، فرَصَدْتُها وهيَ تستَقْري(٣) الصّفوفَ صَفّاً صَفّاً، وتستَوكِفُ (٤) الأكُفَّ كفّاً كفا، وما إنْ ينْجَحُ لـه عَناءٌ، ولاَ يرْشَحُ علَى يدِها إناءٌ، فلما أكْدى استِعْطافُها، وكدّها مَطافُها، عاذَتْ بالاسْتِرْجاعِ، ومالَتْ إلَى إرجاعِ الرِّقاعِ(٥)، وأنْساها الشيْطانُ ذِكْرَ رُقْعَتي، فلَمْ تعُجْ (٦) إلَى بُقْعَتي، وأبَتْ (٧) إلَى الشيْخِ باكيةً للحِرْمانِ، شاكيةً تحامُلَ الزّمانِ، فقَالَ: إنّا لله، وأفوّضُ أمْري إلَى اللهِ، ولاَ حوْلَ ولاَ قوّةَ إلا باللهِ، ثُمَّ أنْشَدَ:

لَمْ يبْقَ صافٍ ولاَ مُصافٍ(٨) ولاَ مَعينٌ ولاَ مُعينُ
وفي المَساوي بَدا التّساوي فلا أمينٌ(٩) ولاَ ثَمينُ

ثم قَالَ لها: مَنّي النّفْسَ وعِديها، واجْمَعي الرِّقاعَ وعُدّيها، فقَالَتْ: لقدْ عدَدْتُها، لمَّا استعَدْتُها، فوجَدْتُ يدَ الضّياعِ، قد غالَتْ (١٠) إحْدى الرِّقاعِ، فقَالَ: تعْساً لَكَ يَا لَكاعِ(١١)! أنُحْرَمُ ويْحَكِ القَنَصَ (١٢) والحِبالَةَ، والقَبَسَ والذُّبالَةَ(١٣)؟ إنّها لضِغْثٌ علَى إبّالَةٍ! فانْصاعَتْ(١٤) تقْتَصّ مَدْرَجَها، وتَنْشُدُ مُدْرَجَها، فلَمَّا دانَتْني قرَنْتُ بالرُّقعَةِ، دِرْهَماً وقِطْعَةً، وقلتُ لها: إنْ رَغِبتِ

(١) اشْتَقْتُ.
(٢) ناظمها والملحم في الأصل: الناسِج.
(٣) تتبع.
(٤) تتطلب الوكف، وهو ما يسيل خفيفًا وهو كناية عن قليل العطاء.
(٥) إعادتها وردّها إلى الشيخ.
(٦) فلم تمل ولم ترجع.
(٧) رجعت.
(٨) مُخلص صادق في ودّه.
(٩) من الأمانة؛ أي: ثقة.
(١٠) أهلكت، والمراد: أنها أخذت من حيث لا أدري.
(١١) يا لَئيمَة.
(١٢) الصيد.
(١٣) الفتيلة.
(١٤) رجعت بسرعة.

فِي المَشوف(١) المُعْلَمِ، وأشَرْتُ إلَى الدرْهَمِ، فَبُوحِي(٢) بالسّرّ المُبهَمِ، وإنْ أبَيْتِ أنْ تشْرَحي، فخُذي القِطعَةَ واسرَحي، فمالَتْ إلَى استخْلاصِ البدْرِ التِّمّ، والأبلَجِ الهِمّ، وقالتْ: دعْ جِدالَكَ، وسَلْ عمّا بَدا لَكَ، فاستَطْلَعْتُها طِلْعَ الشّيخِ(٣) وبَلْدَتِه، والشِّعْرِ وناسجِ بُرْدَتِه، فَقَالَتْ: إنّ الشيخَ من أهلِ سَروجَ، وهُوَ الّذي وشّى(٤) الشّعرَ الـمَنسُوجَ(٥)، ثُمَّ خَطفَتِ الدّرْهمَ خطفَةَ الباشِقِ، ومرَقَتْ مُرُوقَ السَّهْمِ الرّاشِقِ، فخالَجَ قلْبي أنّ أبا زيْدٍ هوَ المُشارُ إليْهِ، وتأجّجَ كربْي لُمصابِهِ بناظِرَيْهِ، وآثَرْتُ أنْ أُفاجِيهِ(٦) وأناجِيه، لأعْجُمَ(٧) عُودَ فِراسَتي فيه، وما كُنتُ لأصِلَ إليْه إلا بتَخطّي رِقابِ الجمْعِ، المَنْهيّ عنْهُ في الشّرْعِ، وعِفْتُ(٨) أنْ يتأذّى بي قومٌ، أو يسْري إليّ لومٌ، فسَدَكْتُ(٩) بمَكاني، وجعلْتُ شخْصَهُ قيْدَ عِياني، إلَى أن انْقضَتِ الخُطبَةُ، وحقّتِ الوثْبَةُ(١٠)، فخفَفْتُ إليْهِ، وتوسّمْتُهُ عَلَى التحامِ(١١) جَفنَيْه، فإذَا ألمَعيّتي ألمَعيّةُ ابنِ عبّاسٍ، وفِراسَتي فِراسَةُ إياسٍ، فعرّفْتُهُ حينَئذٍ شخْصي، وآثَرْتُه بأحَدِ قُمْصِي(١٢). وأهَبْتُ بهِ إلَى قُرْصي، فهشّ لعارِفَتي(١٣) وعرفاني، ولبّى دعْوَةَ رُغْفاني، وانْطَلَقَ ويَدي زِمامُهُ(١٤)، وظلِّي إمَامُهُ، والعَجوزُ ثالثَةُ الأثَافي، والرّقيبُ الّذي لا يَخفَى عليْه خافي، فَلَمّا استَحْلَسَ وُكْنَتي، وأحضَرْتُهُ عُجالَةَ مُكْنَتي، قَالَ لي: يَا حارِثُ، أمَعَنا ثالثٌ؟ فقُلْتُ: ليسَ إلا العَجوزُ،

---

(١) المجلو المصقول.
(٢) أعلني وأظهري.
(٣) خبره.
(٤) زين.
(٥) المنظوم.
(٦) آتيه فُجاءَة.
(٧) أختَبر.
(٨) كرهت.
(٩) لزمت وتمكّنت وأقمت.
(١٠) القيام.
(١١) التقاء جفنيه والتصاقهما.
(١٢) أعطيته إياه.
(١٣) عطيتي.
(١٤) قِياده؛ أي: لا تفارقه.

قَالَ: مَا دونَها سِرٌّ محْجوزٌ (١)، ثُمَّ فتَحَ كريمَتَيْه(٢)، ورأرأَ بتوأمَتَيه(٣)، فإذَا سِراجا وجْهِهِ يقِدانِ، كأنّهُما الفَرْقَدانِ(٤)، فابْتَهَجْتُ بسَلامَةِ بصَرِه، وعجِبْتُ منْ غَرائِبِ سِيَرِه، ولَمْ يُلْقِني قَرارٌ (٥)، ولاَ طاوَعَني اصْطِبارٌ (٦)، حَتَّى سألْتُهُ: مَا دَعاكَ إلَى التَّعَامِي(٧)، مَعَ سَيْرِكَ فِي المَعَامِي، وجوْبِكَ الْموَامِي(٨)، وإيغالِكَ فِي المَرامي؟ فتَظاهَرَ باللُّكْنَةِ (٩)، وتشاغَلَ باللُّهْنَةِ(١٠)، حتى إذَا قَضى وطَرَهُ، أتْأَرَ إلَيَّ نظَرَهُ، وأنشَدَ:

وَلَمَّا تَعامى الدّهرُ وهُوَ أبو الوَرَى ... عنِ الرُشْدِ فِي أنحائه(١١) ومقاصدهْ
تعامَيتُ حتى قيلَ إني أخو عَمًى ... ولاَ غَرْوَ(١٢) أنْ يحذو الفتى حَذوَ والدهْ

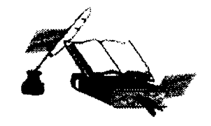
ثُمَّ قَالَ لِي: انْهَضْ إلَى الْمُخدَعِ فأتني بغَسولٍ يَروقُ(١٣) الطّرْفَ، ويُنْقي الكَفَّ، وينعِّمُ البَشَرةَ، ويُعطِّرُ النّكهَةَ، ويشُدّ اللّثَةَ، ويقوّي المَعدَةَ، ولْيكُنْ نَظيفَ الظَّرْفِ(١٤)، أريجَ العَرْفِ، فتِيَّ الدّقِّ، ناعِمَ السّحْقِ، يحسَبُهُ اللاّمِسُ ذَروراً، ويَخالُهُ الناشِقُ كافوراً، واقْرُنْ بهِ خِلالَةً (١٥) نقيّةَ الأصْلِ، محبوبَةَ الوصْلِ، أنيقَةَ (١٦) الشّكلِ، مَدْعاةً إلَى الأكْلِ، لها نَحافَةُ(١٧) الصّبِّ،

---

(١) ممنوع ومحجوب.
(٢) عينيه.
(٣) حَدَّدَ النَّظَر وحرَّك عينيه وأدارهُمَا.
(٤) كوكبان عند القطب.
(٥) سكون.
(٦) صبر.
(٧) التشبه بالأعمى.
(٨) أي: وقطعك القفار الواسعة.
(٩) أظهر أن به عقدة في لسانه، يعني: أنَّهُ انقطع عن الكلام كَأَنَّ به ذلك.
(١٠) ما يتعجله الرَّجُل قبل الطعام.
(١١) أنحائه.
(١٢) لا عجب.
(١٣) يعجب.
(١٤) الوعاء.
(١٥) ما يتخلل به.
(١٦) حسنة معجبة.
(١٧) رِقَّة.

وصَقالَةُ[١] العَضْبِ، وآلَةُ الحربِ، ولُدونَةُ الغُصْنِ الرّطْبِ.

قَالَ: فنَهضْتُ فيما أمرَ، لأدْرَأَ [٢] عنْهُ الغمرَ، ولَمْ أهِمْ إلَى أنّهُ قصدَ أنْ يَخْدَعَ، بإدْخاليَ المُخدَعَ، ولاَ تظَنّيْتُ [٣] أنّهُ سخِرَ منَ الرّسولِ، في استدْعاء الخِلالَة والـغَسول، فلَمَّـا عُدْتُ بالمُلـتَمَسِ[٤]، في أقرَبَ منْ رجْـعِ النّفَسِ، وجدْتُ الجوَّ[٥] قَدْ خَلا، والشيْخَ والشيْخَةَ قد أجْفَلا [٦]، فاستَشَطْتُ [٧] منْ مكْرِهِ غضَبـا، وأوْغَلتُ في إثْرِهِ [٨] طلَبـا، فكانَ كمَنْ قُـمِسَ في الماء، أو عُرِجَ[٩] بهِ إلَى عَنانِ السّماء.



(١) بريق ولمَعَان.

(٢) أدفع.

(٣) التَّظَنِّي: إعْمَالُ الظَّن.

(٤) أي: المطلوب.

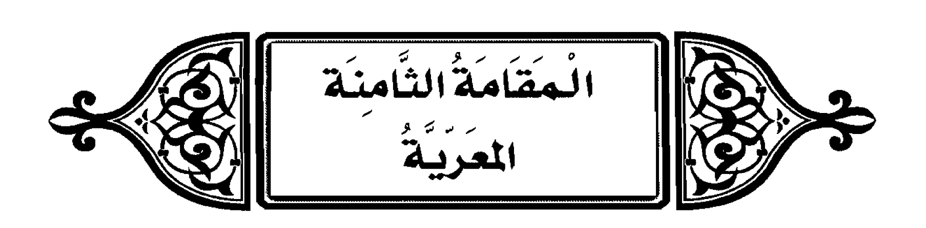
(٥) المكان.

(٦) ذهَبَا.

(٧) الْتهبَتْ واحْترَقَتْ.

(٨) بكسر فسكون وبفتحتين؛ أي: خلفه.

(٩) رُقِيَ بِهِ.



الْمَقامَةُ الثَّامِنَةُ المَعَرِّيَّةُ

أخبرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ، قَالَ: رأيتُ منْ أعاجيبِ الزّمانِ، أنْ تقدّم خَصْمانِ، إلَى قاضي مَعرّةِ النّعمانِ، أحدُهُما قَدْ ذهَبَ منْهُ الأطْيبانِ(١)، والآخَرُ كأنّهُ قَضيبُ البانِ، فَقَالَ الشيخُ: أيّدَ اللهُ القاضيَ، كما أيّدَ به الْمُتقاضيَ (٢)، إنّهُ كانَتْ لِي مَمْلوكَةٌ رَشيقَةُ (٣) القَدِّ، أَسيلَةُ (٤) الخدّ، صَبورٌ عَلَى الكَدِّ (٥)، تخُبّ أحْياناً كالنَّهْدِ (٦)، وترقُدُ أطْواراً (٧) فِي الْمَهْدِ، وتجِدُ فِي تَمُّوزَ مَسَّ البَرْدِ، ذاتُ عقْلٍ(٨) وعنانٍ، وحدٍّ وسنانٍ(٩)، وكفٍّ ببَنانٍ، وفمٍ بلا أسْنانٍ، تلْدَغُ بلسانٍ نَضْناضٍ(١٠)، وترْفُلُ فِي ذَيْلٍ فضْفاضٍ، وتُجْلَى فِي سَوادٍ وبَياضٍ، وتُسْقَى ولكِنْ منْ غيرِ حِياضٍ، ناصِحَةٌ خُدَعَةٌ، خُبَأَةٌ طُلَعَةٌ، مطْبوعَةٌ عَلَى المنفَعَةِ، ومطْواعَةٌ فِي الضّيّقِ والسَّعَةِ، إذَا قطَعَتْ (١١) وصلَتْ، ومَتَى فَصلْتَهَا (١٢) عنْكَ انفَصَلَتْ، وطالَمَا خدَمَتْكَ فجمّلَتْ، وربّما جنَتْ (١٣) عليْكَ فآلَمَتْ (١٤) وملْمَلَتْ، وإنّ هَذَا الفَتَى استَخْدَمَنيها

---

(١) الطَّيِّبَانِ هُمَا: الأكْلُ والجِمَاعُ. وقيلَ: النَّوْمُ والجِمَاع. وقِيلَ: الشَّحم والشَّبَاب.

(٢) طالب الحقّ.

(٣) خفيفة معتدلة القامة.

(٤) سهلته طويلته.

(٥) الشدَّة في العمل وطلب المكسب.

(٦) الفرس الناهض الكريم الطويل القامة.

(٧) أوْقَاتًا.

(٨) ربط.

(٩) ذبابة.

(١٠) كثير الحركة.

(١١) فَصَّلت الثَّوب.

(١٢) عزلتها وتجنّبتها.

(١٣) ضربتك برأسها.

(١٤) أوجعت.

لغرَضٍ(١)، فأخْدَمْتُهُ إيّاهَا بلاَ عِوضٍ، عَلَى أَنْ يجتَنِيَ نَفْعَها، وَلاَ يُكلّفَها إلا وُسْعَها، فأولَجَ (٢) فيهَا مَتاعَهُ، وأَطَالَ بِـهَا استِمْتاعَهُ (٣)، ثُمَّ أعَادَهَا إليَّ وقَدْ أفْضَاهَا (٤)، وبذَلَ عَنْها قِيمَةً لاَ أَرْضَاهَا، فَقَالَ الْحَدَثُ: أمَّا الشَّيْخُ فَأصْدَقُ منَ القَطا، وأما الإفْضاءُ ففَرَطَ عنْ خَطَأٍ (٥)، وقدْ رهَنْتُهُ، عن أرْشٍ(٦) مَا أوْهَنْتُهُ (٧)، مَمْلوكاً لِي مُتناسِبَ الطّرَفَيْنِ، مُنتَسِباً إلَى القَيْنِ، نقيّاً منَ الدّرَنِ والشَّيْنِ (٨)، يُقارِنُ مَحلُّهُ سَوادَ العينِ، يُفْشِي الإحْسَانَ، ويُنْشِي(٩) الاستِحْسَانَ، ويُغْذِي الإنْسانَ، ويَتحامَى اللّسانَ، إنْ سُوِّدَ جادَ، أَوْ وَسَمَ(١٠) أَجَادَ، وَإذَا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّادَ، ومَتَى استُزِيدَ زَادَ، لاَ يستَقِرّ بمَغْنًى(١١)، وقلّما ينكِحُ إلا مَثْنى، يسْخُو(١٢) بمَوجودِه، ويسْمو عندَ جودِه، وينْقادُ (١٣) مَعَ قَرينَتِهِ، وإنْ لَمْ تكُنْ مِنْ طينَتِهِ، ويُستَمْتَعُ بزينَتِه، وإنْ لَمْ يُطْمَعْ فِي لينَتِهِ، فَقَالَ لهُما القاضي: إمّا أَنْ تُبِينَا، وإلا فَبِينَا (١٤)، فابْتَدَرَ الغُلامُ وَقَالَ:

أعَارَني إبرَةً لأَرْفُوَ (١٥) أطْمَارَ عَفَاهَا البِلى وسوّدَها
فانخرَمَتْ فِي يَدي عَلَى خطَأٍ مِنّيَ لَمّا جَذَبْتُ مِقْوَدَها(١٦)

(١) لقَصْد. (٢) أَدْخلَ.
(٣) استعماله.
(٤) خرقها وأُريد به هنا: أنه خرم خرمتها؛ أي: سمّها.
(٥) عن غير عمد. (٦) الأرش: دية الجراحات.
(٧) أفسدته. (٨) الْعَيْب.
(٩) يبتدئُ الاستِحْسَان. (١٠) علم.
(١١) بمنزل. (١٢) يسمح.
(١٣) ينصرف. (١٤) أبعدا.
(١٥) الرفو: إصْلاحُ الخرْق بِنسَاجِهِ. (١٦) الخيط الذي فيها.

فلمْ ير الشيخُ أنْ يُسامحَني *** بأرْشِهَا[1] إذْ رأى تأوُّدَها
بلْ قالَ هات إبرةً تُماثلُها *** أو قيمَةً بعْدَ أنْ تجوِّدَها
واعْتاقَ ميلي رَهْناً لديْه ونا *** هيكَ[2] به سُبّةً[3] تزوّدَها
فالعينُ مَرْهَى لرَهْنه ويدي *** تقصُرُ عنْ أنْ تفُكَّ[4] مرودَها
فاسبُرْ[5] بذا الشّرحِ غورَ مسكَنتي[6] *** وارْثِ[7] لمنْ لم يكُنْ تعوّدَها

فأقبلَ القاضي علَى الشيخِ وقَالَ: إيهٍ، بغَيرِ تمْويه! فقَالَ:

أقسَمْتُ بالمَشْعَرِ الحَرامِ ومنْ *** ضمّ منَ النَّاسكينَ[8] خَيْفُ منى
لوْ ساعَفَتْني[9] الأيّامُ لَمْ يرَني *** مُرتَهناً ميلَهُ الّذي رهَنا
وَلاَ تصدّيتُ أبتَغي بدَلاً *** منْ إبْرَة غالَها[10] وَلاَ ثَمَنا
لكنّ قوسَ الخُطُوب[11] ترشُقُني *** بمُصْمياتٍ[12] منْ ههُنا وهُنا
وخُبْرُ حالي كخُبْرِ حالته *** ضُرا وبؤساً وغُربَةً وضَنَى[13]
قد عدَلَ الدهْرُ بينَنا فأنا *** نظيرُهُ في الشّقاء وهُوَ أنا
لا هُوَ يسْطيعُ فكّ مرودَه *** لمّا غدا في يَدَيّ مُرتَهَنا
وَلاَ مَجَالي[14] لضيق ذات يَدي *** فيه اتّساعٌ للعَفْو حينَ جَنى
فَهَذه قصّتي وقصّتُه *** فَانْظُرْ إلَيْنا وبَيْنَنَا[15] ولَنَا

(١) قيمة ما نقص منها وهو ديتها.
(٢) حسبك وغايتك.
(٣) عارًا.
(٤) تخلص.
(٥) انظُرْ وقَدِّرْ وفَتِّشْ.
(٦) ذُلّي.
(٧) ارْحَمْ.
(٨) جمع ناسك، وهو: المتقرِّبُ بنسيكة؛ أي: ذبيحة.
(٩) ساعدتني.
(١٠) أهلكها.
(١١) الدَّوَاهي.
(١٢) أصلها السِّهَام التي تقتل الصيد سريعًا، وأرادَ بها: الحوادث المهلكات من أصماه إذا قتله مكانه.
(١٣) هزلاً.
(١٤) مداري.
(١٥) بالحكم.

فَلَمَّا وعَى القاضي قَصَصَهُمَا (١)، وتبيّنَ خَصاصتَهُما وتخَصُّصَهُما(٢)، أبرَزَ لهُما ديناراً مِنْ تحْتِ مُصَلاَه، وقال لهُما: اقْطَعا بِه الخِصامَ وافصلاه، فَتَلَقَّفَهُ(٣) الشيخُ دونَ الْحَدَث، واستَخلَصَهُ عَلَى وجهِ الجِدِّ لا العبَث، وقال للحدَث: نِصفُه لِي بسَهْمِ مَبَرَّتي(٤)، وسهْمُكَ لِي عنْ أرْشِ(٥) إبْرَتي، ولستُ عنِ الحقّ أميلُ، فقُمْ وخُذِ الميلَ، فعَرا الحدَثَ لما حدثَ اكتئابٌ، واكفهَرَّ(٦) عَلَى سَمائه سَحابٌ، وجَمَ لَهُ القاضي، وهيّجَ أسَفَهُ عَلَى الدّينارِ الماضي، إلا أنّهُ جبَرَ بالَ الفتَى وبَلْبالَهُ (٧)، بدُرَيْهِماتٍ رضَخَ بها له، وقال لهُما: اجْتَنِبا المُعامَلات، وادْرآ الْمُخَاصَمَاتِ، ولاَ تَحْضُراني فِي المُحاكَماتِ، فما عِندي كيسُ الغَراماتِ.

فنَهَضا منْ عِنْده، فرِحَينَ برِفْده(٨)، مُفصِحين بحَمْده، والقاضي ما يخْبو(٩) ضجَرُهُ، مُذْ بضَّ حجَرُهُ، ولاَ ينْصُلُ (١٠) كَمَدُهُ، مُذْ رشَحَ جَلْمَدُهُ(١١)، حتَّى إذَا أفاقَ مِنْ غَشْيتِه(١٢)، أقبلَ عَلَى غاشِيَتِه، وقَالَ: قَدْ أُشرِبَ حِسِّي(١٣)، ونبَّأني حدْسِي(١٤)، أنهُما صاحِبَا دَهَاء، لا خَصْما ادِّعَاء، فكيفَ السّبيلُ إلَى سبرِهِما، واستِنْباطِ سرّهما؟ فَقَالَ له نِحْريرُ زُمرَتِه، وشِرارَةُ جَمرَتِه: إنّه لنْ يتمّ استِخراجُ خَبْئِهِما (١٥) إلا بهِمَا،

---

(١) خبرهما.
(٢) تفضلهما وانفرادهما.
(٣) تناوله بسرعة.
(٤) نصيب صلتي.
(٥) دِيَة.
(٦) اسْوَدَّ وغلظ وركب بعضه بعضًا.
(٧) وسواس صدره.
(٨) عطائه.
(٩) يخمد.
(١٠) يزول.
(١١) حجره.
(١٢) زوال عقله.
(١٣) قلبي وإدراكي وفَهمِي.
(١٤) ظَنِّي.
(١٥) مكرهما.

فقفّاهُما عَوْناً يُرْجِعُهُما إليْه، فَلَمَّا مَثَلا بينَ يدَيه، قالَ لهُما: اصْدُقاني سِنَّ بَكْرِكُما، ولكُما الأمانُ من تَبِعَةِ (١) مكْرِكُما، فأحْجَمَ الحدَثُ واستَقالَ، وأقدَمَ الشيخُ وقَالَ:

أنا السَّروجيُّ وهَذا ولَدي ... والشِّبْلُ(٢) في المَخْبَرِ(٣) مثلُ الأسَدِ

وما تعدّتْ يدُهُ ولاَ يَدي ... في إبرَةٍ يوْماً ولاَ في مِرْوَدِ

وإنّما الدهرُ المُسيءُ المُعْتَدي(٤) ... مالَ بنا حتّى غدَوْناً نجْتَدي(٥)

كلَّ نَدي الرّاحةِ عذْبِ المَوْرِدِ(٦) ... وكلَّ جعْدِ الكفّ مغْلولَ اليَدِ

بكُلّ فنٍ وبكلّ مقْصَدِ ... بالجدّ إنْ أجْدَى وإلاّ بالدَّدِ(٧)

لنَجلبَ الرّشْحَ إلَى الحظّ الصَّدي(٨) ... ونُنْفِدَ العُمْرَ بعيشٍ أنْكَدِ

والموتُ منْ بعْدُ لَنا بالمَرصَدِ(٩) ... إنْ لَمْ يُفاجِ(١٠) اليومَ فاجَى في غَدِ

فَقَالَ لَهُ القاضي: لله درُّكَ فما أعذَبَ نفَثاتِ(١١) فيكَ، وواهاً لَكَ لوْلا خِداعٌ فيكَ! وإني لَكَ لمِنَ المُنْذِرينَ، وعليْكَ مِنَ الحَذِرينَ(١٢)، فلا تُماكِرْ بعْدَها الحاكِمينَ، واتّقِ سَطْوَةَ (١٣) المُتحكّمينَ، فما كُلّ مُسيْطِرٍ يُقيلُ(١٤)، ولاَ كُلُّ أوَانٍ يُسْمَعُ القِيلُ، فعاهَدَهُ الشيخُ عَلَى اتّباعِ مَشورَتِه، والارْتِداعِ(١٥) عَنْ

---

(١) جناية.

(٢) ولد الأسد.

(٣) أي في التجربة.

(٤) الظالم.

(٥) نطلب الْجَدْوَى؛ أي: العطاء من الناس.

(٦) يعني: سهل العطاء.

(٧) بالهزل واللَّعِب.

(٨) العطشان من الصَّدي وهو العطش.

(٩) مترقب لنا.

(١٠) يباغت.

(١١) كلماتك.

(١٢) المشفقين.

(١٣) قهر وبطش.

(١٤) يعفُو عن الزَّلّةِ.

(١٥) الرجوع والكفّ.

تلْبيسِ(١) صورتِهِ، وفصَلَ عن جِهتِهِ، وَالْـخَتْرُ(٢) يلمَعُ من جبهتِهِ.

قَالَ الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمْ أرَ أعجَبَ منْها فِي تصاريفِ الأسْفارِ، ولاَ قرأتُ مِثلَهُ فِي تَصَانيفِ الأَسْفَارِ(٣).

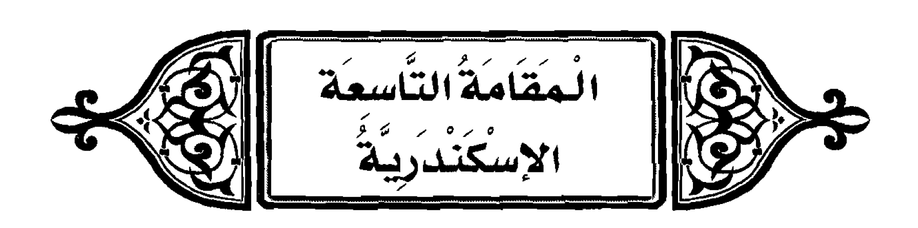
۞۞۞

---

(١) تغيير.

(٢) الغدر والخديعة، أو: أقبح العذر.

(٣) جمع سِفْر ـ بالكسر ـ وهو: الكتاب الكبير.



المَقَامَةُ التَّاسعَة الإسْكَنْدَرِيَّةُ

قالَ الْحَارِثُ بنُ هَمَّامٍ: طَحَا بِي مَرَحُ الشَّباب، وهَوَى الاكْتِسَاب(١)، إلَى أَنْ جُبْتُ مَا بينَ فرْغانَةَ (٢)، وغانَةَ (٣)، أخوضُ الغمارَ، لأجْني الثّمارَ، وأقْتَحِمُ الأخْطارَ، لكَيْ أُدركَ الأوْطارَ (٤)، وكُنتُ لَقفْتُ منْ أفْواه العُلَماء، وثَقفْتُ مِنْ وَصايا الحُكَماء، أنهُ يلْزَمُ الأديبَ الأريبَ (٥)، إذَا دخَلَ البلَدَ الغريبَ، أنْ يَستَميلَ قاضِيَهُ، ويستَخْلِصَ مَراضِيَهُ (٦)، ليشْتَدّ ظهرُهُ عندَ الخصامِ، ويأمَنَ فِي الغُربَةِ جَوْرَ الحُكّامِ، فاتّخذْتُ هَذَا الأدَبَ إماماً(٧)، وجعلْتُهُ لِمَصَالحِي زِمَامًا، فما دخلْتُ مَدينةً، ولاَ ولَجْتُ (٨) عَرينَةً (٩)، إلا وامتزجْتُ (١٠) بحاكمِها امتِزاجَ الماءِ بالرّاحِ(١١)، وتقوّيْتُ بعنايَتِهِ تقَوّي الأجْسادِ بالأرْواحِ، فبَينَما أنا عندَ حاكِمِ الإسكنْدَريّة، فِي عشيّة عرِيّة، وقَدْ أحضرَ مالَ الصّدَقاتِ، ليَفُضّهُ(١٢) علَى ذَوي الفَاقَاتِ(١٣)، إذْ دخَلَ شيخٌ عِفْرِيَةٌ(١٤)، تَعتِلُهُ (١٥) امرأةٌ مُصْبِيَةٌ (١٦)، فَقَالَت: أيّدَ اللهُ القاضيَ، وأدامَ به

---

(١) محبة اكتساب المال.
(٢) بلد بأقصى بلاد المشرق.
(٣) بلد بأقصى المغرب.
(٤) الحاجات.
(٥) العاقل.
(٦) أي: رضَاه.
(٧) قدوة، يعني: أعمل بمقتضاه.
(٨) دخلت.
(٩) مأوى الأسد.
(١٠) اختلطت.
(١١) الخمر.
(١٢) يفرقه.
(١٣) الفقراء المحتاجين.
(١٤) خبيث شديد الدهاء.
(١٥) تجرّه بعنف وجفاء.
(١٦) ذات صبيان.

التّراضي، إني امرأةٌ من أكْرَمِ جُرثومَةٍ (١)، وأطْهَرِ أرُومَةٍ، وأشرَف خُؤولَةٍ(٢) وعُمومَةٍ، مِيسَمي الصَّونُ (٣)، وشِيمَتي الهَوْنُ، وخُلُقي نِعْمَ العَوْنُ، وبيْني وبينَ جاراتي بوْنٌ، وكان أبي إذَا خطَبَني بُناةُ المجْدِ، وأرْبابُ (٤) الجَدِّ، سكّتَهُم وبكّتَهُم، وعافَ وُصلَتَهُمْ وصِلَتَهمْ، واحتجّ بأنّهُ عاهَدَ اللهَ تَعالى بحلْفَةٍ، ألا يُصاهِرَ (٥) غيرَ ذي حِرفَةٍ، فقيّضَ القدَرُ لنَصَبي، ووَصَبي، أنْ حضرَ هَذَا الخُدَعَةُ ناديَ أبي، فأقسمَ بينَ رهْطه (٦)، أنّهُ وَفْقُ شرْطِه، وادّعى أنّهُ طالمَا نظَمَ دُرّةً إلَى درّةٍ (٧)، فباعَهُما ببَدْرَةٍ (٨)، فاغْتَرّ أبي بزَخرَفَةِ مُحالِه، وزوّجَنيهِ قبْلَ اختِبارِ حالِه، فَلَمَّا استَخْرَجَني منْ كِناسِي(٩)، ورحّلَني عنْ أُناسي، ونقَلَني إلَى كسْرِه(١٠)، وحصّلَني تحْتَ أسرِه، وجدْتُهُ قُعَدَةً جُثَمَةً(١١)، وألفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُوَمَةً، وكنتُ صحِبْتُهُ برِياشٍ(١٢) وزِيٍّ، وأثاثٍ ورِيٍّ، فما برِحَ يَبيعُهُ فِي سوقِ الهضْمِ، ويُتْلِفُ ثمَنَهُ فِي الخَضْمِ، والقَضْمِ(١٣)، إلَى أنْ مزّقَ مَا لِي بأسْرِه، وأنْفَقَ مالي فِي عُسْرِه(١٤)، فَلَمَّا أنْساني طعْمَ الرّاحةِ، وغادرَ بيْتي أنْقَى مِنَ الرّاحةِ (١٥)، قلتُ له: يَا هَذَا إنّهُ

(١) أصل.
(٢) جمع خال.
(٣) الحفظ والعفاف.
(٤) أصحاب الغنى.
(٥) لا يزوج ابنته.
(٦) قومه وعشيرته.
(٧) جوهرة إلى جوهرة.
(٨) البدرة: عشرة آلاف درهم.
(٩) منزلي، وأصله: بيت الظبي أو بقر الوحش.
(١٠) بفتح الكاف وكسرها؛ أي: جانب بيته.
(١١) كثير الجثوم؛ أي: يلازم الموضع الذي يقعد فيه.
(١٢) مال ولِبَاس فاخر.
(١٣) الأكل بأطراف الأسنان، وقيل: الخضم: الأكل بأطراف الأسنان، والقضم: بمقدمها، وقيل: الخضم أكل الرطب، والقضم: أكل اليابس، يريد: أنه يصرف ثمنه في أنواع الأكل واللّذّات.
(١٤) في قلّة ذات يده.
(١٥) بطن الكفّ لنقائه من الشّعْرِ.

لا مخبأ بعْدَ بُوسٍ(١)، ولاَ عِطْرَ بعْدَ عَروسٍ، فانهَضْ للاكْتساب بصناعَتكَ، واجْنِني ثمَرَةَ براعتكَ، فزعَمَ أنْ صناعَتَهُ قَدْ رُميتْ بالكَسَاد(٢)، لما ظهرَ في الأرضِ من الفَساد، ولي منْهُ سُلالةٌ، كأنّهُ خلالَةٌ، وكلانا مَا ينَالُ معَهُ شُبْعَةً(٣)، ولاَ ترْقأُ (٤) لَهُ منَ الطّوى دمعَةٌ، وقَدْ قُدتُهُ إليْكَ، وأحضَرْتُهُ لديْكَ، لتَعْجُمَ عودَ دعْواهُ، وتحْكُمَ بينَنا بمَا أراكَ اللهُ، فأقْبَلَ القاضي عليْه وقال لهُ: قد وعَيْتُ قَصَصَ عرْسكَ (٥)، فبرْهنِ الآنَ عن نفسكَ، وإلا كشَفْتُ عن لَبْسكَ (٦)، وأمرْتُ بحبْسكَ، فأطْرَقَ إطْراقَ الأُفْعُوانِ(٧)، ثُمَّ شمّرَ للحرْبِ العَوانِ، وقَالَ:

اسْمَعْ حَديثي فإنّهُ عجَبُ ... يُضحكُ من شرحه ويُنتحَبُ(٨)
أنا امرؤٌ ليسَ في خَصائصه(٩) ... عيْبٌ ولاَ في فَخاره(١٠) ريَبُ
سَروجُ داري الّتي ولدْتُ بها ... والأصلُ غسّانُ حينَ أنتسبُ
وشُغلي الدّرسُ والتبحُّرُ في الـ ... ـعلم طلابي(١١) وحبّذا الطّلَبُ(١٢)
ورأسُ مالي سحْرُ الكَلامِ الّذي ... منهُ يُصاغُ القَريضُ(١٣) والخُطَبُ
أغوصُ في لُجّةِ البَيان فأخـ ... ـتارُ اللآلي منْها وأنْتَخبُ

---

(١) فقر.
(٢) هو خمود السوق وقلّة البيع: ضد النِّفَاق ـ بالفتح.
(٣) بالضم ـ قدر ما يشبع به مرّة.
(٤) تسكن.
(٥) ما قصته زوجتك.
(٦) إشكالك وتعمية أمرك.
(٧) ذكر الأفاعي أو العظيم منها.
(٨) يبكي ويشهق من سماعه؛ لأنَّ الانتحاب: بكاءٌ مع شهيق، ويُطلَقُ على رفع الصوت بالبُكَاء.
(٩) خصاله وطباعه.
(١٠) مباهاته بالمكارم والمناقب.
(١١) بالكسر، أي: مطلوبي.
(١٢) ما أحبّه.
(١٣) الشعر.

وأجْتَني اليَانعَ[١] الجَنيَّ منَ الـ ـقَوْل وغَيري للعُود يحْتَطبُ

وآخُذُ اللفْظَ فضّةً فإذَا ما صُغْتُهُ[٢] قيلَ إنّهُ ذهبُ

وكُنتُ منْ قبلُ أمْتَري[٣] نشَبا بالأدَبِ المُقْتَنى وأحتَلبُ

ويمْتَطي أخْمَصي لحُرمَتهِ مَراتباً ليسَ فوقَها رُتَبُ[٤]

وطالمَا زُفّت الصِّلاتُ إلَى رَبْعي[٥] فلَمْ أرْضَ كلَّ منْ يهَبُ

فاليَوْمَ منْ يَعْلَقُ الرَّجاءُ به أكْسَدُ شيءٍ في سوقِه الأدَبُ

لا عِرْضُ أبْنائه يُصانُ ولا يُرْقَبُ[٦] فيهِمْ إلٌّ ولاَ نسَبُ

كأنّهُمْ في عِراصِهِمْ جيَفٌ[٧] يُبْعَدُ منْ نتْنِها ويُجْتَنَبُ

فحارَ لُبّي[٨] لِمَا مُنيتُ به منَ اللّيالي وصَرْفِها[٩] عَجَبُ

وضاقَ[١٠] ذرْعي لِضيقِ ذاتِ يَدي وساوَرَتْني[١١] الهُمومُ والكُرَبُ

وقادَني دهْري المُليمُ إلَى سُلوكِ ما يستَشينُهُ[١٢] الحسَبُ

فبِعْتُ حَتَّى لم يبْقَ لي سَبَدٌ ولاَ بَتَاتٌ[١٣] إليْهِ أنْقَلِبُ

وادّنْتُ حَتَّى أثْقَلتُ سالِفَتي بحَمْلِ دَيْنٍ من دونِه العطَبُ

ثمّ طوَيتُ الحَشا علَى سَغَبٍ[١٤] خمْساً فلمّا أمَضّني السّغَبُ

لمْ أرَ إلا جِهازَهَا[١٥] عرَضاً[١٦] أجولُ في بيْعِه وأضْطَرِبُ

---

(١)الزَّاهِي.
(٢)سبكته.
(٣)اكتسب.
(٤)جمع رتبة، و هي: المنزلة الرفيعة.
(٥)منزلي.
(٦)يحفظ.
(٧)جمع جيفة، وهي: الميتة المنتنة.
(٨)تحيَّر عقلي.
(٩)تقلبها.
(١٠)انقبض قلبي.
(١١)واثبتني وغلبتني.
(١٢)يستبشعه.
(١٣) **البتات**:الزاد ومتاع البيت.
(١٤)جوع.
(١٥)الجُهاز ـ بفتح الجيم وكسرها: فاخر متاع البيت وأهبة السَّفر.
(١٦)حطام الدنيا وهو: المال قلَّ أو كثُرَ.

فجُلتُ فيه والنّفسُ كارهَةٌ ... والعينُ عبرَى[١] والقلبُ مُكتَئبُ[٢]
وَمَا تَجَاوَزْتُ إذْ عَبِثْتُ به ... حَدَّ التَراضي فيحدُثَ الغضَبُ
فإنْ يكُنْ غاظَهَا[٣] توهُّمُها ... أنّ بَنَاني بالنّظْمِ تَكتسِبُ
أو أنّني إذ عزَمتُ خِطبَتَها ... زخْرَفتُ[٤] قولي لينجَحَ الأرَبُ
فوالّذي سارَت الرّفاقُ إلَى ... كعْبَتِه تستَحِثُّها النُّجُبُ[٥]
ما المكْرُ بالمُحصَنات من خُلُقي[٦] ... وَلاَ شعَاري التّمويهُ والكذبُ
وَلاَ يَدي مُذْ نشأتُ نِيطَ بها ... إلا مَواضي اليَراعِ والكُتُبُ
بل فِكْرَتي تنظمُ القَلائدَ لا كفْ ... فِي وشعري المنظوم لا السُّخُبُ
فَهَذه الحِرفَةُ المُشَارُ إلَى ... مَا كُنتُ أَحْوِي[٧] بها وأجتَلِبُ[٨]
فأذَنْ لشَرْحي[٩] كما أذنتَ لها ... وَلاَ تُراقِبْ وَاحْكُمْ بما يَجِبُ

قال: فَلَمَّا أحكَم مَا شادَهُ[١٠]، وأكملَ إنشادَهُ، عطَفَ القاضي إلَى الفَتاةِ، بعْدَ أَنْ شُغِفَ بالأبيات، وَقَالَ: أمَا إنّهُ قَدْ ثبَتَ عندَ جميع الحُكّامِ، ووُلاَةِ الأحْكامِ[١١] انقِراضُ[١٢] جيلِ الكرامِ، وميْلُ الأيامِ إلَى اللّئامِ[١٣]، وإني لإخالُ بعْلَك صَدوقاً فِي الكلامِ، بريّاً من الملامِ، وها هو قد اعترَفَ لَكَ بالقَرْضِ[١٤]، وصرّحَ عنِ المَحْضِ[١٥]، وبيّنَ مِصْداقَ النّظْمِ، وتبيّنَ أنّه

(١) دامعة باكية.
(٢) حزين.
(٣) أغضبها.
(٤) زينت وحسنت.
(٥) جمع نجيبة، وهي: الكريمة من الإبل.
(٦) طَبْعي وسَجِيَّتي.
(٧) أحوز.
(٨) أجمع وأكتسب.
(٩) فاستمع لقولي.
(١٠) أتقن ما قاله. والنشأة من شاد البناء: إذا طلاه بالشيد، وهو: الجُصّ.
(١١) أُمرَاء الشّرائع.
(١٢) انقطاع وفناء.
(١٣) أهل البُخْل.
(١٤) السلف.
(١٥) الخالص.

مَعروقُ العظْمِ، وإعْنــاتُ المُعْذِرِ مَلأَمَةٌ (١)، وحبْسُ المُعسرِ(٢) مأْلَمَةٌ، وكتْمانُ الفَقْرِ زَهادَةٌ، وانتظارُ الفَرَجِ بالصَّبرِ عِبادَةٌ، فارْجعي إلَى خدرك(٣)، واعذُري أبا عُذْرِكِ، ونَهْنِهي عن غَرْبِك، وسلِّمي لقَضاءِ ربِّك، ثُمَّ إنَّهُ فَرَضَ (٤) لهُما في الصَّدقات حِـصّةً، وناولَهُما منْ دَراهمِـها قَبصَةً، وقال لهُـما: تعلَّلا(٥) بهَـــذه العُلالَة، وتندّيا بهَـــذه البُلالَة (٦)، واصْبرا عَلَى كـيْد الزّمان وكدِّه، فعَسَى اللهُ أنْ يأتيَ بالفَتْحِ أو أمرٍ من عِندِه، فنَهَضا وللشّيْخِ فرْحَةُ المُطْلَقِ من الإسَارِ(٧)، وهِزّةُ الموسرِ بعْدَ الإعْسار.

قَالَ الرّاوي: وكنــتُ عرفْتُ أنَّهُ أبو زيد ســاعةَ بزغَتْ شمــسُهُ، ونزغَتْ عرسُهُ، وكدْتُ أُفْـصِحُ عن افتنانه، وأثْمارِ أفْنانــه، ثُمَّ أشفَقْتُ (٨) من عُثُور القَاضي عَلَى بُــهتانه(٩)، وتزْويقِ لسانــه، فلا يرَى عندَ عِرْفانــه، أنْ يُرشِّحَهُ لإحسانه، فــأحْجَمْتُ (١٠) عنِ القوْلِ إحْجــامَ الْـمُرْتَاب(١١)، وطويتُ ذكْرَهُ كطَيِّ السِّجِلِّ للكتابِ، إلا أني قُلتُ بعدَما فصَلَ، ووصلَ إلَى مَا وصَلَ: لوْ أنّ لَنا مَنْ ينطَلِــقُ فِي أثَرِه، لأتانا بفَصٍّ (١٢) خبَرِهِ، وبِما يُنْــشَرُ من حِبَرِه، فأتبَعَه القــاضي أحدَ أُمنائِه، وأمرَهُ بالتّجسّسِ عنْ أنبــائه، فما لبثَ أنْ رجَعَ مُتَدَهْدِهاً (١٣)، وقهقَرَ مُقهقِهاً (١٤)، فقَالَ لَهُ القَاضِي: مَهْيَمْ، يَا أبا مريَمَ؟

(١) لؤم.

(٢) هو من عَجَزَ عن قضَاء الدَّيْن.

(٣) بيتك وسترك، ومنه: جارية مخدَّرة إذا لزمت الخِدْر.

(٤) عيَّنَ وَقَدَّرَ.

(٥) تشاغلاً وتلاهيًا.

(٦) قدر ما يبلّ به الشيءُ، واسم للبقية أيضًا.

(٧) القيد الذي يُشَدّ به الأسير.

(٨) خفت.

(٩) كذبه.

(١٠) تأخرت.

(١١) تأخر الشاكّ.

(١٢) بحقيقة حاله.

(١٣) التدهده: الإسراع، من دهدهت الحجر: إذا دحرجته.

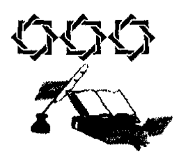
(١٤) القهقرة: المشي إلى الوراء. والقهقهة: الضَّحكُ بصوتٍ.

فَقَالَ: لـقدْ عايَنْتُ عـجبًا (١)، وسمعْتُ مَـا أنْشأ لِي طرَباً، فَقَـالَ لهُ: ماذا رأيتَ، ومـا الَّذي وعَيْتَ؟ قَـالَ: لَمْ يزَلِ الشـيخُ مذْ خـرَجَ يُصفّقُ بيَـدَيْه، ويخالفُ بينَ رِجلَيْه، ويُغرِّدُ (٢) بِملء شِدقَيْه، ويقول:

كـدْتُ أُصْلَى (٣) بِبَلِيَّهْ ... مِنْ وَقَاحٍ شَمَّرِيَّه (٤)
وَأَزُورُ السِّجْنَ لَوْلا ... حَاكِمُ الإسكندريَّهْ

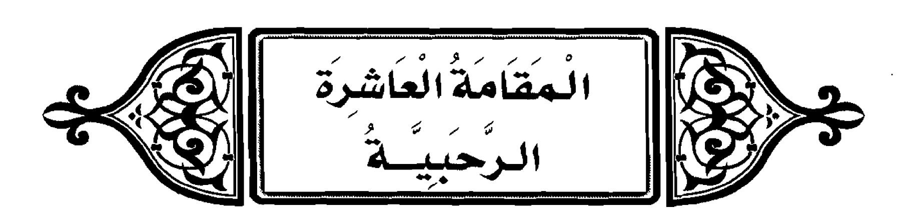
فضحِكَ القـاضي حَتَّى هَوَتْ (٥) دنِّيَّتُهُ، وذوَتْ سكينَتُـهُ، فَلَمَّا فاء إلَى الوَقارِ، وعقّبَ الاستغْراب بالاستغْفـارِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بحُرمَةِ عِبادكَ المقرّبينَ، حرّمْ حبْسي عَلَى المتأدّبينَ، ثُمَّ قَـالَ لذلكَ الأمين: عليَّ بهِ، فانطـلقَ مُجداً بطلَبِه، ثُمَّ عادَ بعدَ لأيِه، مخبّراً بنـأيِه، فَقَالَ لَهُ القاضي: أمَا إنَّهُ لوْ حضرَ، لكُفِيَ الحذرَ، ثُمَّ لأوْلَيْتُـهُ مَا هو به أوْلى، ولأريْتُهُ (٦) أنّ الآخِرَةَ خيرٌ لَهُ من الأولى.

قَالَ الْـحَارث بن هَمَّام: فَلَمَّا رأيتُ صَغْوَ (٧) القاضي إليه، وفَوْتَ ثمرَةِ التّنبيه علَيْهِ، غَشِيَتْني (٨) نَدامَةُ الفرَزْدَقِ حينَ أبانَ النّوارَ، والكُسَعيِّ لَمَّا استَبانَ النّهارَ.



---

(١) أمرًا يتعجّب منه.
(٢) التغريد: تطريب الصوت.
(٣) أحترق.
(٤) الشمري: الماضي في الأمور الحادّ فيما يحاول.
(٥) وقعت.
(٦) لأفهمته وأعلمته أن العطيَّة الأخيرة خير من العطية الأولى.
(٧) بفتح الصاد؛ أي: ميله.
(٨) أتتني وحضرتني.



الْمَقَامَةُ الْعَاشِرَة
الرَّحَبِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: هتَفَ بي داعي الشّوْقِ، إلَى رَحبَة مَالك ابن طَوْق، فلبّيْتُه مُمتَطِياً (١) شملّةً (٢)، ومُنتَضياً عَزْمَةً مُشمَعلّةً (٣)، فَلَمَّا أَلْقَيْتُ بِهَا الْمَرَاسِيَ (٤)، وشدَدْتُ أمْراسِي، وبرَزْتُ مِنَ الْحَمَّام بَعْدَ سَبْت رَأْسِي، رأيتُ غُلاماً أُفرِغَ فِي قالَبِ الْجَمَال، وأُلبِسَ منَ الْحُسْنِ حُلّةَ الكَمَال، وقد اعْتَلَقَ شيخٌ برُدْنه(٥)، يَدّعِي أَنَّهُ فتَك بابنه، والغُلامُ يُنكِرُ عرِفَتَهُ(٦)، ويُكْبِرُ قرِفَتَهُ (٧)، والْخصامُ بينَهُما مُتطايرُ (٨) الشّرار، والزِّحامُ عليهما يجمَعُ بين الأخيارِ والأشْرَارِ، إِلَى أَنْ تَرَاضيَا بَعْدَ اشتطَاط (٩) اللَّدَد (١٠)، بالتّنافُرِ إلَى وَالِي البلَد، وكان ممَّن يُزَنّ بالْهَنات (١١)، ويغلِّبُ حُبَّ البَنين علَى البَنات، فأسرَعَا إلَى نَدوَته، كَالسُّلَيْك في عَدْوَته، فَلَمَّا حضَراه، جدّدَ الشّيْخُ دعْواهُ، واستَدْعى عدْواهُ، فاستَنطَقَ الغُلامَ وقدْ فتَنَهُ

---

(١)راكبا.

(٢)بكسر الشين والميم وتشديد اللاَّم: ناقة مُسْرِعَةٌ.

(٣)حادة سريعة من اشمعلَّ القوم إذا هرعوا في خوفٍ وشدَّة.

(٤)جمع المرساة كناية عن الإقامة.

(٥)الردن ـ بالضَّمِّ ـ أصل الكم.

(٦)معرفته.

(٧)تهتمته، وأصل القرفة: الكسب.

(٨)متناثر.

(٩)الاشتطاط: تجاوز الحدِّ في كل شيء، واللَّدَد: شدة الخصومة.

(١٠)شدة الخصومة.

(١١)بالقاذورات: كناية عن الغلمان.

بمحاسنِ غُرّته، وطَرَّ عقلَهُ بتصْفيف طُرّتِه[١].

فَقَالَ: إنّه أفيكَةُ أفّاكٍ، علَى غيرِ سفّاكٍ! وعَضيهَةُ مُحْتالٍ، عَلَى منْ ليس بمُغْتال.

فَقَالَ الْوَالِي للشّيخ: إنْ شهدَ لَكَ عـدْلان منَ الْـمُسلمين، وإلا فاسْتَوْفِ منْهُ اليَمينَ، فقَـالَ الشيخُ: إنّهُ جدّلَهُ[٢] خَاسِيًا[٣]، وأفَاحَ[٤] دمَهُ خالياً، فَأنَّى لِي شَاهِدٌ، ولَمْ يكُنْ ثَمّ مُشاهِدٌ؟ ولكِـنْ ولّني تلْقينَهُ اليَمينَ، ليَبينَ لَكَ أيصْدُقُ أم يَمينُ؟

فَقَـالَ لهُ: أنتَ الْمالِك لذلك، مَعَ وجْـدِكَ الْـمُتَـهالِك[٥]، عَلَى ابنِكَ الْهالك.

فَقَالَ الشَّيْخُ للغُـلام: قُلْ وَالّذي زيّن الجِبْاهَ بالطُّرَرِ[٦]، والعُيونَ بالحَوَر، والحَواجِبَ بالبَلَجِ، وَالْـمَبَاسِمَ[٧] بالفلَجِ، والْـجُـفونَ بالسَّقَمِ[٨]، والأنوفَ بالشّـمَمِ، والْــخُدودَ بالـلهَبِ، والثّـغورَ بـالشّنَب، والـبَنانَ[٩] بالتّرَف، والْـخُصورَ بالهيَفِ، إنّني مَا قتَلْتُ ابْنَكَ سهْواً ولاَ عمْداً، ولاَ جعلْتُ هامَتَهُ لسيْـفي غِمْداً، وإلا فرَمـى اللهُ جَفْني بالـعمَشِ، وخدّي بالنّـمَشِ، وطُرّتي بالجلَحِ[١٠]، وطَلْعي بالبَلَحِ، ووَرْدَتي بالبَهارِ، ومِسْكَتي بالبُخارِ، وبَدْرِي[١١] بالمُحاقِ، وفِضّتي بالاحْتِراقِ[١٢]، وشُعاعي بالإظْلامِ، ودَواتي بالأقْلامِ.

---

(١) بتسوية شعر ناصيته.
(٢) صرعه على الجدالة، وهي الأرض.
(٣) بعيدًا فقلب الهمزة للازدواج.
(٤) أراق وأسَالَ.
(٥) الشديد البالغ.
(٦) جمع طرة، وهي: الْقَصَّةُ.
(٧) جمع مبسم، وهو: محل الضحك.
(٨) الفتور.
(٩) الأصابع.
(١٠) هو انحسار شعر مقدم الرأس.
(١١) وجهي.
(١٢) بالسواد كناية عن الالتحاء.

فَقَالَ الغُلامُ: الاصْطلاءَ بالبَلِيّةِ(١)، وَلاَ الإيلاءَ (٢) بهَذه الأَلِيَّة(٣)، والانقيادَ للقوَدِ، وَلاَ الْحَلَفَ بِمَا لَمْ يحلفْ به أحدٌ، وأبى الشَّيْخُ إلا تجْريعَهُ اليَمينَ الَّتي اخترعَها، وأمْقَرَ لَهُ جُرَعَها، ولَمْ يزَلِ التَّلاحِي (٤) بينَهُما يستَعِرُ (٥)، ومَحجّةُ التَّراضي تعرُ، والغُلامُ في ضِمْنِ تأبّيه، يخْلُبُ قلْبَ الوالي بتلوّيه(٦)، ويُطْمعُهُ في أنْ يلبّيه، إلَى أَنْ رانَ هَواهُ عَلَى قلْبه، وألَبَّ بلُبِّه(٧)، فسوّلَ لَهُ الوجدُ الَّذي تيّمَهُ، والطّمعُ الَّذي توهّمَهُ، أنْ يُخلّصَ الغُلامَ ويستخلِصَهُ، وأن يُنقذَهُ من حبالَة الشيخِ ثُمَّ يقتَنِصَهُ.

فَقَالَ للشيخِ: هلْ لَكَ فيما هوَ ألْيَقُ (٨) بالأقْوى، وأقربُ للتّقْوى؟

فَقَالَ: إلامَ تُشيرُ لأقْتَفيه (٩)، وَلاَ أقِفُ لَكَ فيه؟

فَقَالَ: أرى أنْ تُقصرَ عنِ القيلِ والقالِ، وتقتَصرَ مِنْهُ عَلَى مائَة مِثْقالٍ، لأتحمَّلَ منْها بعْضاً، وأجْتَبي الباقيَ لَكَ عُرْضاً (١٠).

فَقَالَ الشيخُ: مَا مِني خِلافٌ، فلا يكُنْ لوعدِكَ إخْلافٌ، فنقَدَهُ الوالي عِشرينَ، ووزّعَ عَلَى وزَعَته (١١) تكْملَةَ خمْسينَ، ورقّ ثوْبُ الأصيلِ، وانقطَعَ لأجْله صوبُ التَّحْصيلِ(١٢).

فَقَالَ: خُذْ مَا راجَ، ودَعْ عنْكَ اللّجاجَ، وعليّ في غدٍ أنْ أتوصّلَ إلَى أَنْ ينِضَّ (١٣) لَكَ الباقي ويتحصّلَ.

---

(١) المصيبة، وهي في الأصل: الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها حتى تموت.
(٢) الحلف.
(٣) اليمين.
(٤) التنازع والتشاتم.
(٥) يلتهب ويتقد.
(٦) بتثنيه وانعطافه.
(٧) بعقله.
(٨) أولَى وأقْرَب.
(٩) لأتبعه.
(١٠) من أي وجهٍ كَانَ.
(١١) أعوانه وخدمه.
(١٢) طريق العطاء.
(١٣) يصير نقداً ومنه الناضُّ؛ أي: النقد.

فَقَالَ الشيخُ: أقْبَلُ منْكَ عَلَى أنْ ألازمَهُ ليْلَتي، ويرْعاهُ إنْسانُ مُقْلَتي، حَتَّى إذَا أَعْفَى[١] بعْدَ إسْفارِ الصبْحِ، بِمَا بَقِيَ منْ مالِ الصّلْحِ، تخلّصَتْ قائِبَةٌ من قُوبٍ، وبَرِئَ بَراءةَ الذّئْبِ منْ دمِ ابنِ يعْقوبَ.

فَقَالَ لَهُ الْوَالِي: مَا أُراكَ سُمْتَ[٢] شَطَطاً[٣]، ولاَ رُمْتَ فرَطاً.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا رأيتُ حُجَجَ الشيخِ كالحُجَجِ السُرَيجيّةِ، علِمتُ أَنَّهُ علَمُ السَّروجيّةِ، فلبِثْتُ إلَى أَنْ زهرَتْ[٤] نُجوم الظّلام، وانتَثَرتْ عُقُودُ الزّحامِ[٥]، ثُمَّ قَصَدْتُ فِناء الْوَالِي، فَإذَا الشَّيْخُ للفتى كَالِي[٦]، فنَشَدْتُهُ[٧] اللهَ أهُوَ أبو زيدٍ؟

فَقَالَ: أيْ ومُحِلّ الصّيْدِ؟

فقُلتُ: مَنْ هَذَا الغُلامُ، الَّذي هفَتْ[٨] لَهُ الأحْلامُ؟

قَالَ: هُوَ فِي النَّسَبِ فَرْخِي[٩]، وفِي الْمُكتَسَبِ فَخِّي!

قُلْتُ: فهَلاّ اكتفَيْتَ بمَحاسنِ فِطرَتِه، وكفَيتَ الواليَ الافْتِتَان بِطُرَّتِه؟

فَقَالَ: لوْ لَمْ تُبرِزْ جبْهَتُهُ السّينَ، لَمَا قنْفَشْتُ[١٠] الخَمسينَ.

ثُمَّ قَالَ: بِتِ اللَّيْلَةَ عندي لنُطْفِئَ نارَ الْجَوى، ونُديلَ الْهَوى من النّوى، فَقَدْ أجْمَعْتُ عَلَى أنْ أنْسَلَّ[١١] بسُحرَةٍ، وأُصْلِيَ قلبَ الوالي نارَ حسْرَةٍ!

قَالَ: فقَضَيتُ اللَّيلةَ مَعَهُ فِي سمَرٍ[١٢]، آنَقَ منْ حَديقَةِ زهَرٍ، وخَميلةِ شجَرٍ،

---

(١) أدّى المال بتمامه.
(٢) كلفت.
(٣) جوراً وأمراً بعيداً
(٤) طلعت وأضاءت.
(٥) تفرّقت الجماعات المزدحمة.
(٦) حارس وحافظ.
(٧) أقسمتُ عليه باللهِ.
(٨) طاشت وذهبت.
(٩) ولدي.
(١٠) جمعت وقبضت.
(١١) أذهب.
(١٢) هو حديث الليل.

حتَّى إذَا لألأ (١) الأفُقَ ذنَبُ السِّرْحان (٢)، وآنَ انبلاجُ الفجْرِ وحانَ، ركبَ متْنَ الطّريقِ، وأذاقَ الوالي عذابَ الحْريقِ، وسلّمَ إليّ ساعةَ الفِراقِ، رُقعَةً مُحكمَةَ الإلْصاقِ.

وَقَالَ: ادْفَعْها إلَى الوالي إذَا سُلبَ القَرار، وتحقّقَ منّا الفرارَ، ففضَضْتُها(٣) فعْلَ الْمتُمَلِّسِ، منْ مثْلِ صَحيفَةِ الْمتُلَمِّسِ، فَإذَا فيها مكتوبٌ:

قُلْ لوالٍ غادرْتُه بعْدَ بيْني(٤) ... سادماً نادماً يَعَضُّ اليَديْنِ
سلَبَ الشَّيْخُ مَالهُ وَفَتاهُ ... لُبَّهُ فاصْطَلى لَظى(٥) حَسرْتَيْنِ
جادَ بالعينِ حينَ أعْمَى هَواهُ (٦) ... عينَهُ فانْثَنى بلا عينَين
خفِّضِ الْحُزنَ يَا مُعَنّى(٧) فَمَا يُجْ ... دي طلابُ الآثارِ من بعدِ عَينِ
ولَئِنْ جَلّ مَا عَراكَ (٨) كما جَـ ... ـلَّ لدى الْمُسلمينَ رزْءُ الْحُسينِ
فقَد اعتَضْتَ (٩) منْهُ فَهماً وحزْماً ... واللّبيبُ الأريبُ يبْغي ذَينِ
فاعصِ من بعدها المطَامعَ واعلَمْ ... أنّ صيْدَ الظّباءِ ليس بهَينِ
لا ولاَ كُلّ طائرٍ يلِجُ الفَخْـ ... ـخ(١٠) ولوْكَانَ مُحدَقاً (١١) باللُّجَينِ
ولَكَمْ مَنْ سعى ليَصْطادَ فاصْطيـ ... ـدَ ولم يلْقَ غيرَ خُفّي حُنينِ
فتبصّرْ ولاَ تشِمْ (١٢) كلّ برْقٍ ... رُبّ برْقٍ فيهِ صَواعِقُ (١٣) حَينِ

(١) نور.
(٢) هو الفجر الكاذب.
(٣) فككتها وفتحتها.
(٤) فراقي.
(٥) نار.
(٦) حُبّه للغلام.
(٧) يا مولع.
(٨) عظم ما أصابك وعرض لك.
(٩) تعوَّضت.
(١٠) يدخل الشرْك.
(١١) محاطًا.
(١٢) تنظر.
(١٣) جمع صاعقة، وهي من العذاب.

واغضُضِ الطَّرْفَ تسترحْ من غرامٍ ... تكتَسي فيه ثوبَ ذُلٍّ وشَينِ(١)
فبَلاءُ الفتى اتّباعُ هوَى النَّفـ ... ـسِ وبذْرُ الْهَوى(٢) طُموحُ العينِ(٣)

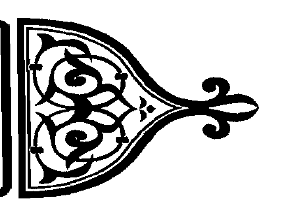
قَالَ الرَّاوِي: فَمزَّقتُ رُقعَتَهُ شَذَرَ مَذَرَ، ولَمْ أُبَلْ أعَذَلَ أَمْ عَذَرَ.

❖❖❖



---

(١) عيب.
(٢) زَرْعُهُ.
(٣) تسريح نظرها.



المقامة الحادية عشرة السَّاويَّةُ

حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: آنَسْتُ (١) منْ قلْبي القَساوَةَ، حينَ حللْتُ ساوَةَ، فأخذْتُ بالخَبَرِ المْأثورِ، في مُداواتها بزِيارَةِ القُبورِ، فَلَمَّا صرْتُ إِلَى مَحلَّة (٢) الأمْوات، وكِفات الرُفات، رأيتُ جمْعاً علَى قبرٍ يُحْفَرُ، ومجْنوزٍ(٣) يُقبَرُ، فانحَزْتُ إليْهِمْ متفكِّراً في المْآل(٤)، متذكِّراً مَنْ درجَ (٥) منَ الآلِ، فلما ألحَدوا الْميْتَ، وفاتَ قوْلُ ليْتَ، أشْرف(٦) شيخٌ من رُباوَةٍ، متخصِّراً بهِراوَةٍ، وقدْ لفَّعَ (٧) وجهَه بردائه، ونكَّرَ (٨) شخْصَهُ لدَهائه، فَقَالَ: لمِثْلِ هَذَا فلْيَعْمَلِ العاملونَ ، فَادَّكِروا أيُّهَا الغَافلُونَ ، وَشَمِّرُوا (٩) أَيُّهَا الْمُقَصِّرُونَ، وأحْسنوا النَّظَرَ أيُّهَا المْتبصِّرونَ! مَا لكُمْ لا يَحْزُنُكُمْ دفْنُ الأتْرابِ(١٠)، وَلاَ يهولُكُمْ هيْلُ التُّرابِ؟ وَلاَ تعْبؤُونَ (١١) بنَوازِلِ الأحْداثِ، وَلاَ تستَعِدُّونَ لنُزولِ الأجْداثِ(١٢)؟ وَلاَ تستعْبِرونَ بعَينٍ تدْمَعُ، وَلاَ تَعتَبِرونَ

(١) أدركت وأحسست.
(٢) موضع.
(٣) مَحْمُولٌ على الجنازة ـ بالكسر ـ وهي النعش.
(٤) المرجع.
(٥) مات ومضى.
(٦) طلع.
(٧) غطى وستر.
(٨) غير.
(٩) اجتهدوا وتهيَّؤُوا.
(١٠) القرناء في السِّنِّ وهم اللِّدَات.
(١١) لا تبالون ولا تهتمون.
(١٢) جمع جدَث، وهو: القبر. والمراد: كأنَّكم غير مكترثين بالموت.

بنَعْيٍ يُسمعُ؟ ولاَ تَرْتَاعُونَ (١) لإلْفٍ يُفقَدُ، ولاَ تلْتاعونَ لمناحَةٍ تُعْقَدُ؟ يشيِّعُ أحدُكُمْ نعْشَ الْميْتِ، وقلْبُهُ تلْقاءَ البيتِ، ويشهَدُ مُواراةَ نسيبِه(٢)، وفكْرُهُ في استخْلاصِ نصيبِه، ويُخَلِّي بينَ وَدوده ودُوده، ثُمَّ يخْلو بمِزْمارِه وعوده، طالَمَا أسيتُمْ عَلَى انْثلامِ الْحبَّة، وتناسَيْتُمُ اخْترامَ (٣) الأحبَّة، واستكَنْتُمْ (٤) لاعتِراضِ العُسرة، واستَهَنْتُمْ بانْقِرَاضِ(٥) الأُسرَة، وضحِكْتُمْ عندَ الدّفْنِ، ولاَ ضحِككُمْ ساعةَ الزَّفْنِ(٦)، وتَبَخْتَرْتُمْ (٧) خلفَ الجَنائزِ، ولاَ تبخْتُرَكُمْ يومَ قبْضِ الجَوائزِ، وأعْرَضْتُمْ عنْ تعْديدِ النّوادِبِ، إلَى إعْدادِ المَآدبِ، وعنْ تحرُّقِ الثّواكِلِ، إلَى التّأنُّقِ فِي المَآكِلِ، لا تُبالونَ بمَنْ هوَ بالٍ، ولاَ تُخْطِرونَ ذكرَ الْموْتِ ببَالٍ، حتَّى كأنّكُمْ قد عَلِقْتُمْ (٨) منَ الحِمامِ(٩) بذمامٍ، أَوْ حصَلْتُمْ منَ الزَّمَانِ عَلَى أمَانٍ، أَوْ وثِقْتُمْ بسلامة الذّاتِ (١٠)، أَوْ تَحَقَّقْتُمْ مُسالَمَةَ (١١) هادمِ اللّذّاتِ، كَلاّ ساء مَا تتوهّمونَ، ثُمَّ كلاّ سوفَ تعلَمونَ!

ثُمَّ أنشدَ:

أيا مَنْ يَدَّعي الفَهْمْ ... إلَى كمْ يَا أخا الوَهْمْ (١٢)
تُعَبِّي(١٣) الذّنْبَ والذمّ ... وتُخْطي الخَطأ الجَمّ
أمَا بانَ لَكَ العَيْبْ ... أمَا أنْذرَكَ (١٤) الشّيبْ
وما فِي نُصحِه ريْبْ ... ولاَ سمْعُكَ قَدْ صمّ

---

(١) لا تخافون ولا تفزعون.
(٢) قريبه.
(٣) هو الانقطاع والاستئصال، والمراد به هنا: الموت.
(٤) خضعتم وتذلّلتم.
(٥) فناء.
(٦) نوعٌ من الرَّقْصِ.
(٧) مَشَيْتُمْ بِعُجْبٍ.
(٨) تمسَّكتم.
(٩) هو الموت.
(١٠) النَّفْس.
(١١) مصالحة.
(١٢) يا ذا الغلط والسَّهْو.
(١٣) تُهَيِّئُ.
(١٤) أعلمك بتهدُّد.

أَمَا نادَى بكَ المَوتْ أمَا أسْمَعَك الصَّوْتْ
أما تخشَى من الفَوْتْ فتَحْتاطَ وتهتمْ
فكمْ تسدَرُ في السهْوْ وتختالُ(١) منَ الزهْوْ
وتنْصَبُّ(٢) إلَى اللهْوْ كأنّ المَوتَ مَا عَمّ
وحَتّام تَجافيكْ وإبْطاءُ تلافيكْ
طِباعاً جمْعتْ فيكْ عُيوباً شمْلُها انْضَمّ
إذا أسخَطْتَ(٣) مولاكْ فَما تقْلَقُ منْ ذاكْ
وإنْ أخفَقَ مسعاكْ تلظّيتَ منَ الْهمّ
وإنْ لاحَ لَكَ النّقشْ منَ الأصفَرِ تهتَشّ(٤)
وإن مرّ بك النّعشْ تغامَمْتَ ولاَ غمّ
تُعاصي النّاصحَ البَرّ وتعْتاصُ وتَزْوَرّ
وتنْقادُ(٥) لمَنْ غرّ(٦) ومنْ مانَ ومنْ نَمّ
وتسعى في هَوى النّفسْ وتحْتالُ عَلَى الفَلْسْ
وتنسَى ظُلمةَ الرّمسْ(٧) ولاَ تَذكُرُ مَا ثَمّ
ولوْ لاحظَكَ الحَظّ(٨) لَمَا طَاحَ بِكَ اللَّحْظْ
ولاَ كُنتَ إذَا الوَعظْ جَلا الأحزانَ تغْتَمّ
ستُذْري(٩) الدّمَ لا الدّمْعْ إذَا عايَنْتَ لا جمْعْ

---

(١) تتبختر.
(٢) تنحدر وتميل.
(٣) خالفته وعصيته.
(٤) الاهتشاش: الفرح والطَّرَب.
(٥) تطيع وتمتثل.
(٦) خدع.
(٧) القبر.
(٨) الجدُّ والبخت والنَّصيب.
(٩) تصبّ الدمع أو تنحيه بأصبعك.

يَقي فِي عَرصَةِ الْجَمْعْ[١] | وَلاَ خالَ وَلاَ عمّ
كأني بكَ تنحطّ | إِلَى اللحْد وتنْغطّ
وقد أسلمَك الرَّهطْ[٢] | إِلَى أضيَقَ منْ سمّ
هُناك الجْسمُ ممدودْ | ليستأكلَهُ الدّودْ
إِلَى أنْ ينخَرَ العودْ | ويُمسي العظمُ قد رمّ[٣]
ومنْ بعْدُ فلا بُدّ | منَ العرْضِ إذَا اعتُدّ
صِراطٌ جسْرُهُ مُدّ | عَلَى النارِ لَمنْ أمّ[٤]
فكمْ من مُرشد ضلّ | ومنْ ذي عزة ذَلّ
وكم من عالمٍ زلّ[٥] | وقال الخْطْبُ قد طمّ[٦]
فبادِرْ أيّها الغُمْر[٧] | لِما يحْلو به الْمُرّ[٨]
فقد كادَ يهي العُمرْ | وما أقلعْتَ عن ذمّ
وَلاَ تركَنْ إلَى الدهرْ | وإنْ لانَ وإن سرّ
فتُلْفى كمنْ اغتَرّ | بأفعى تنفُثُ السمّ
وخفّضْ منْ تراقيكْ[٩] | فإنّ المْوتَ لاقيكْ
وسارِ فِي تراقيكْ | وما ينكُلُ إنْ همّ
وجانِبْ صعَرَ الخْدّ | إذَا ساعدَكَ الجْدّ

---

(١) لا عشيرة تَقيك يوم الْحَشْر.
(٢) الأهل والقوم.
(٣) بَلي، ومنه قوله تعالى: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؛ أي: بالية.
(٤) قصد.
(٥) زحلقت قدمه.
(٦) طمَّ: علا وعَظُمَ، والخُطْبُ: الأمر العظيم.
(٧) الجاهل الذي لم يجرّب الأمور.
(٨) بالعمل الصالح الذي تنجو به من مرارة الآخرة.
(٩) تَرَفُّعَكَ عَلَى أقاصيك وأدَانيك.

وزُمَّ (١) اللَّفْظَ إنْ نَدّ (٢) فَما أسعَدَ مَنْ زَمّ (٣)
ونفِّسْ عَنْ أخي البَثّ (٤) وصدِّقْهُ إذا نَثّ (٥)
ورُمّ العَمَلَ الرثّ فَقَدْ أفلحَ مَنْ رَمّ (٦)
ورِشْ مَنْ ريشُهُ انْحَصّ (٧) بما عَمّ وما خَصّ
ولاَ تأسَ (٨) عَلَى النّقْصْ ولاَ تحرِصْ عَلَى اللَّمّ
وَعَادِ الْخُلُقَ الرَّذْلْ (٩) وَعَوّدْ كفّكَ البَذْلْ
ولاَ تسْتَمِعِ العَذْلْ (١٠) ونَزِّهْها عنِ الضمّ
وَزَوّدْ نفسَكَ الخَيرْ ودعْ مَا يُعقبُ الضّيرْ
وهيّئْ مركبَ السَّيرْ (١١) وخَفْ منْ لُجَّةِ اليَمّ
بذا أُوصيتُ يَا صاحْ وَقَدْ بُحْتُ (١٢) كمَنْ باحْ
فَطُوبى لِفَتًى راحْ بآدابيَ يأتَمّ (١٣)

ثُمَّ حسرَ رُدْنَهُ (١٤) عن ساعدٍ شديدِ الأسْرِ، قد شدّ علَيه جبائِرَ الْمكْرِ لا الكسْرِ، متعرّضاً للاستماحة (١٥)، في معرَضِ الوقَاحَةِ، فاختلَبَ به أولئكَ الْمَلا (١٦)، حَتَّى أتْرَعَ كُمَّهُ ومَلا، ثُمَّ انْحَدَرَ مِنَ الربْوةِ، جَذِلاً (١٧)

---

(١) قيد.
(٢) نفر وذهب شاردًا.
(٣) قَيِّدَ لفظه.
(٤) الحزن.
(٥) نشر الكلام.
(٦) أصلح العمل.
(٧) تناثر وتساقط.
(٨) لا تأسَف ولا تَحزَن.
(٩) الرَّدِيُ الدَّنِيء.
(١٠) اللوم الذي يصدّك عن البذل.
(١١) عبارة عن طريق الآخرة.
(١٢) نطقت وكشفت.
(١٣) يقتدي.
(١٤) كُمَّهُ.
(١٥) الاستعطاء.
(١٦) الأشراف، وقِيلَ: الجماعة.
(١٧) فرحًا.

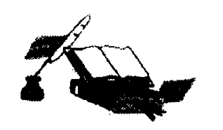
بالحَبوةِ(١)، قَالَ الراوي: فجاذَبْتُهُ (٢) منْ وَرائه، حاشيَةَ ردائه، فالتَفَتَ إليّ مُستسلِماً، وواجهَني مُسلِّماً، فَإذَا هُوَ شَيْخُنا أبو زيدٍ بعينِه، ومَينِه(٣)، فقلتُ له:

إلَى كَمْ يَا أبَا زيدْ أفَانينُكَ فِي الكيدْ
ليَنحاشَ (٤) لَكَ الصيدْ وَلاَ تَعْبَأ بمَنْ ذمّ(٥)

فأجابَ من غيرِ استحْياء، ولاَ ارْتِياء(٦)، وقَالَ:

تَبَصَّرْ ودَعِ اللَّوْمْ وقُلْ لِي هَلْ تَرى اليومْ
فَتًى لا يَقمُرُ القَومْ مَتَى مَا دَستُهُ(٧) تمَّ

فقلتُ لهُ: بُعْداً (٨) لَكَ يَا شيخَ النّارِ، وزامِلَةَ العارِ! فَما مَثلُكَ فِي طُلاوَةِ(٩) علانيَتك(١٠)، وخُبثِ نيّتك، إلا مثَلُ رَوْثٍ مفضَّضٍ، أَوْ كَنيف مبيَّضٍ، ثُمَّ تفرّقْنا فانطلَقْتُ ذاتَ اليَمين وانطلقَ ذات الشِّمالِ، وناوَحْتُ (١١) مهَبَّ الْجَنوبِ وناوحَ مهبَّ (١٢) الشَّمالِ.



(١) بالعطيَّة.
(٢) نازعته.
(٣) بنفسه وكذبه.
(٤) ليجتمع وينحاز.
(٥) بمن نقص.
(٦) تفكر وتأمّل من الرأي.
(٧) حيلته وخداعه.
(٨) هلاكًا.
(٩) هي حسن الشيء ونضارته.
(١٠) ظاهر أمرك.
(١١) قابلت.
(١٢) مهبّ الرِّيح: مخرجها.

الْمَقَامَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ
الدِّمَشْقِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: شخصْتُ مِنَ العراق إلَى الغوطَة، وأَنَا ذو جُرْدٍ (١) مربوطة، وجِدَةٍ مغْبوطَةٍ (٢)، يُلْهِيني خُلوُّ الذَّرْعِ، ويزْدَهيني حُفُولُ الضَّرْعِ، فلَمَّا بلغتُها بَعْدَ شقِّ النفْسِ، وإنْضاء العنْسِ(٣)، ألفيتُهَا (٤) كما تصِفُها الألسُنُ، وفيها مَا تشتَهي الأنفُسُ، وتلَذُّ الأعيُنُ، فشكرْتُ يدَ النَّوَى(٥)، وجرَيْتُ طلَقاً مَعَ الْهَوى، وطفقْتُ (٦) أفُضّ ختُومَ الشّهَوات، وأجْتَني قُطوفَ اللّذّاتِ، إلَى أَنْ شرعَ سفرٌ (٧) فِي الإعْراقِ (٨)، وقد استفَقْتُ (٩) منَ الإغْراقِ، فعادَني عيدٌ منْ تَذْكارِ الوطَنِ، والحَنينِ إلَى العطَنِ، فقوّضْتُ خِيامَ الغيْبَة، وأسرَجْتُ جَوادَ الأوبَة.

ولَمَّا تأهّبَت(١٠) الرِّفَاقُ، واستتبّ الاتّفَاقُ، ألحُنا مِنَ الْمسيرِ، دونَ استِصْحابِ الْخفيرِ، فَرُدْناهُ (١١) منْ كلّ قَبيلة، وأعْمَلنا فِي تحصيله ألفَ حيلَةٍ، فأعْوَزَ وِجْدانُه فِي الأحياء، حتَّى خِلْنَا (١٢) أنَّهُ ليس من الأحياء

---

(١) صاحب خيل قصيرة الشَّعْر من التَّنَعُّم.
(٢) مُتَمنَّى مثلها.
(٣) وإهزال النَّاقَة الصَّلْبَة.
(٤) وجدتها.
(٥) نعمة الْفراق.
(٦) أخذت وشرعت.
(٧) مسافرون.
(٨) في الذَّهَابِ إِلَى الْعِرَاقِ.
(٩) أفقتُ.
(١٠) تهيَّأت.
(١١) فطلبناه.
(١٢) حسبنا.

فخارت لعوزه عُزومُ السَّيَّارَةِ (١)، وانْتَدَوْا (٢) بباب جَيْرونَ للاستشارَةِ، فَمَا زالوا بينَ عَقدٍ وحلٍّ، وشزَرٍ وسحْلٍ، إلَى أَنْ نفِدَ التّناجي، وقنَطَ الرَّاجِي(٣)، وكان حِذَتَهُمْ (٤) شخْصٌ مِيسَمُهُ (٥) مِيسَمُ الشبّان، ولَبوسُهُ لَبُوسُ الرُّهْبَانِ (٦)، وبيَده سُبْحَةُ النِّسْوانِ (٧)، وَفِي عينِه ترجمَةُ النَّشْوانِ (٨)، وَقَدْ قيّدَ لحظَهُ بالجَمْعِ، وأرهَفَ أذُنَهُ لاستِراقِ السّمْعِ، فَلَمَّا أنى انْكفاؤهُمْ، وَقَدْ برحَ لَهُ خَفاؤهُمْ (٩)، قَالَ لهُمْ: يَا قومُ ليُفرِخْ كربُكُمْ، وليَأمَنْ سِربُكُمْ، فسأخْفُرُكُمْ (١٠) بِمَا يَسْرُو رَوْعكُمْ، ويبدو طوعكُمْ، قَالَ الرّاوي: فاستَطْلَعنا منْهُ طِلْعَ الخِفارَةِ، وأسْنَينا (١١) لَهُ الْجَعالَةَ (١٢) عنِ السِّفارةِ (١٣)، فزعَم أنّها كلماتٌ لُقّنَها فِي الْمَنامِ، ليحترِسَ بِهَا منْ كيْدِ الأنامِ، فجعَلَ بعْضُنا يومِضُ إلَى بعْضٍ، ويقلّبُ طرْفَيْهِ بينَ لحْظٍ وغضٍّ، وتبيّنَ لَهُ أنّا استَضْعَفنا الخَبَرَ، واستَشْعَرْنا الْخوَرَ، فقَالَ: مَا بالُكُمُ اتّخذْتُمْ جِدّي عبثاً، وجعلتُمْ تِبري خَبَثاً؟ ولَطالَمَا واللهِ جُبْتُ (١٤) مَخاوِفَ الأقْطارِ، ووَلَجْتُ (١٥) مَقاحِمَ الأخْطارِ، فغَنيتُ بها عنْ مُصاحبَةِ جَفيرٍ (١٦)، واستِصْحَابِ جَفيرٍ، ثُمَّ إنِّي

---

(١) القافلة.

(٢) اجتمعوا.

(٣) يَئِسَ الآمِل.

(٤) حذاءهم.

(٥) علامته.

(٦) جمع راهب، وهو: الزَّاهِد.

(٧) هي خرزات يسبِّحْنَ بعددها.

(٨) أمارة السَّكْرَان.

(٩) ظهر لهم باطن أمرهم.

(١٠) أجيركم وأحميكم والاسم الخفارة.

(١١) أعلينا.

(١٢) أُجْرَةُ الأجير.

(١٣) مصدر، ومنه السفير، وهو: المُصْلِحُ بَيْنَ الْقَوْمِ.

(١٤) قطعت.

(١٥) دخلت.

(١٦) جعبة السِّهَام.

سأنفي مَا رابكُمْ، وأستَسِلُّ الحَذَرَ الَّذِي نابكُمْ، بأنْ أُوافقكُمْ في البَدَاوة [(١)]، وأرافِقكُمْ في السّماوَة، فإنْ صدقَكُمْ وعْدي، فأجِدّوا سعْدي[(٢)]، وأسْعِدوا جِدّي، وإنْ كَذَبكُمْ فَمي، فَمزِّقُوا أدمي[(٣)]، وأريقُوا دَمي.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فأُلْهِمْنا تصْديقَ رؤياهُ، وتحْقيقَ مَا رَواه، فنزَعْنا[(٤)] عن مُجادلَته، واستَهَمْنا عَلَى مُعادلَته، وفصَمْنا بقولِه عُرى الرّبائث، وألغَيْنا [(٥)] اتّقاءَ العابِث والعائِث، ولَمَّا عُكِمَت الرّحالُ، وأزِفَ التّرْحالُ، استنزَلْنا كلماته الرّاقية، لنجعَلَها الواقيَةَ الباقيَةَ، فَقَالَ: ليقرأ كُلُّ منكُمْ أمَّ القُرآن، كلّما أظَلَّ الْمَلْوَانِ [(٦)]، ثُمَّ ليَقُلْ بلِسانٍ خاضعٍ، وصوْتٍ خاشعٍ: اللَّهُمَّ يَا مُحْيي الرُّفات، ويا دافعَ الآفات، ويا واقيَ المخافات، ويا كريمَ الْمُكافاة، ويَا مَوئِلَ [(٧)] العُفَاة [(٨)]، ويا وليّ العفْوِ والمُعَافَاة، صَلِّ عَلَى محمّدٍ خاتِمِ أنبيائكَ، ومبلِّغ أنبائكَ، وعلى مصابيحِ أسرتِه، ومفاتيحِ نُصرتِه، وأعِذْني من نزَغاتِ الشياطينِ، ونَزواتِ السّلاطينِ، وإعْناتِ الباغينَ، ومُعاناة الطّاغينَ، ومُعاداة العادينَ، وعُدْوانِ الْمُعادينَ، وغلَبِ الغالبينَ، وسلَبِ السّالبينَ، وحِيَلِ الْمُحْتالينَ، وغِيَلِ الْمُغْتالينَ [(٩)]، وأجِرْني اللَّهُمَّ منْ جَوْرِ الْمُجاورينَ، ومُجاورَةِ الجَائرينَ، وكُفَّ عني أكُفَّ الضَّائمِينَ [(١٠)]، وأخرِجْني منْ ظُلُماتِ الظّالمينَ، وأدْخِلْني برحْمَتِكَ في

---

(١) السَّيْرُ في البادية.
(٢) أكثروا حظي.
(٣) فقطعوا جلدي وهو كناية عن هتك العِرْض.
(٤) كففنا.
(٥) تركنا.
(٦) دنا الليل والنهار.
(٧) مرجع وملجأ.
(٨) جمع العافي، وهو: طالب العفو وهو الفضل.
(٩) جمع غيلة، اسم من الاغتيال، وهو: الإهلاك والمغتالين المهلكين.
(١٠) أيدي الظالمين المذلين.

عِبادكَ الصّالحينَ، اللَّهُمَّ حُطْني(١) في تُرْبَتي(٢)، وغُرْبَتي، وغيْبَتي، وأوبَتي(٣)، ونُجْعَتي، ورجْعَتي، وتصرُّفي(٤)، ومُنصَرَفي، وتَقَلُّبي، ومُنقلَبي، واحْفَظْني في نَفْسي، ونَفائسي، وعِرْضي، وعَرَضي، وعَدَدي، وعُدَدي، وسكَني، ومَسْكَني، وحَوْلي(٥)، وحَالي، ومَالي ومآلي، ولاَ تُلحِقْ بي تغييراً، ولاَ تُسلّطْ عَلَيَّ مُغيراً، واجْعَلْ لي من لدُنْكَ سُلطاناً نَصيراً، اللَّهُمَّ احرُسْني بعَيْنِكَ(٦)، وعَونِكَ، واخْصُصْني بأمْنِكَ، ومَنِّكَ، وتولَّني باخْتيارِكَ وخَيْرِكَ، ولاَ تكِلْني إلَى كلاءَةِ غيرِكَ، وهَبْ لي عافيَةً غير عافيَةٍ، وارْزُقْني رَفاهيَةً غيرَ واهيَةٍ(٧)، واكْفِني مَخاشيَ(٨) اللأواءِ(٩)، واكْنُفْني بغَواشي الآلاءِ، ولاَ تُظْفِرْ بي أظفارَ الأعْداءِ، إنّك سَميعُ الدُّعَاءِ. ثُمَّ أطرَقَ لا يُديرُ لحْظاً، ولاَ يُحيرُ لفْظاً(١٠)، حتَّى قُلْنا: قد أبلَسَتْهُ خشيةٌ، أَوْ أخرَسَتْهُ غشيَةٌ، ثُمَّ أقنعَ رأسَهُ، وصَعَّدَ أنفَاسَهُ، وقَالَ: أُقْسِمُ بالسَّمَاء ذَات الأبرَاجِ، والأرْضِ ذات الفِجَاجِ(١١)، والمَاءِ الثَّجَّاجِ، والسِّراجِ الوَهَّاجِ، والبَحْرِ العجَّاجِ، والهَواءِ والعَجَاجِ، إنّها لَمِنْ أيمَنِ العُوَذ، وأغْنى عنكُمْ من لابِسي الخُوَذ(١٢)، مَنْ درَسها عندَ ابتِسامِ الفَلَقِ(١٣)، لم يُشفِقْ من خطْبٍ إلَى الشَّفَقِ، ومنْ ناجَى بها طَليعَةَ الغَسَقِ(١٤)، أمِنَ ليلَتَهُ منَ

(١) احفظني.
(٢) بلدتي ووطني.
(٣) رجعتي.
(٤) في مشاغلي.
(٥) قُوّتي.
(٦) يحفظك.
(٧) ضعيفة.
(٨) مخاوف.
(٩) الشدّة والضيق.
(١٠) نظر إلى الأرض ساكتًا لا يجيب بكلام.
(١١) الطرق الواسعة.
(١٢) الخوَذ ـ بفتح الواو ـ جمع خُوذَةٌ، وهي البيضة من الحديد يلبسها الفارس في رأسه عند الحرب؛ يعني: أن قراءة هٰذه العوذة تكفي في دفع المضرَّة.
(١٣) انبلاج الصبح.
(١٤) أول دخول ظُلْمَة الليل.

السَّرَقِ ، قَالَ : فتلقَّنَّاهَا حتَّى أتقنَّاهَا، وتَدَارَسْنَاهَا لكَيْ لا ننْسَاهَا، ثُمَّ سِرْنا نُزْجِي(١) الْـحَمـولاتِ، بالدّعَـواتِ لا بالحُداةِ، ونـحْمي الْـحُمُـولات، بالكَلماتِ لا بالـكُماة، وصاحِبُنا يتعَـهّدُنا بالعَشيّ والغداة، ولاَ يسـتَنْجزُ منَّا العدَات(٢)، حتَّى إذَا عايَـنّا أطْلالَ عـانَةَ، قَـالَ لنا: الإعـانَةَ الإعـانةَ(٣)! فأحْضَرْناهُ الْـمَعْـلومَ والمكتومَ، وأرَيْناهُ المْعْكُومَ (٤) والمخْتُومَ، وقُلْنا لهُ: اقْضِ مَا أنتَ قاضٍ، فَمَا تجِدُ فينا غيرَ راضٍ، فَمَا استَخفّهُ سِوى الخَفّ والزَّينِ(٥)، ولاَ حَلِيَ بعينِهِ غيرُ الْـحَلْيِ والعَـينِ، فاحتَمَل منهُما وِقْرَهُ (٦)، وناءَ بِمَا يسُدّ فَقْرَهُ، ثُمَّ خَالَسَنا(٧) مُخالَسَةَ الطَّرَّارِ، وانْصلَتَ منّا انصلاتَ الفرّارِ، فأوحَشَنا فِراقُهُ، وأدْهَشَنَـا امتراقُهُ (٨)، ولَمْ نزَلْ ننْشُـدُهُ بكلّ نادٍ، ونستَخْـبِرُ عنهُ كلَّ مُغْوٍ(٩) وهَادٍ، إلَى أَنْ قـيل: إنّه مُذْ دخَل عانَـةَ، مَا زايلَ الحْانةَ، فـأغْراني خُبْـثُ هَـذَا الـقولِ بسَـبكِهِ(١٠)، والانسلاكِ (١١) فيـما لستُ منْ سِـلْكِه، فادّلَـجْتُ إلَى الدّسْـكَرَةِ، فِي هيئة منكّرَةٍ، فَإذَا الشَّيْـخُ فِي حُلّة ممصّرَةٍ، بينَ دِنانٍ ومِعصَرَةٍ، وحولَهُ سُقاةٌ تبهَرُ، وشُمُوعٌ تزْهَرُ وآسٌ وعَبْهَرٌ (١٢)، ومِزْمارٌ ومِزْهَرٌ، و هُوَ تارةً يستَبْزِلُ الدِّنانَ، وطَوْراً يستَـنطِقُ العيدَانَ، ودَفعَةً يستنشِقُ الرَّيْحَانَ، وأخرَى يُغَازِلُ (١٣) الغِزْلانَ، فَلَمَّا عثرْتُ عَلَى لَبْسِهِ، وتفاوُتِ يومِهِ

(١) نسوق.
(٢) جمع عدَّة، من الْوَعْد.
(٣) أعِينُوني أعينُوني.
(٤) المتاع المشدود.
(٥) الحسن المستملح.
(٦) حمله.
(٧) خادعنا وهرب.
(٨) خروجه بسرعة.
(٩) مضل، ضدّ الهادي.
(١٠) بتجربته.
(١١) الدخول.
(١٢) نرجس أو ياسمين.
(١٣) يلاعِب.

منْ أمْسه، قُـلْتُ: أولى لَكَ يَا ملْعونُ، أأُنسِيـتَ يومَ جَيْرونَ (١)؟ فضحكَ مُستَغرِباً (٢)، ثُمَّ أنْشَدَ مُطَرِّباً:

لـزمتُ الـسِّـفـارَ وجُـبـتُ القـفـارَ وعـفْـتُ النِّفَـارَ (٣) لأجْنـي الفـرَحْ
وخُـضتُ السّـيولَ ورُضـتُ الخيْـولَ لجَـرّ ذُيـول الـصّـبـى والمَـرَحْ
ومـطـتُ الوَقـارَ وبـعْـتُ العَـقـارَ لحَـسْوِ العُـقـارِ ورشْـف القـدَحْ
ولـوْلاَ الـطِّـمـاحُ إلَى شُـربِ راحٍ لمَـا كَـانَ بَاحَ فَـمـي بـالمُلَحْ (٤)
وَلاَ كَـانَ سَـاقَ دَهَائِي (٥) الـرِّفـاقَ لأرضِ العـراق بـحـمْـلِ السُّـبَحْ
فـلا تـغْـضَـبَـنّ ولاَ تصْـخَـبَـنَّ (٦) وَلاَ تـعْـتُـبَـنَّ فـعُـذْري وضَحْ
وَلاَ تـعْـجَـبَـنّ لـشـيْـخٍ أبَـنّ بمَـغْـنًـى أغَـنّ ودَنٍّ طـفَـحْ (٧)
فـإنّ الْـمُـدامَ تُـقـوّي العـظَـامَ وتَشْـفـي السَّـقَـامَ وتنْفـي التّـرَحْ (٨)
وأصْـفـى الـسّـرور إذَا مَـا الـوَقـورُ أمَـاطَ سُـتـورَ الْـحَـيـا واطّـرَحْ
وأحْلـى الغَـرام إذَا الْـمُـسْـتـهَـامَ (٩) أزَالَ اكـتـتـامَ الْـهَـوى وافـتـضَـحْ
فَـبُـحْ بـهَـواكَ وبـرّدْ حَـشَـاكَ فـزَنْـدُ أسَـاكَ بـه قَـدْ قَـدَحْ
وداوِ الـكُـلـومَ (١٠) وسـلِّ الْـهُـمـومَ بـبِـنْـتِ الـكُـروم الَّـتـي تُـقـتـرَحْ
وخُـصّ الـغَـبُـوقَ بـسَـاقٍ يـسُـوقُ بَـلاءَ الْـمَـشُـوقِ إذَا مَـا طمَـحْ (١١)

---

(١) هي الشَّام.
(٢) مُبَالِغًا.
(٣) كرهت البُعْد والفرار عنكم.
(٤) جمع ملحة، وهو ما يستملح من الكلام.
(٥) مكري.
(٦) الصخب: الصّياح، وهو قبيح، خصوصًا من الرِّجَال، وفي الحديث: «**ولا صخَّابًا فِي الأَسْوَاق**».
(٧) امتلأ وفاضَ.
(٨) الحزن.
(٩) العاشق الهائم ذاهب القلب.
(١٠) هي الجراح.
(١١) أبعد نظره وأشخصه.

وشَادٍ يُشيدُ بصوت تَميدُ[١] جِبَالُ الحَديد لَهُ إنْ صدَحْ
وعَاصِ النّصيحَ[٢] الَّذي لا يُبيحُ وصَالَ المَليحِ إذَا مَا سمَحْ
وَجُلْ فِي المحَالِ[٣] ولَوْ بالمُحالِ ودعْ مَا يُقالُ[٤] وَخُذْ مَا صلَحْ
وفَارِقْ أبَاكَ إذَا مَا أبَاكَ ومُدَّ الشّباكَ وصِدْ مَنْ سَنَح[٥]
وصَافِ الخَليلَ ونَافِ[٦] البَخيلَ وأوْلِ الجَميلَ ووالِ المِنَحْ
ولُذْ بالمَتابِ أمامَ الذّهابِ فمَنْ دقّ بابَ كريمٍ فتَحْ

فَقُلْتُ لَهُ: بَخٍ بَخٍ[٧] لِروايتِكَ، وأُفٍّ وتُفٍّ لِغَوايَتِكَ[٨]! فَبِاللهِ مِنْ أيِّ الأعْياصِ عِيصُكَ، فَقَدْ أعضَلَني عَويصُكَ؟

فَقَالَ: مَا أحبُّ أنْ أُفصحَ عنّي، ولكِنْ سأُكَنِّي:

أنَا أُطْروفَةُ الزَّمَا نِ وأُعْجُوبَةُ الأُمَمْ
وأنَا الحُوَّلُ[٩] الَّذي احْـ ـتَالَ في العُرْبِ والعَجَمْ
غَيرَ أنّي ابنُ حَاجَةٍ هاضَهُ[١٠] الدّهرُ فاهْتَضَمْ[١١]
وأبُو صِبْيَةٍ بَدَوْا مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وضَمْ
وأخُو العَيْلَةِ المُعِيـ ـلُ إذَا احْتَالَ لَمْ يُلَمْ

قَالَ الرَّاوِي: فعرفتُ حينَئذٍ أنّه أبو زيدٍ ذو الرّيبِ والعيْبِ، ومُسوِّدُ وجْهِ

---

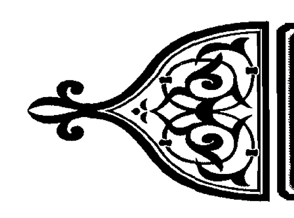
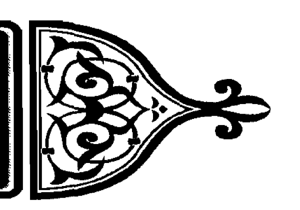
(١) تميل وتتحرَّك.
(٢) خالف النَّاصِح.
(٣) بالكسر ـ المكر والخديعة.
(٤) أي: اترك ما يقوله الجهَّال.
(٥) عرض وأقبل.
(٦) أبعد.
(٧) كلمة تُقَالُ عند استحسان الشيء مكرَّرة يجوز فيها تسكين الخاء وكسرها منوَّنة.
(٨) لضلالتك.
(٩) الكثير الحيلة.
(١٠) ظلمه وكسره.
(١١) ذل ونقص.

الشَّيْبِ، وساءني عِظَمُ تمرّدِه، وقُبْحُ تورُّدِه(١)، فَقُلتُ لَهُ بلِسانِ الأنَفَةِ(٢)، وإدْلالِ المْعرفَةِ: ألمْ يأنِ لَكَ يَا شيخَنا، أنْ تُقلِعَ عَنِ الْخَنا(٣)؟ فتضَجّرَ وزَمْجَرَ(٤)، وتنكّرَ وفكّرَ، ثُمَّ قَالَ: إنَّهَا لَيلَةُ مِرَاحٍ لا تَلاحٍ، ونُهْزَةُ شُرْبِ راحٍ لا كِفَاحٍ، فعَدِّ عمَّا بَدَا، إلَى أنْ نتَلاقَى غَدا، ففارَقْتُه فرَقاً منْ عربَدَتِه(٥)، لا تَعَلُّقاً بعِدَّته، وبِتُّ ليلَتي لابِساً حِدادَ النّدَمِ، عَلَى نقْلي خُطَى القدَمِ، إلَى ابنَةِ الكَرْمِ لا الكَرَمِ، وعَاهَدْتُ اللهَ ـ سُبحانَهُ وتَعَالَى ـ ألا أحْضُرَ بعدَها حانَةَ نَبّاذٍ(٦)، ولو أُعطيتُ مُلكَ بغداذ، وألا أشْهَدَ مَعصَرَةَ الشّراب، ولو رُدَّ عَلَيَّ عصْرُ الشّبَابِ، ثُمَّ إنَّنَا رَحَّلْنَا العِيسَ(٧)، وقتَ التّغليسِ(٨)، وخَلّيْنا بينَ الشّيْخَيْنِ أبي زَيدٍ وإبْليسَ.

۞۞۞



(١) وروده في مناهل المخازي.
(٢) الحميَّة.
(٣) الفحش.
(٤) صاح، والزَّمجرَةُ: صوتُ الأسد.
(٥) العربدة: سُوءُ خُلُق السَّكْرَان.
(٦) بَيْتُ خَمَّارٍ.
(٧) الإبل البيض.
(٨) السير وقت الغلس وهو: ظلمة آخر الليل.

المَقامَةُ الثَّالثَةَ عشَرَة البَغْدَادِيَّةُ

رَوَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: ندَوْتُ بضَواحي الزَّوْراء، مَعَ مشيخَة [١] مِنَ الشّعراء، لا يعْلَقُ لهُمْ مُبارٍ بغُبار، ولاَ يجْري معهُمْ مُمارٍ [٢] في مضْمار، فأفَضْنا في حديث يفضَحُ الأزهارَ، إلَى أنْ نصَفْنا النّهارَ، فَلَمَّا غاضَ درُّ الأفْكار، وصبَت [٣] النّفوسُ إلَى الأوْكار [٤]، لمحْنا عجوزاً تُقبلُ مِنَ البُعْد، وتُحضِرُ إحْضارَ الْجُرْد، وقد استَتْلَتْ صبيَةً أنحفَ منَ الْمَغازِل، وأضعَفَ مِنَ الْجَوازِل [٥]، فَمَا كذَّبَتْ إذْ رأتْنا، أنْ عرَتْنا [٦]، حتَّى إذَا مَا حضرَتْنا، قالت: حيّا اللهُ الْمَعارِفَ، وإنْ لَمْ يكُنَّ معارفَ، اعلَموا يَا مآلَ الآمِلِ، وثِمَالَ الأرَامِل، أنّي منْ سرَوات [٧] القبَائِلِ، وسَرِيَّات [٨] العقَائِلِ [٩]، لَمْ يزَلْ أهلي وبعْلي يحُلّونَ الصّدْرَ، ويَسيرونَ القلْبَ، ويُمْطونَ الظّهْرَ، ويولونَ اليَدَ، فَلَمَّا أرْدَى الدّهرُ الأعْضَادَ [١٠]، وفجعَ بالجَوارِحِ الأكْبادَ، وانقلَبَ ظهْراً لبطْنٍ، نَبا النَّاظِرُ، وجَفا الْحَاجِبُ، وذهبَت العينُ، وفُقدَت الرّاحةُ، وصلَدَ الزَّنْدُ، ووهَنت اليَمينُ [١١]، وضاعَ اليَسارُ، وبانَت الْمَرافِقُ،

---

(١) جماعة من الشُّيوخ.
(٢) من المماراة، وهي: المجادلة.
(٣) مالت.
(٤) جمع وكر، وهو: بيت الطائر.
(٥) جمع جوزل، وهو: فرخ الحمامة.
(٦) قصدتنا.
(٧) سراة جمع سري، وهو: السَّخيُّ ذو المُرُوءَة.
(٨) جمع سريَّة، وهي: الرفيعة القَدْرِ.
(٩) جمع عقيلة، وهي: الكريمة الجيدة.
(١٠) الأعوان.
(١١) ضعف القوَّة.

ولَمْ يبقَ لنا ثَنيّةٌ ولاَ نابٌ، فمُذْ اغبرّ العيشُ الأخضرُ (١)، وازْوَرّ المحْبوبُ الأصفَرُ، اسودّ يومي الأبيضُ، وابيَضّ فَوْدي الأسوَدُ، حتى رثَى ليَ (٢) العدوّ الأزرَقُ (٣)، فحبّذا الْموْتُ الأحْمَرُ! وتلْوِي مَنْ ترَوْنَ عينُهُ فُرارُهُ، وترْجُمانُهُ اصفِرارُهُ، قُصْوى بغيَةِ أحدهِمْ ثُرْدَةٌ، وقُصارَى أُمْنيَّتِه بُرْدَةٌ (٤)، وكنتُ آلَيتُ (٥) ألا أبذُلَ الْحُرَّ، إلا للحُرِّ، ولَوْ أني مُتُّ منَ الضُرّ، وقَدْ ناجَتْني القَرونَةُ (٦)، بأنْ توجَدَ عندَكُمُ الْمعونَةُ، وآذنَتْني فِراسَةُ الحْوْباء، بأنّكُمْ ينابيعُ الحِباء، فنضّرَ اللهُ امرأ أبَرّ قسَمي، وصدّقَ توسُّمِي (٧)، ونَظَرَ إليّ بعَينٍ يُقذيها الْجُمودُ (٨)، ويُقذّيها الْجُودُ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فهِمْنا لبَراعَةِ عِبارَتِها، ومُلَحِ استعارَتِها، وقُلْنا لها: قَدْ فتَنَ كلامُكِ، فكيفَ إلحامُكِ؟ فقَالَتْ: أُفجّرُ الصّخْرَ، ولاَ فخْرَ! فقُلْنَا: إن جعلْتِنا منْ رُواتِكِ (٩)، لم نبْخَلْ بمؤاساتِكِ.

فقَالَت: لأُرينّكُمْ أوّلاً شِعاري، ثُمَّ لأرَوّينّكُمْ أشْعاري، فأبرَزَتْ رُدْنَ دِرْعٍ دَريسٍ، وبرَزَتْ برْزَةَ عجوزٍ درْدَبيسٍ (١٠)، وأنْشأتْ تقول:

أشكو إلَى اللهِ اشتكاءَ الْمريضْ ... ريْبَ الزّمانِ (١١) المُتعدّي البَغيضْ
يا قومُ إنّي منْ أُناسٍ غَنُوا ... دهراً وجفنُ الدهرِ عنهُمْ غَضيضْ
فَخارُهُمْ ليسَ لَهُ دافِعٌ ... وصيتُهُمْ (١٢) بينَ الوَرى مُستَفيضْ

(١) كناية عن المعيشة الطيبة.
(٢) رحمني.
(٣) أي: شديد العداوة.
(٤) منتهى ما يتمنّاه كساء يلبسه.
(٥) حلفت.
(٦) هي النفس.
(٧) ما توسمته فيكم وظننته.
(٨) يريد به الْبُخْل.
(٩) الرّاوينَ لشعْرِكَ.
(١٠) مسنة ذات مكرٍ ودهاء.
(١١) جَوْرُهُ، كما في بعض النُّسَخِ.
(١٢) ما يُذْكَرُ ويُنْشَرُ من ذِكْرِهِم الحميد.

كانوا إذَا مَا نُجعَةٌ[١] أعوزَتْ ... في السّنة الشَّهْباء روْضاً أرِيضْ[٢]
تُشَبّ للسَّارينَ[٣] نيرانُهُمْ ... ويُطعمُون الضَّيفَ لحْماً غَرِيضْ[٤]
مَا بَاتَ جَارٌ لهُمُ ساغباً[٥] ... ولاَ لِروْعٍ قَالَ حَالَ الجَرِيضْ
فغيّضَتْ[٦] منهُمْ صُروفُ الرّدى ... بحارَ جود لَمْ نخَلْها تَغيضْ
وأُودعَتْ منهُمْ بُطونُ الثَّرَى[٧] ... أُسْدَ التّحامي وأُساةَ[٨] المَريضْ
فمحْمَلي بعْدَ المطايا المطا ... وموطني بعْدَ اليفَاعِ[٩] الحْضيضْ
وأفرُخي مَا تأتَلي تشتَكي ... بؤساً لَهُ في كُلِّ يوم وميضْ[١٠]
إذا دعَا القانتُ في ليلِه ... مولاهُ نادَوْهُ بدمْعٍ يَفيضْ
يا رازِقَ النّعّابِ في عُشّه ... وجابرَ العظْمِ الكَسيرِ المَهيضْ[١١]
أتِحْ لنا اللَّهُمَّ مَنْ عِرضُه ... مِنْ دنَسِ الذَّمّ نَقيٌّ رَحيضْ[١٢]
يُطفِئ نارَ الجُوعِ عَنَّا ولوْ ... بمَذْقَة مِنْ حَارز[١٣] أَوْ مَخيضْ[١٤]
فهلْ فتًى يكشِفُ مَا نابَهُمْ ... ويغنَمُ الشّكْرَ الطّويلَ العَريضْ
فَوالَّذي تَعْنو النَّواصي لَهُ ... يَومَ وجوهُ الجْمعِ سودٌ وبيضْ[١٥]
لَولاهُمُ لَمْ تبْدُ لِي صفحَةٌ ... ولاَ تَصَدَّيْتُ[١٦] لنظْمِ القَريضْ[١٧]

---

(١) مرعى خصب.
(٢) حسن النبات.
(٣) جمع سار، وهو من يسري ليلاً.
(٤) طَرِيّ.
(٥) جائعًا.
(٦) فنقصت وأفنت.
(٧) كناية عن القبور.
(٨) جمع آسٍ، وهو: الطبيب.
(٩) الظهر، تعني: أن أمتعتها بعد أن كانت تحمل على الإبل، صارت تحمل على ظهرها.
(١٠) المراد هنا: الظهور.
(١١) الذي ينكسر بعد جَبْره.
(١٢) مغسول طاهر.
(١٣) لبن حامض.
(١٤) لبن منزوع الزبد.
(١٥) يوم القيامة.
(١٦) تعرَّضت.
(١٧) الشِّعْر.

قال الرّاوي: فوَالله لقدْ صدّعتْ بأبياتها أعْشارَ القُلوبِ، واستخْرَجَتْ خَبَايا الْجيُوبِ، حَتَّى ماحَها مَنْ دينُهُ الامْتناحُ[١]، وارْتاحَ لرِفدِها مَنْ لَمْ نخَلْهُ[٢] يرْتاحُ، فَلَمَّا افْعَوْعَمَ جَيْبُها تِبراً، وأوْلاهَا[٣] كُلٌّ منَّا بِرّاً، تولّتْ يتْلوها الأصاغرُ، وفُوها بالشّكْرِ فاغرٌ، فاشْرأبّت الْجمَاعَةُ بَعْدَ ممَرِّهَا، إلَى سبْرِها[٤] لتَبْلوَ مواقِعَ بِرّها، فكفَلْتُ لهُمْ باستنْباط السرِّ الْمَرْمُوزِ، ونهضْتُ أقْفو أثرَ العَجوزِ، حتَّى انتهَتْ إلَى سوق مُغْتَصَّة[٥] بالأنام، مُختصّة بالزّحامِ، فانغَمَسَتْ في الغُمارِ، وامَّلَسَتْ[٦] منَ الصّبْيَةِ الأغْمارِ، ثُمَّ عاجَتْ[٧] بخُلُوٍّ بَالٍ، إلَى مَسجد خالٍ، فأماطَت الْجلْبابَ، ونضَتِ النّقابَ، وأَنَا ألمَحُها منْ خَصاصِ[٨] البابِ، وأرقُبُ مَا ستُبْدي منَ العُجابِ، فَلَمَّا انْسَرَتْ[٩] أُهبَةُ الْخَفَرِ، رأيتُ مُحَيّا أبي زيد قد سفَرَ، فهمَمْتُ أَنْ أهْجُمَ عليْه، لأعنِّفَهُ[١٠] عَلَى مَا أَجْرَى إليْه، فاسْلَنْقَى اسلنْقاءَ الْمتمرّدينَ، ثُمَّ رفَعَ عَقيرةَ الْمغرّدينَ، واندفَعَ يُنشدُ:

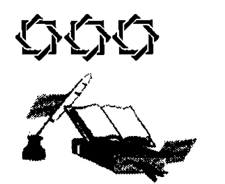
يا لَيتَ شعري أدَهْري ... أحاطَ علْماً بقَدْري
وهلْ درَى كُنْهَ غوْري[١١] ... في الخَدْعِ أم ليس يدْري
كمْ قَدْ قَمَرْتُ بَنيه[١٢] ... بحيلَتي وبمَكْري
وكَمْ بَرزَتْ بِعُرْفٍ[١٣] ... عَليهِم وبِنُكْرِ

---

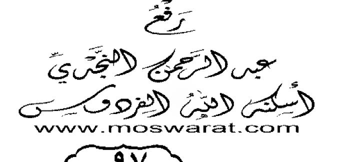
(١) أعطاها من عادته طلب العطاء.
(٢) نظنه.
(٣) أعطاها.
(٤) أي اختبارها.
(٥) ممتلئة.
(٦) تخلّصت وانفلتت.
(٧) مالت ورجعت.
(٨) شقوقه.
(٩) انكشفت.
(١٠) لأعيّرهُ وألُومه.
(١١) غاية عمق عقلي.
(١٢) غلبت بالقمار أهله.
(١٣) من المعروف، ضِدَّ النكر بمعنى: المنكر.

أصْطَادُ قَوْماً بِوَعْظ   وآخَرِينَ بِشِعْرِ
وأسْتَفِزُّ بِخَلٍّ   عَقْلاً وعَقْلاً بِخَمْرِ
وتَارَةً أَنَا صَخْرٌ   وتارَةً أُخْتُ (١) صَخْرِ
ولَوْ سلَكْتُ سَبِيلاً   مَألوفَةً (٢) طُولَ عُمْري
لخَابَ قِدْحي وقَدْحي   ودامَ عُسْري وخُسْري
فَقُلْ لمَنْ لامَ هَذا   عُذري فدونَكَ عُذري

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا ظَهَرْتُ عَلَى جلَيّةِ أمْرِه (٣)، وبَديعة إمْرِه(٤)، ومَا زَخْرَفَ فِي شِعْرِه منْ عُذرِه، علِمْتُ أَنَّ شيطانَهُ الْمَريدَ، لا يسمَعُ التّفْنيدَ (٥)، ولاَ يَفْعَلُ إلا مَا يُريدُ، فثنَيْتُ إلَى أصحابي عِناني. وأبثَثْتُهُمْ (٦) مَا أثبتَهُ عِيَاني، فَوَجَمُوا (٧) لضَيْعَةِ الجَوائِزِ، وتعاهَدوا علَى مَحْرَمَةِ (٨) العَجَائزِ.



(١) هو: صخر بن عمرو بن الشديد السُّلَميّ وأخته الخَنْسَاءُ الشَّاعِرَة المُشْهُورَة.
(٢) مسلوكة معروفة.
(٣) حقيقة حاله.
(٤) الإمْر ـ بالكسر ـ الشَّيْءُ الْعَجِيب.
(٥) اللوم والتوبيخ.
(٦) أخبرتهم وشرحت لهم.
(٧) سكتوا حزنًا.
(٨) أي: حرمان.



المقامةُ الرابعة عشرة
المكيَّةُ

حكَى الْحارثُ بن همَّام قَالَ: نهضْتُ من مدينةِ السّلامِ، لحجّةِ الإسلامِ، فَلَمَّا قضيْتُ بعونِ الله التّفثَ، واستبحْتُ الطّيبَ والرَّفثَ، صادفَ موسمُ الخيْفِ، معْمعَانَ(١) الصَّيْفِ، فاستظْهَرْتُ للضّرورةِ، بِمَا يقي حرَّ الظّهيرةِ، فبينَما أنَا تحْتَ طِرَاف(٢)، مَعَ رُفقةٍ ظِراف، وقدْ حَمِيَ وطيسُ الحْصْباء(٣)، وأعْشى الْهَجيرُ عَيْنَ الحِرْباءِ، إذْ هجَمَ علَيْنا شيخٌ مُتَسَعْسِعٌ(٤)، يتْلوهُ(٥) فتًى مترَعْرِعٌ.

فَسَلَّمَ الشَّيْخُ تسْليمَ أديبٍ أريبٍ، وحَاورَ مُحَاورَةَ قريبٍ لا غريبٍ، فأُعْجبْنا بِمَا نثَرَ منْ سِمْطِه، وعَجِبْنا منِ انبساطِه(٦) قَبْلَ بسْطِه، وقُلْنا لهُ: مَا أنتَ، وكيفَ ولجْتَ(٧)، وما اسْتَأْذَنْتَ؟ فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فعَافٍ، وطالبُ إسْعافٍ(٨)، وسِرُّ ضُرّي غيرُ خافٍ، والنّظَرُ إليّ شفيعٌ لِي كافٍ، وأمّا الانْسِيابُ، الَّذي علِقَ به الارتيابُ(٩)، فَما هوَ بعُجابٍ، إذْ مَا عَلَى الكُرَماء منْ حِجابٍ، فَسَأَلْنَاهُ: أَنَّى اهتَدَى(١٠) إلَيْنا؟ وبِمَ استَدَلَّ علَيْنا؟ فقَالَ: إنّ

---

(١) شدَّة الحرّ وتوقّده.
(٢) خيمة من أدَم.
(٣) الوطيس: التنور. والحصباء: الحصى الصّغار.
(٤) أي: هرم.
(٥) أي: يتبعه.
(٦) تَرْك الاحتْشَام.
(٧) أي: دخلت.
(٨) المعاونة وقضاءُ الحاجة.
(٩) القلق والاضطراب.
(١٠) استرشد واستدلَّ.

للكرَمِ نشْراً (١) تَنُمّ بهِ نفَحاتُهُ، وتُرْشِدُ إلَى روضِه فوْحاتُهُ، فاستَدْلَلْتُ بتأرّجِ عَرْفِكُمْ(٢)، عَلَى تبلّجِ عُرفِكُم! وبشّرَني تضوُّعُ رَندِكُمْ، بحُسْنِ الْـمُنقَلَبِ مِنْ عندِكُم! فاستخْبَرْناهُ حينَئذٍ عنْ لُبـانَتِه، لنتكفّلَ بإعانتِه، فقَالَ: إنّ لِي مأرَباً، ولِفَتَايَ مَطلَبا، فقُلْنَا لهُ: كِلا الْـمَرامَيَنِ(٣) سيُقْضى، وكلاكُما سوفَ يرْضى، ولكِنِ الكُبـرَ الكُبْرَ، فقَالَ: أجَلْ ومنْ دَحـا السّبْعَ الغُبْرَ، ثُمَّ وثبَ لـلمَقالِ، كالمُنشَطِ مِنَ العِقَالِ، وأنشَدَ:

إنِّـــي امــــرُؤٌ أُبْـــدِعَ بِـــي ... بَعْـــدَ الـــوَجى(٤) والـتّــعَــبِ
وَشُـــقّـــتـي شـاسِـــعَـــةٌ ... يـقْـــصُـــرُ عَـــنـهـــا خَـبَـبي
ومَـــا مَـــعِـي خَـــرْدَلَـــةٌ ... مَـطْـبُـــوعَـــةٌ (٥) مِـنْ ذهَـــبِ
فَـــحَـــيـلَـتـي مُـنـسَـــدّةٌ ... وحَـــيْـــرَتـي تَـلْـعَـبُ (٦) بـي
إن ارتَـــحَــلْـتُ راجِـــلاً (٧) ... خَـــفْـتُ دَواعِـي الـعَـطَـبِ (٨)
وإنْ تـخـلّـفْــتُ عَــنِ الـرُّفْ ... ـقَـــةِ ضَـــاقَ مَــذْهَـبِـي (٩)
فـــزَفْـــرَتـي فِـي صُـعُـدٍ ... وعَـــبْـــرَتي فِـي صَـبَبِ (١٠)
وأنـــتُـمْ مُـنْـتَـجَـعُ الـــ ... ـــرّاجِـي ومَـرْمَى الـطّـلَـبِ
لُـهـاكُـمُ مُـنـهَـلّـةٌ (١١) ... وَلاَ انْـهِـلالَ الـسُّـحُـبِ
وجـارُكُـمْ فِـي حَـرَمٍ (١٢) ... ووَفْـرُكُـمْ فِـي حَـرَبِ

(١) الرائحة الطيبة.
(٢) من البلج، وهو: وضوح النُّور. والعُرْف ـ بالضَّمِّ ـ المَعْرُوف.
(٣) الحاجتين.
(٤) وجع الرِّجلين من الحفاء.
(٥) أي مصنوعة.
(٦) أي لا تنفك عنِّي.
(٧) ماشيًا على رِجْلَيْه.
(٨) أسباب الهلاك.
(٩) أي: طريقي.
(١٠) الصَّبب: الانحدار والهُبُوط.
(١١) منسكبة متتابعة.
(١٢) أي: في منعة واحترام.

مَــا لاذَ مُــرْتَــاعٌ بِــكُــمْ ... فَــخَــافَ نَــابَ الــنُّــوَبِ
وَلاَ اسْــتَــدَرَّ آمِــلٌ ... حِــبَــاءَكُــمْ فَــمَــا حُــبِي(١)
فَــانْــعَــطِــفُــوا فِــي قِــصَّــتِــي ... وأَحْــسِــنُــوا مُــنْــقَــلَــبِــي
فَــلَــوْ بَــلَــوْتُــمْ(٢) عِــيــشَــتِــي ... فِــي مَــطْــعَــمِــي وَمَــشْــرَبِــي
لَــسَــاءَكُــمْ(٣) ضُــرِّي الَّــذِي ... أَسْــلَــمَــنِــي لِــلْــكُــرَبِ(٤)
ولَــوْ خَــبَــرْتُــمْ حَــسَــبِــي ... ونَــسَــبِــي ومَــذْهَــبِــي
ومَــا حَــوَتْ مَــعْــرِفَــتِــي ... مِــنَ الْــعُــلُــومِ الــنُّــخَــبِ(٥)
لَمَا اعْــتَــرَتْــكُــمْ شُــبْــهَــةٌ ... فِــي أَنَّ دَائِــي أَدَبِــي
فَــلَــيْــتَ أَنِّــي لَــمْ أَكُــنْ ... أُرْضِــعْــتُ ثَــدْيَ الأَدَبِ
فَــقَــدْ دَهَــانِــي شُــؤْمُــهُ ... وعَــقَّــنِــي(٦) فِــيــهِ أَبِــي

فَقُلْنَا لَهُ: أمَّا أَنْتَ فَقَدْ صَرَّحَتْ أبياتُكَ بفاقَتك، وعطَبِ ناقَتكَ، وسنُمْطيكَ مَا يوصِّلُكَ إِلَى بلدكَ، فَمَا مأرَبَةُ ولَدكَ؟ فَقَالَ له: قُمْ يَا بني كما قام أبوكَ، وفُهْ(٧) بِمَا فِي نَفْسك لا فُضَّ فُوكَ(٨)، فنهضَ نُهوضَ البطَلِ للبِرازِ(٩)، وأصلَتَ لساناً كالعضْبِ(١٠) الْجُرازِ، وأنشأ يَقُولُ:

يَــا سَــادَةً فِــي الْمَــعَــالِــي ... لَــهُــمْ مَــبَــانٍ مَــشِــيــدَهْ
ومَــنْ إِذَا نَــابَ خَــطْــبٌ ... قَــامُــوا بِــدَفْــعِ الْمَــكِــيــدَهْ
ومَــنْ يَــهُــونُ عَــلَــيْــهِــمْ ... بَــذْلُ الْــكُــنُــوزِ الْــعَــتِــيــدَهْ(١١)

---

(١) أي: فما أعطى.
(٢) اختبرتم.
(٣) أي: لأحزنكم.
(٤) جمع كُرْبَة، بمعنى: المِحْنَة.
(٥) جمع نخبة، وهي: خيار كل شيء.
(٦) أي: قطع رحمي.
(٧) أي: قل وتكلَّم.
(٨) أي: لا كسرت أسنانك.
(٩) أي: قام قيام الفارس الشجاع للحرب.
(١٠) أي: كالسيف الماضي القاطع لكل شيء.
(١١) الحاضرة المُسْتَعِدَّة أو الجسيمة.

أريدُ منكُمْ شِواءً وجَرْدَقاً (١) وعَصيدَهْ
فإنْ غَلا فَرُقاقٌ بهِ تُوارَى الشَّهيدَهْ
أو لَمْ يكُنْ ذا ولاَ ذَا فَشُبْعَةٌ منْ ثَريدَهْ (٢)
فإنْ تعذَّرْنَ طُرّاً فعَجْوةٌ ونَهيدَهْ (٣)
فأحْضِروا ما تسنّى ولوْ شَظًى منْ قَديدَهْ
وروِّجُوهُ (٤) فنَفْسي لِما يروجُ مُريدَهْ
والزّادُ لا بُدّ منْهُ لِرحْلَةٍ لي بَعيدَهْ
وأنتُمْ خيْرُ رهْطٍ (٥) تُدعَوْنَ عندَ الشّديدَهْ
أيديكُمُ كلَّ يومٍ لَها أيادٍ جَديدَهْ
وراحُكُمْ واصِلاتٌ شمْلَ الصِّلاتِ المُفيدَهْ
وبُغْيَتي (٦) في مَطاوي ما تَرفُدونَ زَهيدَهْ (٧)
وفيَّ أجْرٌ وعُقْبَى تنْفيسِ كَرْبي حَميدَهْ
ولي نتائِجُ فِكرٍ يفْضَحْنَ كُلّ قَصيدَهْ

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا رأيْنا الشّبْلَ يُشبِهُ الأسَدَ، أرحَلْنا الوالِدَ وزوّدْنا الولَدَ، فقابَلا الصُّنْعَ (٨) بشُكْرٍ نشَرَ أرديَتَهُ (٩)، وأدّيا بهِ ديَتَهُ، ولَمّا عزَما علَى الانْطلاقِ، وعَقَدا للرّحلَةِ حُبُكَ النّطاقِ، قُلْتُ للشّيْخِ: هلْ ضاهَتْ (١٠) عِدَتُنا عِدَةَ عُرْقوبٍ، أَوْ هلْ بقيَتْ حاجةٌ في نفْسِ يعْقوبَ؟

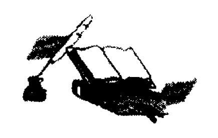
(١) رغيفًا معرب كرده.
(٢) هو أن تفتّه ثم تبلّه بمرق.
(٣) صنف من طبيخ العرب.
(٤) عجّلوهُ وهيّؤُوه.
(٥) أي: قوم.
(٦) مطلبي وما أتَمَنَّاه.
(٧) أي: قليله.
(٨) أي: المعروف.
(٩) أكثر من الشُّكْر حتى اشتهر صيته.
(١٠) أي: ماثلت وشابهت.

فَقَالَ: حَاشَ للهِ وكَلاَّ، بَلْ جَلَّ مَعروفُكُمْ وجَلَّى.

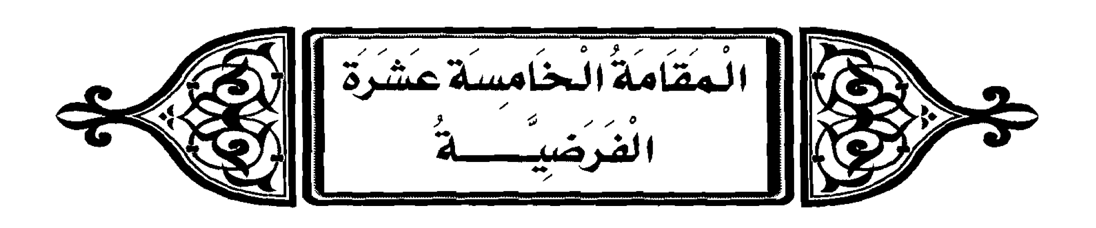
فَقُلْتُ لهُ: فَدنّا كما دنّاكَ، وأفدنا كما أفَدْناكَ، أينَ الدُّوَيْرَةُ [1]، فَقَدْ ملكَتْنا فيكَ الْحَيرَةُ؟ فتنفّسَ تنفُّسَ منِ ادّكَرَ [2] أوطانَهُ، وأنشدَ والشّهيقُ يُلَعثِمُ [3] لسانَهُ:

سَرُوجُ داري ولَكِنْ … كَيفَ السّبيلُ إلَيْهَا
وَقَدْ أَنَاخَ [4] الأعَادي … بهَا وأخْنَواْ علَيْهَا [5]
فَوالَّتي سِرْتُ أبْغي … حَطّ الذُنُوب لدَيْها
مَا راَقَ طَرْفي شَيءٌ … مُذْ غِبتُ عنْ طرَفَيْها [6]

ثُمَّ اغرَوْرَقَتْ عيناهُ بالدّموعِ، وآذَنَتْ [7] مَدامِعُهُ بالهُموعِ، فكَرِهَ أَنْ يَسْتَوكِفَها، ولَمْ يَمْلِكْ أَنْ يُكَفْكِفَهَا [8]، فَقَطَعَ إنْشَادَهُ الْمُستَحْلَى، وأوجَزَ [9] فِي الوَدَاعِ وَوَلَّى [10].



(١) أي: البلدة.
(٢) أي: تذكَّرَ. وأصله: «اذْدكَرَ» فَأُدْغِمَ.
(٣) من اللَّعْثَمة، وهي: التَّوَقُّف والتَّمكُّث.
(٤) أي: نزل.
(٥) أهلكوها وأفسدوها.
(٦) أي: ما أعجب عيني شيءٌ من حين مفارقتها.
(٧) أي: أعلمت.
(٨) يمنعها ويردها.
(٩) اقتصر وأسرع.
(١٠) أي: ذهب ومضَى.



المَقَامَةُ الخَامِسَةَ عَشَرَةَ الفَرَضِيَّةُ

أَخْبَرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَرِقْتُ (١) ذاتَ ليلَةٍ حالكَةِ الجلْبابِ، هامِيَةِ الرَّبابِ، ولاَ أرَقَ صَبٍّ (٢) طُرِدَ عنِ الباب، ومُنيَ بصَدِّ الأحْبابِ، فلَمْ تزَلِ الأفكارُ يهِجْنَ همِّي، ويُجلنَ فِي الوَسَاوِسِ(٣) وَهْمي(٤)، حَتَّى تمَنَّيْتُ، لَمضَضِ مَا عانَيْتُ، أنْ أُرْزَقَ سَميراً منَ الفُضَلاء، ليُقصِّرَ طولَ ليلَتي اللَّيْلاء، فَمَا انقَضَتْ مُنيَتي(٥)، ولاَ أُغمِضَتْ مُقلَتي، حَتَّى قرَعَ البابَ قارِعٌ، لَهُ صوتٌ خاشِعٌ، فقلتُ فِي نفسي: لَعَلَّ غَرْسَ التَّمني قد أثمرَ، ولَيْلَ الحَظِّ قد أقْمَرَ، فنهَضْتُ إليْه عَجْلانَ (٦)، وقُلْتُ: مَنِ الطَّارِقُ الآن؟ فَقَالَ: غَرِيبٌ أجَنَّهُ(٧) اللَّيْلُ، وغشِيَهُ السَّيْلُ، ويبْتَغِي الإيواءَ (٨) لا غير، وإذَا أسْحَرَ قدَّمَ السَّيرَ، قَالَ: فَلَمَّا دَلَّ شُعاعُهُ عَلَى شَمْسه، ونَمَّ عُنوانُهُ بسرِّ طِرْسه، عَلِمْتُ أَنَّ مُسامرَتَهُ غُنْمٌ، ومُساهَرَتَهُ نُعْمٌ، ففَتَحْتُ البابَ بابتِسامٍ، وقُلْتُ: ادخلُوها بسَلام، فَدَخَلَ شخصٌ قَدْ حَنَى الدَّهْرُ صَعْدَتَهُ، وبلَّلَ القَطْرُ بُردَتَهُ (٩)، فحيَّا بلِسانٍ عضْبٍ، وبَيانٍ عذْبٍ، ثُمَّ شكرَ عَلَى تلبِيَةِ صوتِه، واعتَذَرَ مِنَ

---

(١) أي: سهرت.
(٢) أي: عاشق.
(٣) جمع الوسوسة، وهي: حديث النَّفْس أو الكلام الخفيّ.
(٤) أي: بالي وفكري.
(٥) أي: ما تَمَنَّيْته وطلبته.
(٦) فَقُمْتُ إليه مُسْرِعًا.
(٧) أي: ستره.
(٨) إدخاله المنزل.
(٩) أي: أصابه المطر حتى ابْتَلَّ ثوبه.

الطُّرُوق(١) فِي غيرِ وقته، فدانَيْتُهُ (٢) بالمِصْباحِ المُتّقِد، وتأمّلْتُهُ تأمّلَ الـمُنتَقِد، فألفَيْتُهُ شيخَنا أبا زيْدٍ بلا ريَبٍ، ولاَ رَجْمِ غيْبٍ، فأحلَلْتُهُ (٣) مَحلَّ مَنْ أظفرَنِي بقُصْوَى الطَّلَبِ، ونقَلَني مِنْ وَقْدِ الكُربَ، إلَى رَوْحِ الطَّرَب (٤)، ثُمَّ أَخذَ يشْكُو الأيْنَ، وأخذْتُ فِي كيفَ وأينَ؟ فقَالَ: أبلِعْني ريقي، فقَدْ أتعبَني طَرِيقي، فظَنَنْتُهُ مُستَبْطناً للسَّغَبِ (٥)، متُكاسِلاً لهَذا السّبَبِ، فأحضَرْتُهُ مَا يُحْضَرُ للضّيفِ الـمُفاجي، فِي اللّيلِ الدّاجي، فانقَبَضَ انقباضَ الـمُحتَشِمِ(٦)، وأعْرَضَ إعراضَ البَشِمِ (٧)، فسُؤتُ ظَنّا بامتناعه، وأحفَظَني حؤولُ طِباعِهِ، حَتّى كِدْتُ أُغْلِظُ لَهُ فِي الكلامِ، وألسَعُهُ بحُمَةِ الـمَلامِ، فتبيّنَ منْ لَمَحاتِ نَاظِري، مَا خامَرَ خاطِري، فقَالَ: يَا ضَعيفَ الثّقة، بأهلِ المِقَة(٨)، عِدِّ عمَّا أَخْطَرْتَهُ بالَكَ، واستَمِعْ إليَّ لا أَبَا لَكَ! فقلْتُ: هات، يَا أخا التُرّهات! فقَالَ: اعْلَمْ أني بِتُّ البارِحَةَ حَليفَ إفْلاسٍ(٩)، ونَجيَّ وسْواسٍ، فَلَمَّا قضى اللّيْلُ نحبَهُ، وَغوَّرَ (١٠) الصُّبحُ شُهْبَهُ، غَدَوْتُ وقْتَ الإشْراقِ، إلَى بعضِ الأسْواقِ، متصدّيا (١١) لصَيْدٍ يسْنَحُ، أَوْ حُرٍّ يسمَحُ، فلحَظْتُ بها تمْراً قد حَسُنَ تصْفيفُهُ (١٢)، وأحسَنَ إليْه مَصيفُهُ، فجمعَ عَلَى التّحقيقِ، صَفاءَ الرَّحيقِ (١٣)، وقُنُوءَ العَقِيقِ، وقُبالَتَهُ لِبأٌ (١٤) قد برزَ كالإبْريز

---

(١) الإتيان.
(٢) أي: قاربته.
(٣) أي: فأنزلته.
(٤) أي: راحة السرور.
(٥) السَّغب: الجوع.
(٦) المستحيي: المنقبض.
(٧) الممتلئ بالطعام.
(٨) المحبَّة.
(٩) قرين فقر ومصاحب عُدم.
(١٠) أي: غيّب وأخفى.
(١١) قاصدًا ومتعرضًا.
(١٢) أي: كونه صفوفًا.
(١٣) هو الشراب الصَّافي.
(١٤) هو أول اللّبَن في النّتَاج.

الأصفرِ، وانجلى فِي اللونِ المُزْعَفَرِ، فهوَ يُثْني عَلَى طَاهيه، بلِسَانِ تَنَاهيه[١]، ويصوِّبُ رأيَ مُشتَريه، ولَوْ نقَدَ حبَّةَ القلْبِ فيه، فأسرَتْني الشّهوةُ بأشْطانها، وأسلَمَتْني الـعَيْمَةُ [٢] إلَى سُلْطـانها، فبَقـيتُ أحيَرَ مـن ضَبّ، وأذْهَلَ من صَبّ، لا وُجْدَ [٣] يوصِلُنـي إلَى نَيْلِ الْـمُـرَادِ، ولَذَّةِ الازدِرَاد[٤]، ولاَ قدمَ تُطاوعُني عَلَى الذِّهَابِ، مَعَ حُرقَةِ الالتِهابِ، لكِنْ حَداني القرَمُ وسُورَتُه[٥]، والسَّغَبُ[٦] وفورَتُهُ [٧]، عَلَى أنْ أنتَجِعَ كُلَّ أرضٍ، وأقتَنعَ مِنَ الوِرْدِ ببَرْضٍ، فلَمْ أزَلْ سَحابةَ ذَلكَ النّهارِ، أُدْلـي دَلْوي إلَى الأنْهارِ، وهيَ لا ترْجِعُ ببِلّة، ولاَ تجْلُبُ نقْعَ غُلَّة [٨]، إلَى أنْ صَغَتِ الشَّمْسُ للْغُـروبِ، وضَعُفَتِ النَّفْسُ مِنَ اللُّغُوبِ [٩]، فرُحْتُ بكَبِـدٍ حرَّى، وانثَنَيْتُ أقدّمُ رِجْـلاً وأؤخّرُ أخرى، وبينَـما أنَا أسعـى وأقعُدُ، وأهُـبُّ وأركُدُ [١٠]، إذْ قابَلَـني شيخٌ يتـأوّهُ أهّةَ الثّكْلانِ، وعـيناهُ تهْـمُلانِ [١١]، فمَـا شغَلَـني مَا أنَـا فيهِ مـنْ داءِ الذّيبِ، والْـخَوى الْـمُذيبِ، عنْ تَـعاطي مُداخلَتِه [١٢]، والطّمعِ فِي مُخـاتَلَتِه[١٣]، فقلْـتُ لهُ: يَا هَـذَا إنّ لبُـكائكَ سراً، ووَرَاء تحرُّقِـكَ لشَرّاً، فأطْلِعْـني عَلَى بُرَحَائكَ [١٤]، واتَّخِذْني من نُصَحَائكَ، فإنّكَ ستَجِدُ منِّي طَبّا آسياً [١٥]، أَوْ عَوْناً مؤاسياً، فقَالَ: واللهِ مَا تأوُّهي مِنْ عَيشٍ فَاتَ [١٦]، ولاَ منْ دهرٍ افْتَاتَ

---

(١) انتهاؤه في حسنه.
(٢) هي في الأصل شهوة اللَّبن.
(٣) لا مال ولا غِنى.
(٤) الابتلاع.
(٥) أي: حدَّته.
(٦) الجوع.
(٧) حرقته.
(٨) أي: لا تأتي بما يروي العطش.
(٩) الإعياء.
(١٠) أي: أسكن.
(١١) تسيلان بالدَّمْع.
(١٢) أي: مداناته.
(١٣) أي: مخادعته.
(١٤) البرح والبُرَحاء: شدَّة الأذى.
(١٥) طبيبًا مُدَاوِيا.
(١٦) انقضى.

بَلْ لانقِراضِ العِلمِ ودُروسهِ، وأفُولِ (١) أقْمارِهِ وشُمُوسِه، فقُلْتُ: وأيّ حادثَةٍ نَجمَتْ(٢)، وقضيّةٍ استعْجَمتْ، حتَّى هاجَتْ لَكَ الأسَفَ (٣)، علَى فَقَدْ منْ سلَفَ؟ فأبْرزَ رُقعَةً منْ كُمِّه، وأقسَمَ بِأبِيه وأُمِّه، لقدْ أنزلَها بأعْلامِ الْمدارسِ، فمَا امتازوا عنِ الأعْلامِ الدّوارِسِ، واستنْطَقَ لَها أحْبارَ الْمَحابرِ، فخرِسوا ولاَ خرَسَ سُكّانِ الْمقابرِ، فقُلْتُ: أَرِنيهَا (٤)، فلعلّي أغْني فيها، فقَالَ: مَا أبعَدْتَ فِي الْمَرامِ، فرُبّ رميَةٍ منْ غيرِ رامٍ، ثُمَّ ناولَنيها، فإذَا الْمكْتوبُ فيها:

أيُّها العَالِمُ الفَقيهُ الَّذي فَا ... قَ ذَكاءً فَمَا لَهُ منْ شَبيَه
أفتِنا في قَضيّةٍ حَادَ عنْها ... كلُّ قَاضٍ وَحَارَ (٥) كلُّ فَقيه
رَجُلٌ ماتَ عنْ أخٍ مسلمٍ حُـ ... ـرٍ تقيٍّ منْ أمّه وأبِيه
ولهُ زوْجَةٌ لها أيّها الحَبْـ ... ـرُ (٦) أخٌ خالصٌ بلا تَمْويه(٧)
فحوَتْ فرْضَها وحازَ أخوها ... ما تبَقّى بالإرث دونَ أخيه
فاشْفِنا بالجَوابِ عمّا سألْنا ... فهْوَ نصٌّ لا خُلْفَ يوجَدُ فيه

فَلَمَّا قرأتُ شِعْرَها، ولمحْتُ سرَّهَا (٨)، قُلْتُ لَهُ: علَى الْخَبيرِ بها سقَطْتَ، وعندَ ابنِ بجْدَتِها حططْتَ، إلا أني مُضطَرِمُ (٩) الأحْشاء، مُضطَرٌّ إلَى العَشَاءِ (١٠)، فأكرِمْ مثْوايَ، ثُمَّ استمِعْ فتْوايَ، فقَالَ: لقد أنصَفْتَ فِي

---

(١) أي: غروب.
(٢) أي: ظهرت.
(٣) أي: الحزن.
(٤) أي: أطلعني عليها.
(٥) تحيَّر.
(٦) العَالِم.
(٧) أي: بلا شك ولا ريب.
(٨) نظرته واطلعت عليه.
(٩) الأحشاء: ما انحنت عليه الضُلُوع.
(١٠) أي: محتاج إليه.

الاشتِراطِ، وتجافَيْتَ عنِ الاشتطاطِ[١]، فَصِرْ مَعِي، إلَى مَرْبَعِي، لتَظْفَرَ بِمَا تبْتَغِي، وتنقَلِبَ كما ينبَغِي، قَالَ: فصاحَبْتُهُ إلَى ذَراهُ[٢]، كما حكَمَ اللهُ، فأدخلَني بيتاً أَحْرَجَ[٣] من التَّابُوتِ، وأوْهَنَ مِنْ بَيتِ العَنكَبُوتِ، إلا أنّهُ جَبَرَ[٤] ضيقَ ربْعِه[٥]، بتوْسعَةِ ذرْعِه[٦]، فَحكَّمَني فِي القِرَى، ومطَايِبِ مَا يُشتَرى، فقُلْتُ: أريدُ أزهى راكبٍ عَلَى أشْهى مركُوبٍ، وأنفَعَ صاحبٍ مَعَ أضرّ مصْحوبٍ، فأفكَرَ ساعةً طويلةً، ثُمَّ قَالَ: لعلّك تعْني بنْتَ نُخَيلةٍ، مَعَ لباءِ سُخَيلةٍ، فقُلْتُ: إياهُما عنَيْتُ، ولأجْلِهما تَعَنَّيْتُ[٧]، فنهَضَ نشيطاً، ثُمَّ ربَضَ مُستَشيطاً، وقَالَ: اعْلَمْ أصلحَكَ اللهُ أَنَّ الصِّدْقَ نَبَاهَةٌ[٨]، والكذبَ عاهَةٌ، فلا يحملنّكَ الجُوعُ الَّذِي هوَ شِعارُ الأنبياءِ، وحِليَةُ الأولياءِ[٩]، عَلَى أنْ تلْحَقَ بمَنْ مانَ، وتتخلّقَ بالْخُلُقِ الذي يُجانبُ الإيمانَ، فَقَدْ تجوعُ الْحُرّةُ وَلاَ تأكُلُ بثَدْيَيها، وتَأْبَى الدَّنيَّةَ[١٠] ولوِ اضطُرّتْ إلَيْها، ثُمَّ إنّي لستُ لَكَ بزَبونٍ، وَلاَ أُغْضِي[١١] عَلَى صَفَقَةِ مَغْبُونٍ، وهَا أنَا قَدْ أنذَرْتُكَ[١٢] قَبْلَ أنْ ينهَتِكَ السِّتْرُ، وينعَقِدَ فيما بينَنا الوِتْرُ، فلا تُلْغِ تدبُّرَ الإنْذارِ، وحَذارِ منَ الْمُكاذبَةِ حَذارِ، فقلْتُ لهُ: وَالَّذِي حرّمَ أكْلَ الرِّبا، وأحلّ أكْلَ اللِّبا، مَا فُهْتُ بزورٍ، وَلاَ دلّيْتُكَ بغُرورٍ، وستُخبَرُ حَقيقَةَ الأمْرِ، وتحْمَدُ بذْلَ اللّبأ والتّمْرِ، فَهَشَّ[١٣] هَشاشَةَ الْمَصْدوقِ، وانطلَقَ مُغذّاً[١٤] إلَى السُّوقِ، فَمَا كَانَ

(١) الجور ومجاوزة الحدّ.
(٢) أي: بَيْتِه.
(٣) أي: أضيق.
(٤) أصلح.
(٥) منزله.
(٦) صدره وخلقه.
(٧) تعبت.
(٨) شرف ورِفْعَة.
(٩) زينة ولباس الأولياء.
(١٠) تمتنع من الخَصْلَة القبيحة؛ كالزِّنا.
(١١) لا أتغافل.
(١٢) أعلمتك.
(١٣) أي: فرح.
(١٤) مسرعًا.

بأسرَعَ منْ أنْ أقبَلَ بهِما يدلَحُ، ووجْهُهُ مِـنَ التّعبِ يكلَحُ، فوضَعَهُما لديّ، وضْعَ الْـمُمْتَنّ عليّ ، وقَـالَ : اضرِبْ الجَيْشَ بالجيْشِ، تَحْظَ(١) بلَذَّةِ العيشِ، فَحَسَرْتُ عَنْ ساعِدِ النَّهِمِ(٢) ، وحملْتُ حملَةَ الفيلِ الْـمُلْتَهِمِ(٣) ، وهو يلْحَظُني كمـا يلحَظُ الْـحَنِقُ(٤) ، ويودّ منَ الغيْظِ لو أختَنِقُ، حتَّى إذَا هَلقَمْتُ النَّوْعَينِ(٥) ، وغادرْتُهُما أثَراً بعْدَ عينٍ، أفرَدْتُ حيْرَةً في إطْلالِ البَيَاتِ(٦) ، وفِكرةً في جَوابِ الأبْياتِ، فَمَا لبِثَ أَنْ قام، وأحضَرَ الدّواةَ والأقْلامَ، وقَالَ: قد مـلأتَ الجِرابَ(٧) ، فأمْلِ الْجَوابَ، وإلا فتهيّأ إنْ نكَلْتَ، لاغْترامِ مَا أكلْتَ! فقلْتُ له: مَا عِندي إلا التّحقيقُ، فاكتُبِ الْجوابَ وباللهِ التوْفيقُ:

قُلْ لَمَنْ يُلغِزُ المسائلَ إني ... كاشفٌ سرَّها الَّذي تُخْفيهِ
إنّ ذا الْميّتَ الَّذي قدّمَ الشّرْ ... عُ أخَا عِرسِهِ(٨) عَلَى ابنِ أبيهِ
رجُلٌ زوّجَ ابنَهُ عنْ رِضاهُ ... بحَماةٍ لَهُ ولاَ غَرْوَ فيهِ
ثُمَّ ماتَ ابنُهُ وقدْ علِقَتْ(٩) منْـ ... ـهُ فجاءَتْ بابنٍ يسُرّ ذويهِ
فهُو ابنُ ابنِهِ بغيرِ مِراءٍ ... وأَخُو عِرْسِهِ بلا تَمْويهِ(١٠)
وابنُ الابنِ الصّريحُ أدْنَى إلَى الجَـ ... ـدِّ وأوْلى بإرْثِهِ منْ أخيهِ
فلِذا حينَ ماتَ أوجبَ لِلزّوْ ... جَةِ ثُمْنُ التُّراثِ(١١) تَسْتَوفيهِ
وحَوَى ابنُ ابنِهِ الَّذي هوَ في الأصْـ ... ـلِ أخُوهَا منْ أمِّها باقيهِ

(١) تَفُزْ وتَغْنَمْ.
(٢) المفرط في شهوة الطعام.
(٣) الالتهام: الابتلاع الشديد.
(٤) الغضبان.
(٥) هما التمر واللّبَأ.
(٦) المبيت.
(٧) البطن، وهو كناية عن الشّبَع.
(٨) زوجته.
(٩) حملت.
(١٠) تزيين.
(١١) هُو الميراث.

وتخلّى الأخُ الشّقيقُ منَ الإرْ ث وقُلْنا يَكْفيكَ أنْ تبكيه
هاكَ(١) مني الفُتْيا الّتي يحتَذيها(٢) كُلُّ قَاضٍ يَقْضي وكُلُّ فَقيه

قَالَ: فَلَمَّا أثبتّ الْجَوابَ، واسْتَبثتُّ منْهُ الصَّوابَ، قَالَ لي: أهلَكَ واللَّيْلَ، فَشَمِّرِ الذَّيْلَ، وبادرِ السَّيْلَ! فقُلْتُ: إنِّي بدَارِ غُربَةٍ(٣)، وَفِي إيوَائي أفضَلُ قُربَةٍ(٤)، لا سيّما وَقَدْ أغدَفَ جُنْحُ الظّلامِ، وَسَبَّحَ الرَّعْدُ فِي الغَمَامِ، فَقَالَ: اغْرُبْ عَافَاكَ اللهُ إلَى حَيثُ شِيتَ، ولاَ تَطْمَعْ فِي أَنْ تبيتَ، فَقُلْتُ: ولِمَ ذَاكَ، مَعَ خُلُوِّ ذَرَاكَ(٥)؟ قَالَ: لأني أنعَمْتُ النظَرَ، فِي التقامكَ(٦) مَا حضَرَ، حَتَّى لَمْ تُبْقِ ولَمْ تَذَرْ، فرأيتُك لا تنظُرُ فِي مصلحَتكَ، وَلاَ تُراعي حفْظَ صحّتكَ، ومَنْ أمعَنَ فيما أمعنْتَ، وتبطّنَ مَا تبطّنْتَ، لم يكَدْ يخْلُصُ منْ كظّة مُدنفَةٍ، أَوْ هَيْضَةٍ(٧) مُتلفَةٍ(٨)، فَدَعْني بالله كَفافاً، واخْرُجْ عني مَا دُمْتَ مُعافًى، فَوَالّذي يُحْيي ويُميتُ، ما لَكَ عندي مَبيتٌ! فَلَمَّا سمعْتُ أَلِيّتَهُ، وبلَوتُ بَلِيَّتَهُ، خَرَجْتُ منْ بيته بالرَّغْمِ(٩)، وتزوّدِ الغَمِّ، تجودُني السَّمَاءُ، وتخْبِطُ بيَ الظّلْماءُ، وتَنبَحُني الكلابُ، وتتقاذَفُ بيَ الأبوابُ، حَتَّى ساقَني إلَيكَ لُطْفُ القضاء، فشُكْراً ليَده البَيضاء، فقلتُ لهُ: أحْبِبْ بلقائكَ الْمُتاحِ(١٠)، إلَى قَلْبيَ الْمُرْتاحِ! ثُمَّ أَخَذَ يفْتَنّ بِحكَايَاته، ويُشْمِطُ(١١) مُضحكاته بمُبْكِيَاته، إلَى أنْ عطَسَ أنْفُ الصّباحِ، وهتَفَ دَاعِي الفَلاحِ(١٢)،

---

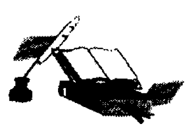
(١) أي: خُذْ.
(٢) يتبعها ويقتدي بها.
(٣) أي: أنا غريب فيها.
(٤) ما يُتَقَرَّبُ به إلَى الله.
(٥) بالفتح؛ أي: محلك.
(٦) أكلك.
(٧) انطلاق البطن عن سوء الهضم.
(٨) مهلكة.
(٩) بالكره والهوان والذُّلّ.
(١٠) المُسهَّل المُيسَّر.
(١١) أي: يخلط.
(١٢) منادي الفوز، والمراد: المؤذن.

فتـأهّـبَ لإجَابَـة الدَّاعـي ، ثُـمَّ عَطَفَ(١) إلَى وَدَاعِي ، فَعُـقْتُه(٢) عَنِ الانبعاث(٣) ، وَقُلْتُ: الضِّـيَافَةُ ثَلاثٌ! فنَـاشَدَ وَحَرَّجَ، ثُمَّ أَمَّ الْـمَـخرَجَ، وَأَنْشَدَ إِذْ عَرَّجَ(٤) :

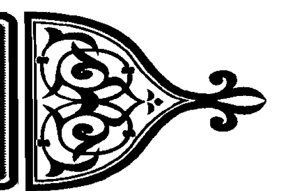
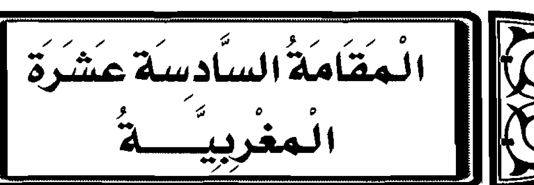
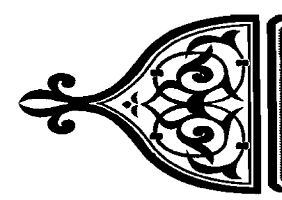
لا تـزُرْ مـنْ تُحـبّ فـي كـلّ شَـهْـرٍ غـيــرَ يــومٍ ولاَ تـزِدْهُ عـلـيــهِ
فاجْـتلاءُ الْـهِلالِ(٥) فِي الـشَهْـرِ يومٌ ثُـمَّ لا تـنـظُـرُ الـعُـيــونُ إلـيْــهِ

قَالَ الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَـودّعتُهُ بقلْبٍ دَامي القُرْحِ(٦)، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ لَيلَتي بَطِيئَةُ الصُّبْحِ.

۞۞۞



(١) مَالَ.
(٢) عطلته ومنعته.
(٣) التوجُّه والسَّير.
(٤) عطف ومال عن الباب مُسْرِعًا.
(٥) مشاهدته.
(٦) مجروح من فراقه يسيل من جُرْحه الدَّم.

الْمَقَامَةُ السَّادسَة عَشَرَة الْمغْربِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: شهِدْتُ صَلاةَ الْمغْرِبِ، فِي بَعْضِ مَسَاجد الْمغرِبِ، فَلَمَّا أديّتُها بفضلْها، وشفَعْتُها بنَفْلها، أَخَذَ طَرْفي(١) رُفقَةً قَد انْتَبَذُوا (٢) نَاحيةً، وامْتازُوا صَفْوةً صافيَةً، وهُمْ يتعاطَونَ كأسَ الْمُنافثَة، ويقتَدحونَ زِنادَ الْمُباحثَة، فَرَغِبْتُ فِي مُحادَثتِهِمْ (٣) لكَلمَةٍ تُستَفادُ، أَوْ أَدبٍ يُستَزادُ، فسعَيْتُ إليهِمْ، سعْيَ الْمتطفّلِ علَيْهِمْ.

وَقُلْتُ لَهُمْ: أتقبَلون نَزِيلاً (٤) يطلُبُ جنى الأسْمَارِ (٥)، لا جنَّةَ الثِّمَارِ، ويبْغي مُلَحَ الحِوَارِ (٦)، لا مَلْحَاءَ الْحُوَارِ، فحلُّوا لِيَ الْحُبَى.

وَقَالُوا: مَرْحَبًا مَرْحبًا، فَلَمْ أَجْلسْ إلاَّ لَمْحَةَ بَارِقٍ خاطفٍ، أَوْ نغبَةَ طائرٍ خائفٍ، حتَّى غَشِيَنَا (٧) جوَابٌ، عَلَى عاتِقهِ (٨) جرَابٌ، فَحَيَّانَا بِالْكَلمَتَيْنِ(٩)، وحيَّا الْمَسْجدَ بالتَّسْليمتَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أُولِي الألبابِ، والفضلِ اللُّبابِ، أما تعلَمونَ أَنَّ أنْفَسَ القُرُبَاتِ(١٠)، تنْفيسُ الكُرُبَاتِ؟ وأَمْتَنَ أسبابِ النّجاةِ، مؤاساةُ ذوي

(١) لمح بصري.
(٢) ابتعدوا وفي نسخة: «انتدوا»؛ أي: اجتمعوا.
(٣) مباحثتهم.
(٤) ضيفًا نازلاً.
(٥) جمع «سمر»، وهو: حديث الليل.
(٦) ولد الناقة ما لم يستكمل عامًا.
(٧) أتانا.
(٨) منكبه.
(٩) قال: السَّلامُ عَلَيْكُم.
(١٠) أفضل الأعمال التي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ.

الْحَاجاتِ؟ وإني ومَنْ أَحلَّني ساحَتَكُمْ، وأَتَاحَ لِيَ استِمَاحَتَكُمْ، لِشَرِيدُ مَحلٍّ قاصٍ(١)، وبَرِيدُ صِبيَةٍ خِمَاصٍ، فَهَلْ فِي الْجَماعَةِ، مِنْ يفثأُ(٢) حُمَيّا الْمَجاعَةِ؟

فَقَالُوا له: يَا هَذَا إِنَّكَ حَضَرْتَ بَعْدَ العِشَاءِ، وَلَمْ يبْقَ إلا فَضَلاتُ العَشاءِ، فإِنْ كنتَ بها قَنُوعاً، فَمَا تَجِدُ فِينَا مَنُوعاً(٣).

فَقَالَ: إِنَّ أَخَا الشَّدَائد، لَيَقْنَعُ بِلَفَظَاتِ الْمَوائد، ونُفَاضَاتِ الْمَزَاوِد، فَأَمَرَ كُلٌّ منهُمْ عبْدَهُ، أَنْ يُزَوِّدَهُ مَا عندَهُ، فأعجَبَهُ الصنْعُ وشكرَ عَلَيْه، وَجَلَسَ يَرْقُبُ(٤) مَا يُحمَلُ إلَيْه، وثُبْنا نَحْنُ إلَى استِثَارَةِ مُلَحِ الأَدَب(٥) وَعُيونِه، واستنْباط مَعِينِه مِنْ عُيُونِه(٦)، إلَى أَنْ جُلْنَا فِيمَا لا يَستَحِيلُ(٧) بالانعِكَاسِ، كَقَوْلِكَ سَاكِبُ كَاسٍ، فتَداعَينا إلَى أَنْ نَستَنْتِجَ لَهُ الأفكَارَ، ونَفْتَرِعَ(٨) منْهُ الأَبْكارَ، عَلَى أَنْ ينظِمَ البَادِئُ ثَلاثَ جُمَانَاتٍ فِي عِقدِه، ثُمَّ تتدرَّجَ الزِّيَادَاتُ مِنْ بعدِهِ، فَيرَبِّعُ ذو ميمَنَتِهِ فِي نَظْمِهِ، ويُسَبِّعُ صاحِبُ ميسرَتِهِ عَلَى رَغْمِهِ(٩).

قَالَ الرَّاوِي: وكُنَّا قد انتظَمْنا عِدَّةَ أصابِعِ الْكَفِّ، وتألَّفْنا أُلفَةَ أَصْحَابِ الكَهْفِ، فابْتَدَرَ لعِظَمِ مِحْنَتي، صَاحِبُ مَيمَنَتِي، وَقَالَ: لُمْ أخاً مَلَّ، وقَالَ مُيامِنُهُ: كَبِّرْ رَجَاءَ أَجْرِ ربِّكَ، وَقَالَ الَّذِي يليهِ: (منْ يَرُبُّ(١٠) إذَا برّ

(١) طريد منزل بعيد.
(٢) الفثءُ: تسكين الغضب وغيره، وفثأ القِدْر: سكَّنَ غليَانها.
(٣) مانعًا.
(٤) ينتظر.
(٥) إظهار ما حسن منه.
(٦) من أهله.
(٧) لا يتحوَّل ولا يتغيَّر.
(٨) نفتض.
(٩) قهرًا عنه.
(١٠) يربّي الصنيعة ويصونها.

ينمُ) (١)، وَقَالَ الآخرُ: (سكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تكسْ) (٢)، وأفضَت النّوبَةُ إلَيَّ، وَقَدْ تعيّنَ نظْمُ السّمْطِ السُباعيِّ عليَّ، فَلَمْ يزَلْ فِكري يصوغُ ويكْسِرُ، ويُثْري(٣) ويُعْسِرُ (٤)، وفي ضِمْنِ ذلك أستَطْعِمُ، فلا أجدُ مِنْ يُطعِمُ، إلَى أَنْ ركَدَ النّسيمُ، وحصْحَصَ (٥) التَّسْليمُ، فقلتُ لأصْحَابي: لَو حَضَرَ السَّروجيُّ هَـذَا الْـمَقَامَ، لشَفَى الدَّاءَ العُقَامَ، فَقَالُوا: لَوْ نزلَتْ هَـذِه بإياسٍ، لأمْسَكَ عَلَى ياسٍ، وجعلْنا نُفيضُ (٦) فِي استِصْعابِها، واستغْلاقِ بابِها، وذلِك الزّوْرُ الْـمُعتَرِي (٧)، يلحَظُنا لحْظَ الْـمُزدَرِي (٨)، ويؤلِّفُ الدُّرَرَ ونحنُ لا ندْري، فَلَمَّا عثَرَ عَلَى افتِضاحِنَا (٩)، ونُضُوبِ ضَحْضَاحِنَا (١٠)، قَالَ: يَا قَوْمُ إنَّ مِنَ العَنَاء العَظِيمِ، استيلادَ العَقيمِ (١١)، والاسْتِشْفاءَ بالسَّقيمِ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عليمٌ، ثُمَّ أقبَل عَلَيَّ وَقَالَ: سأنوبُ مَنَابَكَ (١٢)، وَأَكْفِيكَ مَا نابَكَ، فَإنْ شِئْتَ أَنْ تنثُرَ، ولاَ تَعْثُرَ (١٣)، فقُلْ مُخَاطِباً لِمَنْ ذمَّ البُخْلَ، وأكثَرَ العذْلَ (١٤): لُذْ بكلّ مؤمَّلٍ (١٥) إذَا لَمَّ وَمَلَكَ بذَلَ، وإنْ أحبَبْتَ أَنْ تَنْظِمَ، فَقُلْ لِلَّذي تُعْظِمُ:

---

(١) من النَّماءِ وهو: الزيادة.

(٢) تكن كَيِّسًا أي: فطنا ذكيا.

(٣) يستغني.

(٤) يفتقر.

(٥) ثبت واستقرَّ.

(٦) نخوض.

(٧) القاصد.

(٨) المحتقر.

(٩) اطَّلع على عجزنا.

(١٠) الضحضاح: الماءُ الَّذي لا عمق له، ونضوبه: غورانه في الأرض؛ يريد: عدم القدرة على هـذه العبارة.

(١١) طلب الولد ممن لا تَلِد.

(١٢) أصابك.

(١٣) لا تغلط.

(١٤) اللَّوم.

(١٥) مُرْجَى.

أُسْ أرْمَـــلاً إذَا عَـــراَ (١) وارْعَ إذَا الْمَـــرءُ أســـا
أَسْـنِـدْ (٢) أَخَـا نَـبَـاهَـة أبِـنْ إخَـاءً دَنَـسـا
أُسْلُ جَـنَـابَ غَـاشِـمٍ (٣) مُـشَـاغِـبٍ(٤) إنْ جَلَسـا
أُسْـرُ إذَا هَـبَّ (٥) مِـراً وارْمِ بِـهِ إذَا رَسَـا(٦)
أُسْكُـنْ تَقَـوَّ فَـعَـسَـى يُسْـعِـفُ(٧) وَقْتٌ نَكَـسَا(٨)

قال: فَلَمَّا سحرَنا بآياته (٩)، وحسرَنا ببُعْد غاياتـه، مدحْناهُ حَتَّى استَعْفى، ومنحْناهُ إلَى أنِ استكْفى، ثُمَّ شَمَّرَ (١٠) ثِيَابَهُ، وازْدَفَرَ جِرَابَهُ، وَنَهَضَ يُنْشِدُ:

لِلَّـهِ دَرُّ عِـصَـابَـة (١١) صُـدُق الْمَقَـال مَـقَـاولا
فَـاقُـوا الأنَـامَ فَـضَـائِـلاً مَـأثُورَةً(١٢) وَفَـوَاضِـلا(١٣)
حَـاورْتُـهـم فـوجَـدتُ سَـحْـ ـبَـانـاً لَـديْـهِـمْ بَـاقِـلا
وحـلَـلْـتُ فـيـهـمْ سَـائِـلاً فَـلَـقِـيـتُ جُـوداً سَـائِـلا
أقْـسَـمْـتُ لَـوْ كَـانَ الـكِـرا مُ حَـيَـا لَـكَـانـوا وابِـلا

ثُمَّ خَطَا قِيدَ رُمْحَيْنِ، وَعَادَ مُسْتَعِيذاً (١٤) مِنَ الْحَيْنِ، وَقَالَ: يَا عِزَّ مَنْ عَدِمَ الآلَ (١٥)، وكَنْزَ مِنْ سُلِبَ الْمَالَ، إنَّ الغَاسِقَ قَدْ وقَبَ، وَوَجْهَ

(١) أتى طالبًا للرِّفْد.
(٢) أعن وارفع.
(٣) ظالم.
(٤) مهيج للشَّرِّ.
(٥) هاج.
(٦) ثبت.
(٧) يساعد.
(٨) قلب.
(٩) بلطفها ودقَّة مأخذها.
(١٠) رفع.
(١١) جماعة.
(١٢) منقولة ومشهورة.
(١٣) عطايا.
(١٤) مُلْتَجِئًا.
(١٥) فقد الأهل.

الْـمَحَجَّة(١) قَد انتقبَ، وبيْـني وبينَ كنّي ليلٌ دامسٌ (٢)، وطريقٌ طامسٌ، فهلْ مِـنْ مِصباحٍ يؤْمنُني العِـثارَ، ويُبـيّنُ ليَ الآثار (٣)؟ قَالَ: فلَـمَّا جيء بالْمُلتمَسِ، وجلَّى الـوُجُوهَ ضَوْءُ القَبَسِ (٤)، رأَيتُ صَاحِبَ صَيْدِنا، هُوَ أَبُو زيدنَا، فَقُلْتُ لأصْـحَابي: هَـٰذَا الَّذي أشَرْتُ إلَـى أَنَّهُ إذَا نطقَ أصابَ، وإن استُمْطِرَ(٥) صابَ، فأَتْلَعُوا (٦) نحوَه الأعْناق، وأَحْدَقُوا (٧) به الأحْدَاقَ(٨)، وسألوهُ أَنْ يُسامِرَهُمْ ليلَتَهُ، علَى أَنْ يَجْبروا عيلَتهُ (٩)، فقَالَ: حُبّاً لِمَا أحببْتُمْ، ورُحْباً بكُمْ إذَا رحّبْتُمْ، غيرَ أَنّي قصدتُكُمْ وأطْفالي يتَضَوَّرُونَ (١٠) منَ الجوعِ، ويدْعـونَ لي بوشْكِ الرُّجُـوعِ، وإنِ استَـراثُوني(١١) خامرَهُـم الطّيشُ، ولَمْ يصْفُ لهمُ العيشُ، فدَعوني لأذهبَ فأسُدَّ مَخْمَصَتَهُم(١٢)، وأُسيغَ غُصّتَهُمْ، ثُمَّ أنقَلِبَ إليكُمْ علَـى الأثَرِ، مُتَأَهِّباً (١٣) للسَّمَـرِ إلَى السَّحَرِ، فقُـلْنَا لأحدِ الغلْمَةِ: اتّبِعْهُ إلَى فئَتِه، ليكونَ أسْرَعَ لفَيْئَتِه(١٤)، فانْطلَقَ معَهُ مضطَبِناً جرابَه، ومُحَثْحِثاً (١٥) إيابَه، فأبْطأَ بُطْأً جاوزَ حدّهُ، ثُـمَّ عادَ الغُلامُ وحْدَهُ، فقُلْنَا له: مَا عندكَ مِـنَ الحدِيث، عنِ الخبيث؟ فَـقَالَ: أَخَذَ بي في طرُقٍ مُتـعِبَةٍ، وسُبُلٍ مُتَشَعِّبَـةٍ، حتَّى أَفْضيْنا (١٦) إلَى دُوَيْرَةٍ خرِبَةٍ، فَقَالَ: هَـٰهُنَا مُناخِي،

(١) الطريق.
(٢) شديد الظّلمة.
(٣) هو مواطئ أقدام الْـمَارِّين؛ لأنَّ الآثار في الطريق: ما تؤثره الأرجل فيها.
(٤) لهب النار.
(٥) سُئِلَ.
(٦) مدُّوا
(٧) أحاطوا.
(٨) العيون.
(٩) فقرهُ.
(١٠) يصيحون.
(١١) استبطَؤوني.
(١٢) جوعهم.
(١٣) متهيأ.
(١٤) لرجعته.
(١٥) معجلاً.
(١٦) وصلنا.

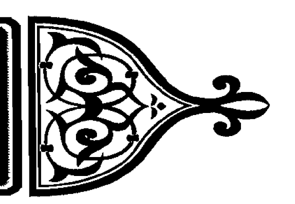
ووكْرُ(١) أفْرَاخي(٢)، ثُمَّ استَفْتَحَ بَابَهُ، وَاخْتَلَجَ (٣) منِّي جِرَابَهُ، وَقَالَ: لَعمْري لقدْ خفَّفْتَ عني، واستوْجَبْتَ الْحُسْنى منِّي، فَهَاكَ (٤) نصيحةً هيَ منْ نفائسِ النّصائحِ، ومغارسِ(٥) الْمصالحِ، وأنشدَ:

إذا مَا حوَيْتَ جنى نخلَةٍ ... فلا تقْربُنْهَا إلَى قابِلِ
وإمّا سقَطْتَ عَلَى بيْدَرٍ ... فحوْصلْ منَ السُنبلِ الحْاصلِ
ولاَ تلبَثَنَّ (٦) إذَا مَا لقَطْتَ ... فتَنشَبَ في كفّة الحّابِلِ(٧)
وَلاَ تُوغلَنّ إذَا مَا سَبحْتَ (٨) ... فَإنَّ السّلامةَ في السَاحِلِ
وخَاطَبْ بهَاتِ (٩) وجاوبْ بسوْفَ ... وبِعْ آجِلاً منْكَ بالعَاجِلِ
وَلاَ تُكثِرَنَّ عَلَى صَاحِبٍ ... فمَا ملَّ قطُّ سِوَى الْوَاصِلِ

ثُمَّ قَالَ: اخزُنْها (١٠) في تَأْمُورِكَ (١١)، واقْتَدِ به في أمورِكَ، وبادرْ إلَى صَحْبِكَ، في كلاءة (١٢) ربِّكَ، فَإذَا بَلَغْتَهُمْ فأبْلغْهُمْ تَحيَّتي، واتْلُ عَلَيْهِمْ وَصيَّتي، وَقُلْ لهُمْ عَنِّي: إنَّ السَّهَرَ في الْخُرَافَات، لَمنْ أعظمِ الآفات، ولستُ أُلْغي احتراسي، وَلاَ أجلُبُ الْهوَسَ (١٣) إلَى راسي، قَالَ الرَّاوِي: فَلَمَّا وقفْنا عَلَى فَحْوَى (١٤) شعرِه، واطّلَعْنا على نُكْرِه ومكرِه، تلاوَمْنا عَلَى تركِه، والاغْترارِ بإفْكِه، ثُمَّ تَفَرَّقْنَا بوجوهٍ باسِرَةٍ (١٥)، وَصَفْقَةٍ خَاسِرةٍ (١٦).

---

(١) بيت.
(٢) أولادي.
(٣) جذب ونزع.
(٤) خذ.
(٥) منابت.
(٦) لا تبطئ.
(٧) الصّائد.
(٨) متى عمت.
(٩) أعطني.
(١٠) احفظها.
(١١) قلبك.
(١٢) بالكسر والمدِّ؛ أي: حراسة وحفظ.
(١٣) بفتحتين، خفَّة العقل.
(١٤) حقيقة ومعنى.
(١٥) متكرّهة عابسة.
(١٦) مغبونة.



الْمَقَامَةُ السَّابِعَة عَشْرَة
القَهْقَرِيَّةُ

حَدَّثَ الْحَارِثُ بن هَمَّام قَالَ: لَحَظْتُ فِي بَعْضِ مَطَارِحِ الْبَيْنِ، ومَطَامِحِ(١) الْعَيْنِ، فِتيَةً عَلَيهِمْ سِيمَا الحِجَى(٢)، وَطُلَاوَةُ نُجومِ الدُّجى، وهمْ فِي مُماراة مشتَدّة الْهُبُوب(٣)، ومُبَارَاة مشتطَّة(٤) الأُلْهُوب، فَهزّني(٥) لقَصْدِهِمْ هوَى الْمُحَاضَرَة، وَاستحْلاءُ جنى الْمُناظرة، فَلَمَّا التحقْتُ برهْطِهِمْ، وَانتظمْتُ فِي سِمْطِهِمْ، قالوا: أَأَنْتَ ممَّنْ يُبْلَى فِي الْهَيْجَاء، وَيُلْقِي دَلْوَهُ فِي الدِّلاءِ؟ فقُلْتُ: بل أَنَا مِنْ نظَّارَةِ الْحَرْبِ(٦)، لا مِنْ أَبْنَاءِ الطَّعْنِ والضَّرْبِ، فَأَضْرَبُوا عَنْ حِجَاجِي(٧)، وَأَفَاضُوا فِي التَّحَاجِي(٨)، وَكَانَ فِي بَحْبُوحَة حلْقَتِهِمْ، وَإِكْلِيلِ رُفقَتِهِمْ، شيخٌ قَدْ بَرَتْهُ(٩) الْهُمومُ، ولوّحَتْهُ السَّمومُ، حَتَّى عَادَ أَنْحلَ، مِنْ قلَمٍ وأقْحَلَ(١٠) منْ جلَمٍ، إلا أَنَّهُ كَانَ يُبدي العُجابَ، إذَا أجابَ، ويُنْسي سَحْبَانَ، كُلَّمَا أبانَ، فأُعجبْتُ بمَا أوتيَ منَ الإصابَةِ، والتَّبْرِيز(١١) عَلَى تِلْكَ العِصَابَة، ومَا زَالَ يَفْضَحُ كُلَّ مُعمًّى، ويُصْمي فِي كُلِّ مَرْمًى، إِلَى أَنْ خَلَتِ الجِعابُ، وَنفدَ(١٢) السُّؤَالُ

(١) هي المواضع الحِسَان التي تطمح فيها العين بالنظر؛ أي: ترتفع إليها.
(٢) علامة العقل.
(٣) يعني: شديدة كبيرة الحركة.
(٤) بعيدة.
(٥) حرّكني.
(٦) من ينظر الحرب ولا يُحَارِب.
(٧) جدالي.
(٨) الألغاز ومطارحة المسائل.
(٩) أنحلتهُ وأنحفتهُ.
(١٠) أيبس.
(١١) التقدّم والسَّبق.
(١٢) فني.

وَالْـجَـوَابُ، فَلَمَّـا رَأَى إنْفَاضَ الـقوْمِ، واضْطِرَارَهُـمْ إلَى الصّـومِ، عرّضَ بالْمُطارَحَةِ(١)، واستأذنَ فِي الْـمُفاتَحةِ، فَقَالُوا له: حبّذا، ومنْ لنا بذا؟ فَقَالَ: أتعرِفونَ رِسالةً أرْضُها سماؤها، وصُبْحُها مساؤها؟ نُسِجَتْ عَلَى منْوَالَيْنِ(٢)، وتَجلَّتْ فِي لَوْنَينِ، وَصَلَّتْ إلَى جِهتَينِ، وبَدَتْ ذَاتَ وَجْهَينِ، إنْ بزغَتْ منْ مَشْرِقِهَا، فنـاهيكَ برَونَقِهَا (٣)، وإنْ طَلَعَتْ مِنْ مغرِبِها، فَيـا لِعَجَبِهَا! قَالَ: فَكَأَنَّ القومَ رُموا بالصُّماتِ، أَوْ حقَّتْ علـيهِمْ كَلمةُ الإنْصَاتِ، فَمَا نَبَسَ (٤) مِنْهُمْ إنْسَانٌ، وَلاَ فَاهَ لأحَـدِهِمْ لِسَانٌ، فَحِينَ رَآهُم بُكْماً كالأنْـعامِ، وصُمُوتاً كالأصْنامِ، قَـالَ لَهُمْ: قَدْ أجّلْتُكُـمْ أجَلَ العدَّةِ (٥)، وأرخَيْتُ (٦) لكُمْ طِولَ الْـمُدَّةِ، ثُمَّ هَـهُنا مجمَعُ الشَّمْلِ، ومَوقفُ الفَصْلِ(٧)، فَإنْ سَمَحَتْ خَواطِرُكُمْ مَدَحْنا، وإنْ صَلَدَتْ زِنَادُكُمْ قَـدَحْنَ، فَقَالُوا لهُ: واللهِ مَا لَنا فِي لـُـجَّةِ هَـذَا البَحْرِ مَـسْبَحٌ (٨)، وَلاَ فِي ساحِلِهِ مسرَحٌ، فـأرِحْ أفكارَنا منَ الكدّ، وهنّئِ العطيّةَ بالنّقْدِ، واتّخذْنا إخـواناً يثبونَ إذَا وثَبْتَ، ويُثِيبُونَ (٩) مَتَى استَثَبْتَ، فَأَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ قَـالَ: سَمْعاً لكُمْ وطاعةً! فاستَمْـلوا منِّي، وانْقُلوا عني: الإنسانُ صَنيعةُ الإحْسَانِ، وَرَبُّ الْـجَمِيلِ، فِعْلُ النَّدْبِ(١٠)، وشيمَةُ الْـحُرِّ، ذَخِيرَةُ الْـحَمْدِ(١١)، وكَسْبُ الشُّكْرِ، استِثْمارُ السَّعَادةِ، وعُنْوَانُ الكَرَمِ، تَبَاشِيرُ

---

(١) المناظرة. (٢) المنوال: خشبة الحائك.

(٣) فكافيك حسنها؛ أي: غاية تنهاك عن طلب غيرها. (٤) نطق وتكلّم.

(٥) عدَّة المرأة إذا طلّقها زوجها أو مات عنها. (٦) مددت.

(٧) القضاءُ والحُكْم، أو: الجدّ الذي لا هزل مَعَهُ. (٨) مذهب.

(٩) يعطون. (١٠) الرجل الخفيف في الحاجة.

(١١) يعني: أن طبيعة الحرّ وشيمته أنه لا ينسى المعروف، بل يحمد صاحبه دائمًا.

البشْـرِ، واستعْمالُ الْـمُدَارَاةِ يُوجِبُ الْـمُـصَافَاةَ (١)، وعقْدُ المحبّـة يقتَضِي النُّصْحَ، وصِـدْقُ الْحديث، حِلْيَةُ الـلِّسَانِ (٢)، وفَصَـاحَةُ الْـمَنْطِقِ، سِـحْرُ الألْبَـابِ، وشركُ الْـهوى، آفَـةُ النُّفُـوسِ(٣)، وملَلُ الْـخَلائِـقِ، شَيْنُ (٤) الْـخَلائِقِ(٥)، وسوءُ الطّمعِ، يُبايِنُ الورَعَ، والتِزَامُ الْـحَزامَة، زِمَامُ السَّلامَةِ، وتطلُّبُ الْمثالِبِ، شرُّ الْـمَعَايِبِ، وتتبّعُ العثَرات، يُدْحِضُ الْمودّات، وخُلُوصُ النيّـة، خُلاصةُ العطيّـة، وتهنئةُ النّـوالِ، ثمَنُ السّؤالِ، وتكلُّـفُ الْكُلَفِ(٦) يسهِّلُ الْـخَلَفَ (٧)، وتيقُّـنُ الْـمَعُـونَة يُسَنّي الْمؤونَةَ، وفـضْلُ الصّدْرِ سَـعَةُ الصّدرِ، وزينَـةُ الرُعاة، مقْتُ السُّـعَاة (٨)، وجَزاءُ الْمدائِحِ، بثُّ الْـمَنائِحِ، ومهْرُ الوسائِلِ، تشفيعُ الْمَـسائِلِ، ومجلَبَةُ الغَواية(٩) استغْراقُ الغايةِ، وتجاوزُ الحْدِّ يُكِلُّ (١٠) الْـحَدَّ، وتَعَدِّي الأدَبِ، يُحبِطُ القُرَبَ (١١)، وتَنَاسِي الْـحُقوقِ يُنشِئُ العُقُوقَ، وتَحَاشِي الرِّيَبِ يرفَعُ الرُّتَبَ (١٢)، وارتفاعُ الأخْطَارِ، باقتحامِ الأخطَارِ وتَنَوُّهُ الأقْدارِ، بمُؤَاتَاة الأقْدَارِ، وَشَرَفُ الأعْمَالِ فِي تقْصيرِ الآمالِ، وإطالَةُ الفكرَةِ، تنقيحُ الْحِكْمَة (١٣)، ورأسُ الرّئاسة تهذُّبُ السِّيَاسَة (١٤)، وَمَعَ اللَّجَاجَةِ، تُلْغى الْـحَاجَةُ، وعندَ الأوْجَالِ (١٥) تتفاضَلُ الرّجـالُ، وبتفاضُلِ الْهِمَمِ، تتفاوتُ القِيَمُ، وبتزيُّدِ السّـفيرِ، يهِنُ التّدبيرُ، وبخلَلِ الأحْوَالِ (١٦)،

---

(١) إخلاص الصُّحْبَة.

(٢) أي: زينته.

(٣) داؤُها ومرضها المؤدي إلى هلاكها.

(٤) عيب.

(٥) الخصال والطبائع.

(٦) المشاق.

(٧) الجزاءَ.

(٨) بغض السّاعِينَ في الناس بالنميمة.

(٩) الجهالة والضلالة.

(١٠) يضعف.

(١١) ما يتقرَّب به من الأعمال الصالحة.

(١٢) المنازل.

(١٣) تنقيتها وتهذيبها.

(١٤) خلوص التدبير والقيام بالأمر.

(١٥) جمع: وجل، وهو: الخوف والفزع.

(١٦) عدم استوائها وجريها على سنن واحد.

تَبَيّنُ الأهْوالُ (١)، وبموجَبِ الصّبرِ، ثمرَةُ النّصْرِ، واستحقاقُ الإحْمادِ، بحسَبِ الاجْتهادِ، ووجوبُ الـمُلاحظَةِ (٢) كفاءُ الـمُحافظَةِ، وصفاءُ الْموالي، بتعـهُّدِ الْـمَوالي، وتحـلّي الْمرُوءاتِ بحِـفْظِ الأماناتِ، واختـبارُ الإخْوانِ، بتخْفيفِ الأحْزانِ، ودفعُ الأعْداءِ، بكَفِّ الأوِدّاءِ، وامـتحانُ العُقَلاءِ، بمُقارنَةِ الْـجُهَلاءِ، وتـبصُّرُ العَواقِبِ، يؤمنُ الْـمَعاطِبَ (٣)، واتِّقَاءُ الشُّنْعَـةِ، يَنشُرُ السُـمْعَـةَ، وقُبْحُ الْـجَفَـاءِ(٤)، يُنافـي الوَفَاءَ، وجوهَـرُ الأحْرَارِ(٥)، عندَ الأسْرارِ، ثُمَّ قَالَ: هَـذه مائتَا لَفْظَةٍ، تَـحْتَوِي عَلَى أدَبٍ وعظَةٍ، فمَنْ سَاقَها هَـذَا الْـمَسَاقَ (٦)، فلا مراءَ (٧) ولاَ شقاقَ، ومنْ رامَ عكْساً قـالَبِها، وأَنْ يَرُدَّهَا عَلَى عقبِهَا (٨)، فلْيَقُلْ: الأسْرارُ، عندَ الأحرارِ، وجوهرُ الوَفاء ينافي الْـجَفاء، وقُبْحُ السُمعةِ ينشُرُ الشُنعَةَ، ثُمَّ عَلَى هَـذَا الْمَسْحَبِ فليَسْحَبْها، ولاَ يرْهَبْها (٩)، حَتَّى تكونَ خـاتِمَةُ فِقَرِها، وآخِـرَةُ دُرَرِها: وَرَبُّ الإحسَانِ، صنيعَةُ الإنسانِ.

قَالَ الرَّاوي: فَلَمَّا صدَعَ برسالَته الفَريدَةِ، وأُملوحَتِه(١٠) الْـمُفيدة، علمْنا كيفَ يتفاضَـلُ الإنْشاءُ، وأنّ الفضْلَ بيدِ الله يؤتيهِ مَنْ يـشاءُ، ثُمَّ اعْتَلَقَ كلٌّ منّا بذَيلِه، وفلَذَ لَهُ فلذَةً من نيْلِه، فَأَبَى قَبولَ فِلْذَتي، وقَالَ: لستُ أرزأُ (١١) تلامِذَتي، فقلتُ له: كُنْ أَبَا زَيْـدٍ عَلَى شُحوبِ سَحنتِكَ (١٢)، ونُضُوبِ مَاءِ

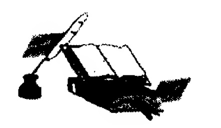
---

(١) تظهر الشدائد.
(٢) المراقبة.
(٣) المهالك، يريد: من نظر في عاقبة أمره، أمِنَ مما يحذر.
(٤) سوء الأدب وثقل الكلام.
(٥) حسن سجيتهم.
(٦) هذا النمط والأسلوب.
(٧) جدال.
(٨) آخرها.
(٩) يَخفْهَا.
(١٠) أفعولة من الملاحة، وهي هنا عبارة عن الكلام المليح الذي يعجب.
(١١) أنقص.
(١٢) نقص لحمك وتغيُّر لونك وهيئتك.

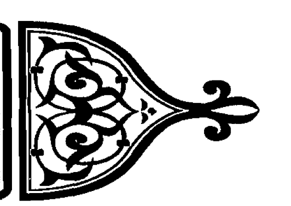
وَجْنَتكَ، فَقَالَ: أَنَا هُوَ عَلَى نُحُولِي[١] وقُحُولي، وَقَشَفِ مُحُولِي، فَأَخَذْتُ فِي تَثْرِيبِه، عَلَى تَشْرِيقِهِ وتَغرِيبِهِ، فحولَقَ[٢] واسترْجَعَ[٣]، ثُمَّ أَنْشَدَ مِنْ قلْبٍ موجَعٍ:

سَلَّ الزّمانُ عَلَيَّ عَضْبَهْ[٤] لِيَروعَني وأحَدَّ غَرْبَهْ
واستَلَّ[٥] مِنْ جَفْني كَرا هُ مُراغِماً وأسالَ غَرْبَهْ
وأجالَني[٦] في الأفْقِ أطْـ ـوِي شَرْقَهُ وأَجُوبُ غربَهْ
فَبِكُلِّ جَوٍّ طَلْعَةٌ في كُلِّ يَومٍ لي وغَرْبَهْ
وكَذا المُغَرِّبُ شخصُهُ مُتَغَرِّبٌ[٧] ونواهُ غَرْبَهْ

ثُمَّ وَلَّى يَجُرُّ عِطفَيْه[٨]، ويَخطِرُ بيَدَيْه، ونَحْنُ بَيْنَ مُتَلَفِّتٍ إليهِ، ومُتَهافِتٍ عَلَيهِ، ثُمَّ لَمْ نلبَثْ أَنْ حَلَلْنَا[٩] الحبَى، وتَفرَّقْنَا أَيَادِيَ سَبا.



(١) ذهاب لحمي.
(٢) أي قال: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله.
(٣) أي: قال: إنَّا لله وإنَّا إلَيْه رَاجعُونَ.
(٤) سيفه الماضي القاطع.
(٥) انتزع.
(٦) أطافني.
(٧) متغيّر أو صائرٌ غريبًا.
(٨) جانبي ثوابه إعراضًا وكِبرًا.
(٩) ما أقمنا كثيرًا إلاَّ أن حللنا.



المَقامَةُ الثَّامنَةُ عَشْرَة
السِّنْجَارِيَّةُ

حكَى الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: قَفَلْتُ ذاتَ مرّةٍ منَ الشَّامِ، أَنْحُو(١) مَدِينَةَ السّلامِ، فِي ركبٍ من بني نُمَيرٍ، ورُفْـقَة أُولِي خيرٍ ومَيْرٍ(٢)، ومعَنَا أبو زَيْد السَّرُوجيُّ عُقْلَةُ العَجْلان (٣)، وسَلْوَةُ الثّكْلان، وأُعجوبَةُ الزّمَان، والمُشارُ إليْهِ بالبَنان، فِي الـبَيانِ، فصادَفَ نزولُـنا سنْجارَ (٤)، أَنْ أوْلَمَ بها أحـدُ التّجار، فدَعا إلَى مأدُبَتِـه الْـجَفْلَى(٥)، منْ أهْلِ الْـحـضارةِ والفَلا (٦)، حَتَّى سرَتْ دَعْوتُهُ إلَى القـافلَة، وجمعَ فِيهَا بَيْنَ الـفَريضَة والنَّافلَة، فَلَمَّا أَجَـبْنَا مُنَادِيَهُ، وَحَلَلْنَا نَادِيَهُ (٧)، أَحْضَرَ منْ أطعِـمَة اليَدِ واليَدَيْنِ، مَا حَـلا فِي الفَمِ وحَلِيَ بالعَينِ، ثُمَّ قدَّمَ (٨) جاماً كـأنّما جُمّدَ مـن الْهَواء، أَوْ جُمِعَ منَ الْـهباء، أَوْ صِيغَ مِنْ نورِ الْـفَضَاءِ(٩)، أَوْ قُشِـرَ منَ الدُّرّة البيـضاء، وَقَدْ أودِعَ لَـفائفَ النّعيمِ، وضُمِّخَ (١٠) بالطّيبِ العَـميمِ (١١)، وسيقَ إليْهِ شَـرْبٌ مِنْ تسنْيمٍ، وسفَرَ عنْ مرأى وسـيمٍ، وأرَجٍ نَسيمٍ، فَلَمَّا اضطَرَمَتْ بمحْـضَرِهِ الشّهَواتُ، وقرِمَتْ (١٢) إلَى مـخْـبَرِهِ الـلهَـواتُ، وشارَفَ أنْ تُـشَنَّ (١٣) عَلَى سِـرْبِهِ

---

(١) رجعت من السَّفَر.
(٢) نفقة وصدقة.
(٣) حابس المتعجل.
(٤) مدينة في عراق العجم.
(٥) بفتحها؛ أي: الدعوة العامة وعدم التخصيص، وضدُّه: النقرَى.
(٦) القَفْر والبَادِيَة.
(٧) مجلسهُ.
(٨) ظرفًا من زجاج.
(٩) الخلاء.
(١٠) لطخ.
(١١) التام.
(١٢) القَرَم أصلهُ: شدَّة شهوة اللحم، ثم استعمل في مطلق الاشتِهاَء.
(١٣) وفي رواية بالنون بدل التاء؛ أي: تُفرِّق أو نُفرِّق.

الغاراتُ، ويُنادَى عِنْدَ نهْيِه: يَا للثَّارات! نشَزَ أبو زَيْد كالمجْنونِ، وتباعَدَ عنهُ تباعُدَ الضَّبِّ (١) منَ النّونِ، فراوَدناهُ عَلَى أَنْ يعـودَ، وَأَلا يكونَ كقُدارٍ في ثمودَ، فَقَـالَ: وَالَّذي يُنشِرُ الأمْواتَ مِنَ الرِّجـامِ، لا عُدْتُ دونَ رفْعِ الجْامِ، فَلَمْ نجِـدْ بُدّاً مِنْ تألُّفِه، وإبْـرارِ حَلفه، فـأشَلْناهُ (٢) والعُقـولُ معَهُ شـائلَةٌ، والدّموعُ علَيْهِ سائلَةٌ، فَلَمَّا فاءَ إلَى مَجْثِمه(٣)، وخلَصَ مِنْ مأثَمِه، سألْناهُ لِمَ قامَ، ولأيّ معنًى استرْفَعَ الجْامَ؟ فَـقَالَ: إنَّ الزّجاجَ نَمّامٌ، وإني آليتُ (٤) مُذْ أعوامٍ، أَنْ لا يضُمّـني ونَموماً مَقامٌ، فَقُـلْنَا لَهُ: وما سبَبُ يَمـينِكَ الصِّرّى، وأليّتِكَ الحْرَّى (٥)؟ فقَالَ: إنه كَانَ لِي جارٌ لـسانُهُ يتقرّبُ، وقلبُـهُ عقْرَبٌ، ولفظُهُ شهدٌ يَنْقَعُ (٦)، وخَبْؤه سمٌّ منقَعٌ، فملْـتُ لمُجاورَتِه، إلَى مُحاورَتِه، واغتَرَرْتُ بِمُكَاشَرَتِه(٧)، فِي مُعَاشرَتِه، وَاستَهْوَتْني خُضرَةُ دِمْنَتِه، لمُنادَمَتِه(٨)، وأغْرَتْني(٩) خُدْعَةُ سمتِـه بمُناسمتِه(١٠)، فمازَجْتُهُ وعـندي أنّهُ جارٌ مُكاسرٌ، فبانَ أنّهُ عُقـابٌ كاسرٌ، وأنَسْتُهُ عَلَى أنَّهُ حِبٌّ مؤانِسٌ، فـظهرَ أنَّهُ حُبابٌ (١١) مؤالِسٌ، وَمَالَـحتُهُ (١٢) ولاَ أعلَمُ أنَّهُ عندَ نقْده، مِمّنْ يُفْـرَحُ بفَقْدِه، وعاقرْتُهُ ولَمْ أدرِ أنّهُ بَعْدَ فرّه، مِمّنْ يُطرَبُ لمَفرّه، وكَـانَتْ عندي جاريةٌ، لا يوجَدُ لها فِي الْـجَمالِ مُجَارِيَةٌ (١٣)، إنْ سَفَرَتْ خَجِلَ النَّيِّرانِ (١٤)، وَصَلِيَتِ القُلُوبُ

(١) حيوان برّي معروف يسكن الأرض التي لا مياه بها. (٢) رفعناه.
(٣) مبركه. (٤) حلفت.
(٥) حلفتك العطشى يريد: الشديدة الأكيدة. (٦) يروي ويطفئ العطش.
(٧) المكاشرة: أن يفترَّ الإنسان أو غيره حتى تبدو ثناياه وما يليهنَّ لضحك أو غضب، والمراد هنا: تبسّمه.
(٨) لمصاحبته.
(٩) حرَّضتني. (١٠) بمُحَادثَته.
(١١) حيَّة. (١٢) آكلته.
(١٣) مماثلة. (١٤) الشمس والقمر.

بالنّيـرانِ، وإنْ بسَمَتْ أزْرَتْ [(١)] بالجُمَانِ [(٢)]، وبيعَ المْرْجانُ، بالمجّانِ، وإنْ رنَتْ[(٣)] هيّجَتِ الـبلابِلَ، وحقّقَتْ سِـحْرَ بابِلَ، وإنْ نطقَـتْ عقَلَتْ [(٤)] لُبَّ العـاقِلِ، واستـنْزلَتِ العُـصْمَ من المْعـاقِلِ، وإنْ قـرأتْ شفَتِ المْـفْؤودَ [(٥)]، وأحيَتِ المْوؤودَ [(٦)]، وخِلْتَها أُوتيَتْ مِنْ مَزاميرِ آلِ داودَ، وإنْ غنّتْ ظلّ معبَدٌ لها عبْداً، وقِيلَ: سُحْقـاً لإسْحَاقَ وبُعْداً! وإنْ زمرَتْ أضحى زُنَامٌ[(٧)] عندَها زَنيماً، بَعْدَ أَنْ كَانَ لجِيلِهِ [(٨)] زَعِيمًا، وبالإطْرابِ زَعِيمًا، وإنْ رقصَتْ أمالَتِ العَـمائمَ عـنِ الرؤوسِ، وأنسـتْكَ رقْصَ الحْـبَبِ[(٩)] فِي الكُؤوسِ، فـكُنتُ أزدَري[(١٠)] معَه حُمْرَ النَّعَمِ، وأُحَلّي بتمَلّيها [(١١)] جيدَ النِّعَمِ، وأحْجُبُ مرآها عنِ الشّمـسِ والقمَرِ، وأذودُ ذِكْراهـا عنْ شرائِعِ[(١٢)] السَّمَـرِ، وأَنَا مَعَ ذَلِكَ أُليحُ[(١٣)]، مِنْ أَنْ تَسْري بريَّاهَا [(١٤)] ريحٌ، أَوْ يكهُنَ [(١٥)] بها سَطيحٌ، أَوْ ينمَّ علَيْها برْقٌ مُليحٌ، فاتّفقَ لوشْلِ الحْظّ المْبْخوسِ[(١٦)]، ونكْدِ الطَّالِعِ المْنْحوسِ، أَنْ أنْطَقَتْني بوصْـفِها حُمَيّا الْـمُدامِ، عـندَ الجْارِ النَّمَّامِ[(١٧)]، ثُمَّ ثابَ الفهْمُ، بَعْدَ أَنْ صَـرِدَ السّهْمُ، فأحـسَسْتُ الْـخَـبالَ [(١٨)] والوَبالَ [(١٩)]، وضَيعَـةَ مَا أُودِعَ[(٢٠)] ذَلِكَ الغِرْبـالُ، بيدَ أَنّي عاهدْتُهُ علَـى عكْمِ مَا لفظْتُـهُ، وأَنْ يحفظَ

---

(١) هزأت. (٢) جمع جُمَانَة وهي: اللؤلؤة وقيل: حبَّة تعمل من فضة كاللؤلؤة.
(٣) نظرت. (٤) حبست وأمسكت.
(٥) الذي به وجع الفؤاد. (٦) الَّذي دُفِنَ حيًا.
(٧) اسم الذي كان يعزف للمتوكل الموسيقى.
(٨) أهل زمانه. (٩) الزبد الذي يعلو على الخمر.
(١٠) أحتقر. (١١) تمتعي بها. (١٢) طرقات وموارد.
(١٣) بالضَّمِّ؛ أشفق وأُحاذر. (١٤) رائحتها الطَّيِّبَة.
(١٥) يخبر. (١٦) المنقوص.
(١٧) الذي ينقل الكلام على وجه الإفساد. (١٨) أراد به: الفساد والنُّقْصَان.
(١٩) سوء العاقبة. (٢٠) اؤتمن عليه.

السرَّ ولَوْ أحفَظْتُهُ، فزعَمَ أنَّهُ يخزُنُ الأسرارَ، كمَا يخزُنُ اللّئيمُ الدِّينارَ، وأنَّهُ لا يَهتِكُ (١)الأستارَ، ولَوْ عُرِّضَ لأنْ يَلِجَ النارَ، فَمَا إنْ غبَرَ علَى ذَلكَ الزَّمَانِ، إلا يومٌ أوْ يومانِ، حتَّى بَدَا إلَى أميرِ تلكَ الْمَدَرَةِ (٢)، ووَاليهَا ذي الْمَقدُرةِ، أنْ يقصدَ بَابَ قَيلِه، مجدِّداً عَرْضَ خَيلِه (٣)، ومُستَمطراً عارضَ نيلِه، وارتَادَ (٤)أنْ تصحبَهُ تُحفَةٌ تُلائمُ هواهُ، ليُقَدِّمَهَا بَيْنَ يدَيْ نجْواهُ، وجعلَ يبذُلُ الْجعَائلَ (٥)لرُوَّادِه، ويُسنِّي (٦)الْمرَاغبَ لمَنْ يُظْفِرُهُ بمُرادِه، فأسَفَّ ذَلكَ الجَارُ الخَتَّارُ (٧)إلَى بُذولِه، وعصى فِي ادِّراعِ العارِ عذْلَ عَذولِه، فأتى الْوَالِي ناشراً أذُنَيْه، وأبثَّهُ مَا كُنتُ أسرَرْتُهُ إليْه، فَمَا راعَني إلا انْسيابُ (٨)صَاغيَته (٩) إلَيَّ، وانثِيَالُ (١٠) حفَدَتِه علَيَّ، يَسُومُني (١١)إيثَارَهُ بالدُرّةِ اليَتيمة، علَى أنْ أتحكّمَ عَلَيْهِ فِي القيمةِ، فغَشِيَني منَ الْهَمِّ، مَا غَشيَ فرعَونَ وَجُنودَهُ منَ اليَمّ، ولَمْ أزلْ أدَافعُ عنهَا ولاَ يُغْني الدِّفاعُ، وأستَشفعُ إليْه ولاَ يُجْدي (١٢) الاسْتشْفَاعُ، وكُلَّمَا رأَى منِّي ازديَادَ الاعْتياصِ (١٣)، وارتيادَ الْمَناصِ، تَجرَّمَ (١٤)وتَضرَّمَ، وحَرَّقَ علَيَّ الأُرَّمَ، ونَفْسِي معَ ذَلكَ لا تَسْمَحُ بمُفارَقَة بدْري، ولاَ بأنْ أنزِعَ قَلْبِي منْ صَدْري، حتَّى آلَ الوَعيدُ إيقاعاً، والتَّقْريعُ قِراعاً، فقَادَني الإشْفَاقُ (١٥)منَ الْحيَنِ (١٦)، إلَى أنْ قضتُهُ سوادَ العَينِ،

---

(١)لا يخرق.

(٢)القَرْيَة والبلد من الأرض.

(٣)ليعرض عليه ما عنده من الأجناد.

(٤)طلب.

(٥)جمع جعالة، وهي: أُجرة العامل.

(٦)يعظم العطاء.

(٧)الخَدَّاع وَالْغَدَّار.

(٨)انبعاث ودخول.

(٩)حاشيته ومن يميل إليه.

(١٠)انصباب واجتماع.

(١١)يطلب منّي.

(١٢)ينفع.

(١٣)الامتناع.

(١٤)ادَّعى ذنبًا لم أفعله.

(١٥)الخوف.

(١٦)بالفتح؛ الهلاك.

بصُفرةِ العَينِ، ولَمْ يحظَ الْوَاشِي(١) بغيرِ الإثْمِ والشَّينِ(٢)، فعاهدتُ اللهَ تَعَالَى مُذْ ذلك العهْدِ، ألا أُحاضرَ نمّاماً منْ بَعْدُ، والزُّجاجُ مَخْصُوصٌ بهَذه الطِّبَاعِ الذَّميمةِ (٣)، وبه يُضربُ الْمَثَلُ في النَّميمةِ، فَقَدْ جرى عَلَيْهِ سَيْلُ يَمينِي، ولذلكُمُ السَّببِ لَمْ تمْتَدّ إلَيْه يَمِيني:

فلا تعذلوني بعدمَا قد شرحتُهُ
علَى أنْ حُرمْتمْ بي اقتطافَ (٤) القطائفِ
فقد بانَ عُذري (٥) في صَنيعي وإنّني
سأرْتُقُ (٦) فتقي (٧) من تَليدي وطارِفي
علَى أنَّ مَا زوّدْتُكُمْ من فُكاهَة
ألذُّ من الْحُلْوى لدَى كلِّ عارِفِ

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فقبِلْنا اعتذارَهُ، وقبّلنا عِذَارَهُ (٨)، وقُلْنا لهُ: قدْماً وقَذَتِ النَّميمةُ خيرَ البشرِ، حتَّى انتشرَ عنْ حمّالة الحْطبِ مَا انتشرَ، ثُمَّ سَأَلْناهُ عَمَّا أحْدَثَ جَارُهُ القَتَّاتُ (٩)، ودُخْلُلُهُ الْمفْتَاتُ (١٠)، بَعْدَ أَنْ راشَ لَهُ نبْلَ السِّعايَةِ (١١)، وجَذَمَ حَبْلَ الرِّعَايةِ (١٢).

فَقَالَ: أخذَ في الاسْتِخْذاءِ (١٣)والاستِكانَةِ، والاستِشْفاعِ إلَيَّ بذَوي

---

(١)النَّمَّام: الذي يسعى بالنَّاس إلى الْوَالِي وغيره.
(٢)الْعَيْب.
(٣)التي يذمها كل من سمع بها.
(٤)اجتناءَ، ومرادهُ به: الأكل.
(٥)ما ألجأني إلى ما فعلته.
(٦)سأصلح وأسدُّ.
(٧)خرقي وخللي.
(٨)لثمنا شعر خدّه.
(٩)النَّمَام.
(١٠)المتعدِّي الَّذي يعمل برأي نفسه.
(١١)الْمَشْي بالنَّميمَةِ.
(١٢)حفظ الصَّدَاقَة.
(١٣)الخضوع.

الْمكانة، وكنتُ حرّجتُ عَلَى نفسي، أَنْ لا يستَرْجِعَهُ أُنْسي، أَوْ يرْجِع إِلَيَّ أمْسي، فَلَمْ يكُنْ لَهُ منّي سِوى الردّ، والإصْرارِ عَلَى الصّدّ، وَهُوَ لا يكتَئِبُ مِنَ النَّجْه [١]، وَلاَ يتّئِبُ مِنْ وقاحةِ الوجه، بلْ يُلِطّ بالوَسائِلِ، ويُلِحّ فِي الْمسائِلِ، فَمَا أنقذَني مِنْ إبْرامه، وَلاَ أبْعَدَ عَلَيْه نَيْلَ مَرامه [٢]، إلا أبياتٌ نفثَ بها الصّدرُ الْموتورُ، والخاطرُ الْمبْتورُ، فإنّها كانتْ مَدْحَرَةً [٣] لشيطانه، ومسجَنَةً لَهُ فِي أوطانه، وعندَ انتشارها بتّ طَلاقَ الْحُبور، ودَعا بالويْلِ والثُّبورِ [٤]، ويَئِسَ مِنْ نشْرِ وصَلْي الْمَقْبورِ، كم يئِسَ الكُفّارُ مِنْ أصحابِ القُبورِ، فناشَدْناهُ أَنْ يُنشِدَنا إيّاها، ويُنشِقنا ريَّاها.

فَقَالَ: أجَلْ، خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ، ثُمَّ أَنْشَدَ لا يَزْويه [٥] خَجَلٌ، وَلاَ يثْنيه وَجَلٌ:

وَنَديمٍ محَضْتُهُ [٦] صِدْقَ وُدّي ... إذْ توهّمْتُهُ صَديقاً حَميما
ثُمَّ أولَيْتُهُ قَطيعةَ قالٍ ... حينَ ألفَيتُهُ صَديداً حَميما
خِلتُهُ قَبْلَ أَنْ يجرَّبَ إلْفاً [٧] ... ذا ذمامٍ فبانَ [٨] جِلْفاً ذَميما
وتخيّرْتُهُ كليماً فأمْسى ... منهُ قَلْبي بِمَا جَناهُ كَليما
وتظنّيْتُهُ مُعيناً رَحيماً ... فتبيّنْتُهُ لَعيناً رَجيما
وتراءيْتُهُ مُريداً فجلّى ... عنهُ سَبْكي [٩] لَهُ مَريداً لئيما [١٠]
وتوسّمْتُ أَنْ يهُبّ نَسيماً ... فأبى أَنْ يهُبّ إلا سَمُوما [١١]
بِتُّ من لسْعِه الّذي أعجزَ الرّا ... قِي [١٢] سَليماً وباتَ مِنّي سَليما

(١) الرَّد والرَّدْع.
(٢) بلوغ مقصوده.
(٣) مبعدة.
(٤) الهلاك.
(٥) لا يصرفه ولا يمنعه.
(٦) أخلصته.
(٧) محبّا يألفني ويبغي رِضَايَ.
(٨) جافيا.
(٩) اختباري.
(١٠) خسيس القدر وضيع الهمّة.
(١١) ريحًا حارَّة.
(١٢) الطّيِّب.

وبَدا نهجُهُ غَداةَ افترَقْنا مُستَقيماً والجسمُ منِّي سَقيما
لم يكنْ رائعاً خَصيباً ولكنْ كان بالشرّ رائعاً لي خَصيما
قلتُ لَمَّا بلَوْتُهُ (١) ليتَهُ كا نَ عديماً ولَمْ يكُنْ لي نَديمَا(٢)
بغّضَ الصّبْحَ حينَ نمّ إلَى قَلْـ ـبي لأنّ الصّباحَ يُلْفَى(٣) نَموما
ودَعاني إلَى هوَى اللَّيْلِ إذْ كا نَ سوادُ الدُجى رَقيباً(٤) كَتوما
وكفى مَنْ يَشي ولَوْ فَاهَ (٥) بالصّدْ قِ أثاماً فيمَا أتاهُ ولوما

قال: فَلَمَّا سمِعَ ربُّ البيتِ قَريضَهُ وسجْعَهُ، واستمْلَحَ تَقْريظَهُ (٦) وسبْعَهُ، بوّأهُ مِهادَ كرامتِه، وصَدَّرَهُ عَلَى تكْرِمتِهِ، ثُمَّ استحْضَرَ عشْرَ صِحافٍ مِنَ الغرَبِ، فِيهَا حَلْواءُ القَنْدِ والضَّرْبِ(٧).

وقال لهُ: لا يَستَوي أصْحَابُ النَّارِ وأَصْحابُ الْجنَّةِ، ولاَ يَسَعُ أَنْ يُجعَلَ البَرِيءُ كَذِي الظِّنَّةِ (٨)، وهَذِهِ الآنيةُ تتَنَزَّلُ منزلَةَ الأبْرارِ، فِي صَوْنِ الأسْرارِ، فَلا تولِها الإبْعادَ، ولاَ تُلحِقْ هوداً بعادَ، ثُمَّ أمر خادمَهُ بنقْلِها إلَى مثْوَاهُ(٩)، ليحكُمَ فِيهَا بِمَا يهْواهُ، فأقبلَ علَيْنا أبو زَيْد، وقَالَ: اقرؤُوا سُورَةَ الفتْحِ، وأبشِروا باندمالِ القرْحِ، فَقَدْ جبرَ اللهُ ثُكْلَكُمْ (١٠)، وسَنَّى(١١) أكْلَكُمْ، وجمعَ فِي ظِلِّ الْحلْواء شَمْلَكُمْ، وعَسَى أَنْ تكرَهوا شيئاً و هُوَ خيرٌ لكُمْ، ولَمَّا همّ بالانصِرافِ، مالَ إلَى استهداء الصِّحَافِ.

---

(١) جربّته. (٢) مجالسًا.
(٣) يوجد. (٤) حافظًا.
(٥) نطق.
(٦) مدحه، وأصله: مدح الإنسان حيّا كما أن التأبين مدحه ميّتًا.
(٧) الْعَسل الأبيض. (٨) التُّهْمَة.
(٩) منزله ومستقره. (١٠) فقدكم وحزنكم. (١١) سهل.

فَقَالَ للآدبِ: إنَّ منْ دَلائلِ الظَّرْفِ، سَمَاحَـةَ الْـمُهْدِي بِالظَّرْفِ، فَقَالَ: كلاهُما لَكَ والغُلامُ، فَاحْذفِ الكَلامَ، وانهَضْ بسَلامٍ، فَوَثَبَ فِي الْـجَوابِ، وشكرَهُ شُكْرَ الرّوضِ للسِّحابِ، ثُـمَّ اقْتادَنا أبُو زيْدٍ إلَى حِوائِه[١]، وحكّمَنا فِي حَلْوائِهِ، وجَـعلَ يقلّبُ الأواني بيَدِه، ويفُضّ عَـدَدَها عَلَى عدَدِه[٢]، ثُمَّ قَالَ: لَسْتُ أدري أأَشْكُو ذلكَ النَّمَّامَ أمْ أشْكُرُ، وأَتَنَاسَـى فَعْلَتَهُ الَّتِي فَعَلَها أَمْ أذكُرُ؟ فإنهُ وإنْ كَانَ أسْلَفَ [٣] الْـجَرِيمَةَ، ونَمْنَـمَ النَّميمَةَ [٤]، فمنْ غيمِه انهلَّتْ هَـذِه الدِّيـمَةُ [٥]، وبسيفِه انحازَتْ هذه الغَنيمةُ، وقَدْ خطرَ ببالي، أَنْ أرْجِعَ إلَى أشْبَالِي[٦]، وأقنَعَ بِمَا تسنَّى لِي، وأَلا أُتعِـبَ نفْسي ولاَ أجْمَالي، وأَنَا أودِّعُكُـمْ وداعَ مُحَافِـظٍ، وأستَـودِعُكُمْ خيَـرَ حَافِظٍ، ثُـمَّ استَـوى عَلَى رَاحِلَتِـهِ، راجِعـاً فِي حافِـرَتِه [٧]، ولاوِياً إلَى زافِـرتِه[٨]، فغادَرَنـا بَعْدَ أَنْ وَخَدَتْ عنسُهُ [٩]، وزَايَلَنا أُنْسُهُ، كَدَسْتٍ غَابَ صَدرُهُ، أَوْ لَيْلٍ أفلَ بَدْرُهُ.

❖❖❖



---

(١) بالكسر؛ بيته الذي يَحْوِيه.

(٢) يفرّق عدد الآنية على عدد أصحابه.

(٣) قدَّم.

(٤) نقش وحسّن.

(٥) المطر يدوم أيّامًا.

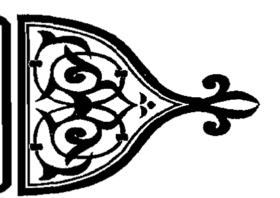
(٦) أولادي.

(٧) الطريق التي جاء منها.

(٨) جماعته وعشيرته.

(٩) ناقته الصَّلْبَة.





المَقَامَةُ التَّاسعَة عَشرَة
النَّصِيبِيَّةُ

رَوَى الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَمْحَلَ (١) العراقُ ذَاتَ العُوَيْمِ، لإِخْلافِ أنواءِ الغَيْمِ، وَتَحَدَّثَ الرُكْبانُ بريفِ نَصيبينَ، وبُلَهْنِيَةِ (٢) أهلِها الْـمُخصِبينَ، فاقتَعَدْتُ مَهرِيّا، واعْـتقلْتُ سَمْهَرِيّا (٣)، وسِرْتُ تلفظُني أرضٌ إِلَى أرضٍ، ويجذِبُني رفعٌ مِنْ خَـفْضٍ، حَتَّى بلغتُها نقْـضاً عَلَى نِقْضٍ(٤)، فَلَمَّا أنختُ بمَغْناها(٥) الْـخَصـيبِ، وضَرَبْتُ فِي مَرْعـاها بنَصيبٍ، نَوَيْتُ أَنْ أُلْـقيَ بِهَا جِرَانِي، وأتّخذَ أهلَهَا جِيرَانِي، إلَى أَنْ تَحْيَا السَّنَةُ الْـجَمَادُ (٦)، وتتعهّدُ أرضَ قَوْمِي العِهَادُ (٧)، فَوَالله مَا تَمَضْمَضَتْ مُقلَـتِي بنومِهَا، ولاَ تَمَخَّضَتْ لَيْلَتِي عن يومِها، دونَ أَنْ ألفَـيْتُ أَبَا زَيْدِ السَّروجيَّ(٨) يجولُ فِي أرجاءِ نَـصيبينَ، ويخبِطُ(٩) بهاَ خَبْطَ الْـمُصابِينَ (١٠) والْـمُصيبِينَ(١١)، وَهُوَ ينثُرُ مِنْ فيهِ الدُّرَرَ، ويحتلِبُ بِكَفَّيْهِ الدِّرَرَ، فوجدْتُ بها جِهادِيَ (١٢) قَدْ حَازَ مَغنَماً، وقِدْحِيَ الفَذَّ

---

(١)أجدب.

(٢)رغد العيش والرخاء والسّعة.

(٣)وضعته بين ساقي وركابي. والسَّمْهريُّ: الـرمح الصّلْب، أو: هو نسبة إلى سمهر زوج رُدَينة وكانا مثقّفين للرماح.

(٤)النقض ـ بالكسر ـ المهزول من السير؛ أي: أنا مهزول وجملي كذلك.

(٥)منزلها.

(٦)التي لا مطر فيها، وكنّى بإحيائها عن زوال القحط والجدب.

(٧)المطر المتكرِّر الذي يتعهد الأرض المرَّة بعد المرَّة.

(٨)يتردَّد.

(٩)يمشي على غير هداية.

(١٠)المجانين.

(١١)الواجدين لما يطلبون.

(١٢)مشقَّتِي وتَعَبِي.

قَدْ صَارَ تَوْأَمـاً، ولَمْ أَزَلْ أَتْبَعُ ظِلَّهُ أينَما انـبَعَث، وألتَقطُ لفظَهُ كُـلَّمَا نفثَ، إلَى أَنْ عراهُ مـرضٌ امتدَّ (١) مَدَاهُ، وعـرَقَتْـهُ مُداهُ، حَتَّى كـادَ يسلُبُـه ثوبَ الْـمَحْيا، ويسلِّمُهُ إلَى أبي يَحْيى(٢)، فوجدْتُ لفَوْتِ لُقياهُ، وانقطاعِ سُقْياهُ، مَا يجدُهُ الْـمُبعَدُ عن مرامِه، والْـمُرضَعُ(٣) عندَ فطامِه، ثُمَّ أرْجَفَ بأنَّ رهْنَهُ قَدْ غَـلِقَ، ومخْـلَبَ(٤) الحِـمَامِ بِه قَـدْ عَلِـقَ، فقَلِـقَ صحْـبُهُ لإرْجـافِ الْـمُرْجِفينَ(٥)، وانثالوا إلَى عَقْوَتِه مُوجِفينَ(٦):

حَيـارى يميـدُ بـهمْ شَجْوُهُـمْ(٧) ... كـأنّـهـمُ ارتَضـعـوا الخَنْـدَريسَـا
أسالوا الـغُروبَ وعطّوا الْـجُيوبَ ... وصكّوا الخُـدودَ وشجّوا الـرّؤوسَا
يـودونَ لَـوْ سـالَمَتْـهُ الْـمَنـونُ ... وغـالَتْ(٨) نفـائِـسَهُـمْ والنّفـوسَـا

قَالَ الرَّاوي: وكنتُ فِي مَنِ التفَّ بأصْحَابِه، وأغذَّ إلَى بابِه، فَلَمَّا انتهيْنا إلَى فنائِه، وتصدّيـنا لاستنْشاءِ(٩) أنْبائِه، برزَ إلَيْنا فـتاهُ، مُفترَّةً(١٠) شفتَاهُ، فاستَطْلَعناهُ طِلْعَ الشَّيْخِ(١١) فِي شكاتِه(١٢)، وكُنْهَ(١٣) قُوَى حرَكَاتِه، فَقَالَ: قَدْ كَانَ فِي قَـبْضَةِ المَرْضَةِ، وَعركَةِ الوعْـكَةِ، إلَى أَنْ شفَّهُ(١٤) الدَّنَفُ(١٥)، واستَـشفَّهُ الـتَّلَفُ، ثُمَّ منَّ الـلهُ تَعالى بـتقويـةِ ذمَائِه، فَـأفَاقَ مِنْ إغْمَـائِه، فَارْجِعُوا أدرَاجَكُمْ(١٦)، وانْضُوا انزِعَاجكُمْ، فكأنْ قد غَدا وراحَ، وساقاكُمُ

(١) طال زمنه ولَمْ يشفَ. (٢) كنية الموت، أو مَلَكَ الْـمَوْت. (٣) الرَّضيع.
(٤) واحد المخالب، وأصلها للسِّبَاع، استُعيرَت لِلْحِمَامِ.
(٥) لخوض الخائضين وإذاعتهم الأخبار الكاذبة. (٦) مسرعين.
(٧) حزنهم. (٨) أهلكت.
(٩) لاستعلام أخباره. (١٠) مبتسمة.
(١١) حقيقة أمره وحاله. (١٢) في مرضه.
(١٣) كنه الشَّيْءِ: حقيقته وغاية مُنْتَهَاه. (١٤) أضناه وأوجعه وأضمره.
(١٥) المرض. (١٦) في أدراجكم، والدَّرج: الطريق؛ أي: ارجعوا من حيث أَتَيْتُمْ.

الرَّاحَ، فَأَعْظَمْنَا بُشْراهُ [١]، واقترَحْنا أَنْ نَراهُ، فدخَلَ مؤذِناً [٢] بنا، ثُمَّ خرجَ آذناً لنا، فلَقينا منْهُ لَقًى، ولساناً طلْقاً، وجلسْنا مُحدِقين بسَريرِه، محدّقينَ إلَى أساريرِه[٣]، فقلّبَ طرْفَهُ فِي الْجَماعةِ، ثُمَّ قَالَ: اجْتَلوها بنتَ السّاعةِ، وأنشَدَ:

عَافَانِيَ اللهُ وشُكْراً لهُ ... مِنْ عِلّةٍ كَادتْ تُعَفّيني
ومِنّ بالبُرْءِ[٤] عَلَى أنّهُ ... لا بُدّ مِنْ حتْفٍ[٥] سيَبْريني[٦]
مَا يتَناسَاني ولكنّهُ ... إلَى تَقَضّي الأُكْلِ يُنْسيني
إنْ حُمّ لَمْ يُغْنِ[٧] حَميمٌ ولا ... حمَى كُلَيْبٍ منْهُ يحْميني
ومَا أُبَالي أدَنا يومُهُ ... أم أُخِّرَ الحَيْنُ[٨] إلَى حينِ
فَأيُّ فخْرٍ فِي حَيَاةٍ أرَى ... فيها البَلاَيَا ثُمَّ تُبْليني[٩]

قَالَ: فَدَعَوْنا لَهُ بامْتِدادِ الأجَلِ، وارتِدادِ الوَجَلِ[١٠]، ثُمَّ تداعَيْنا إلَى القِيامِ، لاتّقاءِ الإبْرامِ، فَقَالَ: كلاّ بلِ البَثوا بَياضَ يومِكُمْ عِندي، لتَشْفوا بالمُفاكَهَةِ وجْدي، فإنّ مُناجاتَكُمْ قوتُ نفْسي، ومَغْناطيسُ أُنسي، فتحرّيْنا مرْضاتَهُ، وتَحامَيْنا[١١] مُعاصَاتَهُ [١٢]، وأقبَلْنا عَلَى الْحَديثِ نمْخُضُ زُبْدَهُ[١٣]، ونُلْغي زبَدَه، إلَى أَنْ حَانَ وقتُ الْمَقيلِ[١٤]، وكلَّتِ الألْسُنُ مِنَ

---

(١) استعظمناها.
(٢) معلمًا.
(٣) إلى غضون جبهته؛ أي: خطوطها.
(٤) بالشِّفَاء.
(٥) الحتف: الموت والهلاك.
(٦) يهلكني ويذهب لحمي.
(٧) لم يَنْفَعْ.
(٨) بفتح الحاء؛ الهلاك.
(٩) تُخلقني.
(١٠) زوال الخوف والفزع.
(١١) جانبنا.
(١٢) عصيانه.
(١٣) نترك رديئه.
(١٤) القيلولة: وهي النَّوْم وقت الظُّهْر.

القَال والـقيلِ، وكَانَ يَـوماً حاميَ الـوَديقَة (١)، يانِعَ الْـحَديقَة، فَـقَالَ: إنَّ النّعاسَ قَدْ أمـالَ الأعْناقَ، وراَودَ الآمَاقَ (٢)، وهو خصْمٌ ألَدُّ، وخِطْبٌ (٣) لا يُرَدُّ، فَصِلُوا حبْلَهُ بالقَيْلولَةِ، واقْتَدوا فيهِ بالآثارِ المْنقولةِ.

قَالَ الرَّاوِي: فـاتَّبَعْنا مَـا قَالَ، وقلْنَـا وقَالَ، فَضَرَبَ الـلهُ عَلَى الآذَانِ، وأفـرَغَ السِّنَةَ فِـي الأجْفَـانِ، حَـتَّى خَرَجْـنا مِنْ حُـكْمِ الوجـودِ، وصُرِفْـنا بالهُجودِ(٤)، عنِ السُّجُودِ، فَمَا استـيْقَظْنا إلا والْـحرُّ قَدْ باخَ (٥)، واليَومُ قَدْ شَاخَ(٦)، فَتَـكرَّعْنَا لصَـلاةِ العَجْمَـاوَيْنِ(٧)، وأدّيْنا مَا حَـلَّ مِنَ الدّينِ، ثُمَّ تَحَثْحَثْنَا (٨) للارْتِحالِ، إلَى مُلْقى الرِّحالِ، فالتَفَتَ أبو زَيْدٍ إلَى شبلِه، وكان عَلَى شاكِلَتِه وشـكْلِه، وقَالَ: إني لإخالُ أَبَا عَمْرَةَ، قد أضْـرَمَ فِي أحشائِهِم الْـجَمرَةَ، فاستَدْعِ أَبَا جـامعٍ، فإنّهُ بُشرَى كُلِّ جائعٍ، وأردِفْهُ (٩) بأبي نُعَيمٍ، الصَّابِرِ عَلَى كلّ ضيْمٍ، ثُمَّ عَزِّزْ (١٠) بأبي حَبيبٍ، الْـمُحبَّبِ إلَى كُلِّ لَبيبٍ، الْمُقَلَّـبِ بَيْنَ إحْراقٍ وتعْـذيبٍ، وأهِّبْ بأبي ثَـقيفٍ، فـحبّذا هُوَ مِـنْ أليفٍ، وهلُمُّ(١١) بأبي عَـوْنٍ، فَمَا مثلُـهُ مِنْ عونٍ، ولوِ استـحْضَرْتَ أَبَا جـميلٍ، لجَمّلَ أيّ تجْـميلٍ، وحَيِّ هَـلَ بأمِّ القِرَى، الْمذَكِّـرةِ بكسْرَى، ولاَ تـتناسَ أمّ جابرٍ(١٢)، فكمْ لـها مِنْ ذاكـرٍ، ونَادِ أُمَّ الفرَجِ، ثُمَّ افـتكْ بهـا ولاَ حرَجَ، واختِمْ بأبي رَزينٍ(١٣)، فهُو مسْلاةُ (١٤) كلّ حزينٍ، وإنْ تقْرُنْ بهِ أَبَا العَلاءِ،

---

(١) الوديقة: شدَّة حرّ الهاجرة.

(٢) جمع مآق، وهو: جانب العين.

(٣) بكسر الخاء؛ الذي يخطب المرأة.

(٤) بالنَّوم.

(٥) فتر وسكَنَ.

(٦) قارب الانتهاء.

(٧) هما الظهر والعصر.

(٨) تهيَّأنا.

(٩) اتبعه.

(١٠) أي: قوِّ.

(١١) أي: أقبل.

(١٢) الهريسة.

(١٣) هو الخبيص.

(١٤) سبب السلوّ وهو: زوال الغمّ.

تَمْحُ اسمَكَ من البُخَلاء، وإيَّاكَ واستدْناءَ الْمُرْجِفين، قَبْلَ استِقلال حُمُول البَين، وإذَا نَزَعَ القَوْمُ عنِ الْمَراسِ[١]، وصَافَحُوا أَبَا إيَاسٍ، فأطِفْ علَيْهِم أَبَا السَّرْوِ[٢]، فَإِنّهُ عُنْوانُ السَّرْوِ[٣].

قَالَ: ففقِهَ ابنُهُ لَطائفَ رُموزِه[٤]، بلَطافَةِ تمْييزِه، فطافَ علينا بالطَّيِّبَات والطِّيبِ، إلَى أَنْ آذنَتْ الشَّمْسُ بالمَغيبِ، فَلَمَّا أجْمَعْنا علَى التَّوديعِ، قُلْنا لهُ: أَلَمْ تَرَ إلَى هَذَا اليَومِ البَديعِ؟ كَيفَ بَدَا صُبحُهُ[٥] قَمْطَريراً، ومُمْسِيهُ مُستَنيراً؟ فسجَدَ حَتَّى أطالَ، ثُمَّ رفَعَ رأسَهُ وقالَ:

لا تَيْأسَنْ عِندَ النُّوَبْ … مِنْ فَرْجَةٍ تجلو الكُرَبْ[٦]
فلَكَمْ سَمُومٍ[٧] هَبَّ … ثُمَّ جَرَى نَسِيمًا[٨] وانقَلَبْ
وسَحَابِ مَكْروهٍ تنشَّـ … ـأَ[٩] فاضْمَحَلَّ[١٠] ومَا سكَبْ
ودُخَانِ خَطْبٍ خِيفَ منْـ … ـهُ فَمَا استَبَانَ لَهُ لهَبْ
ولَطَالَمَا طَلَعَ الأسَى … وعلى تَفيئَتِه غَرَبْ[١١]
فَاصْبِرْ إذَا مَا نابَ رَوْ … عٌ فَالزَّمَانُ أبو العَجَبْ[١٢]
وتَرَجَّ مِنْ رَوْحِ الإلَـ … ـهِ لَطائفاً لا تُحْتَسَبْ

قال: فاستَمْلَيْنا منْهُ أبياتَهُ الغُرّ، ووالَيْنا للهِ تَعالى الشُكْرَ، وودَّعْناهُ مسرورينَ ببُرْئِهِ، مَغْمورينَ ببِرِّهِ.

۞۞۞

---

(١) شدَّة المعالجة، يريد: إذا كفّوا عن تناول الطعام.
(٢) البخور.
(٣) علامة السَّخاء والكرم.
(٤) إشاراته.
(٥) وقت انجاء الظّلمة.
(٦) تكشف الغموم الشَّديدَة.
(٧) ريح حارَّة.
(٨) ريحًا باردة طيّبة.
(٩) ارتفع.
(١٠) تلاشى وتفرّق.
(١١) غاب.
(١٢) تتولد فيه العجائب.

تَفْسِيرُ أَلْفَاظ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْمَقَامَةُ
مِنْ كَلِمَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَكُنَى طُفَيْلِيَّةٍ وَكِنَايَاتٍ صُوفِيَّةٍ

قَولُهُ: (ذَاتَ العُويَمِ) يعني به الزمان الْمتقادم، ومثله ذات الزمين و(السَّمْهَرِيَّة) الرماح وَفِي تسميتها بذلك قولان:

أحدهما: أنها سميت لصلابتها من قولهم اسمهرّ الشيء إذَا اشتد وقيل أنها منسوبة إلَى سمهر زوج ردينة وكانا جميعاً يقومان الرماح بسوق هجر فنسبت إليهما .

وقَوْلُهُ: (نِقْضاً عَلَى نِقْضٍ) أي مهزولاً عَلَى مهزول، و(الجِرَان) باطن العنق وقيل منه تعمل السياط.

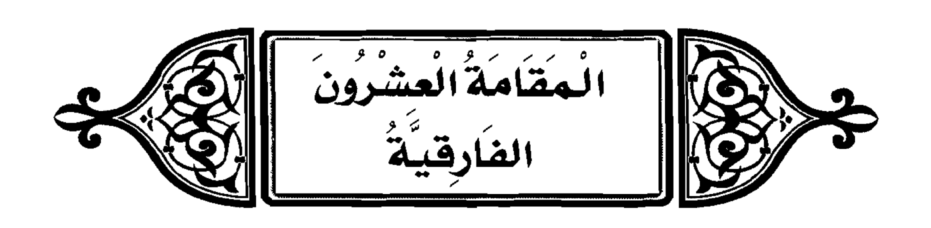
وقَوْلُهُ: (فَضَرَبَ اللهُ عَلَى الآذان) أي: أنامنا، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١١] أي نيمناهم، وقيل فِي تفسيره منعناهم السمع.

وقَوْلُهُ: (فَتَكَرَّعْنَا لصَلَاةِ العَجْمَاوَيْنِ)؛ أي غسلنا أكارعنا وهو كناية عن الوضوء، والعجماوان صلاتا الظهر والعصر سميتا بذلك لإسرار القراءة فيهما، وقَوْلُهُ: (هلْمُمْ) أي قل: هلمَّ وهي تأتي بمعنى هات وبمعنى أقبل والأفصح أَنْ يوحد لفظها مَعَ الْمذكر والمؤنث والاثنين والجمع وبه نطق القرآن فِي قوله تعالى: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، ومن العرب من يقول للمذكر الواحد: هلمّ وللاثنين هلما وللجميع هلمُّوا، والمؤنث الواحدة هلمي وللاثنين هلما وللجمع هلممن. وقوله: (حي هل) أي عجّل وأسرع

يقال حيّ هل بفلان بتسكين اللام وفتحها وتنوينها وبإثبات النون معها ومنه قول ابن مسعود فِي عمر رضي الله عنه إذَا ذكر الصالحون فحيّ هلاً بعمر، وَفِي (حيّ هل) لغات أخر أضربنا عن ذكرها إِذْ ليس هَـٰذَا موضع استيفاء شرحها، فهَـٰذَا تفسير الألفاظ اللغوية، وأما تفسير الكنى الطفيلية والكنايات الصوفية (فأبو يحيى) كنية المْوت و(أبو عمرة) كنية الجْوع، ويكنى أيضاً أَبَا مالك و(أبو جامع) الخْوان و(أبو نعيم) الخْبز الحْواري و(أبو حبيب) الجْدي (وأبو ثقيف) الخْل و(أبو عون) المْلح و(أبو جميل) البقل و(أم القرى) السكباج و(أم جابر) الْهريسة و(أم الفرج) الجْوذات و(أبو رزين) الخْبيص و(أبو العلاء) الفالوذق (كذا فِي الأصل) و(أبو إياس) الغسول و(المرجفان) الطست والإبريق و(أبو السَّرْوِ) البخور.







المَقَامَةُ العِشْرُونَ الفَارِقِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قالَ: يمّمْتُ (١) ميَّافَارِقِينَ، مَعَ رُفقَة مُوافقِينَ، لا يُمارونَ (٢) فِي الْمُنَاجاة، ولاَ يدْرونَ مَا طعْمُ الْمُداجاة (٣)، فكُنتُ بهِمْ كمَنْ لَمْ يرِمْ عنْ وَجارِه، ولاَ ظعَنَ (٤) عنْ أليفِه وجارِه، فَلَمَّا أنَخْنَا بها مَطَايَا التّسْيَارِ، وانتقلْنا عنِ الأكوارِ، إلَى الأوْكارِ (٥)، تواصَيْنا بتَذْكارِ الصُحْبَة، وتناهَيْنا (٦) عنِ التّقاطُعِ فِي الغُرْبَة، واتّخَذْنا نادياً نعتَمِرهُ (٧) طرَفَي النهارِ، ونتَهَادَى فيهِ طُرَفَ الأخْبارِ (٨)، فبَينَما نَحْنُ بِه فِي بعضِ الأيَّامِ، وقَدْ انتظَمْنا فِي سِلكِ الالتِئَامِ، وَقَفَ عَلَيْنا ذُو مِقْوَلٍ (٩) جريّ، وجرْسٍ جهْوَريّ (١٠)، فحيّا تحيّةَ نفَّاث فِي العُقَد، قَنَّاصٍ (١١) للأسَدِ، والنّقَد، ثُمَّ قَالَ:

عِندي يَا قَومُ حَديثٌ عَجيبْ ... فيه اعْتبارٌ للَّبيب (١٢) الأريبْ (١٣)
رأيتُ فِي رَيْعانِ عُمْري أخا ... بأسٍ لَهُ حدُّ الحُسامِ القَضيبْ
يُقْدِمُ فِي الْمَعْرَكِ إقْدامَ مَنْ ... يوقِنُ بالفَتْك ولاَ يسْتَريبْ (١٤)

---

(١) قصدتُ.
(٢) لا يجادلون.
(٣) المداراة ومساترة العداوة.
(٤) رحل.
(٥) البيوت.
(٦) نهى بعضنا بعضًا.
(٧) نقصده ونعمره، ومنه: عمرة الحج.
(٨) محاسنها.
(٩) صاحب لسان.
(١٠) شديد.
(١١) صياد.
(١٢) العاقل.
(١٣) العَالِم.
(١٤) يشك.

فيُفْرِجُ الضّيقَ بكَرّاته حتى يرى مَا كَانَ ضَنْكاً[١] رَحيب[٢]
مَا بارَزَ الأقْرانَ إلا انْثَنَى[٣] عنْ موقف الطَّعْن برُمح خضيبْ
ولاَ سَما يفتَحُ مُستَصْعباً[٤] مُستَغْلَقَ الباب مَنيعاً مَهيبْ
إلا ونودي حينَ يسْمو لهُ نصْرٌ منَ الله وفتْحٌ قَريبْ
هَذَا وكمْ من ليلَة باتَها يَميسُ في بُرْد الشّباب القَشيب[٥]
يرتَشفُ الغيدَ ويرْشُفْنَهُ[٦] وهْوَ لدى الكُلّ المُفَدّى الحْبيبْ
فلم يزَلْ يبتَزّهُ دهرُهُ ما فيه منْ بطْش وعود صَليبْ
حَتّى أصارَتْهُ اللّيالي لَقًى يَعَافُهُ منْ كَانَ منْهُ قَريبْ
قَد أعجَزَ الرّاقيَ تحْليلُ ما به منَ الدّاء وأعْيا الطّبيبْ
وصارَمَ البيضَ[٧] وصارَمْنَهُ من بعد ما كَانَ المُجابَ المُجيبْ
وآضَ كالمنْكوس[٨] في خَلْقه ومَنْ يَعشْ يَلقَ دواهي المَشيب[٩]
وها هُوَ اليومَ مُسَجّى فمَنْ يرْغَبُ في تكْفينِ ميْت غَريبْ

ثُمَّ إنَّهُ أعلنَ بالنَّحيب، وبكى بُكاءَ الْمُحبّ عَلَى الْحَبيب، ولَمَّا رقَأَتْ[١٠] دمعتُهُ، وانفثأت لوعَتُهُ، قَالَ: يَا نُجعَةَ الرُّواد، وقُدوَةَ الأجْوَاد، والله مَا نطَقْتُ ببُهْتان، ولاَ أخبَرْتُكُمْ إلا عنْ عيان، ولَوْ كَانَ في عَصَايَ سيْرٌ، ولغَيمي مُطَيْرٌ، لاستأثرْتُ[١١] بمَا دعَوْتُكُمْ إليْه، ولَمَّا وَقَفتُ موقفَ

(١) ضيقًا.
(٢) واسعًا.
(٣) رجع.
(٤) حصنًا.
(٥) الجديد.
(٦) بضم الشّين وكسرها؛ يقبلنه.
(٧) قاطع وهجر النساء البيض.
(٨) المردود من القوَّة إلى الضّعْف.
(٩) مصائب الهرم.
(١٠) ارتفعت وانقطعت.
(١١) لاختصصت وانفردت.

الدَّالِّ عَلَيْهِ، ولَكِنْ كَيفَ الطَّيَرَانُ بِلا جَنَاحٍ، وَهَلْ عَلَى مِنْ لا يَجِدُ مِنْ جُناحٍ؟

قَالَ الرَّاوِي: فطفِقَ (١) القومُ يأتَمِرُونَ (٢)، فِي مَا يأمُرونَ، ويتخافَتونَ، فِي مَا يأتُونَ، فتوهَّمَ أنهُم يتمالَؤون عَلَى صَرْفِهِ بحِرْمانٍ، أَوْ مُطالَبَتِه ببُرْهانٍ، فَفَرَطَ (٣) منْهُ أَنْ قَالَ: يَا يلامِعَ القاعِ، ويَرامِعَ البِقاعِ، مَا هَذَا الارْتِيَاءُ (٤)، الَّذي يَأبَاهُ الْحَيَاء؟ حَتَّى كَأَنَّكُم كُلِّفْتُمْ مَشَقَّةً، لا شُقَّةً، أوِ اسْتُوهِبتُمْ بلدَةً، لا بُرْدَةً (٥)، أَوْ هُزِزْتُمْ لكسوةِ البيْتِ، لا لتكْفينِ المَيْتِ؟ أُفٍّ لَمَنْ لا تَنْدى صَفَاتُهُ، وَلاَ ترْشَحُ حَصاتُهُ! فَلَمَّا بصُرَتِ الْجَماعَةُ بِذلاقَتِه(٦)، ومرارَةِ مَذاقَتِه، رفأهُ كُلٌّ منْهُمْ بنَيْلِهِ (٧)، واحتَمَلَ طلَّهُ خوفَ سيْلِه(٨).

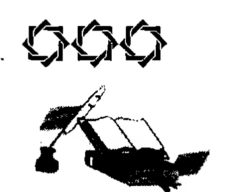
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: وكَانَ هَذَا السَّائلُ واقفاً خلْفي، ومُحتَجباً بظهْري عنْ طرْفي، فَلَمَّا أرضاهُ القومُ بسَيْبِهِمْ، وَحَقَّ عَلَيَّ التَّأسِّي بهِمْ، خلَجْتُ (٩) خاتَمي من خِنصِري، ولَفَتُّ (١٠) إليهِ بَصَرِي، فإذَا هُوَ شيخُنا السَّروجيُّ بِلا فِريَةٍ(١١)، ولاَ مِرْيَةٍ، فأيقَنْتُ أنّها أُكذوبَةٌ تكذَّبَها، وأُحْبُولَةٌ (١٢) نصبَها، إلا أَنَّني طويْتُهُ عَلَى غرِّه، وصُنْتُ شَغاهُ عنْ فرِّه (١٣)، فحصَبْتُهُ بالخاتَمِ، وقُلْتُ: أرصِدْهُ لنفقَةِ المَأتَمِ، فَقَالَ: واهاً لَكَ، فَمَا أضْرَمَ

(١) أخذ وجعل.
(٢) يتشاورون.
(٣) سبق.
(٤) المشاورة: افتعال من الرأي.
(٥) هي كساء يُرْتَدَى به.
(٦) فصاحة لسانه.
(٧) بعطائه.
(٨) مخافة كلامه المؤلم جداً.
(٩) جذبت ونزعت.
(١٠) رددت.
(١١) اسم من الافتراء وهو: اختلاق الكذب.
(١٢) الحبالة: الفخ والشَّرَك.
(١٣) أي: عن فتح فيه لأعلم سنّه، ويُرَادُ به هنا: أنه لم يعرّف عنه.

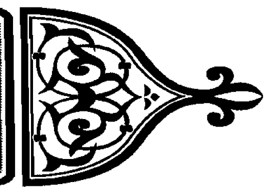
شُعْلَتَكَ[١]، وأكْرَمَ فَعْلتَكَ! ثُمَّ انطلَقَ يسْعى قُدْماً، ويهرْولُ هرْولَتَه قدْماً، فنزَعْتُ [٢] إلَى عِرْفَانِ ميِّته، وامتِحَانِ دَعْوَى حَميَّته[٣]، فَقَرَعْتُ ظُنْبوبي، وألْهبْتُ أُلْهوبي، حَتَّى أدركْتُه عَلَى غلوَةٍ [٤]، واجتَلَيْتُهُ فِي خَلوَةٍ، فأخَذْتُ بجُمْعِ أرْدانِه، وعُقْتُهُ [٥] عن سَنَنِ مَيْدانِه.

وَقُلْتُ لهُ: واللهِ مَا لَكَ منِّي مَلْجأٌ وَلاَ مَنْجًى، أَوْ تُرِيني ميّتَكَ الْمُسَجّى[٦]! فكشفَ عنْ سراويله، وأشار إلَى غُرْمولِه[٧].

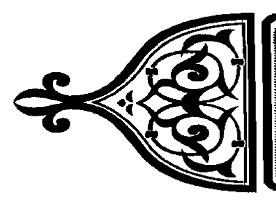
فقلتُ لهُ: قاتلَكَ اللهُ فَمَا أَلْعبَكَ بالنهى، وأحيَلَكَ عَلَى اللُّهَى! ثُمَّ عُدْتُ إلَى أصحابي عوْدَ الرّائد الَّذي لا يكذبُ أهلَهُ، وَلاَ يُبَرقشُ قولَهُ، فأخبَرتُهُمْ بالَّذِي رأيتُ، وما وريّتُ وَلاَ رأيتُ، فقهْقَهُوا [٨] مِنْ كَيْتَ [٩] وكَيْتَ، ولعَنوا ذَلكَ الْميْتَ.



(١) ما أشدّ التهاب نارك.
(٢) اشتقت.
(٣) أنفته.
(٤) على قدر رمية السَّهْم.
(٥) وقفته وعطلته.
(٦) المغطى.
(٧) اذكره.
(٨) ضحكوا بصوتٍ مُرْتَفِعٍ.
(٩) حكاية ما مضى من الحديث.



المُقَامَةُ الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرُونَ
الرَّازِيَّــةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: عُـنيتُ مذْ أحْكَمتُ تَدْبِيرِي(١)، وعرَفْتُ قَبِيلي مِنْ دَبيري، بأنْ أُصْغِيَ إلَى العظات، وأُلْغِيَ الكَلِمَ الْمُحْفظات، لأتحلّى بمَحاسنِ الأخْلاق، وأتخلّى ممَّا يَسِمُ (٢) بالإخْلاق، وما زلتُ آخُذُ نفْسي بهَذَا الأدَب، وأُخْمدُ (٣) به جمْرَةَ الغضَب، حَتَّى صارَ التطبُّعُ (٤) فيه طِباعاً، والتكلّفُ لَهُ هوًى مُطاعاً، فَلَمَّا حللْتُ بالرَّيِّ، وَقَدْ حللْتُ حبى الغَيِّ، وعرَفْتُ الْحَيَّ (٥) منَ اللَّيِّ، رأَيتُ بِهِ ذَاتَ بُكْرة، زُمْرَةً (٦) في إثْرِ زُمرَة، وهمْ مُنتَشِرونَ انتشَارَ الْجرَاد، ومُسْتَنُّونَ استنانَ الْجياد(٧)، ومتواصِفُونَ واعظاً يقصِدونَهُ، ويُحلّون ابنَ سَمْعونَ دونَهُ، فَلَمْ يتكَاءَدْني(٨) لاستِمَاعِ الْمَواعظ، واختبَارِ الوَاعِظ، أَنْ أُقاسِيَ اللاَّغطَ (٩)، وأَحْتَملَ الضّاغطَ (١٠)، فأصْحبْتُ إصْحابَ الْمطْواعَة (١١)، وانخرطْتُ في سلْكِ الْجماعَة، حَتَّى أفضيْنا إلَى نادٍ حشَدَ النَّبيهَ (١٢) والْمغْمُورَ (١٣)، وفي وسَطِ هالَتِه، ووسْطِ أهلَتِه، شيخٌ قد تقوّس واقْعَنْسَسَ، وتقلْنَسَ (١٤) وتطَلَّسَ،

---

(١) هو النظر في العواقب.
(٢) مما يؤثر.
(٣) أطفئُ.
(٤) التَّكلّف.
(٥) الحقّ.
(٦) جماعة.
(٧) جري الجياد، وهي: الخيل.
(٨) يشقّ ويصعب عليَّ.
(٩) الكثير الصياح واللَّغط. واللَّغط: أصوات مبهمة لا تُفْهَم.
(١٠) المُزَاحم.
(١١) الناقة الذَّلُول.
(١٢) المشهور بفضله وقدره.
(١٣) المجهول الخامل الذِّكْر.
(١٤) لبس القلنسوة.

وَهُوَ يصدَعُ بوعظٍ يشفي الصّدور، ويُلينُ الصُّخُورَ، فَسَمعْتُهُ يَقُولُ، وَقَد افتَتَنَتْ بِه العُقولُ: ابنَ آدمَ مَا أغْراكَ (١) بمَا يَغُرُّكَ (٢)، وأضْراكَ بمَا يضُرُّكَ! وألْهجكَ بِمَا يُطْغيكَ (٣)، وأبهجَكَ بمَنْ يُطريكَ! تُعْنى بِمَا يُعَنِّيكَ، وتهمِلُ مَا يعنْيكَ، وتنزِعُ فِي قوْسِ تعدِّيكَ (٤)، وترْتَدي الْحِرْصَ الَّذي يُرْديكَ (٥)! لا بالكَفَافِ تَقْتَنِعُ، وَلاَ مِنَ الْحَرَامِ تمْتَنِعُ، وَلاَ للعظات تستَمِعُ، وَلاَ بالوَعيد ترْتَدِعُ! دأبُكَ أَنْ تتقلّبَ مَعَ الأهْواء، وتخبطَ خبْطَ العَشْواء! وَهَمُّكَ (٦) أَنْ تدأبَ فِي الاحْتِرَاث (٧)، وَتَجْمَعَ التُّراثَ للْوُرَّاث! يُعجبُك التَّكَاثُرُ بِمَا لَدَيكَ، وَلاَ تَذْكُرُ مَا بَيْنَ يديْكَ، وتسعى أبداً لغاريْكَ (٨)، وَلاَ تُبالي ألَكَ أم علَيكَ! أَتَظُنَّ أَنْ ستُتْرَكُ سُدًى (٩)، وأَنْ لاَ تُحَاسَبَ غداً؟ أم تَحْسَبُ أَنَّ الْمَوتَ يقبَلُ الرُّشَى، أَوْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الأسد والرّشَا؟ كلاَّ وَالله لَنْ يدفَعَ الْمَنُونَ (١٠)، مَالٌ وَلاَ بنونَ! وَلاَ ينفَعُ أهْلَ القُبور، سوَى الْعَمَلِ الْمبْرور! فَطُوبَى لِمَنْ سمِعَ ووَعَى، وَحَقَّقَ مَا ادَّعَى! ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهوَى، وَعَلم أَنَّ الفَائزَ من ارْعَوَى (١١)! وأَنْ لَيْسَ للإنسانِ إلا مَا سَعى، وأنّ سعيَهُ سَوْفَ يُرى، ثُمَّ أَنْشَدَ إنْشادَ وجِلٍ (١٢)، بصوت زجِلٍ:

لَعَمْرُكَ مَا تُغني (١٣) الْمَغَاني وَلاَ الغنى
إذَا سكَنَ الْمُثري (١٤) الثَّرَى وثوَى بهِ

---

(١) أولعك.
(٢) يخدعك.
(٣) يدخلك في الطغيان.
(٤) ظلمك.
(٥) يهلكك.
(٦) وجُلّ عزمك.
(٧) الاكتساب.
(٨) الغاران هما: البطن والفرج.
(٩) أي: هملاً.
(١٠) الموت.
(١١) كفّ ورجع عن جهالته.
(١٢) بكسر الجيم؛ أي: خائف.
(١٣) ما تنفع.
(١٤) هو كثير المال.

فَجُدْ في مَراضي اللهِ بالمالِ راضياً
بما تقتني[1] من أجرِهِ وثوابِهِ
وبادِرْ بهِ صرفَ الزمانِ فإنّهُ
بمخلبِهِ الأشغى يغُولُ[2] ونابِهِ
ولا تأمنِ الدهرَ الخؤونَ[3] ومكرَهُ
فكمْ خاملٍ أخنى[4] عليهِ ونابِهِ
وعاصِ هوى النفسِ الذي ما أطاعَهُ
أخو ضلّةٍ[5] إلا هوى من عِقابِهِ
وحافِظْ على تقوى الإلهِ وخوفِهِ
لتنجوَ مما يُتّقى من عِقابِهِ
ولا تَلْهُ[6] عن تذكارِ ذنبِكَ وابكِهِ
بدمعٍ يُضاهي المُزْنَ[7] حالَ مصابِهِ
ومثّلْ لعينيْكَ الحِمامَ ووقعَهُ[8]
وروعةَ مَلقاهُ ومطعمَ صابِهِ
وإنّ قُصارى منزلِ الحيِّ حفرةٌ
سينزلُها مستنزَلاً[9] عن قبابِهِ
فواهاً لعبدٍ ساءَهُ سوءُ فعلِهِ
وأبدى التلافي قبلَ إغلاقِ بابِهِ

(١) تدّخر.
(٢) يهلك.
(٣) كثير الخيانة.
(٤) أهلكه وأفسده.
(٥) صاحب ضلال.
(٦) لا تغفل وتعرض.
(٧) هو السّحاب الممطر.
(٨) هجومه.
(٩) منحطّا.

قال: فظَلَّ القومُ بيْنَ عَبْرَةٍ (١) يُذْرُونَها (٢)، وتوبَةٍ يُظهِرونَها، حتَّى كادَت الشمسُ تَزولُ، والفَريضَةُ تعولُ (٣)، فلَمَّا خشعَتِ الأصْواتُ، والتأمَ الإنْصَاتُ (٤)، واستكَنَّتِ العبَراتُ، والعبَاراتُ، وبَرزَ الواعظُ يتَهادَى (٥) بيْنَ رفقَتِه، ويتباهَى بفوزِ صفقَتِه، واعْتَقَبْتُهُ أخطو متَقاصِراً (٦)، وأُريه لمحاً باصِراً، فَلَمَّا استَشَفَّ مَا أُخفيه، وفطِنَ لتقلُّبِ طرْفي فيه، قَالَ: خيرُ دَليلَيك مَنْ أرشَدَ، ثُمَّ اقتربَ منِّي وأنشدَ:

أَنَا الَّذي تَعرِفُهُ يَا حارِثُ
حدْثُ مُلوكٍ فكِهٌ مُنَافِثُ (٧)
أُطرِبُ مَا لا تُطربُ الْمَثَالِثُ (٨)
طوْراً أخو جِدٍّ وطوْراً عَابِثُ (٩)
ما غَيَّرَتْني بعْدَكَ الْحَوادثُ
ولاَ الْتَحَى عُودي خَطْبٌ كارِثُ (١٠)
وَلاَ فَرَى (١١) حدِّيَ نَابٌ فَارِث
بَلْ مِخلَبي بكُلِّ صَيْدٍ ضَابِثُ (١٢)
وكُلُّ سرْحٍ فيه ذِئْبي عَائثٌ (١٣)
حَتَّى كَأنِّي للأنَامِ وَارِثُ

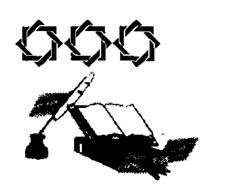
(١) دمعة.
(٢) يسكبونها ويتفرقونها.
(٣) تزيد أجزاؤها على جملتها.
(٤) اتَّفق الاستماع.
(٥) يتمايل في مشيته.
(٦) أي: أمشي خطواً بطيئًا.
(٧) أي صاحب كلام رائق وشعرٍ فائق.
(٨) من أوتار آلات المغاني جمع المثلث وهو ما كان على ثلاثة.
(٩) لاعب وهازل.
(١٠) الخُطْبُ: الأمر العظيم والكارث الثقيل الشَّاقّ المحزن.
(١١) قطع وشقّ.
(١٢) ناشب قابض بشدَّة.
(١٣) مفسد.

سَامُهُمْ وحَامُهُمْ ويَافثُ

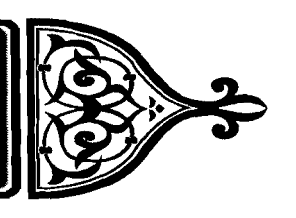
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فقلتُ لهُ: تَالله إنَّكَ لأبُو زَيْد، ولَقَدْ قُمْتَ لله ولاَ عَمرَو بْنَ عُبَيدٍ، فَهَشَّ (١) هَشَاشَةَ الكَرِيمِ إذَا أُمَّ، وقَالَ: اسْمَعْ يَا ابنَ أُمّ، ثُمَّ أنشأ يقولُ:

عَلَيْكَ بالصّدْقِ ولَوْ أنّهُ
أَحرَقَكَ الصّدَقُ بنارِ الوَعِيدْ (٢)
وابْغِ(٣) رِضَى الله فَأَغْبَى الوَرَى
منْ أَسْخَطَ (٤) المَوْلَى وأَرْضَى العَبِيدْ

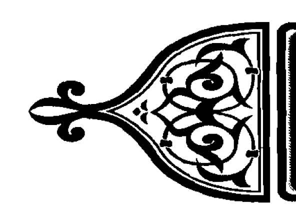
ثُمَّ إنَّهُ ودَّعَ أَخْدَانَهُ (٥)، وانطلَقَ يَسْحَبُ أرْدَانَهُ (٦)، فَطَلَبْنَاهُ منْ بَعْدُ بالرَّيِّ، واسْتَنْشَرْنَا خَبَرَهُ منْ مَدَارِجِ الطَّيِّ (٧)، فَمَا فِينَا مَنْ عرَفَ قَرارَهُ (٨)، ولاَ دَرَى أيُّ الْجَرَادِ عَارَهُ.



(١) فرح واستبشر.
(٢) التهديد بما يُخَوِّف.
(٣) أي: اطلب.
(٤) أغضب.
(٥) أصدقاءه.
(٦) يَجُرّ أطراف ثوبه.
(٧) المدرجة: الورقة تُكْتَبُ فيها الرسالة ويُدْرَجُ فيها الكتاب، وأضافها إلى الطَّيِّ؛ لأنَّها تُطْوَى على ما فيها.
(٨) أي: مكانه.



المَقَامَةُ الثَّانِيَةُ والْعِشْرُونَ الفُرَاتِيَّـةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أوَيْتُ فِي بَعْضِ الفَتَرات(١)، إلَى سَقْيِ الفُرَاتِ، فَلَقِيتُ بها كُتَّاباً أبْرَعَ (٢) منْ بَنِي الفُرَاتِ، وأعْذَبَ أخْلاقاً منَ الْماء الفُرَاتِ، فَأطَفْتُ بهِمْ (٣) لتهذُّبِهِمْ، ولاَ لذَهَبِهِمْ، وكاثَرْتُهُمْ لأدَبِهِم، لا لمَآدِبِهِمْ، فَجَالَسْتُ منهُمْ أضْرَابَ قَعْقَاعِ بنِ شَوْرٍ، ووَصَلتْ بهِمْ إلَى الْكَوْرِ(٤)، بَعْدَ الْحَوْرِ (٥)، حَتَّى إنّهُمْ أشْرَكُونِي فِي الْمَرْتَعِ (٦) والْمَرْبَعِ، وأحَلّوني محَلّ الأنْمُلَة (٧) منَ الإصْبَعِ، واتّخذوني ابنَ أُنْسِهِمْ عندَ الوِلايَةِ والعَزْلِ(٨)، وخازنَ سِرّهِمْ فِي الجِدّ والهزلِ، فاتّفَقَ أنْ نُدبُوا (٩) فِي بعْضِ الأوْقاتِ لاستِقْراء مَزارِعِ الرُزْداقات، فاخْتاروا منَ الْجَوارِي (١٠) الْمُنْشآت، جَارِيةً حالِكَةَ الشِّيَات، تَحْسَبُهَا جَامِدةً (١١) وهِي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب، وتَنْسَابُ فِي الْحَبَابِ كَالْحُبابِ، ثُمَّ دَعَوْنِي إلَى الْمُوافَقَة (١٢)، فَلَبَّيْتُ بلِسَانِ الْمُوافقَةِ، فَلَمَّا توركّنَا علَى الْمَطِيّةِ الدّهْماء (١٣)، وتبَطّنّا الوَلِيّةَ الْماشية علَى

---

(١) أوقات الفراغ والخلوّ عن الأشغال.

(٢) أفصح.

(٣) لازمتهم.

(٤) الزيادة.

(٥) النُّقْصَان

(٦) الْمَرْعَى.

(٧) هي طرف الأصبع من أعلاه.

(٨) أنيسهم في الحالتين.

(٩) دُعوا وَطُلِبُوا.

(١٠) السُّفن لجريها مع الرِّيح.

(١١) واقفة.

(١٢) أجبت دعوتهم موافقًا لهم.

(١٣) السوداء؛ لأنها مقيّرة.

الْمَاء، أَلْفَينا بها شيخاً عليْه سحقُ سِرْبَال وسبُّ بَال، فعَافَت الْجَمَاعَةُ مَحْضَرَهُ، وعنّفت منْ أحضرَهُ، وهمّتْ بإبْرازِه منَ السَّفينَة، لَوْلاَ مَا ثَابَ إلَيْهَا منَ السّكينَة، فَلَمَّا لَمحَ منَّا اسْتثْقَالَ ظلّه (١)، واسْتبْرادَ طَلّه، تعرّضَ للمُنافثَة(٢)، فصُمّتَ وحمْدلَ بعْدَ أنْ عطَسَ فَمَا شُمّتَ، فأخْرَدَ ينظُرُ فيمَا آلَتْ حالُهُ إليْه، وينتظرُ نُصرةَ الْمَبْغيّ علَيْه(٣)، وجُلْنا نحْنُ في شُجون، منْ جدٍّ ومُجون، إلَى أن اعترَضَ ذكْرُ الكتابَتَين (٤) وفضْلهما، وتَبْيان أفضَلهما، فَقَالَ قائلٌ: إنَّ كتَبَةَ الإنْشاء أنبَلُ الكُتّاب، ومالَ مائلٌ إلَى تفْضيل الْحُسّاب، واحتدّ الحجَاجُ، وامتدّ اللّجَاجُ (٥)، حَتَّى إذَا لَمْ يبْقَ للجدال مَطرَحٌ، ولاَ للمراء مسرَحٌ، قَالَ الشَّيْخُ: لَقَدْ أكثَرْتُم يَا قَوْمُ اللَّغَطَ (٦)، وأثَرْتُمُ الصّوابَ والغلَطَ، وإنّ جَليّةَ الْحكم عندي، فارتَضوا بنقْدي، ولاَ تستَفْتوا أحداً بعْدي، اعلَمُوا أَنَّ صنَاعَةَ الإنْشاء أرْفَعُ (٧)، وصناعَةَ الحسَاب أنفَعُ، وقلَمَ الْمُكاتَبَة خاطبٌ، وقلَمَ الْمُحاسَبَة حاطبٌ، وأساطيرَ البَلاغَة تُنسَخُ لتُدْرَسَ، ودَسَاتيرَ (٨) الْحُسْبانات تُنسَخُ وتُدرَسُ، والْمُنشئُ (٩) جُهينَةُ الأخْبار، وحقيبةُ الأسْرار، ونَجيُّ العُظَمَاء، وكَبيرُ النُّدَمَاء (١٠)، وقلَمُهُ لسَانُ الدَّوْلَة، وفَارسُ الجوْلَة، ولُقْمانُ الحكْمَة، وتَرْجُمانُ الْهمَّة، وهُوَ البَشيرُ والنَّذيرُ، والشَّفيعُ والسَّفيرُ (١١)، به تُستَخْلَصُ الصَّيَاصي(١٢)، وتُملَكُ النّواصي، ويُقتادُ

---

(١) شخصه. (٢) للتَّحَدُّث.

(٣) المظلوم. (٤) كتابة الإنشاء والحساب.

(٥) طال التردد والخصام. (٦) كثرة الكلام. (٧) أعلى رتبة.

(٨) جمع دستور، وهو: النسخة التي يقع منها التحرير.

(٩) ديوان الرسائل الذي يُنْشِئُ الكتب. (١٠) جمع نديم، وهو المجالس على الشَّرَاب.

(١١) المتوسط في الصُّلْحِ بين القوم. (١٢) الحِصْن والقلعة.

العاصي، ويُستَدنى القَاصِي، وصَاحِبُهُ بريءٌ من التَّبِعَات، آمنٌ كَيْدَ السُّعَاة(١)، مُقَرَّظٌ (٢) بَيْنَ الـجَمَاعَات، غيرُ معرَّضٍ لنَظْمِ الجْماعات، فَلَمَّا انتهى فِي الفصْلِ إِلَى هَذَا الفصْلِ، لَحَظَ (٣) منْ لَمحَاتِ القَوْمِ أَنَّهُ ازْدَرَعَ حُبّاً وبُغْضا، وأرْضى بعْضاً وأحفَظَ (٤) بعْضاً، فَعَقَّبَ كلامَهُ بأنْ قَالَ: إلاَّ أَنَّ صِنَاعَةَ الحْسَابِ مَوضُوعَةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ، وصِنَاعَةَ الإنشاءِ مبنيّةٌ عَلَى التّلْفيقِ، وقلَمَ الحَاسِبِ ضابِطٌ (٥)، وقلمَ الْمُنْشِئ خَابِطٌ (٦)، وبينَ إتاوَةِ توظيفِ الْمُعَامَلات، وتلاوَةِ طَوَاميرِ السِّجِلاَّت، بَوْنٌ (٧) لا يُدرِكُهُ قِياسٌ، ولاَ يعْتَورُهُ التِبَاسٌ، إذِ الإتاوَةُ تَمْلأُ الأكْيَاسَ، والتِّلاوَةُ تـفَرِّغُ الرّاسَ، وخَراجُ الأوَارِجِ يُغْني النّاظِرَ، واستِخْراجُ الْمَدارِجِ يُعَنّي الناظِرَ، ثُمَّ إنَّ الحْسَبَةَ حفَظَةُ الأموالِ، وحَمَلَةُ الأثْقالِ، والنّقَلَةُ الأثْباتُ، والسّفَرَةُ الثِّقاتُ (٨)، وأعْلامُ الإنْصافِ، والانْتصَافِ، والشُّهودُ الْمَقانِعُ فِي الاختلاف، ومنهُمُ الْمُستَوْفي الَّذي هُوَ يَدُ السُّلطانِ، وقُطْبُ الدِّيوانِ (٩)، وقِسْطَاسُ الأعمالِ، والْمُهَيْمِنُ (١٠) عَلَى العُمَّالِ، وإليْهِ الْمَآبُ فِي السِّلْمِ والهرْجِ، وعلَيْهِ الْمَدارُ فِي الدّخْلِ والخَرْجِ، وبِهِ مَنَاطُ (١١) الضّرّ والنَّفْعِ، وفِي يَدِهِ رِبَاطُ الإعْطَاءِ والْمَنْعِ، ولَوْلا قلَمُ الْحُسّابِ، لأوْدَتْ (١٢) ثمرَةُ الاكتسَابِ، ولاتّصَلَ التّغابُنُ إلَى يومِ الحِسابِ، ولكَانَ نِظامُ الْمُعامَلاتِ مَحْلولاً، وجُرْحُ الظُّلاماتِ مَطْلُولاً، وجِيدُ التّناصُفِ مغْلولاً، وسَيْفُ التّظالُمِ مسْلُولاً، عَلَى أَنَّ يَرَاعَ

(١) أصحاب النميمة.
(٢) ممدوح.
(٣) فَهِمَ.
(٤) أغضب.
(٥) حافظ.
(٦) يخطئ ويُصيب.
(٧) فرق بعيد.
(٨) جمع ثقة، وهو: العدل.
(٩) الذي عليه مدار الديوان.
(١٠) الأمين والشّاهد والرّقيب.
(١١) مربط ومتعلق.
(١٢) لاضمحلّت وضاعت.

الإنْشاء متقولٌ (١)، ويَراعُ الحِساب متأوِّلٌ، والـمُحاسِبُ مناقِشٌ، والـمُنشئُ أَبُو بَراقشَ، ولكلَيْهما حُمَةٌ حينَ يرقَى، إلَى أَنْ يُلْقَى(٢) ويُرْقَى، وإعْنَاتٌ (٣) فيمَا يُنْشا، حَتَّى يُغْشَى (٤)، ويُرْشى، إلا الذينَ آمَنوا وعملوا الصّالحِاتِ وقَليلٌ مَا هُمْ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا أمْتَعَ الأسْماعَ، بمَا راقَ وراعَ، اسْتَنْسبْنَاهُ(٥) فاستَرابَ، وأبَى الانتسَابَ، ولَوْ وجَدَ مُنْساباً لانْسابَ، فحصَلْتُ منْ لبْسهِ عَلَى غُمّة، حتَّى ادّكَرْتُ بعْدَ أمَّة (٦)، فقُلْتُ: وَالَّذي سخّرَ الفلَكَ الدَّوَّارَ، والفُلْكَ السَّيَّارَ، إنِّي لأجدُ ريحَ أبي زَيْد، وإنْ كنتُ أعهدُهُ ذا رُواء(٧) وأيْد، فتبسَّمَ ضَاحكاً من قوْلي، وقَالَ: أنَا هُوَ عَلَى استِحالَة حالي وحوْلي، فَقُلْتُ لأصحابي: هـٰذَا الَّذي لا يُفْرَى فريُّهُ، ولاَ يُبارَى(٨) عبقَريُّهُ، فخطَبوا منْهُ الودّ، وبذَلوا لَهُ الوُجْدَ (٩)، فرَغبَ عنِ الأُلفَة، ولَمْ يرْغَبْ في التُّحْفَة، وقَالَ: أَمَّا بعْدَ أَنْ سَحَقْتُمْ حقِّي، لأجلِ سَحْقي (١٠)، وكسفْتُمْ بالي، لإخْلاقِ سرْبَالي، فَمَا أراكُمْ إلا بالعَينِ السَّخينَةِ (١١)، ولاَ لكُمْ منِّي إلا صُحْبَةُ السَّفينة، ثُمَّ أنْشَدَ:

اسْمَعْ أُخَيَّ وَصيَّةً منْ نَاصِحٍ ... مَا شَابَ مَحْضَ النُصْحِ منه بغِشّه
لا تَعجَلَنْ بقَضيَّةٍ مَبْتوتَةٍ (١٢) ... في مَدْحِ مَنْ لَمْ تَبلُهُ أَوْ خدْشه

---

(١) مفتر كاذب.
(٢) إلى أن يُرْمَى ويطرح من درجته.
(٣) تعب ومشقة وتكَلُّف.
(٤) يقصد.
(٥) سألناه عن نسبه.
(٦) بعد حين من الزمان.
(٧) صاحب منظر حسن وقُوَّة.
(٨) لا يُعَارَضُ ولَا يُجَارَى.
(٩) بالضَّمِّ؛ المال الموجود.
(١٠) بعد أن هتكتم عرضي لأجل خلق ثوبي.
(١١) أي الحزينة الباكية.
(١٢) بحكم مقطوع به.

وقف القضيّة فيه حتّى تجْتَلي[١] وصَفيْه في حالَيْ رضاهُ وبطْشه
ويَبينَ خُلّبُ برْقه منْ صدْقه للشّائمينَ[٢] ووبْلُهُ منْ طَشّه
فهُناكَ إنْ ترَ مَا يَشينُ فواره كرَماً وإنْ ترَ مَا يَزينُ فأفْشه
ومن اسْتَحقّ الارْتقاءَ فَرَقّه[٣] ومن اسْتحطّ فحُطّهُ في حشّه
واعلَمْ بأنّ التِّبرَ[٤] في عرْق الثّرَى خاف إلَى أنْ يُستَثارَ[٥] بنَبْشه
وفَضيلةُ الدّينار يظهَرُ سرُّهَا منْ حَكّه لا منْ مَلاحَة نقْشه
ومنَ الغَبَاوة أنْ تعظّمَ جاهلاً لصقال ملبَسه ورونَق رَقْشه[٦]
أو أنْ تُهينَ مهذّباً في نفسه لدُروس بزّته ورثّة فُرْشه
ولَكَمْ أخي طمْرَينِ هيبَ لفضْله ومفَوّف البُرْدَين عيبَ لفُحْشه
وإذا الفتى لَمْ يغْشَ عَاراً لَم تَكنْ أسْمالُهُ إلاّ مَرَاقي عَرْشه
ما إنْ يضُرُّ العَضْبُ[٧] كَوْنُ قرابه خلَقاً ولاَ البَازي[٨] حَقَارَةُ عُشّه

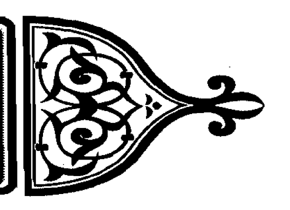
ثُمَّ مَا عتَّمَ أنِ استَوْقَفَ الْمَلاَّحَ، وصَعَدَ منَ السَّفينة وسَاحَ، فندمَ كُلٌّ منَّا عَلَى مَا فَرَّطَ في ذاته، وأغْضى جفْنَه عَلَى قَذَاته[٩]، وتَعَاهَدْنَا عَلَى أَنْ لاَ نَحْتَقرَ شخْصاً لرَثَاثَة بُرْده، وأَنْ لا نَزْدَري[١٠] سَيْفاً مَخْبوءاً في غمده.

۞۞۞

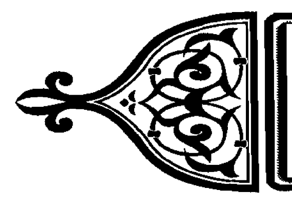


---

(١) تكشف وتختبر.
(٢) الناظرين الرّاقبين.
(٣) فارفعه وأَعْلِ قدره.
(٤) هو الذّهب قبل أن يسبك.
(٥) يستخرج.
(٦) حُسْن زينته.
(٧) السّيْف.
(٨) الصّقْر.
(٩) ما في جفنه من وسخ الغبار.
(١٠) نحتقر.



الْمَقَامَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ الشِّعْرِيَّةُ



حكَى الْـحَارِثُ بْنُ هَـمَّامٍ قَالَ: نَبا بِي مَأْلَفُ الوَطَنِ (١)، فِي شَرْخِ الزَّمنِ، لخَطْبٍ (٢) خُشِيَ، وَخَوف غَشِيَ، فـأرَقْتُ كأسَ الكَرى، ونَصَصْتُ رِكَابَ السُّـرَى، وجُبْتُ (٣) فِي سَيْـري وُعوراً لم تُدَمِّثْـها (٤) الْـخُطى، ولاَ اهْتَدَتْ إِلَيْـهَا القَطا، حَـتَّى ورَدْتُ حمَى الْـخِـلافَةِ، والحَرَمَ (٥) العَاصِمَ من الْـمَخَافَـةِ، فسَرَوْتُ إيجَاسَ (٦) الرَّوْعِ واستِشْعارَهُ، وتَـسربَلْتُ لِباسَ الأمْنِ وشِعارَهُ، وقصَرْتُ همِّي عَلَى لذّةٍ أجتَنيهَا (٧)، ومُلْحَةٍ أجْتَليها، فبرَزْتُ يوْماً إِلَى الحَرِيمِ لأرُوضَ طرْفي، وأُجيلَ فِي طُرَقِهِ طَرْفي، فَإِذَا فُرْسانٌ مُتَتَالُونَ(٨)، ورِجالٌ مُنثالونَ، وشيْخٌ طويلُ اللّسانِ، قصيرُ الطّيلَسانِ، قَدْ لَبَّبَ فتًى جَديدَ الشّبـابِ، خلَقَ الجِلْبـابِ، فركَضْتُ فِي إثْـرِ النَّظَّارَةِ (٩)، حَتَّى وافَـيْنا بابَ الإمارَةِ، وهُناكَ صَاحِبُ الْـمَعونَةِ متربِّعاً فِي دَسْتِهِ (١٠)، ومُروِّعاً بسَمْتِه(١١).

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: أعزَّ اللهُ الْوَالِيَ، وجعلَ كَـعْبَهُ العَالِيَ، إنِّي كَفَلْتُ هَـذَا

---

(١) حب المنزل.

(٢) لأمرٍ عظيم.

(٣) قطعت.

(٤) لم تسهلها وتلينها.

(٥) موضع الأمن.

(٦) توهم وإحساس.

(٧) أتناولها.

(٨) متتابعون.

(٩) عقب الناظرين لما يفعل به.

(١٠) مرتبته.

(١١) هيئته ووقاره.

الغُلامَ فَطيماً، وربّيتُه يَتيماً، ثُمَّ لَمْ آلُهُ تعْليماً، فَلَمَّا مهرَ (١) وبَهَرَ، جَرَّدَ سَيْفَ العُدْوَانِ وشَهَرَ، ولَمْ إخَلْهُ يلْتوي (٢) عَلَيَّ ويتّقِحُ، حينَ يرتَوي مِنِّي ويلْتَقِحُ.

فَقَالَ لَهُ الفتى: عَلامَ عثَرْتَ (٣) منِّي، حَتَّى تنشُرَ هَذَا الخِزْيَ عني؟ فوَالله مَا سترْتُ وجْهَ برِّكَ، ولاَ هتكْتُ حِجابَ سِترِكَ (٤)، ولاَ شقَقْتُ عَصا أمرِكَ، ولاَ ألغَيْتُ تلاوَةَ شُكْرِكَ.

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: ويلَكَ وأيُّ رَيْبٍ أخْزى مِنْ رَيْبِكَ، وهلْ عيبٌ أفحَشُ مِنْ عيبِكَ؟ وقدِ ادّعيتَ سِحْري واستَلْحَقتَهُ (٥)، وانتحلْتَ شعْري واستَرَقْتَهُ؟ واستِراقُ الشّعرِ عندَ الشّعراء أفظَعُ (٦) مِنْ سرِقَةِ البَيْضاء والصَّفْراء، وغَيرَتُهُمْ عَلَى بَنات الأفكارِ كغيرَتِهِمْ عَلَى البَنات الأبكارِ، فَقَالَ الْوَالي للشّيخِ: وهلْ حينَ سرَقَ سلَخَ أم مسخَ، أم نسَخَ؟ فَقَالَ: وَالَّذي جعلَ الشّعْرَ ديوانَ العرَبِ، وتَرْجُمانَ الأدَبِ، مَا أحْدَثَ سوى أَنْ بترَ شمْلَ شرْحه (٧)، وأغارَ عَلَى ثُلُثَيْ سَرْحِهِ، فَقَالَ لَهُ: أنْشِدْ أبياتَكَ برُمَّتِها (٨)، ليتَّضِحَ مَا احتازَهُ مِنْ جُملَتِها، فأنشدَ:

يا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إنَّهَا ... شَرَكُ الرَّدَى(٩) وقَرارَةُ الأكْدارِ
دارٌ متى مَا أضْحكتْ في يومِهَا ... أبْكَتْ غداً بُعْداً لَهَا مِنْ دارِ
وإذا أظَلَّ سَحَابُها لم ينتَقِعْ ... منْه صَدًى لجَهامِه(١٠) الغرَّارِ

---

(١) صار ماهرًا حاذقًا.
(٢) يستعصي.
(٣) على أي شيء وقع منِّي اطلعت عليه.
(٤) ما أذعت عنك مكروهًا تنتهك به حرمتك.
(٥) ادَّعيته لنفسك.
(٦) أقبح وأشنع.
(٧) اجتماع فرائده.
(٨) بجملتها.
(٩) الموقعة في الهلاك.
(١٠) الجَهَام: السَّحاب الذي هراق ماءه.

غَـارَاتُهـا مَـا تنْـقَـضي وأسيـرُهَا (١) لا يُـفـتَـدَى بجَـلائلِ الأخْـطَار
كـمْ مُـزْدَهًـى بغُـرورها حَـتَّى بَـدا مُـتَـمَـرِّداً (٢) مُـتَجَـاوزَ المقْـدَار
قلَبَتْ لَـهُ ظَهْرَ الْـمِجَنِّ (٣) وَأَولَغَتْ فيـه الْـمُـدى ونزَتْ لأخْذ الثَّار
فَـاربأ بعُـمرِكَ أَنْ يَـمُرَّ مُضَيَّـعاً فيهَـا سُدًى منْ غَير مَـا استظهَـار
واقْطَعْ عَـلائقَ (٤) حُبِّهَا وطِلابهَـا تـلْقَ الْـهُدى ورَفَـاهَـةَ الأسْرَار (٥)
وارْقُبْ إذَا مَـا سَالَمَتْ من كَيـدهـا حَـرْبَ العَـدَى وَتوثُّـبَ الغَـدَّار
واعْـلَمْ بـأنَّ خُـطوبَـهـا تـفْـجَـا ولَـوْ طَالَ الْـمَـدَى وونَتْ سُرَى الأقْدَار

فَقَالَ لَهُ الْوَالي: ثُمَّ ماذا صنعَ هذا؟ فَقَـالَ: أَقْدَمَ للُؤمِه فِي الْـجزاء عَلَى أبْياتيَ السُداسـيّة الأجْزاء، فحذَفَ منها جُزْأَيْـنِ، ونقَصَ مِنْ أوزانِها وزْنَين، حَتَّى صارَ الرزْء فِيـهَا رُزْأَيْن، فَقَالَ لَهُ: بيِّنْ مَا أخذَ، ومـنْ أينَ فلَذَ؟ فَقَالَ: أرْعِني سمْعَكَ، وأخْلِ للتّفهُّمِ عنِّي ذَرْعَكَ (٦)، حَتَّى تَتَبيَّنَ كَيفَ أصلَتَ (٧) عليّ، وتقْدُرَ قَدْرَ اجْترامه إلَيَّ، ثُمَّ أنْشَدَ، وأنفاسُهُ تَتصَعَّدُ (٨):

يـا خَـاطِبَ الـدُّنْـيَـا الـدّنـيَّـ ـةِ إنَّـهَـا شَـرَكُ الـرَّدَى
دارٌ مَـتـى مَـا أضْـحَـكَـت فِي يـومِـهَـا أبْكَـتْ غَـدا
وإذا أظَـلّ سَـحَـابُـهَـا لَـم ينـتَـقِـعْ مِنْه صَـدَى
غَـارَاتُـهَـا مَـا تـنْـقَـضـي وَأَسِيـرُهَـا لا يُفْـتَـدَى
كَـمْ مُـزْدَهًـى بِـغُـرورِهَـا حَـتَّـى بَـدا مُـتَـمَـرِّدا
قَـلَـبَـتْ لَـهُ ظَـهْـرَ الْـمِجَـ ـنّ وأولَـغَـتْ فِـيـهِ الْـمُـدَى

(١) مملوكها وهو المتشبث بها الطامع فيها.
(٢) متجاوز الحدّ في الفساد.
(٣) أي: تغيّرت عليه وساءته.
(٤) أسباب.
(٥) البواطن والقلوب.
(٦) صدرك وقلبك.
(٧) جرّده وسله.
(٨) تعلو إلى فوق من الغيظ.

فاربأ بعمرك أن يمر ... مضيعاً فيها سدى
واقطع علائق حبها وطلابها ... تلق الهدى
وارقب إذا ما سالمت ... من كيدها حرب العدى
واعلم بأن خطوبها ... تفجا ولو طال المدى

فالتفتَ الْوَالِي إلَى الغُلام وقَالَ: تباً لَكَ مِنْ خِرّيجٍ مَارِقٍ(١)، وتِلْميذٍ سارِقٍ! فَقَالَ الفَتَى: بَرِئتُ (٢) مِنَ الأدَبِ وبَنِيهِ، ولحقتُ بمَنْ يُناويه، ويقوّضُ مبانيه، إنْ كانتْ أبياتُهُ نَمَتْ(٣) إلَى عِلْمِي، قَبْلَ أَنْ أَلّفتُ نظْمي، وإنّما اتّفقَ توارُدُ الْخَواطِرِ(٤)، كَمَا قَدْ يقعُ الْحافِرُ عَلَى الْحافِرِ، قالَ: فكأنَّ الْوَالِي جوَّزَ صِدْقَ زَعْمه(٥)، فندمَ عَلَى بادرَةِ ذمّه، فظَلّ يُفكّرُ فِي مَا يكْشفُ لَهُ عَنِ الحقَائقِ، ويُمَيِّزُ بِهِ الفَائقَ (٦)، مِنَ الْمَائقِ(٧)، فَلَمْ يرَ إلاَّ أخْذَهُمَا بالْمُناضَلَة، وَلَزَّهُمَا (٨) فِي قَرَنِ الْمُسَاجَلَة، فَقَالَ لهُما: إنْ أرَدْتُمَا افتضَاحَ الْعَاطِلِ، واتِّضَاحَ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، فتَرَاسَلا (٩) فِي النَّظْمِ وتبَارَيا، وتَجَاوَلا فِي حلبَةِ الإجَازَةِ وتَجَارَيا، لِيَهْلِكَ مِنْ هلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ، ويَحيَا مَنْ حَيَّ عنْ بيّنَةٍ، فَقَالاَ بلِسَانٍ وَاحِدٍ، وَجَوابٍ متوارِدٍ (١٠): قَدْ رَضِينَا بسَبْرِكَ (١١)، فمُرْنا بأمرِكَ.

فَقَالَ: إنِّي مُولَعٌ من أنواعِ البَلاغَةِ بالتَّجْنيسِ(١٢)، وَأرَاهُ لها كَالرَّئيسِ،

---

(١) خارجٌ عن الطَّاعَةِ.
(٢) تنحَّيت وانفصلت.
(٣) ارتفعت وبلغت.
(٤) التَّوارد بين الشاعرين.
(٥) قوله.
(٦) الفاضل.
(٧) الأحمق الضعيف التَّدْبير.
(٨) ضمهما.
(٩) تجاريا.
(١٠) متتابع.
(١١) باختيارك.
(١٢) تَنَاسُب اللفظ واختلاف المعنى.

فَانظمَا الآنَ عَشَرَةَ أبيَاتٍ تُلحِمَانها بوَشْيِه، وتُرَصِّعَانها بحَلْيِه، وَضَمِّناها شَرْحَ حَالِي(١)، مَعَ إلْفٍ لِي بَدِيعِ الصِّفَة(٢)، ألْمَى الشّفَة، مَلِيحِ التَّثَنِّي، كَثِيرِ التِّيهِ والتَّجَنِّي، مُغْرًى بتَناسِي العَهْدِ(٣)، وإطالَةِ الصَّدِّ، وإخْلَافِ الوَعْدِ، وأنا لَهُ كالعَبْدِ.

قَالَ: فبرَزَ الشَّيْخُ مُجَلِّيا، وتلاهُ الفَتى مُصَلِّيا، وتجارَيا(٤) بيْتاً فبَيْتاً عَلَى هَذَا النَّسَقِ، إلَى أَنْ كمُلَ نظْمُ الأبياتِ واتَّسَقَ، وهيَ:

وَأحْوَى حَوَى رِقِّي(٥) برِقَّةِ ثغْرِه ... وغَادَرَني إلْفَ السُّهَادِ(٦) بغَدْرِه
تصَدَّى لقَتْلي بالصُّدُودِ(٧) وإنَّني ... لَفي أَسْرِه مُذْ حَازَ قلبي بأسْرِه
أصَدّقُ منْهُ الزّورَ خوفَ ازْوِراره(٨) ... وأرْضى اسْتمَاعَ الْهُجرِ خَشْيَة هَجْرِه
وأستَعْذِبُ التّعْذيبَ منْهُ وكُلَّمَا ... أجَدَّ عَذَابي جَدَّ بي حُبُّ بِرِّه(٩)
تَناسَى ذِمَامي والتَّنَاسي مَذَمّةٌ ... وَأحْفَظَ قَلْبي وهْوَ حَافظُ سِرَّه
وَأعْجَبُ مَا فيه التَّبَاهي بعُجْبه ... وَأكْبِرُهُ عنْ أَنْ أَفُوهَ(١٠) بكِبرِه
لهُ منِّيَ الْمَدْحُ الَّذي طَابَ نشْرُهُ ... ولي منْهُ طيُّ الودّ من بعْد نشْرِه(١١)
وَلَوْ كَانَ عدلاً مَا تجنَّى وَقَدْ جَنَى ... عَلَيَّ وَغَيْرِي يَجتَني رَشْفَ ثغرِه(١٢)
ولوْلا تثَنّيه ثنَيْتُ أَعنَّتي ... بداراً إلَى منْ أجْتَلي نُورَ بدرِه
وإنِي عَلَى تصْريفِ أمْري وَأمْرِهِ ... أَرَى الْمُرَّ حُلْواً فِي انْقيَادي لأمْرِه

(١) اجعلاها محتوية على إظهار ما في نفسي.
(٢) غريب الوصف.
(٣) مولع بنسيان الصُّحْبَة.
(٤) تسابقا.
(٥) حاز ملكي واسترقني.
(٦) مصاحب السَّهر.
(٧) بالإعراض عنِّي.
(٨) انحرافه ومَيْله عنِّي.
(٩) أي إحسانه.
(١٠) أنطق.
(١١) أي: بسطه.
(١٢) مصّ مبسمه.

فَلَمَّا أنْشَدَاهَا الْوَالِي مُتَرَاسِلَينِ(١)، بُهِتَ لذَكاءِيهِما الْـمُتعادلَين، وقَالَ: أشْهَدُ بالله أنَّكُما فرْقَدَا سَماءٍ، وكَزَنْدَينِ فِي وِعَاءٍ، وأنَّ هَـٰذَا الحَدَثَ (٢) لَيُنْفِقُ ممَّا آتاهُ اللهُ، ويستَغْنِي بوُجْدِهِ عمَّنْ سِواهُ، فتُبْ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنِ اتِّهامِه، وثُبْ إلَى إكْرامِهِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: هَيْهَاتَ أَنْ تُراجِعَهُ مِقَتِي(٣)، أَوْ تعْلَقَ بِه ثِقَتِي! وقدْ بلَوْتُ كُفْرانَهُ للصَّنيعِ، ومُنيتُ (٤) منْهُ بالعُقُوقِ (٥) الشَّنِيعِ.

فَاعتَرَضَهُ الْفَتَى، وقَالَ: يَا هَـٰذَا إنَّ اللَّجاجَ شُؤمٌ، والحنَقَ لُؤمٌ، وتَحْقِيقَ الظِّنَّةِ إثْمٌ، وإعْناتَ البَرِيءِ ظُلْمٌ، وهَبْنِي اقْتَرَفْتُ جَرِيرةً (٦)، أوِ اجْتَرَحْتُ كَبِيرةً، أمَا تَذْكُرُ مَا أنشَدْتَنِي لنفسِكَ، فِي إبَّانِ أُنسِكَ:

سَامِحْ أخَاكَ إذَا خَلَطْ ... مِنْهُ الإصَابَةَ بالغَلَطْ
وتَجافَ عنْ تعْنِيفِهِ ... إنْ زَاغَ (٧) يَوماً أَوْ قسَطْ
واحفَظْ صَنِيعَكَ عنْدَهُ ... شكرَ الصَّنِيعَةَ أم غمَطْ (٨)
وأطِعْهُ إنْ عَاصَى وهُنْ ... إنْ عَزَّ وادْنُ إذَا شَحَطْ
واقْنَ الوَفَاءَ ولَوْ أخَـ ... ـلَّ بمَا اشتَرَطْتَ ومَا شرَطْ
واعْلَمْ بأنَّكَ إن طلَبْـ ... ـتَ مُهَذَّباً (٩) رُمتَ الشَّطَطْ (١٠)
منْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَـ ... ـطُّ ومَنْ لَهُ الْحُسْنَى فقطْ

(١) متتابعين.
(٢) أي: الشاب.
(٣) محبَّتِي.
(٤) بليت.
(٥) بالقطيعة.
(٦) اكتسبت ذنبًا.
(٧) مالَ عنك.
(٨) غمط النعمة: كفرها، واستحقرها وجحدها.
(٩) مخلصًا من النَّقْص.
(١٠) طلبت ما لا يُنَالَ.

أوَمَا تَرى الْمَحْبُوبَ والْـ ـمَكروهَ لُزًّا (١) في نَمَطْ
كَالشَّوْكِ يبْدُو في الغُصُو نِ مَعَ الجَنيِّ الْمُلْتَقَطْ (٢)
ولَذَاذَةُ العُمرِ الطَّويـ ـلِ يَشُوبُها نغَصُ الشَّمَطْ (٣)
ولو انتقَدْتَ بَني الزَّما نِ وجَدتَ أكثرَهُم سَقَطْ
رُضْتُ البَلاغَةَ والبَرا عَةَ والشّجاعَةَ والخطَطْ (٤)
فوجَدتُ أحسَنَ مَا يُرى سبْرَ العُلومِ معاً فقطْ

قال: فجعَلَ الشَّيْخُ يُنَضْنِضُ (٥) نضْنَضَةَ الصِّلِّ (٦)، ويُحملقُ حملَقَةَ الْبَازي الْمُطِلِّ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذي زيَّنَ السّماء بالشُّهُبِ، وأنزلَ الْمَاءَ منَ السُّحُبِ، مَا رُوْعي عنِ الاصْطِلاحِ، إلا لتَوَقِّي الافْتِضَاحِ (٧)، فإنَّ هَذَا الفَتَى اعْتَادَ أَنْ أمونَهُ، وأُراعيَ شُؤونَهُ (٨)، وقد كَانَ الدَّهْرُ يسُحّ، فَلَمْ أكُنْ أشُحّ، فأمّا الآنَ فالوقْتُ عَبُوسٌ، وَحَشْوُ العيْشِ بُوسٌ (٩)، حى إنَّ بِزّتي هذه عَارَةٌ (١٠)، وبيْتي لا تَطورُ به فارَةٌ. قَالَ: فرَقَّ لَمقَالهمَا قَلبُ الْوَالي، وأَوَى لهُمَا منْ غيَرِ اللَّيَالي، وَصَبَا إلَى اخْتِصَاصِهِمَا بالإسْعَافِ، وأمرَ النَّظَّارَةَ بالانصرَافِ.

قَالَ الرَّاوي: وكُنتُ متشوِّفاً (١١) إلَى مرْأى الشيخِ لعلّي أعلَمُ علِمَهُ، إذَا عاينْتُ وَسْمَهُ، ولَمْ يكُنِ الزّحامُ يسفرُ عنْهُ، ولاَ يُفرَجُ لي فأدنوَ منه، فَلَمَّا تَقَوَّضَتِ (١٢) الصُّفُوفُ، وأجْفَلَ الوُقُوفُ، توسّمْتُهُ فَإذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ وَالْفَتَى

---

(١) قُرنَا ورُبطَا.
(٢) المأخوذ من الأغصان.
(٣) هو اختلاطُ بياض الشَّيْبِ بالسَّوَادِ.
(٤) جمع خطة ـ بالكسر ـ وهي: الطريق.
(٥) يحرِّك لسانه.
(٦) الحية التي لا تقبل الرقية.
(٧) التحفظ من الفضيحة.
(٨) أحفظ أحواله.
(٩) ضر وشدَّة.
(١٠) عارية.
(١١) كنت متطلعًا.
(١٢) فلما تفرَّقت.

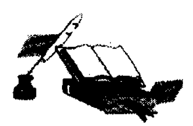
فتاهُ، فعرَفْتُ حينَئذٍ مَغزاهُ فِي مَا أتاهُ، وكِدْتُ أنقَضُّ [١] عليه لأستعْرِفَ إلَيه، فَزَجَرَني بإيْمَاضِ طَرفِهِ، واستَوقفَني بإيْمَاءِ كَفِّهِ، فلزِمْتُ موقفي، وأخَّرْتُ منصَرَفي، فَقَالَ الْوَالِي: مَا مَرامُكَ، ولأي سَبَبٍ مُقامُكَ؟ فَابْتَدَرَهُ [٢] الشَّيْخُ وَقَالَ: إنَّهُ أنيسي، وصاحبُ ملْبوسي، فَتسمَّحَ عندَ هَذَا القَول بتأْنيسي[٣]، ورَخَّصَ[٤] فِي جُلوسِي، ثُمَّ أفَاضَ عَليهِمَا خِلْعَتَينِ[٥]، ووَصَلَهُمَا بنصَابٍ مِنَ العَيْنِ، واستَعْهَدَهُمَا أنْ يَتَعَاشَرا بالمَعْرُوفِ، إلَى إظْلالِ الْيَومِ المَخوفِ[٦]، فَنَهضَا منْ نَاديه، مُنشدَيْنِ بشُكْرِ أيَاديه، وتَبعتُهُمَا لأعْرفَ مثواهُمَا، وأتَزوَّدَ مِنْ نَجْوَاهُمَا [٧]، فَلَمَّا أجزْنا حِمَى الْوَالِي، وأفضَيْنا إلَى الفَضَاءِ الْخَالِي، أدرَكَنِي أحَدُ جَلاوزَتِه، مُهيباً بِي إلَى حَوْزَتِه[٨]، فَقُلْتُ لأَبِي زَيْد: مَا أظنّهُ اسْتَحْضَرَني، إلا ليَستَخبِرَني، فَمَاذَا أقولُ، وَفي أيِّ وادٍ معَهُ أجولُ؟ فَقَالَ: بيِّنْ لَهُ غَباوَةَ قلبِه، وتلْعَابي بلُبِّه، ليَعْلَمَ أنَّ ريحَهُ لاقَتْ إعْصَاراً[٩]، وجَدْوَلَهُ صَادَفَ تيَّاراً، فقُلْتُ: أخافُ أنْ يتّقدَ غضَبُهُ، فيلْفَحَكَ لهَبُهُ، أَوْ يَستَشْرِيَ طيْشُهُ [١٠]، فَيَسْرِيَ إليكَ بَطْشُهُ [١١]، فَقَالَ: إنِّي أَرْحَلُ الآنَ إلَى الرُّهَى، وأنّى يلْتَقي سُهَيلٌ والسُّهَى؟ فَلَمَّا حضرتُ الْوَالِيَ وَقَدْ خَلا مجلسُهُ، وانْجَلَى [١٢] تعبُّسُهُ، أخذ يصفُ أَبَا زَيْد وفضلَهُ، ويذُمّ الدَّهْرَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: نَشَدْتُكَ [١٣] اللهَ أَلَسْتَ الَّذي أعَارَهُ الدَّسْتَ؟ فقُلْتُ: لاَ وَالَّذي

---

(١) أنزل وأسقط.
(٢) فسبقه.
(٣) بموانستي وهي ضد الْوَحْشَة.
(٤) وسَّعَ.
(٥) ثوبين.
(٦) حلول يوم الموت.
(٧) حديثهما سرّاً.
(٨) ناحيته.
(٩) الإعصار: ريح شديدة تثير الغبار الذي يستدير كالعمود.
(١٠) خفتّه.
(١١) سطوته.
(١٢) زال تقطّب وجهه.
(١٣) سألتك بالله.

أَحَلَّكَ فِي هَـذَا الدَّسْت، مَا أَنَا بصاحِبِ ذَلِـكَ الدِّسْت، بل أنت الَّذي تمّ عَليـه الدَّسْتُ، فَازْوَرّتْ مُقلَتَاهُ (١)، واحمـرّتْ وجْنَتاهُ، وَقَالَ: والـله مَا أعجزَني قطُّ فضْحُ مُريبٍ، وَلاَ تكْشِيفُ مَعيبٍ، ولكِنْ مَا سمعْتُ بأنّ شيخاً دلَّسَ، بعـدَما تَـطَلَّسَ (٢) وتقلّـسَ، فبهَـذَا تمّ لَـهُ أَنْ لبّسَ، أفتَـدْري أينَ سكَعَ(٣)، ذلك اللُّكَعُ (٤)؟ قُلْتُ: أشفَقَ منْكَ لتعَدّي طَوْرِه (٥)، فظعَنَ عنْ بغْدادَ مِنْ فورِه، فَقَـالَ: لا قَرَّبَ اللهُ لَهُ نَوَى، وَلاَ كَلأَهُ (٦) أيْنَ ثَوَى، فَمَا زاوَلْتُ أشَدّ مِنْ نُكرِه، وَلاَ ذُقْتُ أمَرَّ مِنْ مكْرِه، ولوْلا حُرمَةُ أدبه، لأوْغَلْتُ فِي طَلَبِه، إلَى أَنْ يقَعَ فِي يَدِي فأُوقِعَ بِه، وَإِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ تَشيعَ فَعْلتُهُ بمَدينَة السَّلاَمِ، فَأَفْتَضِحَ بَيْنَ الأنامِ، وَتَحْبَطَ (٧) مكَانَتِي عندَ الإمامِ، وأصيرَ ضُحْكَةً بين الخَاصّ والعامّ، فعاهَدني عَلَى أَنْ لاَ أَفُوهَ (٨) بِمَا اعتَمَدَ، مَا دُمْتُ حِلاًّ بِهَذَا البلَدِ.

قَالَ الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَعَـاهَدْتُه مُعاهدَةَ مِنْ لا يَتأَوَّلُ (٩)، ووَفَيْتُ لَهُ كَمَا وَفَى السَّمَوْأَلُ.



---

(١) انقلبت ومالت عيناه.

(٢) لبس الطيلسان وهو: لباس الخواص.

(٣) ذهب وتوجه وسار.

(٤) اللئيم الدَّنِيء الْقَدْرِ.

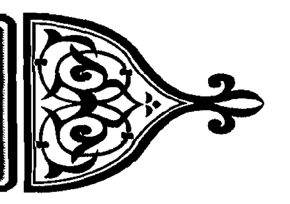
(٥) أي لتجاوز حدّه.

(٦) حفظه.

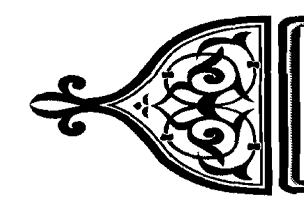
(٧) تبطل وتفسد.

(٨) أتفوه وأتكلم.

(٩) يطلب التأويل في نقض العهد.



المَقَامَةُ الرَّابِعَةُ والعِشْرُونَ
القَطِيعِيَّةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: عَاشَرتُ بقطيعَةِ الرَّبِيعِ، فِي إبّانِ الرَّبِيعِ، فِتيةً وجوهُهُمْ أبلَجُ من أنوارِهِ (١)، وأخلاقُهُمْ أبهَجُ مِن أزهارِهِ، وألفاظُهُمْ أرقُّ مِنْ نَسيمِ أَسْحَارِه(٢)، فاجتَلَيْتُ منهُمْ مَا يُزْرِي(٣) عَلَى الرَّبِيعِ الزّاهِرِ، ويُغْنِي عَنْ رنّاتِ الْمَزاهِرِ، وكُنَّا تَقَاسَمْنَا (٤) عَلَى حِفْظِ الودَادِ، وحَظْرِ الاستِبْدادِ، وأن لا يتفرّدَ أحدُنا بالتذاذ، ولاَ يستأثرَ ولَو برَذاذ، فأَجْمَعْنا فِي يَومٍ سَمَا دَجْنُهُ (٥)، ونَمَا(٦) حُسنُه، وحكَمَ بالاصْطِبَاحِ مُزْنُهُ، عَلَى أَنْ نَلتَهِي بالْخُروجِ إلَى بَعْضِ الْمُرُوجِ، لنُسرِّحَ النَّواظرَ (٧) فِي الرِّيَاضِ النَّواضِرِ، ونَصقُلَ (٨) الخواطِرَ بشَيْمِ الْمَواطِرِ، فبرَزْنا ونَحْنُ كالشُّهُورِ عِدَّةً (٩)، وكَنَدْمانَي جَذِيمَةَ مَوَدَّةً، إلَى حَدِيقَة أخذَتْ زُخرُفَها وازيَّنَتْ، وتنوّعتْ أزاهيرُها وتَلوَّنَتْ، ومَعَنا الكُمَيتُ الشَّمُوسُ، والسُّقاةُ الشُّمُوسُ، والشَّادي(١٠) الَّذي يُطرِبُ السَّامِعَ ويُلهِيه، ويَقْرِي كُلَّ سمعٍ مَا يشتَهيه، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ بِنَا الْجُلوسُ، ودَارَتْ علَيْنا الكُؤوسُ، وَغَلَ علَيْنا ذِمرٌ (١١) عليه

(١) أضوأ من أزهار الرَّبيع.
(٢) جمع سَحَر - بالتَّحْريك - وهو آخر الليل.
(٣) أزرى عليه: عابه.
(٤) تحالفنا.
(٥) ارتفع غيمه.
(٦) زاد.
(٧) لننزه العيون.
(٨) نَجْلو.
(٩) أي خرجنا ونحن اثنا عشر شخصًا.
(١٠) المُغَنِّي.
(١١) بكسر الذال؛ أي: الشجاع.

طِمْرٌ، فتجهَّمْناهُ (١) تجهُّمَ الغيدِ الشَّيبَ، ووجَدْنا صفْوَ يومنا قَدْ شِيبَ (٢)، إلا أَنَّهُ سلّمَ تسليمَ أُولِي الفَهْمِ، وجلسَ يَفُضّ لَطائمَ النّثْرِ والنّظْمِ، ونَحْنُ نَنْزَوِي (٣) مِن انبِسَاطِهِ، ونَنْبَرِي لطَيٍّ بِسَاطِهِ، إِلَى أَنْ غَنَّى شَادِينا الْـمُغْرِبُ، وَمُغَرِّدُنا الْـمُطْرِبُ:

إلامَ سُعادُ لا تَصِلينَ حَبْلي ... ولاَ تأوِينَ (٤) لي مِمَّا أُلاقي
صَبَرْتُ عليك حَتَّى عِيلَ صبْري ... وكادَتْ تبلُغُ الرُّوحُ التَّراقي
وهَا أَنَا قَدْ عزَمْتُ عَلَى انتصَافٍ (٥) ... أُسَاقي فيه خلّي مَا يُسَاقي
فَإِنْ وَصْلاً أَلذُّ به فَوَصْلٌ ... وَإِنْ صَرْماً (٦) فَصَرْمٌ كَالطَّلاقِ

قَالَ: فاسْتَفْهَمْنَا العَابِثَ بِالْـمَثَانِي (٧)، لِمَ نصَبَ الوصْلَ الأوّلَ ورفَعَ الثّاني؟ فأقْسَمَ بتُربَةِ أبَوَيْه، لَقَدْ نطَقَ بِمَا اختارَهُ سِيبَوَيْه، فتشَعَّبَتْ (٨) حينئذٍ آراءُ الجمعِ، في تجويزِ النَّصْبِ والرَّفْعِ. فَقَالَتْ فِرقَةٌ: رفْعُهُما هُوَ الصَّوابُ. وَقَالَتْ طائِفَةٌ: لا يجوزُ فيهما إلا الانتصابُ، واستَبْهَمَ عَلَى آخَرينَ الْجَوابُ، وَاسْتَعَرَ (٩) بينَهُمُ الاصْطِخَابُ، وذلكَ الوَاغِلُ (١٠) يُبْدِي ابتِسَامَ ذي مَعْرِفَةٍ، وإنْ لَمْ يفُهْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، حَتَّى إذَا سكَنَتِ الزّماجِرُ، وصمتَ الْـمزْجورُ والزّاجِرُ. قَالَ: يَا قومُ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بتأويله، وأميِّزُ صَحيحَ القَوْلِ مِنْ عَليلِهِ، إِنَّهُ لَيَجوزُ رفْعُ الوصْلَيْنِ ونصْبُهُما، والْـمُغَايَرَةُ فِي الإعرابِ بينَهُما،

---

(١) استقبلناه بوجهٍ كَرِيهٍ.
(٢) قد خُلِطَ بالْكَدر.
(٣) ننقبِض.
(٤) ترأفين بي وترحميني.
(٥) انتصار للحقِّ.
(٦) قطعًا وهَجْرًا.
(٧) أي: اللاعب بها والمحرِّك لها، وهي أوتار العود؛ لكونها مَثْنَى.
(٨) تفرَّقت واختلفت.
(٩) الْتَهب واشْتَدَّ.
(١٠) الداخل بلا دعوة.

وذلكَ بحسَبِ اختلاف الإضْمارِ، وتقْديـرِ الْـمَحْذوف في هَـذَا الْمِضْمارِ[١].
قَالَ: فـفَرَطَ منَ الْـجَمَـاعة إفْرَاطٌ في مُـمَاراته[٢]، وَانخراطٌ إلَى مُـباراته، فَقَالَ: أمَا إذَا دعوتُمْ نَـزالِ، وتلبّبْتُمْ للنّضالِ، فَمَا كلمَـةٌ هي إنْ شئْتُمْ حرْفٌ محْبوبٌ، أوِ اسْـمٌ لِما فيه حرْفٌ حَلوبٌ؟ وأي اسْمٍ يتـرَدّدُ بيْنَ فَرْدٍ حَازِمٍ[٣]، وَجَمْعٍ مُلازِمٍ؟ وأَيَّةُ هَاءٍ إذَا التَـحقَتْ أماطَت[٤] الثِّقَلَ، وأطلَقَت الْـمُعتقَلَ؟ وأينَ تدخُلُ السِّينُ فتعزِلُ العاملَ منْ غـيرِ أنْ تُجامِلَ؟ وما منْصوبٌ أبَداً عَلَى الظّرْفِ، لا يـخْفضُـهُ سوى حـرْفٍ؟ وأيّ مُضاف أخَـلَّ منْ عُرَى الإضـافَةِ بعُرْوَةٍ، واختلَفَ حُكمُهُ بيْنَ مساءٍ وغُدْوَةٍ[٥]؟ ومَا العَامِلُ الَّذي يتَّصِلُ آخرُهُ بأوّلِه، ويـعمَلُ مـعكوسُهُ مـثْلَ عمَلِـه؟ وأيّ عمَلٍ نائـبُهُ أرْحَبُ منْـهُ وَكْراً، وأعظَمُ مكْراً، وأكثَـرُ لله تَعالى ذِكْراً؟ وَفي أيّ موطِنٍ تلْـبَسُ الذُّكْرانُ براقِعَ النِّسْوانِ، وتَبرُزُ ربَّاتُ الحِـجالِ بعَمائمِ الرِّجالِ؟ وأينَ يجبُ حـفظُ الْـمَراتبِ عَلَى الْمَضْـروبِ والضّارِبِ؟ وما اسْـمٌ لا يُعرَفُ إلا باستـضافَة كلـمتَينِ، أو الاقتصارِ منه عَلَى حرفَينِ، وَفي وَضْـعه الأوَّلِ التزامٌ، وَفي الثّاني إلْزامٌ؟ وما وصْفٌ إذَا أُردِفَ بالنّونِ، نقَصَ صـاحِبُهُ في العُيونِ، وقُـوّمَ بالدُّونِ، وخرَجَ منَ الزَّبونِ، وتعـرّضَ للهُونِ؟ فهَـذه ثنْـتا عشْرَةَ مسألـةً وفْقَ عدَدكُمْ، وزِنَةَ لَدَدكُمْ[٦]، ولو زِدتُمْ زِدْنا، وإنْ عُدْتُمْ عُـدْنا، قَالَ الْـمُخبرُ بهَـذه الحكاية: فورَدَ علَيْنا من أحـاجيه اللاّتي هالَتْ[٧]، لَمّا انْهالَتْ، مَا حارَتْ لَهُ الأفكارُ وحالَتْ، فَلَمّـا أعجزَنا العَوْمُ في بـحرِهِ، واستسْلَمَتْ تَـمائمُنَا[٨] لسِحْرِهِ،

---

(١) الميدان، وهو في الأصل: محل الحرب.
(٢) مجادلته.
(٣) ضابط.
(٤) أزالت.
(٥) بكرة النَّهار.
(٦) وزن خصومتكم الشديدة.
(٧) من الهول، وهو ما يروع.
(٨) جمع تميمة، وهي: العوذة.

عدَلْنا منِ اسْتِثْقال الرّؤيَة لَهُ إلَى استِنْزالِ الرّوايَة عنهُ، ومنْ بَغْيِ التَّبرُّمِ (١) به إلَى ابْتغاءِ(٢) التعلُّمِ منهُ، فقَالَ: والّذي نزّلَ النّحْوَ في الكَلامِ، منزِلَةَ المِلْحِ في الطَّعامِ، وحَجَبَهُ عَنْ بَصائِرِ الطغامِ (٣)، لا أنَلْتُكُمْ مَراماً (٤)، ولاَ شفَيْتُ لكُمْ غَراماً، أوْ تُخوِّلَني كلُّ يدٍ، ويختَصّني كلٌّ منكُم بيَدٍ، فلَمْ يبْقَ في الجْماعةِ إلا منْ أذْعَنَ لحُكمِه، ونبَذَ إلَيْه خُبْأةَ كُمِّه، فلَمَّا حصلَتْ تَحْتَ وكَائهِ (٥)، أضرمَ شُعلَةَ ذكائه، فكشَفَ حينئذٍ عن أَسْرارِ ألْغازِه، وبدائعِ إعْجازِه، مَا جَلا (٦) بهِ صدَأَ الأذْهانِ (٧)، وجَلَّى مَطْلَعَهُ بنورِ البُرْهَانِ (٨).

قَالَ الرَّاوي: فَهِمْنا، حينَ فهِمْنا، وعجِبْنا، إذْ أُجِبْنا، وندمْنا علَى مَا نَدَّ منَّا (٩)، وأخذْنا نعتَذِرُ إليه اعتِذارَ الأكْياسِ، ونعْرِضُ عليه ارتِضاعَ الْكَاسِ، فقَالَ: مأرَبٌ لا حَفاوةٌ، ومشْرَبٌ لَمْ يبْقَ لَهُ عندي حَلاوةٌ، فأطَلْنا مُراودَتَهُ، ووالَيْنا مُعاوِدَتَهُ، فَشَمَخَ (١٠) بأنفِه صلَفاً، ونَأى بِجانبِه أنَفاً (١١)، وأَنْشَدَ:

نَهَاني الشَّيْبُ عمَّا فيه أفْراحي
فكيفَ أجمَعُ بينَ الرّاحِ والرّاحِ
وهل يجوزُ اصطباحي من مُعتَّقَة (١٢)
وقد أنارَ مشيبُ الرّأسِ إصْباحي

(١) الضَّجر منه.
(٢) طلب.
(٣) السَّفَلَة الأرذَال من النَّاس.
(٤) مطلبًا.
(٥) الْوِكَاء: خيط يُرْبَطُ بِهِ.
(٦) صقل.
(٧) دنس العقول والصدأ، في الأصل: ما يركب الحديد.
(٨) الحجة.
(٩) ما فرط وانفلت منا من غير تأمّل.
(١٠) رفع أنفه تكبُّرًا.
(١١) استنكافًا وحميةً.
(١٢) من خمر قديمة.

آلَيتُ لا خامرَتني(١) الخَمرُ مَا علِقَتْ
روحي بجِسْمي وألفاظي بإفْصاحي
وَلاَ اكتسَتْ لي بكاسَات السُّلاف(٢) يدٌ
وَلاَ أجَلتُ قِداَحي بَينَ أقْداَحِ
وَلاَ صرَفْتُ إلَى صَرْف(٣) مُشعْشَعة
هَمِّي(٤) وَلاَ رُحتُ مُرْتاحاً إلَى رَاحِ
وَلاَ نظَمْتُ عَلَى مَشمولَة أبداً
شملي وَلاَ اخترْتُ نَدماناً سوى الصَّاحِي(٥)
مَحا الْمَشيبُ مِراحي حينَ خطّ عَلَى
رأسي فأبغضْ به من كاتبٍ مَاحِ
ولاحَ يلْحَى(٦) عَلَى جرّي العَنَانَ إلَى
ملْهًى فسُحْقاً لَهُ من لائحٍ لاَحِ(٧)
ولوْ لهَوْتُ وفَوْدي شَائبٌ لَخَبَا(٨)
بَينَ الْمَصَابيحِ من غَسَّانَ مِصبْاحي
قَومٌ سَجَاياهُمُ توْقيرُ ضَيْفهِم
والشَّيبُ ضيفٌ له التَّوْقيرُ يَا صاحِ

ثُمَّ إِنَّهُ انْسَابَ انْسِيَابَ الأيْمِ(٩)، وَأَجْفَلَ(١٠) إجْفالَ الغيْمِ(١١)، فَعَلِمْتُ

(١) لا خالطتني وسترت عقلي.
(٢) ما سال من العنب قبل أن يُعْصَرَ.
(٣) هي الخالصة غير المشوبة.
(٤) أي: اهتمامي.
(٥) الندمان.
(٦) يلوم.
(٧) ظاهر لائم.
(٨) لَخَمَدَ وطُفِئَ.
(٩) الحيَّة.
(١٠) جرى وأسرع.
(١١) آخر أمرنا وغايتنا.

أَنَّهُ سِرَاجُ سَرُوجَ، وَبدْرُ الأدَبِ الَّذِي يَجْتَابُ البُرُوجَ، وكَانَ قُصَارَانا التَّحرُّقَ لبُعْدِهِ، والتَّفرُّقَ مِنْ بَعدِهِ.

۞۞۞

تفسير مَا أودع هذه المَقَامَة من النُّكت العربيَّة والأحاجي النحويَّة

أَمَّا صَدْرُ الْبَيْتِ الأخِيرِ مِنَ الأُغْنِيَةِ الَّذي هُوَ (فإن وصلاً ألذُّ به فوصل) فإنه نظير قولهم: المْرء مجزيّ بعمله أَنْ خيراً فخيرٌ وإن شرا فشرٌّ وهذه المْسألة أودعها سيبويه كتابه وجوز فِي إعرابها أربعة أوجه أحدها وهو أجودها أَنْ تنصب خبراً الأول وترفع الثاني وتنصب شراً الأول وترفع الثاني ويكون تقديره إن كَانَ عمله خيراً فجزاؤه خير وإن كَانَ عمله شراً فجزاؤه شر فتنصب الأول عَلَى أَنَّهُ خبر كَانَ وترفع الثاني عَلَى أَنَّهُ خبر مبتدأ محذوف، وَقَدْ حذفت فِي هَذَا الوجه كَانَ واسمها لدلالة حَرْف الشرط الَّذِي هو أَنْ عَلَى تقديرهما وحذفت أيضاً المْبتدأ لدلالة الفاء الَّتِي هي جواب الشرط عليه لأنه كثيراً مَا يقع بعدها، والوجه الثاني أَنْ تنصبهما جميعاً ويكون تقدير الكلام إن كَانَ عمله خيراً فهو يجزى خيراً وإن كَانَ عمله شراً فهو يجزي شتراً فينتصب الأول عَلَى أَنَّهُ خبر كَانَ وينتصب الثاني انتصاب المْفعول به، والوجه الثالث أَنْ ترفعهما جميعاً ويكون تقدير الكلام إن كَانَ فِي عمله خير فجزاؤه خير فيرتفع خير الأول عَلَى أَنَّهُ اسم كان، ويرتفع خير الثاني على ما بُيِّن في شرح الوجه الأول، وقد يجوز أن يرتفع خير الأول على أنه فاعل كَانَ وتجعل كَانَ المْقدرة ههنا هي التامة الَّتِي تأتي بمعنى حدث ووقع فلا تحتاج إلَى خبر كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، ويكون التقدير فِي الْمَسْأَلَة: إن كَانَ خير فجزاؤه خير

أي إن حدث خير فجزاؤه خير، والوجه الرَّابِعُ ـ وهو أضعفها ـ أَنْ ترفع الأول عَلَى مَا تقدم شرحه فِي الوجه الثالث وتنصب الثاني عَلَى مَا بُيِّن ذكره فِي الوجه الثاني ويكون التقدير إنْ كَانَ فِي عمله خير فهو يجزي خيراً وعلى حَسْبِ هَـٰذَا التقدير والْمقدرات المحْذوفات فيه يجرى إعراب البيت الَّذي غنى به، ومما ينتظم فِي هَـٰذَا السلك قولهم الْمرء مقتول بِمَا قتل به إن سيفاً فسيفٌ وإن خنجراً فخنجر. (وإما الكلمة الَّتِي هي حَرْف محبوب أَوْ اسْم لما فيه حَرْف حلوب: فهي نعم إن أردت بها تصديق الأخبار أَوْ العدة عند السؤال فهي حرف، وإن عنيت بها الإبل فهي اسْم، والنعم تذكر وتؤنث وتطلق عَلَى الإبل وعلى كل ماشية فِيهَا إبل، وَفِي الإبل الحْرف وهي النّاقة الضامرة، سميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف، وقيل إنه الضخمة تشبيهاً بحرف الجْبل.

وأما الاسْمُ الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَ فرد حازم وجمع ملازم: فهي سراويل، قَالَ بَعْضهُمْ: هو واحد وجمعه سراويلات، فعلى هَـٰذَا القول هو فرد، وكنى عن ضمه الخْصر بأنه حازم، وَقَالَ آخرون: بل هو جمع واحده سروال مثل شملال وشماليل وسربال وسرابيل، فهو عَلَى هَـٰذَا القول جمع، ومعنى قوله ملازم أي لا ينصرف، وإنّما لم ينصرف هَـٰذَا النوع من الجْمع وهو كل جمع ثالثه ألف وبعدها حَرْف مشدد أَوْ حرفان أَوْ ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرده دون غيره من الجْموع بأن لا نظير له فِي الأسماء الآحاد، وَقَدْ كنى فِي هذه الأحجية عما لا ينصرف بالْملازم كَمَا كنى فِي الَّتِي قبلها عما ينصرف باللازم.

وَأَمَّا الْهَاءُ الَّتِي إذَا التحقت أماطت الثقل وأطلقت الْمعتقل: فهي الْهاء

اللاحقة بالجمع المْقدم ذكره كقولك: صيارفة وصياقلة، فينصرف هَذَا الجمع عند التحاق الْهاء بها لأنها قَدْ أصارته إلَى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية، فخف بهَذَا السبب وصرف لهذه العلة، وَقَدْ كنى فِي هذه الأحجية عما لا ينصرف بالْمعتقل كَمَا كنى فِي الَّتِي قبلها عما لا ينصرف بالْملازم.

وَأَمَّا السين الَّتِي تعزل العامل من غير أَنْ تجامل: فهي الَّتِي تدخل عَلَى الفعل الْمستقبل وتفصل بينه وبين أَنْ الَّتِي كانت قبل دخولها من أدوات النصب فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل أَنْ عن كونها الناصبة للفعل إلَى أَنْ تصير المخْففة من الثقيلة، وذلك كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، وتقديره: علم أَنَّهُ سيكون.

وَأَمَّا الْمَنْصُوبُ عَلَى الظَّرْفِ الَّذِي لا يخفضه سوى حرف: فهو عند إِذْ لا يجره غير «من» خاصة، وقول العامة: ذهبت إلَى عنده لحن.

وَأَمَّا الْمضاف الَّذِي أخل من عرى الإضافة بعروة واختلف حكمه بين مساء وغدوة: فهو لدن، ولدن من الأسماء الْملازمة للإضافة وكل مَا يأتي بعدها مجرور به إلا غدوة فإن العرب نصبتها بلدن لكثرة اسْتعمالهم إياها فِي الكلام، ثُمَّ نوّنتها أيضاً ليتبين بذلك أنها منصوبة لا أنها من نوع المجْرورات الَّتِي لا تنصرف، وعند بَعْضِ النحويين أَنْ لدن بمعنى عند، والصحيح أَنْ بينهما فرقاً لطيفاً وهو أَنْ عند يشتمل معناها عَلَى مَا هو فِي ملكك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك، ولدن يختص معناها بِمَا حضرك وقرب منك.

وأما العامل الَّذِي يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله: فهو

يا، ومعكوسه أي، وكلتاهما من حروف النداء وعملهما فِي الاسم الْمنادى سيان وإن كانت يَا أجول فِي الكلام وأكثر فِي الاستعمال، وَقَد اختار بَعْضهُمْ أَنْ ينادى بأي القريب فقط كالهمزة.

وأما العامل الَّذِي نائبه أرحب منه وكراً وأعظم مكراً وأكثر لله تعالى ذكراً: فهو باء القسم، وهذه الباء هي أصل حروف القسم بدلالة استْعمالها مَعَ ظهور فعل القسم فِي قولك: أقسم بالله، ولدخولها أيضاً عَلَى الْمضمر كقولك: بك لأفعلن، وإنما أبدلت الواو منها فِي القسم لأنهما جميعاً من حروف الشفة ثُمَّ لتقارب معنييهما لأن الواو تفيد الجْمع والباء تفيد الإلصاق وكلاهما متفق والْمعنيان متقاربان، ثُمَّ صارت الواو الْمبدلة من الباء أدور فِي الكلام وأعلق بالأقسام ولهَذَا ألغز بأنه أكثر لله تعالى ذكراً، ثُمَّ إن الواو أكثر موطناً من الباء لأن الباء لا تدخل إلا عَلَى الاسم وَلاَ تعمل غير الجْر، والواو تدخل عَلَى الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة بإضمار رب وتنتظم أيضاً مَعَ نواصب الفعل وأدوات العطف فلهَذَا وصفها برحب الوكر وعظم الْمكر.

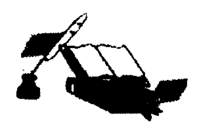
وأما الْموطن الَّذِي يلبس فيه الذكران براقع النسوان وتبرز فيه ربات الْحجال بعمائم الرجال: فهو أول مراتب العدد الْمضاف وذلك مَا بين الثلاثة إلَى العشرة فإنه يكون مَعَ الْمذكر بالهاء ومع الْمؤنث بحذفها، كقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾، والهاء فِي هَذَا الْموطن من خصائص الْمؤنث كقولك: قائم وقائمة وعالم وعالمة، فَقَدْ رأيت كيف انعكس فِي هَذَا الْموطن حكم الْمذكر والْمؤنث حَتَّى انقلب كل منهما فِي ضد قالبه وبرز فِي بزة صاحبه.

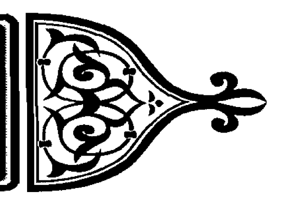
وأما الْموضع الَّذِي يجب فيه حفظ الْمراتب عَلَى الْمضروب والضارب: فهو حيث يشتبه الفاعل بالْمفعول لتعذر ظهور علامة الإعراب فيهما أَوْ فِي أحدهما، وذلك إذَا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى، أَوْ من أَسْماء الإشارة نحو ذاك وهذا، فيجب حينئذ لإزالة اللبس إقرار كل منهما فِي رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقدمه والْمفعول بتأخره.

وأما الاِسْمُ الَّذِي لا يفهم إلا باستضافة كلمتين أَو الاقتصار منه عَلَى حرفين: فهو مهما، وفيها قولان: أحدهما أنها مركبة من «مه» الَّتِي هي بمعنى اكفف ومن ما، والقول الثاني، وهو الصّحيح، إن الأصل فِيهَا «ما» فزيدت عليها مَا أخرى كَمَا تزاد عَلَى أن، فصار لفظها مَا ما فثقل عليهم توالي كلمتين بلفظ واحد فأبدلوا من ألف «مَا» الأولى هاء فصارتا «مهما»، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بها لم يتم الكلام وَلاَ عقل الْمعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها كقولك: مهما تفعل افعل، وتكون حينئذ ملتزماً للفعل، وإن اقتصرت منها عَلَى حرفين وهما «مه» الَّتِي بمعنى اكفف فهم الْمعنى وكنت مُلْزِماً من خاطبته أَنْ يكف.

وأما الوصف الَّذِي إذَا أردف بالنون نقص صاحبه فِي العيون وقوم بالدون وخرج من الزبون وتعرض للهون: فهو ضيف إذَا لحقته النون اسْتحال إلَى ضيفن، وهو الَّذِي يتبع الضيف، وينزل فِي النقد منزلة الزيف.







المَقَامَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ
الْكَرَجِيَّةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: شَتَوْتُ بِالْكَرَجِ (١) لِدَيْنٍ أقتَضِيه، وأَرَبٍ أقْضِيه، فَبَلَوْتُ (٢) مِنْ شِتَائِها الكَالِحِ (٣)، وصِرِّها النَّافِحِ، مَا عَرَّفَني جَهْدَ البَلاء، وعكَفَ بي عَلَى الاصْطِلاء، فَلَمْ أكُنْ أُزَايِلُ (٤) وجاري، ولاَ مُستَوْقَدَ ناري، إلا لضَرورَةٍ أُدفَعُ إليْها، أَوْ إقامة جماعة أحافظُ عليها، فاضطُرِرْتُ في يومٍ جوُّهُ مُزْمَهِرٌّ (٥)، ودَجْنُهُ مُكْفَهِرٌّ (٦)، إلَى أَنْ برزْتُ مِنْ كِنَاني، لِمُهِمٍّ عَنَاني (٧)، فإذَا شَيخٌ عاري الجِلْدَة، بَادي الْجُردَة (٨)، وقد اعْتَمَّ (٩) بريْطَة، واستَثْفَر بفُويطَةٍ، وحَوَالَيهِ جمعٌ كَثيفُ الْحَوَاشِي (١٠)، وهو يُنشِدُ ولاَ يُحَاشِي:

يَا قَومِ لا يُنبئكُمُ عن فَقْري ... أصْدَقُ من عُرْيي أوانَ القُرِّ

فَاعتَبِروا بِمَا بَدَا مِنْ ضُرِّي ... بَاطِنَ حَالي وخَفِيَّ أمْري

وحاذِروا انقِلابَ سِلْمِ الدَّهْرِ (١١) ... فإنني كُنتُ نَبيهَ القَدْرِ

---

(١) أقمت مدَّة الشتاء بها، وهي بلدة بين أذربيجان وهمذان.

(٢) جربت.

(٣) الشديد.

(٤) أفارق.

(٥) الشديد، ومنه: الزمهرير.

(٦) متراكم.

(٧) أهمَّني.

(٨) ظاهر البشرة.

(٩) لبس العمامة.

(١٠) جماعة ملتئمون من كثرتهم منضم بعضهم إلى بعض.

(١١) احذروا تغير الدهر من الخير إلى الشرّ.

آوي إلَى وَفْر وحدٍّ يَفْري[١] تُفيدُ صُفري وتُبيدُ سُمْري
وتشتكي كُومي[٢] غَداةَ أقْري فجرّدَ الدّهرُ سُيُوفَ الغَدْرِ
وشَنَّ غَارَاتِ الرّزايا الغُبْرِ[٣] ولمْ يزَلْ يسْحَتُني ويَبْري
حتى عَفَتْ[٤] دَاري وغاضَ دَرّي وبَارَ[٥] سعْري في الورَى وَشعْري
وَصرْتُ نضْوَ فَاقَة وعُسْرِ[٦] عَاري الْمَطا مُجَرَّداً من قشْري[٧]
كأنّني الْمغزَلُ في التّعرّي لا دفْءَ[٨] لي في الصّنّ وَالصنّبْرِ
غيرُ التَّضحّي[٩] واصْطَلاء الْجَمْرِ فهلْ خضَمٌ ذُو رداء غَمْرِ
يَسْتُرُني بمُطرَف أَوْ طِمْرِ طلابَ وَجْه اللّه لا لشُكْري

ثُمَّ قَالَ: يَا أرْبَابَ الثَّرَاء الرَّافلينَ[١٠] في الفرَاء، مَنْ أوتيَ خَيراً فلينْفقْ، ومن استَطاعَ أَنْ يُرفقْ[١١] فليُرْفقْ، فإنَّ الدُّنْيَا غَدُورٌ، والدَّهْرَ عثُورٌ، والْمكْنَةَ زَورَةُ طيْف[١٢]، والفُرصَةُ مُزنَةُ صيف، وَإنِّي والله لَطالَمَا تَلَقَّيتُ الشِّتَاءَ بكافاته، وأَعْدَدْتُ الأُهَبَ[١٣] لَهُ قبل مُوافاته، وها أَنَا اليومَ يَا سَادَتي، سَاعِدي وِسادَتي، وجِلْدَتي بُرْدَتي، وحَفْنَتي جَفْنَتي، فليَعتَبرِ العاقلُ بحالي، ولْيُبادِرْ صَرْفَ اللَّيَالي[١٤]، فَإنَّ السَّعيدَ من اتَّعَظَ بِسواهُ، واستَعَدَّ لمَسْرَاهُ[١٥]، فقيلَ لَهُ: قَدْ جلَوْتَ علَينا أدبَكَ، فاجلُ لنا نسبَكَ، فَقَالَ: تبّاً لمُفتَخرٍ، بعَظْمٍ

---

(١) سلاح يقطع.
(٢) الكوم: جمع كوماء، وهي: الناقة العظيمة السَّنَام.
(٣) المصائب الشِّدَاد.
(٤) خلت أو درست.
(٥) كسد.
(٦) مهزولاً من الفقر والضيق.
(٧) ثيابي.
(٨) ليس لي ما يدفئني.
(٩) البروز للشمس.
(١٠) المتبخترين.
(١١) الإرفاق النفع.
(١٢) كزيارة خيال في المنام.
(١٣) جمع الأهبة، كالعدَّة.
(١٤) حوادثها وتغيراتها.
(١٥) لمثواه.

نخرٍ(١)! إِنَّمَا الفَخْرُ بالتُّقَى، والأدَبِ الـمُنتقى، ثُمَّ أنشدَ:

لَعَمرُكَ مَا الإنسانُ إلا ابنُ يومه ... عَلَى مَا تجلَّى(٢) يومُهُ لا ابنُ أمسه

ومَا الفَخرُ بالعَظْمِ الرَّميم وإنَّمَا ... فَخارُ الَّذي يبغي الفخارَ بنفسه

ثُمَّ إنَّهُ جلَسَ مُحقَوقِفاً(٣)، واجْرَنْثَمَ(٤) مُقَفْقِفاً، وقَالَ: اللَّهُمَّ يَا مَنْ غَمَرَ بنَوَالِه، وأمَرَ بسُؤاله، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآله، وأعِنِّي عَلَى البَرْدِ وَأَهْوَالِهِ، وأتِحْ لِي حُرّاً يُؤثِرُ مِنْ خَصاصَةٍ، ويؤاسي ولَوْ بقُصَاصَةٍ(٥).

قَالَ الرَّاوي: فَلَمَّا جلّى عنِ النَّفْسِ العصَاميَّة(٦)، وَالـمُلَحِ الأصمَعيَّة، جَعلَتْ مَلامِحُ عيني تَعْجمُهُ، ومَرَامي لحظي تَرجُمُه، حَتَّى استَبَنْتُ(٧) أَنَّهُ أبُو زَيْد، وأنّ تعريّهُ أُحبولَةُ صيد، ولَمَحَ هُوَ أَنَّ عِرْفَاني قَدْ أدرَكَهُ، ولَمْ يأمَنْ أَنْ يهتكَهُ، فَقَالَ: أُقسِمُ بالسَّمَرِ والقمَرِ، والزُّهْرِ والزَّهَرِ، إنَّهُ لَنْ يَستُرَنِي إلاَّ مَنْ طَابَ خيمُهُ(٨)، وأُشرِبَ مَاءَ الْـمُروءة(٩) أديمُهُ(١٠)، فَعقَلْتُ مَا عَناهُ، وإنْ لَمْ يدْرِ القَومُ معْناهُ، وسَاءَنِي مَا يُعَانيه مِنَ الرِّعدَة(١١)، واقْشِعرارِ الجِلْدَة(١٢)، فعمَدْتُ لفَرْوَةٍ هيَ بالنَّهَارِ رِيَاشِي(١٣)، وَفِي اللَّيْلِ فِرَاشِي، فَنَضَوتُهَا(١٤) عنّي، وَقُلْتُ لَهُ: اقبَلْهَا مِنِّي، فَمَا كذَّبَ أن افْتَرَاها، وَعَيْنِي تَرَاهَا، ثُمَّ أنشدَ:

---

(١) أي: بَالٍ.
(٢) ظهر.
(٣) منحنيًا مُعوجًا.
(٤) انقبض بعضه إلى بعض.
(٥) القصاصة: ما أخذه المقص من الشَّعْرِ، والمراد: القليل من العطاء.
(٦) أي: الكريمة.
(٧) علمت وتحققت.
(٨) الخيم ـ بالكسر ـ الطبيعة والكرم.
(٩) الفعل الجميل.
(١٠) وجهه.
(١١) اضطراب الأعضاءِ من البَرْد.
(١٢) تقبض جلده.
(١٣) لباسي الحسن.
(١٤) نزعتها.

لله مَن ألبَسَني فَروةً أضْحَتْ من الرِّعدَة لي جُنّه
ألبَسنيهَا وَاقياً مُهْجَتي[١] وُقّي شَرَّ الإنْس والجِنَّهْ
سَيَكتَسي اليَومَ ثَنَائي وَفي غدٍ سيُكسى سُندُسَ[٢] الْجَنَّهْ

قال: فَلَمَّا فتَن قُلوبَ الْجَماعَة، بافتنانه في البَراعَة، ألقَوْا عَلَيْه منَ الفرَاء الْمُغشَّاة، وَالْجبَاب الْمُوشَّاة [٣]، مَا آدَهُ ثقلُهُ، ولَمْ يكَدْ يُقلُّهُ، فَانْطَلَقَ مُستَبشِراً بالفرَجِ، مُستَسقِياً للكرَجِ، وتبعتُهُ إلَى حَيثُ ارتَفعَت التّقيّةُ، وبَدَت السّماءُ نقيّةً، فَقُلْتُ لَهُ: لَشَدَّ [٤] مَا قَرَّسَكَ البردُ، فَلاَ تَتَعَرَّ منْ بَعْدُ! فَقَالَ: ويْكَ لَيْسَ منَ العَدْل، سُرْعَةُ العذْل [٥]! فلا تَعْجَلْ بلَوْمٍ هُوَ ظُلْمٌ، وَلاَ تقْفُ مَا ليسَ لَكَ به علْمٌ، فوَالَّذي نوَّرَ الشَّيبَةَ [٦]، وَطَيَّبَ تُربَةَ طَيْبَةَ، لو لَمْ أتعرّ لرُحْتُ بالْخَيبَةِ [٧]، وصفرِ العيْبَةِ، ثُمَّ نزَعَ إلَى الفرَارِ، وتبرقَعَ بالاكْفهْرَارِ[٨].

وقَالَ: أمَا تعلَمُ أَنَّ شِنْشِنتيَ [٩] الانتقَالُ منْ صَيْدٍ إلَى صَيْد، والانعطَافُ منْ عَمْرٍو إلَى زَيْد؟ وَأرَاكَ قَدْ عُقتَني[١٠] وعَقَقْتَني[١١]، وأفَتَّني أضْعَافَ مَا أفدْتَني، فَأَعْفني عافاكَ الله منْ لَغْوكَ، واسْدُدْ دُوني بَابَ جِدِّكَ ولهوِكَ، فجبذْتُهُ جبْذَ التِّلْعابَة [١٢]، وجعْجَعْتُ به للدُعابَة.

---

(١) صاتنًا وحافظًا نفسي.
(٢) السُّنْدُس: الديباج الرقيق والإستبرق الغليظ.
(٣) المنقوشة المزيّنة.
(٤) أي: لَعَظُمَ وما في لشدَّ مَا نكرة منصوبة واللام لِلْقَسَمِ.
(٥) المبادرة باللَّوْم.
(٦) جعل الشَّيب نوراً.
(٧) بالحرمان.
(٨) العبوس.
(٩) طبيعتي وخُلُقي وعادتي.
(١٠) منعتني.
(١١) عصيتني.
(١٢) هو الماجن اللاعب؛ أي: الكثير اللَّعِب. والهَاءُ لِلْمُبَالَغَة.

وَقُلْتُ لَـهُ: والله لَوْ لَـمْ أُوارِكَ، وأُغَطِّ عَلَى عَـوارِكَ، لَمَا وصلْـتَ إِلَى صِلَةٍ، وَلاَ انقلَبْتَ أكْسِى مِنْ بصَلَة، فَجَازِني [(١)] عنْ إحْسَاني إليْكَ، وَسَتري لَكَ وَعَلَيْكَ، بِأَنْ تَسمَحَ لِي بِرَدِّ الفَروَة، أَوْ تُعرِّفَني كافات الشّتوَة، فنظرَ إِلَيَّ نظَرَ المُتعجِّب، وازْمهَرَّ [(٢)] ازمهْرارَ المُتغضِّب، ثُمَّ قَـالَ: أَمَّا رَدَّ الفَروة فأبْعَدُ مِنْ ردِّ أمْسِ الدَّابِرِ [(٣)]، والـمَيْتِ الغـابِرِ، وأمَّا كَافَاتُ الشَّتْوة فـسُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَـى ذِهنِكَ، وأوْهى وِعاءَ خَـزْنِكَ [(٤)]، حَتَّـى أُنسيـتَ مَا أنشـدْتُكَ بالدَّسْكَرةِ [(٥)]، لابنِ سُكَّرَة:

جَـاءَ الـشِّـتَـاءُ وَعِنْـدي مِنْ حـوائـجِـه [(٦)]

سبْعٌ إذَا الـقطْرُ [(٧)] عَن حَـاجـاتِنا حـبَسَـا

كِنٌّ [(٨)] وَكِيسٌ وكَانُونٌ [(٩)] وكَاسُ [(١٠)] طِلاً

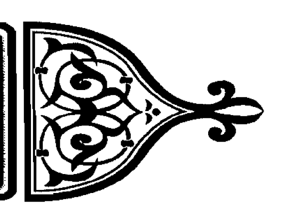
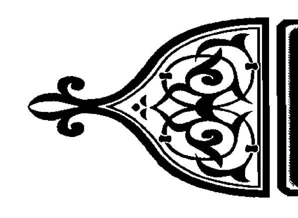
بَـعْـدَ الكَـبَـابِ [(١١)] وكَـفٌ نَاعِـمٌ وَكِـسَـا

ثُمَّ قَالَ: لجَـوابٌ يَشفِي، خَيْـرٌ مِنْ جِلْبَاب يُدْفِـي، فاكْتَفِ بِمَـا وعَيْتَ وانْكَفِي، ففـارَقْتُهُ وقدْ ذهبَتْ فَروتي لِـشَقْوَتي [(١٢)]، وحصلْتُ عَلَى الرِّعدَةِ طُولَ شَتْوَتي.

❖❖❖

---

(١) قابلني.
(٢) توقدت عيناه غضبًا.
(٣) الماضي.
(٤) حفظك.
(٥) بَيْتُ الْـخَمَّار.
(٦) مصالحه ومرافقه المحتاج إليها فيه.
(٧) المطر.
(٨) بيت.
(٩) مستوقد صغير، وهو ما يعدّه الناس للطَّبْخ.
(١٠) إناءٌ تُسْقَى به الخَمْر، والمراد: أن عنده الخمر وكأسها.
(١١) اللَّحم المشويّ على الجَمْر.
(١٢) لشقائي وسُوءِ حَظِّي.


المَقَامَةُ السَّادسَةُ والعشْرُون وتُعْرَفُ بالرَّقْطاء


حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: حَلَلْتُ سُوقَي الأهوازِ، لابساً حُلّةَ الإعْوازِ (١)، فلبثْتُ فيهَا مُدّةً، أُكابِدُ (٢) شِدّةً، وأُزجّي(٣) أيّاماً مُسْوَدّةً، إلَى أَنْ رأيتُ تَمادِيَ الْمُقامِ مِن عَوادي الانتقامِ، فَرَمَقْتُهَا (٤) بعَينِ القالي، وفَارَقتُهَا مُفارَقَةَ الطَّلَلِ البَالِي، فَظَعَنْتُ (٥) عَنْ وشَلِهَا، كَميشَ الإزَارِ، راكِضاً(٦) إلَى المِيَاهِ الغِزَارِ (٧)، حَتَّى إذَا سِرْتُ منهـا مرحلَتَينِ(٨)، وبَعُدْتُ سُرَى(٩) ليلَتَينِ، تراءتْ لي خيمَةٌ مَضروبَةٌ، ونارٌ مَشْبُوبَةٌ (١٠)، فقُلْتُ: آتيهِمَا لعَلّي أنقَعُ صدًى، أَوْ أجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى، فَلَمَّا انتَهَيتُ إلَى ظِلّ الْخيمَةِ رأيتُ غلمَةً رُوقَةً، وشارَةً (١١) مرْموقَةً، وشيْخاً علَيْه بِزَّةٌ (١٢) سَنيَّةٌ، ولَدَيه فَاكهَةٌ جَنيَّةٌ، فحيَيْته، ثُمَّ تَحَامَيْتُهُ (١٣)، فَضَحِكَ إلَيَّ، وأَحْسَنَ الرّدَّ عَلَيَّ، وقَالَ: ألاَ تَجْلِسُ إلَى مَنْ تَرُوقُ فَاكِهَتُهُ، وتَشُوقُ مُفاكَهَتُهُ؟ فجلَسْتُ لاغتِنامِ مُحَاضَرَتِهِ، لا لالْتِهامِ مَا بحضْرَتِهِ، فَحِينَ سَفَرَ عَنْ آدَابِهِ، وكَشَرَ عن

---

(١) لباس العدم والفقر والحاجة، والمرادُ: أنه فقير لا شيءَ لَهُ.
(٢) أقاسي.
(٣) أدفع وأسوق.
(٤) نظرتها.
(٥) رحلت.
(٦) مسرعًا.
(٧) الكثيرة كناية عن كثرة الخير.
(٨) مسافة مرحلتين.
(٩) هو المشي بالليْل.
(١٠) موقدة.
(١١) هيئة حَسَنَة.
(١٢) خلعة.
(١٣) تباعدت عنه.

أنيابه، عرَفْتُ أنَّهُ أبُو زَيْدٍ بحُسنِ مُلَحِه [(١)]، وقُبْحِ قَلَحه[(٢)]، فتعارَفْنا حينَئذٍ، وَحَفَّتْ بي فَرْحَتان ساعَتَئذ، ولَمْ أدرِ بأيِّهما أنَا أضْفَى[(٣)] فَرَحاً، وأوفى مَرَحاً: أبإسْفاره، مِنْ دُجُنَّة [(٤)] أسْفاره؟ أم بخصْب رِحاله، بَعْدَ إمْحَاله[(٥)]؟ وتاقَتْ[(٦)] نَفْسي إلَى أنْ أفُضَّ ختْمَ سِرِّه، وأبطُنَ داعيَةَ يُسْرِه، فَقُلْتُ لَهُ: من أينَ إيابُكَ، وإلَى أينَ انْسِيابُكَ [(٧)]، وبِمَ امتلأتْ عِيابُك؟ فَقَالَ: أمَّا الْمَقْدَمُ فمِنْ طوسَ، وأما الْمَقصدُ [(٨)] فإلى السّوسِ، وأما الْجِدَةُ [(٩)] الَّتي أصبْتُها فمِنْ رِسالَةِ اقتَضَبْتُها [(١٠)]، فسألْتُهُ أنْ يَفرُشَني دخْلَتَهُ [(١١)]، ويسْرُدَ عَلَيَّ رِسالتَهُ، فَقَالَ: دونَ مَرامِكَ حرْبُ البَسوسِ، أوْ تَصحبَني إلَى السّوسِ، فصاحَبتُهُ إلَيْهَا قَهْراً، وعكفْتُ علَيْه بها شهْراً، و هُوَ يَعُلُّني[(١٢)] كَاسَاتِ التَّعْليلِ، ويُجرِّني [(١٣)] أعنَّةَ التأميلِ، حَتَّى إذَا حرِجَ صدْري، وعيلَ صبْري، قُلْتُ لَهُ: إنَّهُ لَمْ يبْقَ لَكَ علّةٌ، ولاَ لِي في الْمُقامِ تَعلّةٌ [(١٤)]، وفي غدٍ أزْجُرُ غُرابَ البينِ، وأرْحَلُ عنكَ بخُفّيْ حُنَينٍ، فَقَالَ: حاشا لله أنْ أُخْلِفَكَ، أَو أُخالفَكَ، وما أرْجأتُ أنْ أحدّثَكَ، إلا لأُلَبّثَكَ [(١٥)]، وإذَا كُنْتَ قَد استرْبْتَ بعِدَتي، وأغْراكَ ظَنُّ السَّوْءِ بِمُبَاعَدَتي[(١٦)]، فأصِخْ لقَصَصِ سيرَتي الْمُمتدّةِ،

---

(١) طُرَفه وألفاظه الحِسَان.
(٢) صفرة أسنانه.
(٣) أكثر وأسبغ.
(٤) ظلمة وسواد.
(٥) جدبه.
(٦) اشْتَاقَتْ.
(٧) ذهابك.
(٨) المتوجه إليه.
(٩) السّعَة والغِنَى.
(١٠) أنشأتها وارتجلتها.
(١١) باطن أمره وحقيقته.
(١٢) يسقِيني مرَّةً بَعْدَ أخرَى.
(١٣) يحملني على أن أجرَّ.
(١٤) هي في الأصل: ما يعلل به الصَّبيّ وقت الفطام.
(١٥) أي: لأجل أن تلبث عندي وتَمْكُث.
(١٦) رغبك ظنك السَّيِّئ في البُعْدِ عنّي.

وأضفها إلى أخبارِ الفرجِ بعدَ الشِّدَّة، فقُلْتُ لَهُ: هات فَمَا أطولَ طِيَلَكَ، وأهْوَلَ حيلَكَ [(١)]! فقَالَ: اعلَمْ أنَّ الدَّهْرَ العَبوسَ [(٢)]، ألْقَاني إلَى طَوسَ، وأنَا يومئذٍ فقيرٌ وَقيرٌ، لا فَتيلَ لِي ولاَ نَقير، فَألْجَأني [(٣)] صفرُ اليَدَيْنِ، إلَى التَّطَوُّق [(٤)] بالدَّينِ، فَادَّنْتُ لسوء الاتِّفاقِ، مِمَّنْ هُوَ عَسِرُ الأخْلاقِ، وتوهّمْتُ تسَنّيَ النَّفاقِ، فتوسّعْتُ في الإنْفاقِ، فمَا أفَقْتُ حَتَّى بهظَنِي [(٥)] دَينٌ لزِمَني حقُّهُ، ولازَمَني مُستَحِقُّهُ، فَحِرْتُ [(٦)] في أمْرِي، وأطلَعْتُ غَرِيمِي عَلَى عُسْرِي، فَلَمْ يُصَدِّقْ إمْلاقي [(٧)]، ولاَ نزَعَ عَنْ إرْهاقي، بَلْ جَدَّ فِي التَّقَاضِي، ولَجَّ فِي اقْتِيَادِي [(٨)] إلَى الْقَاضِي، وكُلَّمَا خضَعْتُ له فِي الكلام، واستنْزَلتُ مِنْهُ رِفقَ الكِرامِ، ورغّبْتُهُ فِي أَنْ ينظُرَ لِي بمُياسرَةٍ [(٩)]، أَوْ يُنظِرَني إلَى مَيسرَةٍ، قَالَ: لا تطْمَعْ فِي الإنْظارِ، واحتجَانِ النُّضَارِ، فوَحقِّكَ مَا ترى مَسَالِكَ [(١٠)] الخَلاصِ، أَوْ تُرِيَني سَبَائِكَ الخَلاصِ! فَلَمَّا رأيتُ احتدادَ لَدَدِهِ [(١١)]، وأنْ لاَ مَنَاصَ لِي مِنْ يَدِهِ، شَاغَبْتُهُ، ثُمَّ وَاثَبْتُهُ [(١٢)]، لِيُرافِعَني إلَى والِي الجَرائِمِ، لاَ إلَى الحَاكِمِ فِي المَظالِمِ، لِمَا كَانَ بَلَغَني مِنْ إفْضَالِ الوَالِي وفَضْلِه، وتشدُّدِ القَاضِي وبُخْلِه، فَلَمَّا حضَرْنا بَابَ أمِيرِ طوسَ، آنَسْتُ أنْ لاَ بَأسَ ولاَ بُوسَ [(١٣)]، فاستَدْعَيْتُ دَواةً وبَيْضاءَ، وأنشأتُ رِسالةً رقْطاءَ، وهيَ:

---

(١) مكرك وخداعك.
(٢) المقطب وجهه، كناية عن شدّته.
(٣) أحوجني.
(٤) التلبس، وأصله لبس الطوق في العُنق.
(٥) أثقلني.
(٦) فتحيَّرت.
(٧) فقري.
(٨) قاده واقتادهُ سحبه وجرّهُ.
(٩) بمساهلة.
(١٠) جمع مسلك، بمعنى: الطَّريق.
(١١) شدة خصومته.
(١٢) نازعته وغالبته.
(١٣) لا ضرر ولا داهية.

أخلاقُ سيِّدنا تُـحَبُّ، وبعَقْوَتِه (١) يُلَبُّ، وقُربُهُ تُحَفٌ، ونأيُهُ (٢) تلَفٌ، وخُلَّتُهُ نسَبٌ، وقَطيعتُهُ نصَبٌ، وغَـربُهُ ذَلقٌ، وشُهبُهُ تأتَلِقُ، وظَلْفُهُ زانَ (٣)، وقَويمُ نهجِه بانَ، وذِهنُهُ (٤) قلَّبَ وجرَّبَ، ونعتُهُ شرَّقَ وغرَّبَ:

سَـيِّـدٌ قُلَّـبٌ سَـبُـوقٌ (٥) مُـبِـرٌّ فَـطِنٌ مُـغـرِبٌ عَـزُوفٌ عَـيـوفُ
مُـخْـلِـفٌ مُـتْـلِـفٌ أغَـرُّ فَـرِيـدٌ نَـابِـهٌ (٦) فَـاضِـلٌ ذكـيٌّ أَنـوفُ
مُـفْـلِـقٌ إنْ أبَـانَ طَـبٌّ إذَا نَـا بَ (٧) هيَاجٌ وَجَلَّ خَطْبٌ مَخوفُ

مَناظِمُ شرَفِه تأتَلِفُ (٨)، وشؤبُوبُ حِبَائه يكِفُ (٩)، ونائلُ يدَيْه فاضَ، وشُحُّ قلبِه غَاضَ (١٠)، وخِلْفُ سَخائِه يُحتلَبُ، وذهَبُ عِيَابِه يُحترَبُ (١١)، مَنْ لَفَّ لِفَّـهُ فَلَجَ وغَلَبَ، وتَاجِرُ بَابِـهِ جلَبَ وخلَبَ (١٢)، كَفَّ عن هَضْمِ بَرِيٍّ (١٣)، وبَرِئَ من دنَسِ غَوِيٍّ (١٤)، وقرَنَ ليانَهُ بعِـزٍّ، ونكَّبَ عَنْ مذْهَبِ كَزٍّ، ليسَ بوَثَّابٍ عندَ نُهْزَةِ شَرٍّ، بَلْ يعفُّ عفَّةَ بَرٍّ:

فـلِـذا يُـحَـبُّ ويُـسـتَـحَـقُّ عَـفَـافُـهُ
شَـغَـفـاً بـه فـلُـبـابُـهُ خَـلاّبُ (١٥)
أخـلاقُـهُ غُـرٌ تـرِفٌّ وَفُـوقُـهُ
فُـوقٌ إذَا نَـاضـلْـتَـهُ غَـلاّبُ

---

(١) بفنائه.
(٢) بعده من نأى عنه إذا بَعُدَ.
(٣) زانه، بمعنى: زينه.
(٤) عقله وذكاؤه.
(٥) كثير السبق في المعالي.
(٦) أي: رفيع القَدْر.
(٧) حدث.
(٨) تتناسق.
(٩) يقطر ويسيل.
(١٠) امتنع.
(١١) يستلب.
(١٢) جلب الشيء: قطفه وأماله لنفسه.
(١٣) امتنع عن ظلم من ليس بظالم.
(١٤) ضالّ.
(١٥) خدّاع.

سُجُحٌ يَهِشُّ [1] وذُو تَلافٍ إنْ هَفَا
خَلٌّ فَلَيْسَ بِحَقِّهِ يُرْتَابُ
لا بَاخِلٌ بَلْ بَاذِلٌ خِرْقٌ [2] إذَا
يُعْتَرُّ بَرْزٌ لا يَلِيهِ بابُ
إنْ عضّ أزْلٌ فَلّ غَرْبَ عِضَاضِهِ [3]
بمَنَابِهِ [4] فَانْحَتّ مِنْهُ نابُ

وَجَديرٌ بِمَنْ لَبَّ وَفَطِنَ، وَقَرُبَ وشطَنَ، أَنْ أَذْعَنَ لقَريعِ زَمَنٍ، وجَابِرِ زَمَنٍ [5]، مُذْ رضِعَ ثَدْيَ لِبانِهِ، خُصَّ بإفَاضَةِ تهْتَانِه [6]، نعشَ وفرَّجَ، وضافرَ فأبْهَجَ، ونافرَ فأزْعَجَ، وفَاءَ بحَقٍّ أبْلَجَ، أتْعَبَ مَنْ سيَلِي، وقُرِّظَ [7] إذْ هُزَّ وبُلِيَ، وتوّجَ صِفاتِه، بحُبِّ عُفَاتِه [8]:

فَلا خَلا ذَا بَهْجَةٍ يَمْتَدُّ ظِلُّ خِصْبِهِ
فَإنَّهُ بَرٌّ بِمَنْ آنَسَ ضَوْءَ شُهْبِهِ [9]
زانَ مَزَايَا ظَرْفِهِ بِلُبْسِ خَوفِ ربِّهِ

فلْيَهْنِ سيِّدَنَا فوزُهُ بمَفاخِرَ تأثَّلَتْ وجلَّتْ، وفَوْتُهُ بصَنَائِعَ تَمَّتْ وَنَمَّتْ، ويُلائِمُ قُرْبَ حضرَتِه، غوْثُ رِقِّه بحظٍّ [10] منْ حُظْوَتِه، فإنهُ تَليدُ ندْبٍ، وَشَرِيدُ جَدْبٍ [11]، وجَرِيحُ نوَبٍ أثَّرَتْ، ونَاظِمُ قَلائِدَ [12] تَسيَّرَتْ، إذَا جَاشَ

---

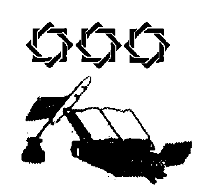
(١) يبتسم.
(٢) بالكسر ـ سخيّ.
(٣) شدّة.
(٤) لقيامته مقامه ونيابته عنه.
(٥) بفتح الميم؛ أي: لسيد مختار في زمنه.
(٦) مصدر هتنت السماءُ إذا هطلت.
(٧) مُدِحَ.
(٨) بحبّه سائليه.
(٩) رأى نور صفاته.
(١٠) بنصيب.
(١١) طريد قحط.
(١٢) جمع قلادة، المراد بها: مُلَح الكلام المنظور والمنثور.

لخُطبَةِ فلاَ يوجَدُ قائلٌ، ثُمَّ قُسٌّ ثُمَّ باقلٌ، فَإنْ حبَّرَ (١) قُلْتَ: حبَرٌ نُمنمَتْ(٢)، وخلْتَ رِيَاضاً قَدْ نَمتْ، هَذَا ثُمَّ شِربُهُ برْضٌ (٣)، وقوتُهُ قرْضٌ، وفلَقُهُ غسَقٌ، وجِلْبابُهُ خلَقٌ، وقَدْ قَلِقَ لتوَغُّرِ غَريمٍ(٤) غاشِمٍ، يَستَحثّهُ بحقٍّ لازِمٍ، فَإنْ منَّ سَيدُنا بكَفِّهِ، بهبَاتِ كَفِّهِ، توشّحَ بمَجْدٍ(٥) فاقَ، وبَاءَ بأجْرِ فكّي منْ وثَاقٍ، لا خلَتْ سَجَايا(٦) خُلُقِه، تَرفدُ شائمَ برْقِه، بمَنٍّ ربٍّ أزَليٍّ، حيٍّ أبَديٍّ، قَالَ: فَلَمَّا استَشَفَّ الأمِيرُ لآليهَا، ولَمَحَ السِّرَّ المُودَعَ فيهَا، أوْعَزَ في الحَالِ بقَضَاءِ دَيْني، وفَصَلَ بَيْنَ خصْمي وبيْني، ثُمَّ استَخْلَصَني لمُكَاثرَتِه (٧)، واختَصَّني بأثَرَتِه(٨)، فلبِثْتُ بضْعَ سنينَ أنعَمُ في ضيافَتِه، وأرْتَعُ (٩) في رِيفِ رافَتِه، حتَّى إذَا غمَرَتْني مواهبُهُ (١٠)، وأطالَ ذَيْلي ذَهبُهُ، تَلَطَّفتُ في الارتحَالِ، علَى مَا تَرَى منْ حُسْنِ الحَالِ، قَالَ: فقلْتُ لَهُ شُكراً لمَنْ أتاحَ لَكَ لُقيانَ السَّمْحِ الكَريمِ، وأنقَذَكَ به منْ ضغْطَةِ الغَريمِ! فقَالَ: الحَمْدُ للهِ علَى سَعَادَةِ الجَدِّ، والخُلوصِ منَ الخَصْمِ الألَدِّ(١١) ثُمَّ قَالَ: أيُّما أحَبُّ إلَيْكَ أنْ أُحذيكَ (١٢) منَ العطَاءِ، أمْ أُتحفَكَ بالرِّسالَةِ الرّقْطاءِ؟ فقُلْتُ: إمْلاءُ الرِّسَالَةِ أحَبُّ إلَيَّ! فقَالَ: وهُوَ وحَقِّكَ أخفُّ علَيَّ، فَإنَّ نحلَةَ مَا يَلِجُ في الآذَانِ، أهْوَنُ منْ نحلَةِ مَا يخرُجُ منَ

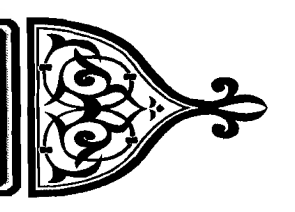
---

(١) إن كتب وأنشأ.
(٢) نقشت.
(٣) قليل.
(٤) شدَّة الحرّ، والغريم: هو ربّ الدَّين.
(٥) برفعة قدر زائدة.
(٦) جمع سجيَّة، بمعنى: الطبيعة.
(٧) لمفاخرته بكثرة العدد.
(٨) بفضيلته وتقدمه.
(٩) أرعى.
(١٠) جمع موهبة، بمعنى: الهبة والعطيَّة.
(١١) الشديد الخصومة.
(١٢) أعطيك.

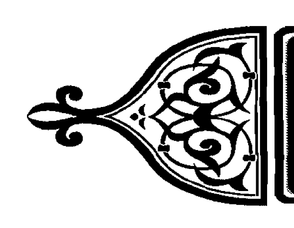
الأرْدانِ ، ثُمَّ كَأنَّهُ أَنِفَ(١) واسْتَحْيا، فجمَعَ لِي بَيْنَ الرِّسَالَةِ والْحُذْيا(٢) ، فَفُزْتُ مِنْهُ بِسَهْمَينِ(٣) ، وَفصَلْتُ عنهُ بغُنْمَينِ، وأُبْتُ إلَى وَطَنِي قَرِيرَ(٤) الْعَيْنِ، بِمَا حُزْتُ مِنَ الرِّسَالةِ والْعَيْنِ.



(١) استنكف.
(٢) العطيَّة.
(٣) بنصيبين.
(٤) مسروراً.



المَقَامَةُ السَّابِعَةُ والعِشْرُون الْوَبَرِيَّةُ



حكَى الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: مِلتُ فِي رَيِّقِ زَمَانِي الَّذِي غبرَ (١)، إلَى مُجاوَرَةِ أَهْلِ الوبَرِ (٢)، لآخُذَ إخْـذَ نُفُوسِهِـم الأبيَّة، وألسنَـتِهِمِ العـربيَّة، فشمَّرْتُ تشْـميرَ مِنْ لاَ يَأْلُو (٣) جُهْداً، وجَعَـلْتُ أضْرِبُ فِي الأرضِ غَوْراً ونَجْداً، إلَى أن اقْـتَنَيْتُ هَجْمَةً مِنَ الـرَّاغِيَة (٤)، وثَلَّةً مِنَ الثَّـاغيَة (٥)، ثُمَّ أوَيتُ إلَى عَرَبٍ أَرْدَاف أَقْـيَالٍ، وأبنَاء أَقْوَالٍ، فَـأَوْطَنُوني (٦) أَمنَعَ جِنَابٍ، وفلُّوا (٧) عَنِّي حَـدَّ كُلِّ نَابٍ، فَمَـا تَأَوَّبَني عِندَهُـم هَمٌّ، ولاَ قَرَعَ صَفَـاتي سَهْمٌ، إلَى أَنْ أضْلَلْتُ (٨) فِي لَيلَةٍ مُنيرةِ البَدْرِ، لَقْحةً غَزيرَةَ الدَّرِّ (٩)، فَلَمْ أَطِبْ نفْـساً بِإلْغَـــاء طلَبِهَا، وإلْـقاء حبْلِـهَـا عَلَى غَارِبِهَـا، فتدثَّرْتُ فـرَساً مِحْـضَاراً (١٠)، واعْتَـقَلْتُ لَدْنًـا خَطَّاراً ، وَسَرَيْـتُ لَيْلَتِي جَـمْعَـاءَ أجوبُ البَـيداءَ، وأَقْـتَري (١١) كُلَّ شَـجْرَاءَ ومَرْدَاء، إلَى أَنْ نَـشَرَ الصُّبْـحُ رَايَاته، وَحَيْعَـلَ الدَّاعِي إلَى صَلاته، فَنَزَلْتُ عَـنْ مَتْنِ الرَّكُوبَةِ، لأدَاءِ الْمَكْـتوبَة، ثُمَّ حُلْتُ فِي صَهْـوَتِها (١٢)، وَفَرَرْتُ عنْ شَـحْوَتِهـا، وسرْتُ لا أَرَى أثَراً إلاَّ

---

(١) مضى وتقدَّم.

(٢) هم أهل البدو.

(٣) يقصر.

(٤) الإبل.

(٥) الغنم.

(٦) أحلّوني وأنزلوني.

(٧) كسروا.

(٨) ذهبت لي ضالّة.

(٩) كثير اللَّبن.

(١٠) كثير الحضر، وهو الْعَدْو والسُّرعة.

(١١) أتتبع.

(١٢) الصهوة: مقعد الفارس من الفرس.

قفَوتُه، ولاَ نشَزاً (١) إلا علَوتُهُ، ولاَ وَاديا إلا جزَعتُه، ولاَ رَاكِباً إلا استَطْلَعتُهُ، وجِدّي مَعَ ذَلكَ يَذهَبُ هَدَراً، ولاَ يجِدُ وِرْدُهُ صَدَراً، إلَى أَنْ حَانَتْ صكَّةُ عُمَيٍّ، ولَفحُ (٢) هَجيرٍ يُذْهِلُ غَيْلانَ (٣) عنْ ميٍّ، وكَانَ يومًا أطْولَ من ظِلِّ القَنَاةِ، وأَحَرَّ مِنْ دَمْعِ الْـمقْلات، فَأَيْقَنْتُ أَنِّي إنْ لَمْ أَستَكِنّ مِنَ الْوَقْدَةِ (٤)، وأَستَجِمّ بالرّقْدَةِ، أدْنَفَني اللُّغُوبُ، وَعَلقَتْ بي شَعوبُ، فعُجْتُ إلَى سرْحَةٍ كَثيفَةِ الأغصانِ، وريقَةِ (٥) الأَفْنَانِ، لأغَوّرَ تَحتَهَا إلَى الْـمُغَيربَانِ، فوَاللهِ مَا استَرْوَحَ نفَسِي، ولاَ استَراحَ فَرَسِي، حَتَّى نظَرْتُ إلَى سَانِحٍ، فِي هَيئَةِ سائِحٍ (٦)، وَهُوَ ينتَجِعُ نُجْعَتِي (٧)، وَيَشْتَدُّ إلَى بُقْعَتِي، فكَرِهْتُ انْعِيَاجَهُ (٨) إلَى مَعَاجي، فاستَعَذْتُ بِاللهِ مِنْ شرِّ كُلّ مُفَاجِي، ثُمَّ تَرَجَّيْتُ أَنْ يَتَصَدَّى مُنشداً (٩)، أَوْ يتبدَّى مُرشداً، فَلَمَّا اقتربَ مِنْ سَرْحَتِي (١٠)، وكَادَ يحِلَّ بسَاحَتِي، أَلْفيتُهُ شَيْخَنَا السَّرُوجِيَّ مُتَّشِحاً بجِرابِه، وَمُضْطَغِنًا أُهبَةَ تَجْوَابِهِ (١١)، فَآنَسَنِي إذْ وَرَدَ، وأَنْسَاني مَا شَرَدَ، ثُمَّ اسْتَوْضَحْتُهُ مِنْ أَينَ أثَرُهُ، وَكَيْفَ عُجَرُهُ وبُجَرُهُ (١٢)؟ فأنشَدَ بَديهاً، ولَمْ يَقُلْ إيهاً:

قُلْ لِمُستَطْلِعٍ دَخِيلَةَ أَمْرِي
لَكَ عِندي كَرَامَةٌ وَعَزَازَهْ

---

(١) هو المكان المرتفع.
(٢) اللَّفح: إصابة حرّ الشمس والنَّار.
(٣) اسم ذي الرّمّة الشَّاعر.
(٤) شدَّة الحرّ.
(٥) كثيرة الأوراق.
(٦) ذاهب في الأرض.
(٧) يقصد جهتي.
(٨) انعطافه.
(٩) معرفًا للضَّالة.
(١٠) شجرتي.
(١١) سَيْرِه في الأرض وقَطْعِه لها.
(١٢) حاله باطنًا وظاهرًا.

أنَا مَا بَيْنَ جَوْبِ أَرْضٍ فَأَرْضٍ
وسُرًى في مَفَازَةٍ فَمَفَازَهْ
زادِيَ الصَّيْدُ والمَطِيَّةُ نعْلي
وجَهَازِي الجِرابُ والعُكَّازَهْ
فَإذَا مَا هَبَطْتُ مِصْراً فَبَيْتي
غُرفَةُ الخَانِ والنَّديمُ جُزازَهْ
ليسَ لِي مَا أُسَاءُ[1] إنْ فَاتَ أوْ أحْـ
ـزَنُ إنْ حَاولَ الزَّمَانُ ابتِزازَهْ[2]
غيرَ أنِّي أبِيتُ خِلواً مِنَ الهَـ
ـمِّ ونَفْسي عنِ الأسَى مُنْحَازَهْ[3]
أرْقُدُ اللَّيْلَ مِلْءَ جَفْني وقَلْبي
بَاردٌ مِنْ حَرَارةٍ وحَزَازَهْ[4]
لا أُبَالي مِنْ أيِّ كَأسٍ تَفَوَّقْـ
ـتُ ولاَ مَا حَلاوةٌ منْ مَزَازَهْ[5]
لا ولاَ أسْتَجِيزُ أنْ أجْعَلَ الذُّ
لَّ مَجَازاً إلَى تَسَنِّي إجَازَهْ
وإذَا مَطْلَبٌ كَسَا حُلَّةَ العَا
رِ فَبُعْداً لِمَنْ يَرُومُ نَجَازَهْ

(١) بضم الهمزة؛ أي: أحزن عليه.
(٢) استلابه.
(٣) بعيدة منعزلة.
(٤) هي وجع يعتري القلب من الحزن والهَمِّ.
(٥) هي طعم بين الحلاوة والحُمُوضَة.

وَمَتَى اهْتَزَّ لِلدَّنَاءة (١) نِكْسٌ
عَافَ طَبْعِي طِبَاعَهُ وَاهْتِزَازَهْ (٢)
فَالْمَنَايَا وَلاَ الدَّنَايَا وَخَيْرٌ
مِنْ رُكُوبِ الْخَنَا (٣) رُكُوبُ الْجِنَازَهْ (٤)

ثُمَّ رَفَعَ إِلَيَّ طَرْفَهُ، وَقَالَ: لأمْرٍ مَا جدَعَ قَصيرٌ أنفَهُ، فأخبَرْتُهُ خبرَ نَاقتِي السَّارِحَةِ، ومَا عانَيْتُهُ فِي يَوْمِي وَالبَارِحَةِ، فَقَالَ: دعِ الالْتِفَاتَ إِلَى مَا فَاتَ، وَالطِّمَاحَ (٥) إِلَى مَا طاحَ، وَلاَ تَأسَ (٦) عَلَى مَا ذَهَبَ، وَلَوْ أَنَّهُ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَلاَ تَسْتَمِلْ مَنْ مَالَ عَنْ رِيحِكَ (٧)، وَأَضْرِمْ نَارَ تَبَارِيحِكَ، وَلَوْ كَانَ ابنَ بُوحِكَ (٨)، أَوْ شَقيقَ رُوحِكَ، ثُمَّ قَالَ: هلْ لَكَ فِي أَنْ تَقِيلَ وتتحامَى القَالَ وَالقيلَ؟ فَإِنَّ الأَبْدانَ أَنْضَاءُ تَعَبٍ، وَالهَاجِرَةَ (٩) ذاتُ لَهَبٍ، وَلَنْ يَصْقُلَ الْخَاطِرَ، ويُنَشِّطَ الفَاتِرَ (١٠) كَقَائِلَةِ الْهَوَاجِرِ، وَخُصُوصاً فِي شَهْرَيْ نَاجِرٍ، فَقُلْتُ: ذاكَ إِليْكَ، ومَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقّ عليْكَ، فافتَرَشَ التُّرْبَ (١١) وَاضْطجَعَ، وأظْهَرَ أَنْ قَدْ هجَعَ، وَارتَفَقْتُ عَلَى أَنْ أحرُسَ، ولاَ أَنْعَسَ، فأخَذَتْنِي السِّنَةُ، إِذْ زُمَّتِ الأَلْسِنَةُ (١٢)، فَلَمْ أُفِقْ إلا وَاللَّيْلُ قَدْ تولّجَ،

---

(١) الخساسة. (٢) فرحه واشتياقه.
(٣) الفحش.
(٤) بالكسر؛ النعش يُحْمَلُ عليه الميّت، وبالفتح؛ الميّت نفسه.
(٥) رفع البصر إلى الشيء. (٦) لا تأسف وتحزن.
(٧) جهتك وجانبك. (٨) ابن نفسك.
(٩) شِدَّة الحَرّ. (١٠) يقوي الضَّعيف.
(١١) جعل التراب فرشه. (١٢) كفَّت عن الكلام.

وَالنَّجْمُ قَدْ تبلّجَ، وَلاَ السَّروجيَّ وَلاَ الْمُسرَجَ (١)، فبتُّ بلَيلَةٍ نَابِغيَّةٍ، وأحْزانٍ يَعقُوبيَّةٍ، أُسَاوِرُ الوُجومَ، وأُسَاهِرُ النّجومَ، أُفكِّرُ تَارَةً فِي رُجْلَتي، وَأخْرَى فِي رَجْعَتي، إلَى أَنْ وَضَحَ لِي عِنْدَ افترَارِ ثغْرِ الضَّوِّ فِي وَجْهِ الْجَوِّ، رَاكِبٌ يخِدُ فِي الدَّوِّ، فألْمَعْتُ إليْهِ بثَوْبي، ورَجَوْتُ أَنْ يُعَرِّجَ إلَى صوبي، فَلَمْ يَعْبأ بإلْماعي، ولاَ أوَى (٢) لالْتِياعِي (٣)، بَلْ سَارَ عَلَى هِينَتِه، وَأَصْمَاني بسَهْمِ إهَانَتِه، فَأَوْفَضْتُ (٤) إلَيْهِ لأسْتَرْدِفَه (٥)، وَأَحْتَمِلَ تَغَطْرُفَهُ (٦)، فَلَمَّا أَدْرَكْتُهُ بَعْدَ الأينِ، وأجَلْتُ فيهِ مَسْرَحَ العَينِ، وجَدْتُ نَاقَتِي مَطِيَّتَهُ، وَضَالَّتِي لُقطتَهُ، فَمَا كَذَّبْتُ أَنْ أذْرَيْتُهُ (٧) عَنْ سَنَامِهَا، وَجَاذَبْتُهُ طرَفَ زِمَامِها، وَقُلْتُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُهَا ومُضِلُّهَا (٨)، ولي رِسلُها ونسْلُها، فَلا تكُنْ كأشْعَبَ، فتُتْعبَ وتَتْعَبَ، فَأَخَذَ يَلْدَغُ (٩) وَيَصْئي (١٠)، ويَتَّقِحُ (١١) وَلاَ يَستَحْيي، وبَيْنَا هُوَ يَنْزو (١٢) ويَلينُ، وَيَسْتَأسِدُ (١٣) ويستَكِينُ، إذْ غَشِينَا أَبُو زيْدٍ لابِساً جِلدَ النّمِرِ، وهاجِمًا هُجومَ السَّيلِ الْمُنهَمِرِ، فَخِفْتُ وَاللهِ أَنْ يكُونَ يومُهُ كأمْسِه، وبدرُهُ مثلَ شمْسِه، فألحَقَ بالقارِظَينِ، وأَصيرَ خَبَراً بَعْدَ عَينٍ، فَلَمْ أَرَ إلا أَنْ أَذْكَرْتُهُ العُهودَ المْنسِيّةَ، وَالفَعْلَةَ الإمْسِيَّةَ، ونَاشَدْتُهُ اللهَ (١٤)، أوَافَى

---

(١) لم يجدْ أبا زيد ولا فرسه.
(٢) ولم يرحم ويشفق.
(٣) حرقة قلبي؛ لأنَّ الالتياع حُرْقَة القلب.
(٤) أسرعت.
(٥) ليحملني خلفه.
(٦) تكبره وتيهه. والغطريف: السَّيِّدُ.
(٧) ألقيته.
(٨) الذي أضاعها وصاحب الضَّالَّة.
(٩) يؤذي بلسانه.
(١٠) يصيح.
(١١) يفعل الوقاحة وعدم الحَيَاء.
(١٢) يشتد ويثب.
(١٣) يقوى كالأسد.
(١٤) أقسمتُ عليه باللهِ.

للتَّلافِي، أمْ لِمَا فيهِ إتْلافي، فَقَالَ: مَعاذَ اللهِ أَنْ أُجهِزَ علَى مَكْلُومي، أَوْ أصِلَ حَرُورِي بسَمُومي (١)! بلْ وَافَيْتُكَ لأخْبُرَ كُنْهَ حَالِكَ، وأكُونَ يَمينًا لشِمَالِكَ، فَسكَنَ عِنْدَ ذَلكَ جَاشِي (٢)، وانْجَابَ اسْتِيحَاشِي (٣)، وأطلَعْتُهُ طِلْعَ اللِّقْحَة، وتبَرْقُعَ صَاحِبي بالْقِحَة (٤)، فنظَرَ إلَيْه نَظَرَ ليْث العرِّيسَة إلَى الفَريسَة، ثُمَّ أشْرَعَ قِبَلَهُ الرُّمْحَ، وأقْسَمَ لَهُ بِمَنْ أنَارَ الصُّبْحَ، لَئِنْ لَمْ يَنجُ مَنْجَى الذُّبَابِ، ويرْضَ منَ الغَنيمَةِ بالإيابِ، لَيُورِدَنَّ سِنَانَهُ وَرِيدَهُ، ولَيَفْجَعَنّ به وَلِيدَهُ ووَديدَهُ (٥)، فنبَذَ زِمَامَ النَّاقَة وَحَاصَ، وأفلَتَ ولهُ حُصَاصٌ (٦)، فَقَالَ لِي أبُو زَيْدٍ: تسَلَّمْها وَتسنَّمْها، فَإنَّهَا إحْدَى الْحُسْنَيَيْن، ووَيْلٌ أهْوَنُ منْ وَيْلَيْن.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَحِرْتُ بَيْنَ لوْمِ أبي زَيْدٍ وشُكْرِه، وَزِنَة نَفْعِه بضُرِّه، فكأنَّهُ نُوجِيَ بذات صدْرِي، أوْ تَكهَّنَ مَا خامَرَ سِرِّي (٧)، فَقَابلَني بوجْهٍ طَلِيقٍ، وأنْشَدَ بلِسَانٍ ذَلِيقٍ (٨):

يا أخِي الْحَامِلَ ضَيْمِي ... دونَ إخْوَانِي وقَوْمِي
إنْ يكُنْ سَاءَكَ أمْسِي ... فَلَقَدْ سرّكَ يَوْمِي
فَاغْتَفِرْ ذاكَ لِهذا ... وَاطّرِحْ شُكْرِي ولَوْمِي

ثُمَّ قَالَ: أنَا تَئِقٌ (٩)، وأنْتَ مَئِقٌ، فكَيْفَ نتَّفِقُ؟ وولَّى يفْرِي أديم الأرضِ، ويرْكُضُ طِرْفَهُ أيّمَا رَكْضٍ، فَمَا عدَوْتُ (١٠) أنِ اقْتَعَدْتُ مَطِيّتي،

---

(١) السَّمُوم: ريح حارَّة نهاراً.
(٢) الجأش: روع القلب واضطرابه عند الفزع.
(٣) توحشي، وهو ضد الأُنس.
(٤) تلبسه بالوقاحة وصلابة الوجه.
(٥) محبّه وصديقه.
(٦) هو الْعَدْوُ والضراط.
(٧) ما خَالَطَ قَلْبِي.
(٨) الذليق والذَّلِق: الحَادّ.
(٩) مغتاظ.
(١٠) انصرفت.

وعُدْتُ لِطِيَّتي [1]، حتَّى وَصَلْتُ إلَى حِلَّتِي، بَعْدَ اللَّتَيَّا [2] والَّتِي.

تفسِير مَا أدوع هذه الْمَقَامَةُ من الألفاظ اللُّغوية وَالأمثال العربية

قوله: (ريق زمَاني) ورائقه يعني أوله وَقَدْ يخفف فيقال: ريق، وقَوْلُهُ: (آخذ أخذ نفوسهم الأبية) يعني اقتدي بهم يُقَالُ مِنْهُ أخذ إخذه وأخذه بكسر الْهمزة وفتحها، (وَالهجمة) نحو الْمَائة من الإبل، (وَالثلة) القطيع من الغنم، (وَالراغية) الإبل، (وَالثاغية) الشاة.

ومنه قولهم: مَا له راغية وَلاَ ثاغية أي لا نَاقة وَلاَ شاة، وقَوْلُهُ: (أرداف أقيال) أي يخلفون الْملوك إذَا غابُوا، وَقَوْلُهُ: (أبنَاء أقوَال) أي فصحاء، يُقَالُ للمنطيق: إنَّهُ ابن أقوَاله، وقَوْلُهُ: (فتدثرت فرساً محاضراً) التدثر الوثوب عَلَى ظهر الفرس، وَالمحْضار وَالمحْضير الشديد العدو مأخوذ من الحْضر وهو العدو، وقَوْلُهُ: (اقترَى كل شجراء ومرداء) الاقتراء تتبع الأرض وَالشجراء ذات الشجر، وَالْمراداء الخْالية من النبات ومنه اشتقاق الأمرد لخلو وجهه من الشعر، وقَوْلُهُ: (حيعل الداعي إلَى صلاته) يعني به قول الْمؤذن حي عَلَى الصلاة حي عَلَى الفلاح، وَالْمصدر مِنْهُ الحْيعلة ومثله من الْمصادر الْهيللة وَالحمدله وَالحوقلة وَالبسملة وَالحسبلة وَالسيحلة وَالجعفلة فالهيللة حكاية قول: لا إلـه إلا الله، وَالحمدله حكاية قول الحْمد لله، وَالحوقلة حكاية قول لا حول وَلاَ قوة إلا بالله، وَالبسملة حكاية قول بسم الله، وَالحسبلة

(١) لقصدي وجهتي.

(٢) أي: بعد مقاساة الدواهي الصغيرة والعظيمة.

حكاية قول حسبنَا الله، وَالسبحلة حكاية قول سبحان الله، وَالجعفلة حكاية قول جعلت فداك، وقَوْلُهُ: (فنزلت عن متن الركُوبة) يعني المْركُوبة يُقَالُ: نَاقة ركُوب وركُوبة وحلوب وحلوبة وَقَدْ قرئ (فمنها ركُوبتهم) (وَالصهوة) مقعد الفارس (وَالشحوة) الخْطوة (وَالجزع) قطع الوَادي عرضاً، وقَوْلُهُ: (صكة عمي) يعني به قائم الظهيرة، وَقَدْ اختلف فِي أصله فقيل كَانَ عُمَّي رجلاً مغوَاراً فغزا أقوَامًا عند قائم الظهيرة وصكهم صكة شديدة فصار مثلاً لكل من جاء ذلك الوقت، وقيل المْراد به الظبي لأنه يسدر فِي الْهوَاجر ويذهب بصره فيصطك وكذلك الحْية وَاصطكاك الظبي بِمَا يستقبله كاصطكاك الأعمَى ثُمَّ صغر الأعمَى تصغير الترخيم فقيل عمي كَمَا صغروا أَسْود وأزهر فَقَالُوا سويد وزهير، وقَوْلُهُ: (وكان يوم أطول من ظل القنَاة) يوصف الْيَوْم الطويل بظل القنَاة كَمَا يوصف الْيَوْم القصير بإبهام القطاة، وَالعرب تزعم أَنْ ظل الرمح أطول ظل. ومنه قول شبرمة بن الطفيل:

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنَا وَاصطفاف المْزاهر

وقَوْلُهُ: (أحرّ من دمع المْقلات) المْقلاة هِيَ المْرأة الَّتِي لا يعيش لَهَا ولد فدمعها أبدا حار لحزنها لأنه يُقَالُ: إنْ دمعة الحْزن حارة ودمعة السرور باردة ولهَذَا قيل للمدعو له أقر الله عينه مأخوذ من القر وهو البرد، وقيل للمدعو عليه اسْخن الله عينه مأخوذ من السخنة وهي الحْرارة وقيل أَنْ إقرار العين مأخوذ من القرار فكأنه دعا له أَنْ يرزق مَا يقر عينه حَتَّى لا تطيح إِلَى مَا لغيره، وكانت الجْاهلية تزعم أَنْ المْقلات إذَا وطئت عَلَى قتيل شريف عاش ولدها وإِلَى هذا أشار بشر بن أبي حازم فِي قوله:

تظل مقاليت النساء يطأنه
يقلن ألا يلقى على المرء مئزر

وقَوْلُهُ: (علقت بي شعوب) يعني الْمنية وَلاَ يدخل هَذَا الاسم أداة التعريف مثل دجلة وعرفة وقَوْلُهُ: (لا غور تحتها إلَى الْمغيربان) التغوير النزول للقائلة كَمَا أَنْ التعريس النزول آخر اللَّيْل للتهويم أَو الاستراحة، وَالْمغيربان تصغير الْمغرب وكَانَ قياس تصغيره الْمغيرب إلا أَنْ العرب ألحقت آخره ألفاً ونونًا عَلَى طريق الشذوذ وقَوْلُهُ: (مضطغنًا أهبة تجوَابه) الاضطغان أَنْ يحمل الشيء تحت حضنه وَالاضطبان أَنْ يحمله تحت ضبنه وَالضبن مَا بين الإبط وَالكشح وكلاهمَا متقارب ويُقَالُ أول مراتب الحْمل الإبط ثُمَّ الضبن وهو أَسْفل الإبط ثُمَّ الحْضن وهو عند الجْنب، وَالتجوَاب مصدر جاب، وجميع الْمصادر الَّتِي جاءت عَلَى تفعال هِيَ بفتح التاء إلا قولهم تبيان وتلقاه لا غير وزاد بَعْضهُمْ تيصال، وقَوْلُهُ: (عجري وبجري) يريد به جميع أمري الظاهر وَالباطن، وأصل العجر العقد الناتئة فِي العصب وَالبجر العقد النَاتئة فِي البطن، وقَوْلُهُ: (ولم يقل إيها) أي لم يأمرني بالكف، يُقَالُ للمستزاد إيهٍ وللمستكف إيها، وقَوْلُهُ: (لأمر مَا جدع قصير أنفه) قصير هَذَا هو مولَى جذيمة الإبرش وكَانَ جدع أنفه بيده حين قتلت الزباء مولاه ثُمَّ أتاها وأوهمها أَنْ عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة هو الَّذِي جدع أنفه اتهامًا له بأنه غش خاله جذيمة إِذْ أشار عليه بقصدها، فحظي بهَذَا القول عندها حَتَّى جهزته مراراً إلَى العراق فكان يأتيها بالطرف مِنْهُ إلَى أَنْ اسْتصحب فِي آخر نوبة الرجال فِي الصناديق وتوصل إلَى قتلها وَالأخذ بثأر مولاه منها، وقصته مشهورة، وقَوْلُهُ: (ولو كَانَ ابن بوحك) يعني ولد الصلب إشارة إلَى

أَنَّهُ ولد فِي باحـة الدار وهي عرصتها وجـمعها بوح، وقـيل: أَنْ البوح من أَسْمَاء الـذكر، وقَوْلُهُ: (في شهـري نَاجر) همَا شـهرا الحْر، وقيل: إنـهمَا حزيران وتموز، وأنكر أَبُو بكر بن دريد هَـذَا القول وَقَالَ همَا طلوع نجمين، وقَوْلُهُ: (بت بليلة نَابغية) أومأ به إلَى قول النَابغة :

فبت كأني ساورتني ضئيلة   من الرقش فِي أنيابها السم نَاقع

وقَوْلُهُ: (فألمـعت إليه بثوبي) يعنـي أشرا إليه يُقَالُ مِنْـهُ الْمع ولمع بمعنَى، وقَوْلُـهُ: (يلدغ ويصئ) هَـذَا مـثل يضـرب لمن يظلم ويـشكُو يُقَـالُ صأت العقرب تصئ صئياً وصئياً بفـتح الصاد وكسرها إذَا صوتت وكذلك الفرخ، ومَا أحسن قول ابن الرومي فِي هَذَا الْمعنَى:

تشـكي المحْـب وتشـكُو وهـي ظالمْـة   كالقـوس تصمي الرمَايَـا وهي مرنَان

وقَوْلُهُ: (ينـزو ويلين) هَـذَا الْمثل يـضرب لمن يتعزز ثُـمَّ يذل ويُقَالُ: إنْ أصله الجْدي ينزو وهو صغير فَإذَا كبر لان، وقَوْلُهُ: (لابساً جلد النمر) هَـذَا مثل يضرب للمتقح الجْريء لأن النمر أجـرأ سبع وأقله احتمَالاً للضيم ومن هَـذَا اشتـقاق قولهم تنمر أي صـار مثل النمر، وقَوْلُهُ: (فـالحق بالقارظين) الأصل فِي القارظ أَنَّهُ الَّذِي يجني القـرظ وهو النبات الْمدبوغ به، وَالقارظان الْمشار إلـيهما أحـدهمَا من عنزة وَالآخـر من النمر بـن قاسط وكانَا خـرجا يجنيان القرظ فلم يرجعا وَلاَ عرف لهمَـا خبر فضرب بهمَا الْمثل لكل غائب لا يرجى إيابه وإليهمَا أشار أَبُو ذؤيب فِي قوله:

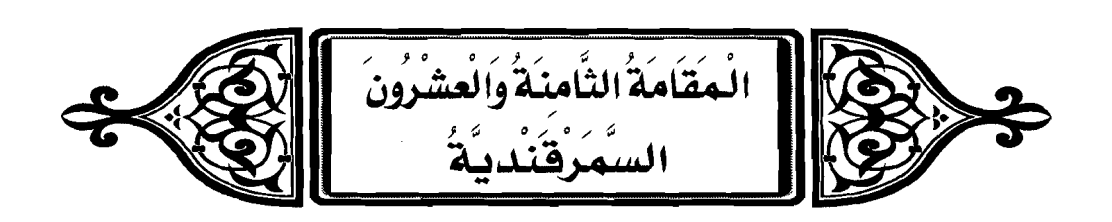
وحَتَّى يؤوب القارظان كلاهمَا   وينشر فِي القتلَى كليب لوَائل

وقَوْلُهُ: (حـروري بسمومـي) الحْرور الريح الحْـارة ليلاً وَالسمـوم الريح

الحْارة نهاراً وَقَدْ يُقَالُ إحداهمَا مقام الأخرَى مجازاً، وَقَالَ بعضهم: الحْرور يكُون ليلاً ونهاراً وَالسموم يختص بالنهار، وقَوْلُهُ: (ليث العريسة) يعني مأوَى السبع ويُقَالُ فيه عريس وعريسة بإثبات الْهاء وحذفها كَمَا يُقَالُ غاب وغابة وعرين وعرينة، فأمَا الغيل وَالخْيس فلم يلحقوا بهمَا الْهاء، وقَوْلُهُ: (أفلت وله حصاص) هَـذَا الْمثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفَى عليها بعد مَا كاد يهوي فِيهَا وَالحصاص العدو وقيل أَنَّهُ الضراط، وقوله: (ويل أهون من ويلين) هَـذَا مثل يضرب تسلية لمن نَابه بَعْضِ الْمكروه ومثله قول الراجز:

أبا منذر أفنيت فاستبق بَعْضنَا حنَانيك بَعْضِ الشر أهون من بَعْض

وقَوْلُهُ: (أنَا تئق وأنت مئق فكيف نتفق) هَـذَا الْمثل يضرب للمتنَافيين فِي الخْلق فإن التئق هو الْمتلئ غيظاً مأخوذ من قولهم: أتأقت الإنَاء إذَا ملأته، وَالْمئق هو الباكي فكأن التئق ينزع إلَى الشر لغيظه وَالْمئق يضيق ذرعاً باحتمَاله ومثله قول بَعْضهُمْ أَنَا كلف وأنت صلف، فكيف نأتلف، وقَوْلُهُ: (لطيتي) يعني لقصدي ووجهتي وَقَدْ يُقَالُ فِيهَا: طية بالتخفيف، وقَوْلُهُ: (بعد اللتيا وَالتي) اللتيا تصغير الَّتِي وهو عَلَى غير قياس التصغير الْمطرد لأن القياس أَنْ يضم أول الاسم إذَا صغر وَقَدْ أقر هَـذَا الاسم عَلَى الفتحة الأصلية عند تصغيرها إلا أَنْ العرب عوضته عن ضم أوله بأن زادت ألفاً فِي آخره وأجرت أَسْمَاء الإشارة عند تصغيرها عَلَى حكمه فَقَالَت فِي تصغير الَّذِي وَالتِي اللَّذيا وَاللَّتيا، وَفِي تصغير ذَا وذاك ذيا وذياك، وَقَد اختلف فِي معنَى قولهم: بعد اللَّتيا وَاللتِي فقيل: همَا من أَسْمَاء الداهية وقيل: الْمراد بهمَا بعد صغير الْمكروه وكبيره.



أخبرَ الْحارِثُ بنُ همَّامٍ قَالَ: اسْتَبْضَعْتُ في بَعْضِ أَسْفاري القَنْدَ (١)، وقَصدْتُ سمرْقَنْدَ، وكُنتُ يومئذٍ قَويمَ الشّطَاط (٢)، جَمُومَ النَّشاطِ، أرْمي عَنْ قَوْسِ الْمِراحِ إلَى غَرَضِ الأفْراحِ، وأَسْتَعينُ بِماءِ الشَّبابِ عَلَى ملامِحِ السّرابِ، فوَافَيْتُها بُكْرَةَ عَرُوبَةَ (٣)، بَعْدَ أَنْ كابَدْتُ الصُّعوبَةَ، فسَعَيْتُ وما ونَيْتُ (٤)، إلَى أَنْ حَصَلَ البيْتُ، فَلَمَّا نقَلْتُ إليْهِ قَنْدي، وملكْتُ قوْلَ عندي، عُجْتُ (٥) إلَى الْحَمَّامِ عَلَى الأثَرِ، فأمَطْتُ عنِّي وعْثاءَ السّفرِ، وأخذْتُ في غُسْلِ الْجُمْعَةِ (٦) بالأثَرِ، ثُمَّ بادَرْتُ في هَيْئَةِ الْخاشعِ إلَى مسجِدِها الجَامِعِ، لألْحَقَ بِمَنْ يَقْرُبُ منَ الإمَامِ، ويَقرِّبُ أفضَلَ الأنْعامِ، فَحَظيتُ بأنْ جَلَّيتُ في الْحَلْبَةِ، وتخيّرْتُ المْركَزَ (٧) لاستِمَاعِ الْخُطبةِ، ولَمْ يزَلِ النّاسُ يدخُلونَ في دينِ الله أفْواجاً، ويردُونَ فُرادَى وأزْوَاجاً، حَتَّى إذَا اكْتَظّ الجَامِعُ بحفْلِه (٨)، وأظَلَّ تَسَاوي الشّخْصِ وَظِلِّه، بَرزَ الْخَطيبُ في أُهْبَتِهِ، مُتهاديا خلْفَ عُصبتِهِ، فارْتَقَى في مِنْبَرِ الدَّعْوةِ، إلَى أَنْ مثَلَ (٩)

---

(١) عقيد ماء قصب السُّكّر.

(٢) معتدل القامة.

(٣) هو يوم الجمعة.

(٤) ما تراخيت.

(٥) انعطفت.

(٦) بالخبر المأثور في غُسْل الجمعة.

(٧) أراد موضع الجلوس، وأصله: وسط الدائرة.

(٨) بجمعه.

(٩) انتصب قائمًا.

بالذِّرْوَةِ، فَسَلَّمَ مُشِيراً باليَمِينِ، ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى خُتِمَ نَظْمُ التَّأذينِ، ثُمَّ قَامَ وَقَالَ: الحَمدُ لِلهِ المَمْدوحِ الأسْمَاءِ، المحْمودِ الآلاءِ، الوَاسِعِ العَطَاءِ، المَدْعُوِّ لحَسْمِ اللأوَاءِ (١)، مَالِكِ الأمَمِ، ومُصَوِّرِ الرِّمَمِ (٢)، وَأهْلِ السَّمَاحِ وَالكَرَمِ، وَمُهلِكِ عَادٍ وإرَمَ، أدْرَكَ كُلَّ سِرٍ عِلْمُهُ، ووَسِعَ كُلَّ مُصِرٍّ حِلمُهُ، وعَمّ كُلَّ عالَمٍ طَوْلُهُ، وهَدَّ (٣) كُلَّ مَاردٍ حولُهُ (٤)، أحمَدُهُ حمْدَ موَحِّدٍ مُسلِمٍ، وأدعوهُ دُعاءَ مُؤَمِّلٍ مُسَلِّمٍ، وَهُوَ اللهُ لا إلـهَ إلا هُوَ الوَاحِدُ الأحَدُ، العادلُ الصَّمَدُ، لا ولَدَ لَهُ وَلاَ وَالد، وَلاَ رِدْءَ مَعَهُ (٥) وَلاَ مُسَاعد، أَرْسَلَ مُحَمَّداً للإسْلامِ مُمَهِّداً، ولِلملَّةِ مُوطِّداً، ولأدلَّةِ الرُّسُلِ مؤكِّداً، وللأسْوَدِ وَالأحْمَرِ مُسَدِّداً (٦)، وَصَلَ الأرْحَامَ، وعلَّمَ الأحكَامَ، ووَسَمَ الحَلالَ وَالحَرامَ، ورسَمَ الإحْلالَ وَالإحْرَامَ، كَرَّمَ اللهُ محَلَّهُ، وكَمَّلَ الصَّلاةَ وَالسَّلامَ لَهُ، ورَحِمَ آلَهُ الكُرَمَاء، وأهلَهُ الرُحَماء، مَا همرَ رُكامٌ، وهدَرَ (٧) حَمَامٌ، وسرَحَ سَوَامٌ، وسَطَا حُسَامٌ (٨)، اعْمَلُوا ـ رَحِمكُمُ اللهُ ـ عَمَلَ الصُّلَحَاء، وَاكْدَحُوا لمَعَادكُمْ كَدْحَ الأصِحَّاء، وَارْدَعوا أهْوَاءكُمْ ردْعَ الأعْداء، وأَعِدُّوا للرِّحْلَةِ (٩) إعْدَادَ السُعَدَاء، وَادَّرِعُوا حُلَلَ الوَرَعِ، وَدَاوُوا عِلَلَ الطَّمَعِ، وَسَوُّوا (١٠) أَوَدَ العَمَلِ، وَعَاصُوا وَسَاوسَ الأمَلِ، وَصَوِّرُوا لأوْهَامِكُمْ حُؤُولَ الأحْوَالِ (١١)، وَحُلولَ الأهْوَالِ، ومُسَوَرَةَ الأعْلالِ (١٢)، ومُصارَمَةَ

---

(١) لقطع الشدَّة.
(٢) معيد العظام البالية.
(٣) كسر وهدم.
(٤) قوته.
(٥) ليس معه معين.
(٦) مصلحًا ومرشدًا.
(٧) صوَّت وصَاح.
(٨) أي: صال سيفٌ قاطع.
(٩) المراد بها الانتقال من الدنيا بالموت.
(١٠) قوموا وعدلوا.
(١١) تغير الحالات.
(١٢) مواثبة العلل.

الْمَالِ وَالآلِ، وَادَّكِرُوا الْحِمَامَ [١] وَسَكْرَةَ مَصْرَعِهِ، وَالرَّمْسَ [٢] وَهَوْلَ مُطَّلَعِه، وَاللَّحْدَ وَوَحْدَةَ مُودِعِهِ، وَالْمَلَكَ وَرَوْعَةَ سُؤَالِهِ وَمَطْلَعِه، وَالْمَحوا الدَّهْرَ وِلُؤْمَ كَرِّهِ، وَسُوءَ مِحَالِهِ وَمَكْرِهِ، كَمْ طَمَسَ مَعلَمًا، وَأَمَرَّ مَطْعَمًا، وَطَحْطَحَ عَرَمْرَمًا [٣]، ودمّرَ ملِكاً مُكَرَّمًا، همُّهُ سَكُّ الْمَسَامِعِ، وَسَحُّ الْمَدَامِعِ [٤]، وَإِكْدَاءُ الْمَطَامِعِ، وَإِرْدَاءُ الْمُسْمِعِ وَالسَّامِعِ، عَمَّ حُكْمُهُ الْمُلُوكَ والرَّعَاعَ [٥]، والْمَسودَ والْمُطاعَ، والمحْسُودَ وَالْحُسَّادَ، وَالأَسَاوِدَ وَالآسَادَ [٦]، مَا موّلَ إلا مَالَ، وعكَسَ الآمالَ، ومَا وصَلَ إلا وصَالَ، وَكَلَمَ الأَوْصَالَ [٧]، وَلاَ سَرَّ إلا وسَاءَ، ولَؤُمَ [٨] وَأَسَاءَ، وَلاَ أصَحّ إلاَّ ولَّدَ الدَّاءَ، وَرَوَّعَ الأودَّاءَ [٩]، اللهَ اللهَ، رَعَاكُمُ اللهُ! إلاَمَ مُدَاوَمَةُ اللَّهوِ، وَمُوَاصَلَةُ السّهْوِ؟ وطولُ الإصْرارِ، وحمْلُ الآصارِ؟ وَاطِّرَاحُ كَلامِ الْحُكَمَاء، وَمُعاصَاةُ إلـهِ السَّمَاءِ؟ أمَا الْهَرَمُ حصادُكُمْ، والْمَدَرُ مِهادُكُمْ! أمَا الْحِمَامُ مُدرِكُكُمْ، والصِّراطُ مَسْلَكُكُمْ! أمَا السَّاعَةُ مَوعِدُكُمْ، والسَّاهِرةُ مورِدُكُمْ! أَمَّا أَهْوَالُ الطَّامَّةِ [١٠] لَكُمْ مُرْصَدَةٌ [١١]، أمَا دَارُ الْعُصَاةِ الْحُطَمَةُ الْمُؤْصَدَةُ! حَارِسُهُمْ مَالِكٌ، وَرُوَاؤُهُمْ [١٢] حَالِكٌ، وطَعامُهُم السُّمُومُ، وهواؤُهُمُ السَّمومُ، لا مَالَ أَسْعدَهُمْ وَلاَ ولَدَ، وَلاَ عددَ حَمَاهُمْ وَلاَ عُدَدَ، ألا رَحِمَ

(١) اذكروا الموت.
(٢) القبر.
(٣) العرمرم: الجيش الكثير لا يُقاومه شيءٌ.
(٤) سيلها وصبها.
(٥) الأرذال.
(٦) جمع الأسد.
(٧) جرح وقطع الأوصال.
(٨) قبح.
(٩) الأحباب.
(١٠) من أسماء القيامة.
(١١) مُعَدَّة منتظرة.
(١٢) منظرهم الحَسَن.

اللهُ امْرَأً ملكَ هَوَاهُ (١)، وأمَّ مسَالكَ هُداهُ، وأحْكَمَ طاعَةَ مولاهُ، وكَدَحَ لرَوحِ مَأوَاهُ (٢)، وَعَمِلَ مَا دَامَ العُمرُ مُطاوِعاً، وَالدَّهْرُ مُوَادِعاً، وَالصّحةُ كامِلَةً، وَالسّلامَةُ حاصِلَةً، وإلا دهَمَهُ عَدَمُ الْمَرامِ، وحصَرُ الكَلامِ، وإلمَامُ الآلامِ، وحُمُومُ الحِمَامِ، وهُدُوُّ الْحَوَاسِّ، ومَراسُ (٣) الأرْمَاسِ، آهاً لَهَا حَسْرَةً أَلَمُهَا مُؤَكَّدٌ، وأمَدُها سَرْمَدٌ (٤)، ومُمَارِسُها مُكمَدٌ! مَا لوَلَهِهِ حَاسِمٌ، وَلاَ لسَدَمِهِ راحِمٌ، وَلاَ لَهُ ممَّا عَرَاهُ (٥) عَاصِمٌ! أَلْهَمَكُمُ اللهُ أحمَدَ الإلْهَامِ، وَرَدَّاكُمْ رِداءَ الإكْرَامِ، وأَحَلَّكُمْ (٦) دَارَ السَّلاَمِ! وَأسْأَلُهُ الرَّحْمَةَ لَكُمْ وَلأهْلِ مِلَّةِ الإسلامِ، وَهُوَ أَسْمَحُ الكِرامِ، وَالْمُسَلِّمُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا رَأَيْتُ الْخُطبَةَ نُخْبَةً بلا سَقَطٍ (٧)، وعَروساً بغيرِ نُقَطٍ (٨)، دَعانـي الإعجابُ بـنمَطِهـا العَجيبِ، إلَى اسْتِجْلاء وجْهِ الْخَطيبِ، فأخَذْتُ أتوَسّمُهُ جِداً، وأقلّبُ الطّرْفَ فيهِ مُجِدّا، إلَى أَنْ وضحَ لِي بصِدْقِ العلامَاتِ، أَنَّهُ شيخُنَا صاحبُ الْمَقامَاتِ، وَلَمْ يكُنْ بُدٌّ مِنَ الصّمتِ، فِي ذلك الوقْتِ، فأمسكْتُ حَتَّى تحلّلَ مِنْ الفَرْضِ، وحلّ الانتشارُ فِي الأرضِ، ثُمَّ وَاجهْتُ تلقاءهُ، وَابتَدَرْتُ (٩) لقاءَهُ، فَلَمَّا لحَظَنِي (١٠) خَفَّ فِي القِيامِ، وَأحْفَى فِي الإكْرَامِ، ثُمَّ اسْتَصْحَبَنِي إلَى دَارِهِ، وَأَوْدَعَنِي خَصَائِصَ أَسْرارِهِ، وَحِينَ انتشَرَ جَنَاحُ الظَّلامِ (١١)، وحَانَ ميقَاتُ الْمَنَامِ

---

(١) خالف نفسه الأمّارة.
(٢) لأجل نسيم منزله ومقره.
(٣) علاج.
(٤) مدتها دائمة لا تنتهي.
(٥) اعتراه وحلَّ به.
(٦) أنزلكم.
(٧) لا عَيْب فيها.
(٨) ليست منقشة.
(٩) أسرعت.
(١٠) نظرني.
(١١) كناية عن دخول الليل.

(١)، أَحْضَرَ أَبَارِيقَ الْـمُدَامِ (٢)، معكُومَةً (٣) بالفِدَامِ.

فقُلْتُ: أتَحْسوها أمَامَ النّومِ، وأَنْتَ إمَامُ القَوْمِ؟ فقَالَ: مَهْ أَنَا بالنَّهارِ خَطيبٌ، وباللّيْلِ أطِيبُ (٤)! فقُلْتُ: وَاللهِ مَا أدْري أأعْجَبُ من تسلِّيكَ عنْ أُنَاسِكَ، ومسقَطِ راسِكَ (٥)، أم مِنْ خطابَتِكَ مَعَ أدْنَاسِكَ، وَمَدارِ كَاسِكَ؟ فَأَشَاحَ (٦) بِوجهِهِ عنِّي، ثُمَّ قَالَ: اسْمَعْ مِنِّي:

لا تَبْكِ إلْفاً (٧) نأَى وَلاَ دَارَا ... وَدُرْ مَعَ الدَّهْرِ كَيْفَمَا دَارَا
وَاتَّخِذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا ... ومثِّلِ الأرْضَ كلَّهَا دارًا
وَاصْبِرْ عَلَى خُلْقِ مَنْ تُعَاشِرُهُ ... ودارِه (٨) فَاللَّبِيبُ مَنْ دَارَى
وَلاَ تُضِعْ فُرْصَةَ السّرورِ فَمَا ... تَدْرِي أَيَوْمًا تَعِيشُ أمْ دارَا
وَاعْلَمْ بأنّ الْمَنونَ جَائلَةٌ (٩) ... وقدْ أدارَتْ عَلَى الوَرَى (١٠) دارَا
وأقسَمَتْ لا تَزالُ قَانِصَةً ... مَا كرّ عَصرا الْمَحْيا (١١) ومَا دارَا
فَكَيفَ تُرْجَى النَّجَاةُ من شَرَكٍ ... لَمْ يَنْجُ مِنْهُ كِسْرَى وَلاَ دَارَا

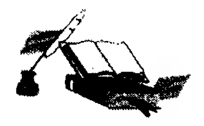
قَالَ: فَلَمَّا اعتَوَرَتْنَا (١٢) الكُؤوسُ، وَطَرِبَتِ النُّفُوسُ، جَرَّعَني اليَمينَ الغَمُوسَ، عَلَى أَنْ أحْفَظَ عَلَيْهِ النَّامُوسَ، فاتَّبَعْتُ مرَامَهُ، وَرَعَيْتُ ذِمَامَهُ (١٣)، وَنزّلْتُهُ بَيْنَ الْمَلأ (١٤) منزِلَةَ الفُضَيْلِ، وَسَدَلْتُ الذَّيْلَ عَلَى

---

(١) آنَ وقت النوم.
(٢) الخَمْر.
(٣) مشدودة.
(٤) أطرب.
(٥) بلدك التي وُلِدْتَ بها.
(٦) أعرض متكرهًا.
(٧) الإلف والأليف: الصَّاحِبُ الموافق.
(٨) من المداراة، وهي الملاطفة.
(٩) دائرة ومترددة.
(١٠) المخلوقات.
(١١) هما: الغداة والعشيّ، وقيل: الليل والنهار.
(١٢) تداولت علينا.
(١٣) عهده.
(١٤) أشراف الناس.

مَخَازي اللَّيْلِ (١)، ولَمْ يزَلْ ذَلِكَ دأبَهُ (٢) ودَابي، إلَى أَنْ تَهَيَّأَ إيَابِي (٣)، فودّعْتُهُ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى التَّدْليسِ، وَمُسِرٌّ حَسْوَ الْخَنْدَرِيسِ.

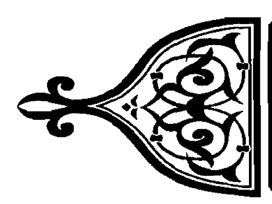
۞۞۞



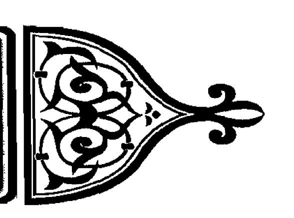
(١) فضائحه.

(٢) عادته.

(٣) آن وأمكن رجوعي وعودي.



المَقَامَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُون
الوَاسِطِيَّة



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَلْجَأَنِي حُكمُ دهْرٍ قاسطٍ (١)، إلَى أَنْ أنتَجِعَ أَرْضَ وَاسِط، فقصَدْتُها وأَنَا لا أعرِفُ بِهَا سكَنًا، ولاَ أملكُ فِيهَا مَسْكنًا، ولَمَّا حللْتُها حُلُولَ الْحُوت (٢) بالبَيْداء، وَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءُ في اللِّمَة السَّوْدَاء، قَادَنِي الْحظُّ النَاقص، وَالْجدُّ النَّاكصُ (٣)، إلَى خَانٍ (٤) ينزِلُهُ شُذّاذُ الآفَاق، وأَخْلاطُ (٥) الرِّفَاق، وَهُوَ لِنَظَافَة مكَانه، وَظَرَافَة سُكَّانه، يُرَغِّبُ الغَرِيبَ فِي إيطَانه، وينسيه هَوَى أَوْطَانه، فاسْتَفْرَدْتُ منْهُ بحُجرَة (٦)، ولَمْ أُنافِسْ فِي أُجرَةٍ، فَمَا كَانَ إلا كلَمْحِ طَرْفٍ، أَوْ خطِّ حرْفٍ، حَتَّى سَمعتُ جَارِي بَيْتَ بَيْتَ (٧)، يَقُولُ لنَزِيلِه فِي البَيت: قُمْ يَا بُنَيَّ لا قَعَدَ جَدُّكَ، ولاَ قَامَ ضدُّكَ (٨)، وَاستَصْحِبْ (٩) ذَا الوَجْهِ البَدْرِيِّ، وَاللَّوْنِ الدُرِّيِّ، وَالأَصْلِ النَّقِيِّ (١٠)، وَالجسْمِ الشَّقِيِّ، الَّذي قُبِضَ ونُشِرَ، وَسُجِنَ وَشُهِرَ (١١)، وَسُقِيَ وَفُطِمَ، وأُدْخِلَ النَّارَ بعْدَمَا لُطِمَ، ثُمَّ ارْكُضْ به إلَى السُّوقِ، رَكْضَ الْمَشُوقِ (١٢)، فَقَايِضْ بهِ اللاَّقِحَ الْمُلْقِحَ، الْمُفسِدَ

---

(١) جائر ومائل.
(٢) السمك.
(٣) السعد الراجع إلى خلف.
(٤) هو الفندق.
(٥) جمع خليط، وهم: المجتمعون من نواحٍ شتّى.
(٦) بيت صغير.
(٧) الذي منزله ملاصق لمنزلي.
(٨) عدوك ومبغضك.
(٩) خذ معك.
(١٠) أراد به الحنطة الجيدة.
(١١) أخرج منها.
(١٢) المشتاق.

الْمُصلحَ، الْمكْمدَ(١) الْمُفرِّحَ، الْمعَنِّيَ الْمُروِّحَ، ذَا الزَّفيرِ(٢) الْمُحرِقِ، وَالحَنينِ الْمُشرِقِ، وَاللّفْظِ الْمقنعِ، وَالنَّيلِ(٣) الْمُمْتعِ، الَّذِي إذَا طُرِقَ، رعَدَ وبرَقَ، وباحَ بالحُرَقِ(٤)، ونفَثَ فِي الْخِرَقِ.

قَالَ: فَلَمَّا قرّتْ شقْشقَةُ الْهَادرِ(٥)، ولَمْ يبْقَ إلا صدَرُ الصّادرِ، برزَ فتًى يَميسُ(٦)، ومَا معَهُ أنيسٌ، فرأَيْتُها عُضْلَةً تلعَبُ بالعُقولِ، وتُغْرِي بالدُّخُولِ فِي الفُضُولِ، فانطلَقْتُ فِي أثَرِ الغُلامِ، لأخْبُرَ فَحْوَى(٧) الكَلامِ، فَلَمْ يزَلْ يسْعَى سَعْيَ العفَارِيتِ، ويتفَقَّدُ نضائدَ الحْوَانيتِ، حَتَّى انْتَهَى عِنْدَ الرَّوَاحِ إلَى حِجارَةِ القَدّاحِ، فَنَاولَ بائعَها رَغيفاً، وتَنَاولَ منْهُ حَجَراً لَطيفاً، فَعَجبْتُ منْ فَطانَةِ الْمُرسِلِ وَالْمرسَلِ، وعلِمْتُ أنّها سَروجيّةٌ وإنْ لم أَسْأَلْ، ومَا كَذَّبْتُ(٨) أَنْ بادَرْتُ إلَى الْخَانِ، منطَلِقَ العنَانِ(٩)، لأنْظُرَ كُنْهَ فَهْمي، وَهَلْ قرطَسَ فِي التَّكهُّنِ(١٠) سَهْمي، فَإذَا أَنَا فِي الفرَاسَةِ فَارسٌ، وأبو زيْد بوَصيدِ الخَانِ جالسٌ، فتَهادَيْنَا بُشْرَى الالتقاء، وتقارَضْنَا تحيّةَ الأصْدقاء، ثُمَّ قَالَ: مَا الَّذِي نَابَكَ(١١)، حَتَّى زايَلْتَ جَنَابَكَ(١٢)؟ فَقُلْتُ: دهرٌ هَاض، وجَوْرٌ(١٣) فَاض! فَقَالَ: وَالَّذِي أنزَلَ الْمطرَ منَ الغمَامِ، وأَخرَجَ الثَّمرَ منَ الأكْمَامِ(١٤)، لَقَدْ فسَدَ الزَّمَانُ، وَعَمَّ العُدْوَانُ، وعُدِمَ الْمعْوَانُ(١٥)، وَاللهُ

---

(١) المحزن.

(٢) ما يخرج من النار عند قدحه.

(٣) العطاء.

(٤) أظهر ناره.

(٥) صوت المتكلم.

(٦) يتمايل ويتبختر.

(٧) معناه.

(٨) ما تأخرت في الحال.

(٩) مسرعًا من غير توانٍ.

(١٠) هو الحكم على الغيب بالتخمين.

(١١) أصابك.

(١٢) فارقت ناحيتك.

(١٣) ظلمٌ كثير.

(١٤) أوعية الثَّمَر.

(١٥) المعين.

الْـمُسْـتَعانُ، فكيـفَ أفْلَتَّ، وعلَى أيِّ وصفَـيْكَ أجْفَلْتَ؟ فقُـلْتُ: اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ قَميصاً (١)، وأدلَجْتُ فيهِ خَميصـاً، فأطْرَقَ ينْكُتُ فِي الأرضِ، ويفكّرُ فِي ارتيـادِ القَـرْضِ وَالفَرْضِ، ثُـمَّ اهتزّ هِزّةَ مَـنْ أكْثَـبَهُ قَنَـصٌ، أَوْ بدَتْ لَهُ فُرَصٌ، وَقَـالَ: قَدْ عَلِقَ بقَلْبِـي أَنْ تُصَاهِرَ مِنْ يَأْسُـو جراحَكَ (٢)، ويَرِيشُ جَنَاحَكَ، فَقُـلْتُ: وكيفَ أجمَعُ بيَن غُلٍّ وقُلٍّ، وَمَـنِ الَّذي يرْغَبُ فِي ضُلِّ بنِ ضُلٍّ؟ فَقَالَ: أَنَا الْـمُشيـرُ بكَ وإلَيْكَ، والوَكيلُ لكَ وَعليْكَ، مَعَ أَنَّ دِينَ القَوْمِ (٣) جبْرُ الـكَسيرِ، وفكُّ الأسيـرِ، وَاحترامُ العَـشيرِ (٤)، واستِنْصاحُ الْـمُشيرِ، إلا أنهُمْ لَوْ خطَبَ إِلَيْهِمْ إبْراهيمُ بنُ أدهَمَ، أَوْ جبَلَةُ بنُ الأيْهَمِ، لَمَا زَوّجوهُ إلا عَلَـى خَمْسِمَـائَةِ دِرْهَمٍ، اقتَـداءً بِمَا مَهَـرَ الرّسولُ ﷺ زَوْجَاتِهِ، وعقَدَ بهِ أنكِحَةَ بَنَاتِهِ، عَلَى أنّـك لَنْ تُطَالَبَ بِصَداقٍ، ولاَ تُلْجأ إلَى طَلاقٍ، ثُمَّ إِنِّي سَأخْطُـبُ فِي مَوقِفِ عَقْدِكَ، وَمجْـمَعِ حَشْدِكَ (٥)، خُطبَةً لَمْ تَفْتُقْ رَتْقَ سَمْعٍ، وَلاَ خُطِبَ بِمِثْلِهَا فِي جَمْعٍ.

قَالَ الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فازْدَهَانِي (٦) بِوَصْفِ الْـخُطْبَةِ الْـمَتْلُوَّةِ (٧) دُونَ الْـخطْبَةِ الْـمَجْلُوَّةِ، حَتَّى قُلْتُ لَهُ: قَدْ وَكلْتُ إليْكَ هَـذَا الخَطْبَ (٨)، فدبّرْهُ تدْبيرَ مِنْ طَبّ لِمَنْ حبّ، فنهضَ مُـهَرْوِلاً، ثُمَّ عادَ متهلّلاً (٩)، وقَالَ: أَبْشِرْ بإعْتَـابِ الدّهْرِ، وَاحتِلابِ الـدَّرِّ! فَقَدْ وُلِّيتُ العَـقْدَ (١٠)، وأُكفِلْتُ الـنّقْدَ،

---

(١) أنه عاري الجسد.
(٢) يداويها ويطبها.
(٣) عادتهم.
(٤) المعاشر والزوج.
(٥) من اجتمع من الناس لحضور العقد.
(٦) استخفني واستفزني.
(٧) التي ستتلى وتُقْرَأ.
(٨) ألقيت إليك أمر هَـذَا المهم.
(٩) تلألأ من الفرح.
(١٠) توليته بأن صرت وكيلاً.

وكأنْ قَدْ، ثُمَّ أَخَذَ فِي مُواعـدَةِ أهلِ الخَانِ، وإعْدادِ حَلْواءِ الخِوَانِ (١)، فَلَمَّا مَدَّ اللَّيْلُ أطْنَابَهُ، وأغْلَقَ كُلُّ ذي بابٍ بابَـهُ، أذَّنَ فِي الْـجَمَاعَةِ: ألا احْضُروا فِي هَـٰذِه الـسَّاعَـةِ! فَلَـمْ يبْـقَ فيـهِـمْ إلا مـنْ لَبَّى صوتَهُ، وحَضـرَ بيْتَـهُ، فَلَــمَّا اصْطَفَّـوا لديْه (٢)، واجتـمعَ الشاهـدُ والْمشْهودُ عـلَيْه، جعـلَ يرفَعُ الأصْطُرْلابَ (٣) ويضَـعُهُ، ويلْحَظُ الـتَّقويمَ ويَـدَعَهُ، إلَى أنْ نعَسَ الـقومُ، وغشِيَ النّومُ، فقلْتُ لَهُ: يَا هَـٰذَا ضَعِ الفَاسَ فِي الرَّأسِ، وخَلِّصِ النَّاسَ منَ النُّعـاسِ، فَنَظَرَ نَظْرَةً فِـي النُّجومِ، ثُمَّ انْـتشَطَ (٤) منْ عُقْلَـةِ الوُجُومِ (٥)، وأقْسـمَ بالطُّورِ، والكِتَـابِ المَسْطُورِ، لـيَنْكَشِفَـنّ سرّ هَـٰـذَا الأمْرِ المَسْـتورِ، ولَيَنْتَـشِرَنّ ذِكْرُهُ إلَى يومِ الـنُّشورِ (٦)، ثُمَّ إنَّهُ جَثَـا عَلَى رُكْبَتِهِ، واسـتَرْعَى الأسْمَاعَ لِخُطْبَتِهِ، وقَالَ: الحَمْدُ للـهِ المَلِكِ المحْمودِ، الْـمَالكِ الوَدودِ، مُصَوّرِ كُلِّ مولُودٍ، ومآلِ كلِّ مطْرودٍ (٧)، ساطِحِ المِهَادِ (٨)، وموَطِّدِ الأطْوَادِ (٩)، ومُرْسِلِ الأمْطَارِ، ومُسَهِّلِ الأوْطَارِ (١٠)، وعَالِمِ الأسْرَارِ ومُدْرِكِها، ومُدمِّرِ الأمْلاكِ ومُهْلِكِها، ومُكَوِّرِ الدُّهُورِ ومُكرِّرِها، ومُورِدِ الأمُورِ ومُصْدِرِها، عَمَّ سَمَاحُهُ وكَمَلَ، وهَـطَلَ رُكامُهُ وهَمَلَ، وطَاوَعَ (١١) السُّؤْلَ والأمَلَ، وأوْسَعَ الْـمُـرْمِلَ والأرْمَلَ، أحْمَـدُهُ حمْداً ممْـدوداً مَداهُ (١٢)، وأُوَحِّدُهُ كَمَـا وحَّدَهُ الأوّاهُ، وهُوَ اللاهُ لا إلَــهَ للأمَمِ سِواهُ، ولاَ صادِعَ لِمَا عـدَّلَهُ وسوَّاهُ، أرْسَلَ

(١) هو ما يُوضع عليه الطعام، ويسمَّى: بالمائدة.
(٢) ترصصوا مجتمعين عنده.
(٣) هو ميزان الشمس وهي كلمة يونانية.
(٤) انحلَّ وأطلق.
(٥) العقلة: داء السكوت، الوجوم: الحزن المكظوم.
(٦) هو يوم القيامة والبعث.
(٧) هو من طرده أمر مهم.
(٨) باسط الفراش، والمراد به الأرض.
(٩) جمع الطود، وهو الجبل.
(١٠) جمع الوطر، وهو الحاجة.
(١١) أجاب.
(١٢) غايته.

مُحَـمَّداً علَـمًا للإسْـلامِ ، وإمَامًا لـلحُكَّامِ ، ومُـسدِّداً(١) للرعَـاعِ (٢) ، وَمُعَطِّلاً (٣) أَحْكَامَ وُدٍّ وَسُوَاعٍ، أَعْـلَمَ وَعَلَّمَ(٤) ، وَحكَمَ وَأحْكَمَ، وَأصَّلَ الأصُولَ وَمَهَّدَ، وَأكَّدَ الوُعُـودَ وَأوْعَدَ، وَاصَلَ اللهُ لَهُ الإكْرامَ، وَأوْدَعَ روحَهُ دارَ السَّـلاَمِ، ورَحِمَ آلَهُ وأهْـلَهُ الكِـرامَ، مَا لَمَعَ آلٌ، ومـلَعَ(٥) رالٌ، وطلَعَ هِلالٌ، وسُمِعَ إهْلالٌ(٦) .

اعْمَـلُوا ـ رَعَاكُمُ الـلهُ ـ أصلَحَ الأعْـمَالِ، وَاسْلُكُـوا مَسَالِـكَ الحْلالِ، وَاطّرِحوا الْـحَرامَ ودعوهُ، وَاسْـمَعُوا أَمْرَ الـله وَعُوهُ(٧) ، وَصِلُوا الأرْحَامَ وَرَاعُوهَا، وَعَاصُوا الأهْوَاءَ وَارْدَعُوهَا، وَصَاهِروا (٨) لحُمَ الصَّلاحِ وَالوَرَعِ، وصارِمـوا رهْـطَ الـلهْوِ والـطّمَـعِ، ومُـصَاهِـرُكُمْ أَطْهَـرُ الأحْرارِ مَـوْلداً، وَأسْرَاهُمْ (٩) سُؤدَداً(١٠) ، وأحْلاهُمْ مَوْرِداً، وأصَحُّـهم مَوْعِداً(١١) ، وهَا هُوَ أَمَّكُمْ، وحَلَّ حَرَمكُمْ(١٢) ، مُمْلِكاً عَرُوسكُمُ الْـمُكرَّمةَ، ومَاهِراً لَهَا كَمَا مَهَرَ الرَّسُولُ أمَّ سَلَمَةَ، وَهُـوَ أكْرَمُ صِهرٍ أَودِعَ الأوْلاَدَ، وَمُلِّكَ مَنْ أرادَ، ومَا سَهَا مُمْلِكُهُ وَلاَ وَهِمَ(١٣)، وَلاَ وَكسَ(١٤) مُلاحِمُهُ وَلاَ وُصِمَ، أَسْأَلُ اللهَ لكُمْ إحْمَادَ وِصاله ودَوَامَ إسْعاده، وَألْـهَمَ كُلا إصْلاحَ حاله وَالإعْدادَ لمَعاده، ولهُ الحَمْدُ السَّرمَدُ(١٥) ، وَالمْدحُ لرَسولِه مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا فرَغَ مِنْ خُطبَته البَديعة

---

(١) مُرْشِدًا.
(٢) هم سفلة الناس وجهالهم.
(٣) مبطلاً ومدمرًا.
(٤) أخبر وعرَّف.
(٥) أسْرَعَ وَعَدَا.
(٦) هو رفع الصوت عند رؤية الهلال.
(٧) أمر من الوعي بمعنى: الحفظ.
(٨) صاهر القوم: تزوَّج منهم.
(٩) أشرفهم.
(١٠) شرفًا وسيَادة.
(١١) أصدقهم في الوفاء بالوعد.
(١٢) نزل ساحتكم وبلدكم.
(١٣) أي: ما غلط.
(١٤) ما نقص.
(١٥) الدَّائم.

النّظام، العَريّة مِنَ الإعْجَامِ، عَقَدَ العَقْدَ عَلَى الْخَمْسِ المِئِينَ، وَقَالَ لِي: بالرِّفَاءِ والبَنِينَ، ثُمَّ أحْضَرَ الْحَلْواءَ الَّتي كَانَ أعدّها، وأبْدَى الآبدَةَ (١) عِنْدَهَا، فأقبلْتُ إقْبالَ الْجَمَاعَة علَيْها، وَكِدْتُ أهوي بيَدي إلَيْها، فزجَرَني عنِ الْمؤاكَلَة، وأنْهَضَني (٢) للمُنَاولَة، فَوَاللهِ مَا كَانَ بأسرَعَ مِنْ تَصَافُحِ (٣) الأجْفَانِ، حَتَّى خرَّ القَوْمُ للأذْقَان، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ كَأعْجَازِ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٤)، أَوْ كصَرْعَى بنت خابِيَةٍ، علِمْتُ أنّها لإحْدَى الكُبَرِ، وأمُّ العِبَرِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عُدَيَّ نفْسه، وعُبَيْدَ فَلْسه! أعددتَ للقَوْمِ حُلْوَى، أم بَلْوَى؟ فَقَالَ: لَمْ أعْدُ خَبيصَ البَنْجِ، فِي صحاف الخَلَنْجِ! فقُلْتُ: أُقسِمُ بِمَنْ أطْلَعَه زُهْراً، وهَدَى بِهَا السّارينَ طُرّاً (٥)، لَقَدْ جِئْتَ شيئاً نُكْراً، وأبقَيْتَ لَكَ فِي الْمُخْزِيَات (٦) ذكْراً، ثُمَّ حِرْتُ فكرةً فِي صَيُّورِ أَمْرِه (٧)، وخيفَةً منْ عَدْوَى عرّه، حَتَّى طارَتْ نَفْسِي شَعاعاً، وأُرعِدَتْ (٨) فَرائصي ارْتياعاً (٩)، فَلَمَّا رأَى اسْتطارَةَ فرَقي، واسْتشاطَةَ قلَقي، قَالَ: مَا هَـٰذَا الفكْرُ الْمُرْمِضُ (١٠)، والرَّوْعُ الْمومِضُ (١١)؟ فإنْ يكُنْ فكرُك فِي أجلي، مِنْ أجْلي، فأنَا الآنَ أرتَعُ وأطْفِرُ، وأقوِي هَـٰذه البُقْعَةَ مِنِّي وأُقفِرُ، وكمْ مثلها فارَقْتُها وهيَ تصفرُ، وإنْ يكُنْ نظَراً لنفْسكَ، وحذَراً مِنْ حبسكَ، فتنَاوَلْ فُضالَةَ الْخَبيصِ (١٢)، وطِبْ نفْسًا عنِ القَميصِ، حَتَّى تأمَنَ الْمُستَعدِيَ والْمُعْدِيَ (١٣)، ويَتمهَّدَ

---

(١) الفعلة التي يبقى ذكرها أبدًا؛ لغرابتها.
(٢) أخذ بيدي وأقامني.
(٣) تلاقيها.
(٤) كأصول نخل ساقطة من مغارسها.
(٥) جميعًا.
(٦) النقائص المخزية.
(٧) عاقبته ومآله.
(٨) ارتعدت واهتزّت.
(٩) فزعًا وخوفًا.
(١٠) المحرق.
(١١) اللامع الظّاهر.
(١٢) ما فضل وبقي من الحلواء.
(١٣) صاحب العدو وهو المستعان به.

لَكَ الْمُقَامُ (١) بَعْدِي، وإلا فالْمَفَرَّ الْمَفَرَّ، قبلَ أنْ تُسْحَبَ وتُجَرَّ، ثُمَّ عمَدَ لاستخراجِ مَا فِي الْبيُوتِ، منَ الأكْيَاسِ (٢) والتُّخُوتِ (٣)، وجعلَ يستَخْلِصُ خالصَةَ كُلِّ مخزونٍ، ونُخبَةَ كلّ مَذْروعٍ وموزونٍ، حَتَّى غادرَ مَا ألْغاهُ فخُّهُ (٤)، كعظْمٍ استُخرِجَ مُخُّهُ، فَلَمَّا همَّنَ مَا اصْطَفَاهُ ورزَمَ، وشمَّرَ عنْ ذِراعَيْهِ وتَحزَّمَ، أقبلَ عَلَيَّ إقْبالَ منْ لبْسَ الصَّفَاقَةَ (٥)، وخلَعَ الصَّدَاقَةَ، وقَالَ: هلْ لَكَ فِي الْمُصاحبَةِ إلَى البَطيحَةِ، لأزوّجَكَ بأخْرَى مَليحَةٍ؟ فأقْسَمْتُ لَهُ بالَّذي جعلَهُ مُباركاً أينَمَا كان، ولَمْ يجْعَلْهُ ممّنْ خانَ فِي خانٍ، إنَّهُ لا قِبَلَ لِي (٦) بنكاحِ حُرّتَينِ، ومُعاشَرَةِ ضَرَّتَينِ، ثُمَّ قلتُ لَهُ قولَ الْمتطبِّعِ بطِبَاعِهِ، الكَائِلِ لَهُ بصاعِهِ: قَدْ كفَتْني الأولَى فخْراً، فاطْلُبْ آخرَ للأخْرَى، فتبسَّمَ مِنْ كلامي، ودلَفَ (٧) لالْتِزَامِي، فلوَيْتُ عنهُ عِذَارِي، وأَبْدَيْتُ لَهُ ازْوِرَارِي (٨)، فَلَمَّا بصُرَ بانقِبَاضِي، وتجلَّى لَهُ إعْرَاضِي، أَنْشَدَ:

يَا صَارِفاً عنّي الْمَو ... دّةَ والزَّمَانَ لَهُ صُرُوفْ (٩)
ومُعَنِّفِي (١٠) فِي فَضْحِ مَنْ ... جَاورْتُ تعْنيفَ العَسوفْ
لا تلْحنِي فِيمَا أتيْـ ... ـتُ فإنّني بهِمِ عَروفْ
ولَقَدْ نَزلْتُ بِهِمْ فلَمْ ... أرَهُم يُرَاعُونَ الضُّيوفْ
وبلَوْتُهُمْ (١١) فوجَدْتُهُمْ ... لَمَّا سَبَكْتُهُمُ زُيُوفْ

---

(١) الإقامة.
(٢) الصناديق.
(٣) أوعية الدراهم.
(٤) الفخ: ما يصطاد به الصيد.
(٥) الوقاحة.
(٦) لا طاقة لي ولا قُدْرة.
(٧) مشى مسرعًا وتقدَّم.
(٨) إعراضي عنه.
(٩) تقلّبات.
(١٠) موبخي ولائمي.
(١١) اختبرتهم وجرّبتهم.

مَــا فِــيــهِــم إلا مُــخــيــ ـــفٌ إنْ تَـمَكَّنَ أَوْ مَـخَــوفْ
لا بـالـصَّـفـيِّ[(١)] وَلاَ الـوَفـيِّ وَلاَ الحَّـفـيِّ وَلاَ الـعَـطُوفْ
فــوثَـبْـتُ فــيـهِـمْ وثْـبَـةَ الــ ـــذئب الـضَّـريِّ عَلَى الْـخَـرُوفْ
وتـركـتُـهُـمْ صَـرْعَـى[(٢)] كَـأنَّـهُــ ـــمْ سُقُـوا كَـأسَ الحُـتُوفْ[(٣)]
وتَـحَـكَّـمَـتْ فِـي مَـا اقْـتَـنوْ هُ يَـدِي وهُـمْ رُغْـمُ الأُنُـوفْ[(٤)]
ثُـمَّ انْـثَـنَـيْـتُ بِـمَـغْـنَـمٍ حُلْـوِ المَجَـانـي والقُـطوفْ
ولَـطالَمَا خَلَّـفْـتُ مَكْــ ـــلُومَ الحَشَى[(٥)] خلفي يَطُوفْ
ووَتَــرْتُ أربـــابَ الأرا ئـك والـدَّرَانـك والسَّجُـوفْ
ولَـكَـمْ بَلَـغْـتُ بِـحِـيلَـتِي مَـا لَيْسَ يُبلَغُ بالسُّيُوفْ
وَوَقَـفْـتُ فِـي هَـوْلٍ تُـرا عُ الأُسْـدُ فـيـهِ مِنَ الوقُوفْ
ولَكَمْ سَفَكتُ وكَم فتكْتُ[(٦)] وكَـمْ هـتَكْـتُ حِـمَـى أنوفْ
وكَـم ارْتِـكَاضٍ[(٧)] مُــوبِــقٍ لِي فِي الذُّنُوبِ وكم خُفوفْ[(٨)]
لَـكِـنَّـنِـي أعـددْتُ حُـسْــ ـــنَ الظَّنِّ بِالمَوْلَى الرَّؤُوفْ[(٩)]

قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَى إلَى هَـذَا البَيْتِ لجّ فِي الاسْتِعْبَارِ[(١٠)]، وألَظَّ[(١١)] بالاسْتِغْفَارِ، حَتَّى اسْتَمَالَ هوَى قَلْبِي الْمُنحرِفِ[(١٢)]، ورجَوْتُ لَهُ مَا يُرْجَى

---

(١) المختار.

(٢) جمع صريع، بمعنى: مصروع؛ أي: مطروح لا يعي.

(٣) جمع الحتف، وهو: الموت والمنيَّة.

(٤) قهرًا عنهم.

(٥) مجروح الأمعاء.

(٦) فتك به: قتله على غِرَّةٍ.

(٧) من الركض، وهو: المشي دون الجري.

(٨) شدَّة الإسراع.

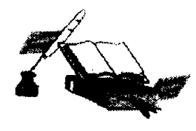
(٩) كثير الرأفة والرحمة.

(١٠) زاد في البكاء.

(١١) داوم وتابع.

(١٢) المغتاظ منه.

لِلمُقْتَرِفِ الْمُعْتَرِفِ، ثُمَّ إِنَّهُ غيّضَ دمْعَهُ الْمُنْهَلّ، وتأبّطَ جِرابَهُ وانْسَلَّ، وَقَالَ لابنِهِ: احتَمِلِ البَاقِي، واللهُ الوَاقِي، قَالَ الْمُخْبِرُ بِهَذه الحكاية: فَلَمَّا رَأَيْتُ انْسِيابَ (١) الْحَيَّة والْحُيَيَّة، وانتهاءَ الدّاء إلَى الكَيَّة (٢)، عَلِمْتُ أَنْ تَرَيُّثِي (٣) بالْخَانِ، مَجْلَبَةٌ للهَوَانِ (٤)، فضمَمْتُ رُحَيْلي، وَجَمَعْتُ للرّحلَةِ ذَيْلي، وَبِتُّ لَيْلَتِي أَسْرِي إلَى الطَّيبِ، وأحتَسِبُ اللهَ عَلَى الْخَطِيبِ.



(١) أي: جري.

(٢) إلى آخره وأصله من قولهم: آخر الطب الكَيّ.

(٣) تمكثي وإقامتي.

(٤) جالِب لذلّي وإهانتي.

المَقَامَةُ الثَّلاثُون
الصّورِيَّة

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: ارْتَحلْتُ من مَدِينَة الْمَنصُورِ، إلَى بلدَة صور، فَلَمَّا حَصَّلْتُ بِهَا ذَا رِفعَةٍ وخَفْضٍ (١)، ومَالكَ رَفْعٍ وخَفضٍ، تُقْتُ (٢) إلَى مِصْرَ تَوَقَانَ السَّقِيمِ إلَى الأُسَاة، والكَرِيمِ إلَى المُؤاساة (٣)، فرفَضْتُ عَلائِقَ الاستقامَة، ونفَضْتُ عوائقَ الإقامة، واعْرَوْرَيْتُ ظَهْرَ ابنِ النَّعامَة، وأجفَلْتُ نَحْوَها إجْفَالَ (٤) النَّعامَة، فَلَمَّا دخلْتُه بَعْدَ مُعانَاة الأينِ (٥)، ومُدانَاة الْحَيْنِ (٦)، كلِفْتُ به كلَفَ النَّشْوَانِ (٧) بالاصْطِباحِ، والحَيَرانِ بتَنفُّسِ الصَّبَاحِ، فبَينَمَا أنَا يوْمًا بها أطوفُ، وتَحْتِي فَرسٌ قَطوفٌ، إذْ رأَيْتُ عَلَى جُرْدٍ (٨) منَ الخَيْلِ، عُصبَةً (٩) كَمَصَابيحِ اللَّيْلِ، فَسألْتُ لانتِجاعِ النّزْهَة، عنِ العُصبَة والوِجهَة، فقيلَ: أمَّا الْقَوْمُ فشُهودٌ، وأَمَّا الْمَقْصِدُ فإمْلاكٌ (١٠) مشهودٌ، فحدَتْني مَيعَةُ النَّشَاط، عَلَى أنْ سِرْتُ مَعَ الْفُرَّاطِ، لأفوز بحلاوَة اللُّقَاط، وأحوزَ حَلْواءَ السِّمَاط، فأفْضيْنَا بَعْدَ مُكابدَةِ العَنَاء، إلَى دارٍ رفيعَةِ البِنَاء، وسيعَةِ الفِنَاء، تشهَدُ لبانيها بالثَّراءِ

(١) صاحب حشمة ونعمة.
(٢) اشتقت.
(٣) الإعطاء.
(٤) أجفلت أسرعت.
(٥) مقاساة العناء والإعياء.
(٦) مقاربة الهلاك.
(٧) السَّكران.
(٨) جمع أجرد، وهو: قصير الشَّعْر.
(٩) جماعة ما بين العشر إلى الأربعين.
(١٠) تزويج.

والسَّنَاء (١)، فَلَمَّا نـزلْنَا عنْ صهَوات الْـخُيول، وقدّمنَا الأقْـدامَ للدّخول، رَأَيْتُ دهْليزَها مُجَلَّلاً (٢) بأطْمَار مُخرَّقة، ومُكلَّلاً بـمَخارِفَ معلَّقة، وهنَاكَ شخصٌ عَلَى قَطيفَةٍ، فوقَ دكّة لَطيفَة، فرابني عُنوانُ الصّحيفة، ومرأَى هَذه الطّريـفَة، ودعـاني التّطـيّرُ بتـلْكَ الْـمَـنَاحسِ (٣)، إلَى أنْ عَمَـدْتُ لذَلكَ الجَالسِ، فعزَمْتُ عَلَيْه بمُصَرِّف الأقدار، ليُعَرّفَني مَنْ رَبُّ هَذه الدَّار، فَقَالَ: ليسَ لَهَـا مَالكٌ معـيَّنٌ، ولاَ صاحِبٌ مُـبيَّنٌ، إنَّمَـا هيَ مَصطَبَـةُ الْـمُقـيِّفينَ والْمَدَرْوزِينَ (٤)، ووَليجَةُ الْـمُشَقشِقينَ والمُجَلْوزِينَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسي: إنّا لله عَلَى ضِلَّة الْمَسْعَى، وإمْحال الْمَرْعَى، وهمَمْتُ فِي الْحَال بالرُّجْعَى (٥)، لكنّي استَهْـجَنتُ (٦) العَوْدَ منْ فوْري، والـقهقَرَةَ (٧) دونَ غيري، فـوَلجْتُ الدّارَ متجرِّعاً الغُصَصَ (٨)، كَمَا يلِجُ العُصفورُ القفَصَ، فَإذَا فيه أرَائكُ مَنْقُوشَةٌ، وطَنَافس مفروشة ونَمَارِق مصفوفة وسجوف مرصوفة وقَدْ أقبَلَ الْـمُمْلكُ (٩) يَميـسُ فِي بُردته، ويتَبَـهْنَسُ بين حـفَدَته (١٠)، فحين جلَسَ كـأنّهُ ابنُ مَاء السَّمَـاء، نَادَى مُنَاد منْ قِبَلِ الأحْـمَاء: وحُرْمَة سـاسانَ أُستاذ الأسـتاذينَ، وقُدْوة الشَّـحَّاذينَ (١١)، لا عقَدَ هَـذَا العقْـدَ الْـمبجَّلَ، فِي هَـذَا الْيَوْم الأغـرِّ (١٢) الْـمُـحَجَّلِ (١٣)، إلا الَّذي جـالَ وجَابَ، وشبّ فِي الـكُدْيَة

(١) العلوّ والرِّفْعَة.

(٢) مستوراً ومُغَطّى.

(٣) الصفات المنحوسة.

(٤) المدروز الذي يتعرَّض للصنائع الخسيسة.

(٥) بالرجوع.

(٦) الهجنة: العيب والعار.

(٧) الرجوع إلى الخَلْف.

(٨) شاربًا ما يُغَصُّ به.

(٩) العروس.

(١٠) خدمه وأعوانه.

(١١) الملحين في الطَّلب.

(١٢) أبيض الوجه.

(١٣) أبيض الأطراف.

وشاب! فأعْجَبَ رهْطَ الصِّهْرِ مَا أشاروا إليْه، وأذنوا فِي إحْضارِ المْنصُوصِ عَلَيْه (١)، فَبرزَ حِينَئذٍ شيخٌ قَدْ أمَالَ المْلَوانِ قامتَهُ، ونوّرَ الفَتَيانِ ثَغامتَهُ، فتباشرَتِ الْجماعةُ بإقْبَالِه، وتَبادرَتْ إلَى استْقباله، فَلَمَّا جلَس عَلَى زُرْبِيَّتِه، وسكنتِ الضَّوْضاءُ لهيبَتِه، ازدْلَفَ (٢) إلَى مسنْدَه، ومسحَ سَبلَتَهُ (٣) بيدَه، ثُمَّ قَالَ: الْحمدُ لله الْمُبتَدِئ بالإفْضَال، الْمُبتَدِعِ للنّوَال، المْتقرَّبِ إليْه بالسُّؤال، المْؤمَّلِ لتَحقيقِ الآمَالِ، الَّذي شَرعَ الزَّكاةَ فِي الأمْوَال، وزجَرَ عنْ نهْرِ السؤالِ وندَبَ (٤) إلَى مُؤَاسَاة الْمُضطَرِّ، وأمرَ بإطْعامِ القانِعِ والمْعتَرّ، ووصفَ عِبادَهُ المْقرَّبينَ، فِي كتابِه الْمُبين، فَقَالَ وَهُوَ أصدَقُ القائلينَ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، أحْمَدُهُ عَلَى مَا رَزَقَ منْ طُعمَة هنيّة، وأعوذُ به منِ استْماعِ دعوَة بلا نيَّة، وَأَشْهَدُ أنْ لا إلَـهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ إلَـهاً يَجْزي المْتصدِّقينَ والْمُتصدِّقَات، ويمحَقُ (٥) الرِّبا ويُرْبِي الصَّدَقات (٦)، وأشهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبدُهُ الرَّحِيمُ، ورسولُهُ الكريمُ، ابتَعثَهُ لينَسخَ الظُّلمَةَ بالضِّيَاء (٧)، وينتَصِفَ للفُقراء منَ الأغنياء، فرفَقَ ﷺ بالمْسْكينِ (٨)، وخفَضَ جَنَاحَهُ لـلمُستكينِ (٩)، وفرضَ الْحُقوقَ فِي أموالِ الْمُثْرينَ (١٠)، وبيّنَ مَا يجبُ للمُقلّينَ عَلَى الْمُكثِرينَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْه صَلاةً تُحْظيه بالزُّلْفَة، وعلَى أصفيائِه (١١) أهلِ الصُّفَّة. أمَا

---

(١) المحكوم عليه.
(٢) اقترب.
(٣) السبلة: اللِّحية.
(٤) حبب وحرض.
(٥) يذهب بركته.
(٦) يزيد في ثوابها وينميه.
(٧) ليمحو الضلال بالهدى.
(٨) هو الذي لا شيء له.
(٩) الخاضع.
(١٠) جمع المثري، وهو: كثير المال.
(١١) جمع صَفِيّ، وهو: المختار.

بَعْدُ: فَإِنَّ اللهَ تعالَى شرعَ النكاحَ لتَتَعفَّفُوا، وسَنَّ التَّنَاسُلَ لِكَيْ تَتَضَاعَفُوا، فَقَالَ سُبحَانَهُ لتَعرِفُوا: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وَهَـٰذَا أَبُو الدَّرَّاجِ، ولاَّجُ بنُ خرَّاجٍ، ذُو الوَجْهِ الوَقَاحِ (١)، والإفْكِ الصُّرَاحِ (٢)، والهَرِيرِ والصِّيَاحِ، والإبْرَامِ (٣) والإلْحَاحِ، يخطُبُ سَليطَةَ أهلِها، وشَرِيطَةَ (٤) بعلِها، قَنْبَسَ بِنْتَ أبي العَنْبَسِ، لِمَا بَلَغَهُ منِ التِحَافِها، بإلحَافِها، وإسْرَافِها، فِي إسْفَافِها، وانْكِمَاشِهَا (٥) عَلَى مَعاشِهَا، وانتِعَاشِهَا (٦) عِنْدَ هِرَاشِها (٧)، وَقَدْ بَذَلَ لَهَا منَ الصَّدَاقِ شَلاَّقاً وعُكَّازاً (٨)، وصِقَاعاً وكرَّازاً، فأنْكِحُوهُ إنْكَاحَ مثلِه، وصِلُوا حَبْلَكُمْ بِحَبْلِه، وإنْ خِفْتُمْ عَيلَةً فسوفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فضْلِه، أَقُولُ قوْلِي وأستَغفِرُ اللهَ العظِيمَ لِي ولكُمْ، وأسأَلُهُ أَنْ يُكثِرَ فِي الْمَصَاطِبِ نسْلَكُمْ، ويحْرُسَ مِنَ الْمَعاطِبِ شمْلَكُمْ، فَلَمَّا فرَغَ الشَّيْخُ مِنْ خُطبَتِهِ، وأبْرَمَ (٩) للختَنِ عقْدَ خِطبَتِهِ، تساقَطَ منَ النِّثَارِ مَا استَغْرَقَ حدَّ الإكْثَارِ، وأغْرَى الشَّحِيحَ بالإيثَارِ، ثُمَّ نَهَضَ الشَّيْخُ يَسْحَبُ ذَلاذِلَهُ، ويَقْدُمُ أرَاذِلَهُ (١٠).

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فتبِعْتُهُ لأنظُرَ عُرْجَةَ الْقَوْمِ، وأُكمِلَ بهْجَةَ الْيَوْمِ، فَعَاجَ (١١) بِهِمْ إِلَى سِمَاطٍ (١٢) زيَّنَتْهُ طُهاتُهُ، وتَنَاصَفَتْ (١٣) فِي الْحُسْنِ

(١) البارد الصَّلب الذي لا يستحيي من الملام.
(٢) الكذب الواضح.
(٣) الإضجار والإثقال.
(٤) الموافقة لزوجها.
(٥) إسراعها.
(٦) تهيجها واضطرابها.
(٧) مخاصمتها.
(٨) عصا في أسفلها حديدة.
(٩) أي: أحكم.
(١٠) يتقدم على قومه الأرذال.
(١١) عطف ومَالَ.
(١٢) ما صُفَّ من الأطعمة.
(١٣) تساوت.

جِهَاتُه، فَحِينَ رَبعَ كُلُّ شخْصٍ فِي رِبْضَتِه، وطَفِقَ يَرتَعُ (١) فِي رَوضَتِه، انسَلَلْتُ (٢) مِنَ الصّفّ، وفَرَرْتُ مِنَ الزَّحْفِ، فَحَانَتْ (٣) مِنَ الشَّيْخِ لَفْتَةٌ إِلَيَّ، ونَظْرَةٌ هَجَم به طَرْفُهُ (٤) عَلَيَّ.

فَقَالَ: إلَى أَيْنَ يَا بُرَمُ (٥)، هَلاَّ عَاشَرْتَ مُعَاشرَةَ مَن فِيهِ كَرَمٌ؟

فقُلْتُ: وَالَّذِي خَلقَهَا طِبَاقاً، وطَبَّقَهَا إشْرَاقاً، لا ذُقْتُ لَمَاقاً (٦)، ولاَ لُسْتُ رُقَاقاً، أَوْ تُخبِرَنِي أَيْنَ مدَبُّ صِباكَ (٧)، ومِنْ أَيْنَ مهَبُّ صَبَاكَ؟ فَتنفَّسَ الصُعَدَاءَ (٨) مِرَاراً، وأَرسَلَ البُكَاءَ مِدْرَاراً، حَتَّى إذَا اسْتَنْزَفَ الدَّمْعَ، اسْتَنْصَتَ الْجَمْعَ، وَقَالَ لي: أرْعِنِي السَّمْعَ:

مَسْقَطُ الرَّأسِ سَرُوجُ ... وبِهَا كُنتُ أَمُوجُ (٩)
بَلْدَةٌ يُوجَدُ فِيهَا ... كُلُّ شَيءٍ ويَرُوجُ (١٠)
وِردُهَا مِنْ سَلْسَبِيلٍ ... وصَحَارِيهَا مُرُوجُ (١١)
وبَنُوهَا ومَغَانِيـ ... ـهَا نُجُومٌ وبُرُوجُ
حَبَّذَا نَفْحَةُ رِيَّا ... هَا ومَرآهَا البَهِيجُ (١٢)
وأَزَاهِيرُ رُبَاهَا (١٣) ... حِينَ تَنْجَابُ الثُّلُوجُ

---

(١) جعل يأكل.
(٢) خرجت منسلاً برفق.
(٣) اتفقت.
(٤) بصره.
(٥) يا بخيل، أو: يا لَئيم.
(٦) قليلاً من مأكول أو مشروب.
(٧) أين ولدت وربيت.
(٨) تنفسًا شديدًا.
(٩) أتردد.
(١٠) يتيسر ويتسهل.
(١١) بساتين.
(١٢) الحسن الذي يعجب من يراه ويسره.
(١٣) ما ارتفع من الأرض.

مَنْ رآهَا قَالَ مرْسَى　　جَنَّةُ الدُّنْيا سَرُوجُ

ولِمَنْ ينْزاحُ عَنْهَا　　زفَراتٌ (١) ونشيجُ

مثلُ مَا لاقَيتُ مُذْ زَحْـ　　ـزَحَني عنْها العُلوجُ

عَبْرَةٌ (٢)تَهْمي (٣)وَشجْوٌ (٤)　　كُلَّمَا قَرَّ يَهيجُ (٥)

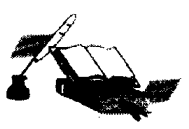
وهُمُومٌ كُلَّ يومٍ　　خطْبُهَا خَطْبٌ مَريجُ

ومساعٍ في التَّرَجِّي (٦)　　قاصراتُ الخَطْوِ (٧) عوجُ

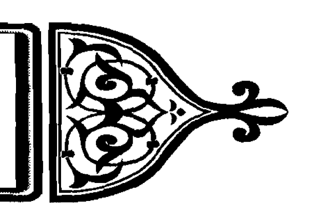
ليتَ يَوْمي حُمَّ (٨) لَمَّا　　حُمَّ لِي منْهَا الخُرُوجُ

قَالَ: فَلَمَّا بَيَّنَ بلَدَهُ، ووعَيْتُ (٩) مَا أنشدَهُ، أيقَنْتُ أَنَّهُ علاَّمَتُنا أَبُو زَيْد، وإنْ كَانَ الْهَرَمُ قَدْ أَوْثَقَهُ بقَيد، فَبَادَرْتُ إلَى مُصَافحَته، واغْتَنَمْتُ مؤَاكَلَتَهُ (١٠)مِنْ صَحْفَته، وَظَلْتُ مُدَّةَ مَقَامِي بِمصرَ أَعْشُو (١١) إلَى شُوَاظِه (١٢)، وأحْشو صدَفَتي منْ دُرَرِ أَلْفاظِه، إلَى أَنْ نَعَبَ بينَنَا غُرَابُ الْبَيْنِ، فَفَارَقْتُهُ مُفَارَقَةَ الْجَفْنِ للعَيْنِ.

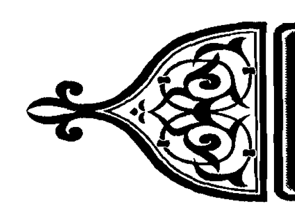
❖❖❖



(١)جمع زفرة، وهي: إخراج النَّفَس بِشدَّةٍ.
(٢)دمعة.
(٣)تنسكب.
(٤)حزن.
(٥)ينبعث ويزداد.
(٦)التأميل.
(٧)جمع خطوة، أي: خطاهنَّ قصيرة.
(٨)قضى.
(٩)عقلت وعرفت.
(١٠)الأكل معه.
(١١)أقصد.
(١٢)لهب ونار.



المَقَامَةُ الحَادِيَةَ والثَّلاثُونَ
الرَّمْلِيَّة



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: كُنْتُ فِي عُنْفُوَانِ (١) الشَّبَابِ، ورَيْعَانِ الْعَيْشِ اللُّبَابِ (٢)، أَقْلِي (٣) الاكتِنَانَ بالْغَابِ، وأَهْوَى الانْدلاقَ (٤) منَ القِرَابِ، لعِلْمي أَنَّ السَّفَرَ ينفِجُ السُّفَرَ، ويُنتِجُ الظَّفَرَ (٥)، ومُعَاقَرَةَ الوطَنِ، تَعْقِرُ الفطَنَ، وتَحْقِرُ مَنْ قَطَنَ (٦)، فَأَجَلْتُ قِدَاحَ الاسْتِشَارَة، واقْتَدَحْتُ زِنَادَ الاسْتِخَارَة (٧)، ثُمَّ استَجَشْتُ جَأْشًا (٨) أَثْبَتَ منَ الْحِجَارَة، وأَصْعَدْتُ إِلَى سَاحِلِ الشَّامِ للتِّجَارَة، فَلَمَّا خَيَّمَتُ (٩) بالرَّمْلَة، وأَلقيتُ بهَا عَصَا الرِّحْلَة، صادَفْتُ (١٠) بِهَا رِكَاباً تُعَدّ للسُّرَى (١١)، ورحَالاً تُشَدُّ إِلَى أُمِّ القُرَى، فَعَصَفَتْ بِي رِيحُ الغَرَامِ، واهْتَاجَ لِي شَوْقٌ إِلَى البَيتِ الْحَرَامِ، فَزَمَمْتُ نَاقَتِي (١٢)، ونَبَذْتُ عُلَقِي وعَلاقَتِي (١٣).

وَقُلْتُ للائِمِي أَقْصِرْ فَإِنِّي ... سَأَخْتَارُ الْمَقَامَ عَلَى الْمُقَامِ
وأُنْفِقُ مَا جَمَعْتُ بِأَرْضِ جَمْعٍ ... وَأَسْلُو بِالحَطِيمِ عَنِ الْحُطَامِ (١٤)

---

(١) أوّلُه.
(٢) هو من كل شيء خالِصهُ.
(٣) أبغض.
(٤) سرعة الخروج.
(٥) يولد الفوز.
(٦) أي: أقام.
(٧) طلب الخيرة.
(٨) جمعت قلبًا وعزمًا.
(٩) أقمتُ.
(١٠) وجدت ولاقيت.
(١١) تهيَّأ لسير اللَّيلِ.
(١٢) جعلت زمامها فيها.
(١٣) ما يتعلَّق بي.
(١٤) متاع الدُّنيا.

ثُمَّ انتظَمْتُ مَعَ رُفقَةٍ كنجومِ اللَّيْلِ، لَهُمْ فِي السَّيرِ جِرْيَةُ السَّيلِ، وإِلَى الْخَيرِ جَرْيُ الْخَيلِ، فَلَمْ نزلْ بَيْنَ إدْلاجٍ وتأويبٍ (١)، وإيجَافٍ وتَقْريبٍ، إلَى أَنْ حَبَتْنَا (٢) أيْدِي الْمطَايَا بالتُّحْفَةِ فِي إيصالِنَا إلَى الْجُحْفَةِ، فَحلَلْنَاها مُتَأَهِّبِينَ (٣) للإحْرامِ، مُتباشِرِينَ بإدْرَاكِ الْمرَامِ، فَلَمْ يَكُ إلا أَنْ أَنَخْنَا بِهَا الرَّكَائبَ، وَحَطَطْنَا الْحقَائبَ، حَتَّى طَلَعَ علينَا منْ بينِ الْهِضَابِ شَخْصٌ ضَاحِي الإهَابِ، وَهُوَ يُنَادي: يَا أَهْلَ ذَا النَّادي (٤)، هَلُمَّ إلَى مَا يُنْجِي يومَ التَّنَادي (٥)! فانْخرطَ إلَيْهِ الْحَجيجُ وانْصلَتُوا، واحْتَفُّوا به وأنْصتُوا، فَلَمَّا رأَى تأثُّفَهُمْ (٦) حَوْلَهُ، واستعْظَامَهُمْ قَوْلَهُ تسنَّمَ إحْدَى الآكَامِ (٧)، ثُمَّ تنحنَحَ مُستَفْتحاً لِلكَلامِ، وقَالَ: يَا مَعْشرَ الْحُجَّاجِ النَّاسِلينَ (٨) منَ الفجَاجِ، أَتعْقلُونَ مَا تُواجِهُونَ، وإلَى منْ تتوجَّهونَ؟ أم تدرونَ علَى مَنْ تَقْدَمونَ، وعلامَ تُقدمونَ؟ أتخَالُونَ (٩) أنَّ الحجّ هُوَ اختيَارُ الرَّواحلِ (١٠)، وقَطْعُ الْمرَاحلِ، واتِّخَاذُ الْمحَاملِ، وإيقَارُ الزَّواملِ (١١)؟ أمْ تَظنُّونَ أنَّ النُّسْكَ هُوَ نَضْوُ الأرْدَانِ، وإنْضَاءُ الأبْدَانِ (١٢)، ومُفارقَةُ الولْدَانِ، والتَّنَائي (١٣) عَنِ البُلْدَانِ؟ كَلاَّ والله بَلْ هُوَ اجتنَابُ الْخَطيَّةِ (١٤)، قَبلَ اجتلابِ الْمطيَّةِ، وإخلاَصُ النِّيَّةِ فِي قَصدِ تلكَ البَنِيَّةِ (١٥)، وإمْحَاضُ الطَّاعَةِ عِنْدَ وُجْدَانِ

---

(١) السير في النهار.
(٢) أعطتنا.
(٣) مستعدين.
(٤) المجلس.
(٥) يوم القيامة.
(٦) تجمعهم كتجمع الأثافي.
(٧) جمع أكمَّة، وهي: المحل المرتفع.
(٨) المسرعين.
(٩) أي: أتحسبون.
(١٠) هي الإبل الهجان.
(١١) تثقيلها بالأحمال والزوامل: الإبل التي يحمل عليها.
(١٢) إهزالها من الإتعاب.
(١٣) البُعْد.
(١٤) ترك الإثم.
(١٥) الكعبة.

الاسْتِطاعَـة، وإصْلاحُ الْـمُعامَلات، أمَـامَ إعْمَالِ اليَعْمَـلات، فوالذي شرَعَ الْـمَنَاسكَ للنَّـاسك، وأرشَدَ السَّالكَ فِي اللَّيْلِ الحَالك، مَا يُـنقِي الاغتسَالُ بالذَّنوبِ مِـنَ الانْغمَاسِ فِـي الذُّنوبِ ! ولاَ تَعْدِلُ تعـرِيَةُ الأجْسـامِ بتَعْبِـيَةِ الأجْرَامِ [١] ، ولاَ تُغْنِي لِبْسَةُ الإحْرَامِ [٢] عَنِ المُتلبِّسِ بالْـحَرام، ولاَ يَنفَعُ الاضْطِبَاعُ بالإزَارِ مَعَ الاضْطِلاعِ بالأوْزارِ [٣]، ولاَ يُجْدِي التَّقَـرُّبُ بالْـحَلْقِ مَعَ التَّـقَلُّبِ فِي ظُلْمِ الْـخَـلْقِ، ولاَ يَرْحَضُ [٤] التَّنسُّـكُ فِي التَّقصـيرِ دَرَنَ التَّمَسُّكِ بالتَّقْصيرِ، ولاَ يسعَدُ بِعَـرفَةَ، غَيرُ أَهْلِ المْعرفَةِ، ولاَ يزْكُو بِالْـخَيْفِ مِنْ يَرْغَبُ فِي الْـحَيْفِ [٥]، ولاَ يشْهَدُ الْـمَقامَ، إلا مَنِ استَقامَ، ولاَ يَحْظَى بقَبُولِ الحِجَّةِ، مِنْ زَاغَ [٦] عَنِ الْـمَحَجَّةِ [٧]، فَرَحِمَ اللهُ امْرأً صَـفَا، قَبْلَ مسْعَاهُ إِلَى الصَّفَا، ووَرَدَ شَرِيعَةَ الرِّضَى، قَبْلَ شُرُوعِهِ عَلَى الأضَا [٨]، ونَزَعَ عَنْ تَلْبِـيسه، قَـبْلَ نَزْعِ مَلبوسِـه، وَفَاضَ بمَعْـروفه [٩]، قَبْلَ الإفَـاضَةِ مِنْ تَعْريفِـه، ثُمَّ رَفَعَ عَقيرَتَهُ بِصَـوْتٍ أَسْمَعَ الصُمَّ، وكَادَ يُزعزِعُ الجِـبَالَ الشُمَّ، وأَنْشَدَ:

مَـا الْـحَـجُّ سيـرُكَ تأويـباً [١٠] وإدْلاجـا
وَلاَ اعْـتيـامُـكَ [١١] أجْـمَـالاً وأحـداجـا
الْحَـجُّ أَنْ تـقـصِـدَ البـيـتَ الحْـرامَ عَـلَى
تَـجْـرِيدكَ الْـحَجَّ لا تـقْـضي به حـاجـا

(١) بحمل الآثام.
(٢) ما يستتر به الحاج بعد تجرّده للإحرام.
(٣) جمع الوزر، بمعنى: الذّنب.
(٤) يغسل.
(٥) الجور والتعدّي.
(٦) من مال وحاد.
(٧) أي: عن طريق الحقِّ.
(٨) جمع أضاة، وهي: الغدير، وأراد به: زمزم.
(٩) أحسن ببرّه وتفضل بخيره.
(١٠) سير النهار وسير الليل.
(١١) اختيارك.

وتمْتَطي كاهلَ الإنْصاف متّخذاً
ردعَ الهَوَى هاديا والحَقَّ منْهاجا
وأنْ تُؤاسِيَ (١) مَا أُوتيتَ مَقْدُرَةً
مَنْ مدَّ كفّاً إلَى جَدْواكَ مُحْتاجا
فهَذه إنْ حوتْها حجّةٌ كمُلَتْ
وإنْ خَلا الحْجُّ منْهَا كَانَ إخْدَاجَا (٢)
حسْبُ الْمُرائينَ غَبْنًا (٣) أنهُمْ غرَسوا
ومَا جَنَواْ ولَقُوا كَدّاً وَإزْعَاجَا (٤)
وأنّهُمْ حُرِمُوا أجْراً ومَحْمَدةً
وأَلْحَمُوا عِرضَهم مَنْ عَابَ أَوْ هاجَى
أُخَيَّ فابْغِ بِمَا تُبديه منْ قُرَبٍ
وَجْهَ الْمُهَيْمنِ ولَّاجاً وَخرَّاجَا (٥)
فَلَيس تَخفَى عَلَى الرَّحْمَنِ خَافيَةٌ
إنْ أخلَصَ العَبْدُ فِي الطَّاعَاتِ أَوْدَاجَى (٦)
وبادِرِ المْوْتَ بالْحُسْنَى تُقدّمُها
فمَا يُنَهْنَهُ (٧) داعي الْموتِ إن فاجَا (٨)
واقْنَ التّواضُعَ (٩) خُلقاً لا تُزايلُهُ
عَنْكَ اللَّيَالي ولَوْ ألْبسنَكَ التَّاجَا

(١) تتكرَّم.
(٢) نقصانًا.
(٣) الغُبن: الخديعة في البيع.
(٤) الإزعاج: مفارقة الوطن.
(٥) داخلاً وخارجًا.
(٦) من المداجاة، وهي هنا بمعنى: النِّفَاق.
(٧) فما يؤخر ولا يمنع من نهنهته.
(٨) إن أتى بغتة.
(٩) ألزمه وأمسكه.

وَلاَ تَشِمْ كُلَّ خَالٍ لاحَ بَارِقُهُ (١)
وَلَوْ تراءَى هَتُونَ السَّكْبِ (٢) ثجَّاجَا
مَا كُلّ دَاعٍ بِأَهْلٍ أَنْ يُصَاخَ (٣) لهُ
كَمْ قَدْ أصَمَّ بِنَعْيِي بَعْضُ مَنْ نَاجَى
ومَا اللّبيبُ سوَى مَنْ باتَ مُقتنعاً
بِبُلْغَةٍ تُدْرِجُ الأَيَّامَ (٤) إدْرَاجَا
فَكُلُّ كُثْرٍ إلَى قُلٍّ مَغَبَّتُهُ
وَكُلُّ نَازٍ (٥) إلَى لِينٍ وإنْ هَاجَا

قَالَ الرَّاوِي: فَلَمَّا أَلْقَحَ عُقْمَ الأفْهامِ بسِحْرِ الكَلامِ، اسْتَروَحْتُ ريحَ أبي زَيْدٍ، وَمَادَ بِيَ الارْتِيَاحُ إليْهِ أيَّ مَيْدٍ، فمكَثْتُ حَتَّى اسْتَوْعَبَ (٦) نثَّ حكْمَتِه، وانْحَدَرَ مِنْ أكمَتِه، ثُمَّ دلَفْتُ (٧) إليْه لأتَصَفَّحَ صَفَحَاتِ مُحيَّاهُ، وأَسْتَشِفَّ (٨) جوهَرَ حِلاهُ، فَإِذَا هُوَ الضَّالَّةُ الَّتِي أَنْشُدُهَا، ونَاظِمُ القَلائد اللاَّتِي أنشدَها، فعانَقْتُهُ عِنَاقَ اللامِ للألف، ونَزَّلْتُهُ منزلَةَ البُرْءِ (٩) عنْدَ الدَّنِف (١٠)، وسألْتُهُ أَنْ يُلازِمَني فأبَى، أَوْ يُزامِلَني فنَبَا (١١)، وقَالَ: آلَيتُ فِي حِجَّتِي هَذه أَنْ لا أَحْتَقِبَ ولاَ أَعْتَقِبَ (١٢)، وَلاَ أَكْتَسِبَ وَلاَ أنتَسِبَ، وَلاَ أرتَفِقَ (١٣)، وَلاَ أُرافِقَ، وَلاَ أُوافِقَ مِنْ يُنَافِقُ، ثُمَّ ذَهَبَ يُهَرْوِلُ،

---

(١) لا تنظر إلى كل غيم برق.
(٢) متتابع القطر.
(٣) يسمعُ لَهُ.
(٤) تسوقها وتمضيها.
(٥) نهاية كل متشدد إلى الارتخاء.
(٦) استوفى.
(٧) الدلف: المشيّ رُوَيْدًا.
(٨) أبصر وأتحقق.
(٩) الخلاص من الدَّاء والشِّفَاء منه.
(١٠) المريض.
(١١) فامتنع وانفصل.
(١٢) المُنَاوبَة في السَّيْرِ.
(١٣) أنتفع.

وَغَادَرَنِي أولولُ، فَلَمْ أزلْ أقْرِيه نَظَري، وَأَودُّ لَوْ يمشي عَلَى نَاظِري، حَتَّى تَوَقَّلَ (١) أَحَدَ الأطْوَاد (٢)، وَوَقَفَ للحجيج بالمرْصَاد، فَلَمَّا شَاهَدَ إيضَاعَ الرُّكْبَان فِي الكُثْبَان، وَقَّعَ بِالبَنَان عَلَى البَنَان، وَانْدَفَعَ يُنشدُ:

لَيسَ مَنْ زَارَ رَاكِباً مِثْلَ سَاعٍ عَلَى الْقَدَمْ
لا وَلاَ خَادِمٌ أطَاعَ كَعَاصٍ مِنَ الخَدَمْ
كَيفَ يَا قَوْمِ يَسْتَوِي سَعْيُ بَانٍ وَمَنْ هَدَمْ
سَيُقِيمُ الْمُفَرِّطُونَ غَداً مَأْتَمَ النَّدَمْ
وَيَقُولُ الَّذِي تَقَرَّبَ طُوبَى لِمَنْ خَدَمْ
وَيْكِ يَا نَفْسُ قَدِّمِي صَالحاً عِنْدَ ذِي القِدَمْ
وازْدَرِي (٣) زُخْرُفَ الْحَيَاةِ فَوُجْدَانُهُ عَدَمْ
واذْكُرِي مَصْرَعَ الحُمَامِ إذَا خَطْبُهُ (٤) صَدَمْ
وانْدُبِي فِعْلَكِ القَبِيحَ وسُحِّي (٥) لَهُ بِدَمْ
وادْبُغِيهِ بِتَوْبَةٍ قَبْلَ أَنْ يَحْلَمَ الأدَمْ
فَعَسَى اللهُ أَنْ يَقِيكِ السَّعِيرَ الَّذِي احْتَدَمْ (٦)
يَوْمَ لا عَثْرَةٌ تُقَالُ وَلاَ يَنْفَعُ النَّدَمْ (٧)

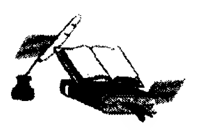
ثُمَّ إنَّهُ أغْمَضَ عَضْبَ لِسَانِه، وَانْطَلَقَ لِشَانِه (٨)، فَمَا زِلْتُ فِي كُلِّ مَوْرِدٍ (٩) نَرِدُهُ، وَمُعَرَّسٍ (١٠) نَتَوسَّدُهُ، أتَفَقَّدُهُ فَأَفْقِدُهُ، . . . .

---

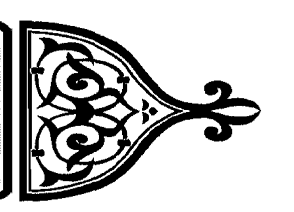
(١) صعد وعلا.
(٢) جمع الطود وهو الجبل.
(٣) احتَقري.
(٤) أمره العظيم الهائل.
(٥) سيلي.
(٦) التهب واضطرم وأشتدَّ حرّه.
(٧) النَّدم.
(٨) أي: لحاله.
(٩) هو محل ورود الماء.
(١٠) موضع النزول آخر الليل.

وَأَسْتَنْجِدُ(١) بِمَنْ يَنشُدُهُ فَلاَ يَجِدُهُ، حَتَّى خِلْتُ أَنَّ الْجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ(٢)، أو الأَرْضَ اقْتَطَفَتْهُ، فَمَا كَابَدْتُ(٣) فِي الْغُربَة، كَهَـذِهِ الْكُرْبَةِ(٤)، وَلاَ مُنِيتُ فِي سَفْرَةٍ، بِمِثْلِهَا مِنْ زَفْرَةٍ.

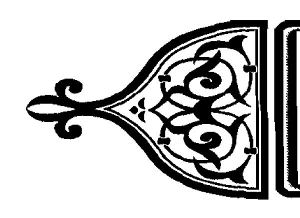
❖❖❖



(١) أطلب من ينجدني ويساعدني على طلبه.
(٢) أخذته بسرعة.
(٣) قاسيت.
(٤) الضّيق.



المَقَامَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلاثُونَ الطَّيْبِيَّةُ



حكَى الحَارثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَجْمَعْتُ(١) حينَ قضَيْتُ مناسكَ الحجّ، وأقَمْتُ وظائفَ العجِّ(٢) والثَّجِّ، أَنْ أقصدَ طَيْبَةَ(٣)، معَ رُفقَةٍ منْ بني شَيْبَةَ، لأزورَ قبرَ النَّبيِّ المُصطَفَى، وأخرُجَ منْ قَبيلِ منْ حجَّ وجَفَا، فَأُرْجِفَ بأنَّ المَسَالكَ شاغرَةٌ(٤)، وعَربَ الحَرَمَينِ مُتَشَاجرةٌ(٥)، فَحرتُ بَيْنَ إشْفَاقٍ يُثَبِّطُني(٦)، وأشْواقٍ تُنشِّطُني(٧)، إلَى أَنْ أُلْقيَ في رَوْعي الاستسْلامُ، وتَغْليبُ زيارَةِ قبرِه عليه السلام، فَأعْتَمْتُ القُعْدَةَ، وأعْدَدْتُ العُدَّةَ، وَسِرْتُ والرُفْقَةَ لا نلْوي علَى عُرْجَةٍ(٨)، ولاَ نَني في تأويبٍ ولاَ دُلجَةٍ، حتَّى وافَينَا بَني حَرْبٍ، وقَدْ آبوا منْ حَرْبٍ، فَأَزْمَعْنا(٩) أَنْ نُقَضِّيَ ظلَّ اليَوْمِ(١٠) في حلَّة القَومِ، وبينَما نَحْنُ نتخيَّرُ المُناخَ، ونَرُودُ الوِردَ النُّقاخَ(١١)، إذْ رأيْناهُمْ يركُضُونَ(١٢)، كأنَّهُمْ إلَى نُصُبٍ يوفضُونَ، فرابَنا انثيالُهمْ، وسَألْنَا: مَا بالُهُمْ(١٣)؟ فَقيلَ قدْ حضَرَ نَاديَهُمْ فقيهُ العرَبِ، فَإهْرَاعُهُمْ(١٤) لهَذَا السببِ، فَقُلْتُ لرُفقَتي: ألَنْ نَشْهَدُ مَجْمعَ الحَيِّ، لنتبيَّنَ

---

(١) عزمت.
(٢) رفع الصوت بالتلبية.
(٣) هي مدينة الرسول ﷺ.
(٤) أي: مخوفة.
(٥) مختلفة بينها حرب.
(٦) يقعدني ويعوقني.
(٧) تستوفزني وتذهب بي.
(٨) لا نميل إلى تعريج، أي: إقامة.
(٩) عزمنا.
(١٠) أي: طوله.
(١١) العذب البارد.
(١٢) يسرعون.
(١٣) ما الذي أصابهم؟
(١٤) الإسراع في فزع ورَعْدَةٍ.

الرُّشْدَ مِنَ الغَيِّ؟ فَقَالُوا: لَقَدْ أَسْمَعَتَ إِذْ دَعَوْتَ، ونصَحْتَ ومَا أَلَوْتَ (١)، ثُمَّ نهضْنَا نَتَّبِعُ الْـهَادِي (٢)، ونَؤُمَّ النَّادِيَ (٣)، حتَّى إِذَا أظْلَلْنَا علَيْه، وَاسْتَشْرَفْنَا الفَقيهَ الْـمَنهُودَ إِلَيْه، ألفيْتُهُ أَبَا زَيْد ذَا الشُّقَرِ والبُقَرِ، والفَوَاقِرِ والفقَرِ، وقد اعْتَمَّ القَفْدَاءَ، وَاشْتَمَلَ الصَّمَّاءَ، وقَعَدَ القُرْفُصَاءَ (٤)، وأعْيَانُ الْـحَيِّ بِـهِ مُحْتَفُّونَ (٥)، وَأَخْلاطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُّونَ، وَهُوَ يَقُولُ: سَلُونِي عَنِ الْـمُعضلات (٦)، وَاستَوضِحُوا مِنِّي الْـمُشكلات، فَوَالَّذِي فطَرَ السَّمَاء، وعلَّمَ آدمَ الأسْمَاء، إِنِّي لَفَقِيهُ الْـعَرَبِ العَرْبَاء، وَأَعْلَمُ مِنْ تَحْتَ الْـجَرْبَاء، فَصَمَدَ لَهُ فتًى فَتِيقُ اللِّسَان، جَرِيءُ الْـجَنَان، وقَالَ: إِنِّي حَاضَرْتُ فُقَهَاء الدُّنْيَا، حَتَّى انْتَخَلْتُ منْهُمْ مائَةَ فُتْيَا (٧)، فَإِنْ كُنْتَ ممَّنْ يَرغَبُ عَنْ بَنَات غَير، وَيَرْغَبُ منَّا في مَيْر، فاستَمِعْ وَأَجِبْ، لتُقابَلَ (٨) بمَا يجِبُ، فَقَالَ: اللهُ أكبرُ، سَيَبِينُ (٩) الْـمَخْبَرُ، (١٠) وينكَشِفُ الْـمُضْمَرُ (١١)، فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، قَالَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ توضّأ ثُمَّ لَمَسَ ظَهْرَ نعله؟ قَالَ: انتَقَضَ وُضُوؤُهُ بفعله، قَالَ: فَإِنْ توضَّأَ ثُمَّ أتكأَهُ البَردُ (١٢)؟ قَالَ: يُجَدِّدُ الوُضُوءَ مِنْ بَعْدُ، قَالَ: أيَمْسَحُ الْمتوَضّئ أُنْثَيَيْه (١٣)؟ قَالَ: قَدْ نُدِبَ إِليه، وَلَمْ يوجَبْ عليْه، قَالَ: أيجوزُ الوُضوء ممَّا يقْذفُهُ الثّعبانُ؟ قَالَ: وَهَلْ أنْظَفُ مِنْهُ للعُرْبَانِ؟ قَالَ: أيُستَبَاحُ مَاءَ الضَّرِيرِ (١٤)؟ قَالَ: نعَمْ ويُجتَنَبُ

---

(١) ما أخرت عنا نُصْحًا.
(٢) الدَّليل.
(٣) نقصد المجلس.
(٤) جلسة المحتَبي.
(٥) مستديرون حوله.
(٦) المشكلات التي تعجز العلماء.
(٧) المسائل التي يفتى بها.
(٨) لتجازى.
(٩) سيظهر.
(١٠) باطن الأمر وحقيقته.
(١١) المستور.
(١٢) أضجعه على صورة المتكئ.
(١٣) الأذنان.
(١٤) المتبادر أنه الأعمى.

مَاء البَصِيرِ، قَالَ: أيحِلُّ التَّطَوُّفُ (١) فِي الرَّبِيع؟ قَالَ: يُكْرَه ذَاكَ للْحَدَث الشَّنِيع، قَالَ: أيجبُ الْغُسْلُ عَلَى مِنْ أمْنَى (٢)؟ قَالَ: لاَ ولَوْ ثنَّى، قَالَ: فَهَلْ يجبُ عَلَى الْجُنُب غَسْلُ فَرْوَته؟ قَالَ: أجَلْ وَغَسْلُ إبْرَته، قَالَ: أيجبُ عَلَيْه غَسْلُ صَحِيفَته (٣)؟ قَالَ: نعَمْ كغَسْلِ شفته، قَالَ: فَإِنْ أخلَّ بغَسْلِ فَأسه؟ قَالَ: هُوَ كَمَا لَوْ ألْغَى غَسْلَ رَأْسه، قَالَ: أيَجُوزُ الغُسْلُ فِي الجِرَاب (٤)؟ قَالَ: هُوَ كَالغُسْلِ فِي الجِبَاب، قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ تيمَّمَ ثُمَّ رَأَى رَوْضاً؟ قَالَ: بطَلَ تيَمُّمُهُ فَلْيَتَوضَّأ، قَالَ: أيجوزُ أَنْ يسْجُدُ الرَّجُلُ فِي العَذِرَة (٥)؟ قَالَ: نَعَمْ ولْيُجانِب القَذِرَةَ، قَالَ: فَهَلْ لَهُ السُّجُودُ عَلَى الخِلاف؟ قَالَ: لاَ ولاَ عَلَى أَحَد الأطْراف، قَالَ: فَإِنْ سجَدَ عَلَى شِمَاله (٦)؟ قَالَ: لا بأسَ بفعاله، قَالَ: فَهَلْ يَجُوزُ السُّجُودُ عَلَى الكُرَاعِ (٧)؟ قَالَ: نَعَمْ دُونَ الذِّرَاعِ، قَالَ: أيُصَلِّي عَلَى رَأْسِ الكَلْب؟ قَالَ: نَعَمْ كَسَائِرِ الْهَضْب (٨)، قَالَ: أيَجُوزُ للدَّارِسِ (٩) حَمْلُ الْمَصَاحِف؟ قَالَ: لاَ ولاَ حمْلُها فِي الْملاحِف (١٠)، قَالَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ صَلَّى وَعَانَتُهُ بَارِزَةٌ؟ قَالَ: صلاتُهُ جائِزَةٌ، قَالَ: فَإِنْ صَلَّى وعلَيْه صومٌ؟ قَالَ: يُعيدُ ولَوْ صَلَّى مَائَةَ يَوْمٍ، قَالَ: فَإِنْ حَمَلَ جِرْواً (١١) وصلَّى؟ قَالَ: هُوَ كَمَا لَوْ حملَ باقلَّى، قَالَ: أتصِحّ صَلاةُ حامِلِ القَرْوَةِ (١٢)؟ قَالَ: لا ولَوْ صَلَّى فَوْقَ الْمَرْوَة، قَالَ: فَإِنْ

---

(١) الطواف والدوران حول الشَّيْء.
(٢) نزل منًى.
(٣) الصحيفة: الكتاب.
(٤) جوف البئر.
(٥) فناء الدَّار.
(٦) الشمال: جمع شملة، وهي مخالفة للقيلة.
(٧) ما استطال من الحرة وهي أرض ذات حجارة سود.
(٨) جمع هضبة، وهي: الصخرة العظيمة، أو الكُدْيَة الصغيرة.
(٩) الحائض.
(١٠) الملاءات.
(١١) ولد الكلب، فحمله مُبْطلٌ للصلاة.
(١٢) جلدة الخصيتين إذا عظمت وانتفخت.

قَطَرَ عَلَى ثَوْبِ الْمُصَلِّي نجْوٌ؟ قَالَ: يَمْضِي فِي صَلاته ولاَ غَرْوَ، قَالَ: أَيَجوزُ أَنْ يؤمّ الرّجالَ مقنَّعٌ؟ قَالَ: نَعَمْ ويَؤُمُّهُمْ مُدَرَّعٌ(١)، قَالَ: فَإِنْ أمَّهُمْ مَنْ فِي يده وَقْفٌ؟ قَالَ: يُعيدُونَ ولَوْ أنَّهُمُ أَلْفٌ. قَالَ: فَإِنْ أمَّهُمْ مِن فخْذُهُ باديَةٌ؟ قَالَ: صَلاتُهُ وصَلاتُهُم مَاضيَةٌ، قَالَ: فَإِنْ أمَّهُمُ الثّورُ الأجَمُّ(٢)؟ قَالَ: صَلِّ وَخَلاكَ ذَمٌّ، قَالَ: أَيَدْخُلُ القَصْرُ(٣) فِي صَلاةِ الشَّاهدِ؟ قَالَ: لاَ والغائبِ الشَّاهِدِ، قَالَ: أيَجُوزُ للمَعْذُورِ(٤) أَنْ يُفطِرَ فِي شَهْرِ رمَضَانَ؟ قَالَ: مَا رُخِّصَ إلا للصِّبْيَانِ، قَالَ: فَهَلْ لِلْمُعَرِّسِ(٥) أَنْ يأكُلَ فيه؟ قَالَ: نَعَمْ بِمِلْءِ فِيهِ. قَالَ: فَإِنْ أفطَرَ فيه العُرَاةُ(٦)؟ قَالَ: لا تُنكرُ عَلَيْهِم الوُلاةُ(٧)، قَالَ: فَإِنْ أكَلَ الصَّائمُ بَعْدمَا أصبَحَ؟ قَالَ: هُوَ أحْوَطُ(٨) لَهُ وأَصْلَحُ، قَالَ: فَإِنْ عمَدَ لأنْ أكَلَ لَيْلاً؟ قَالَ: ليُشمِّرْ للقَضَاءِ ذَيْلاً، قَالَ: فَإِنْ أَكَلَ قَبْلَ أَنْ تَتَوارَى البَيْضَاءُ(٩)؟ قَالَ: يَلْزَمُهُ ـ والله ـ القَضَاءُ، قَالَ: فَإن اسْتَثَارَ(١٠) الصَّائمُ الكَيْدَ(١١)؟ قَالَ: أفْطَرَ وَمَنْ أحَلَّ الصيْدَ، قَالَ: أَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ بِإلحَاحِ الطَّابِخِ؟ قَالَ: نعَمْ لا بِطَاهِي الْمَطَابِخِ، قَالَ: فَإِنْ ضَحِكَت الْمَرأةُ فِي صَومِهَا؟ قَالَ: بطَلَ صَومُ يَومِهَا، قَالَ: فَإِنْ ظَهَرَ الْجُدَرِيُّ عَلَى ضَرَّتِهَا(١٢)؟ قَالَ: تُفطِرُ إن آذَنَ بِمَضَرَّتِهَا، قَالَ: مَا يَجِبُ فِي مِائَةِ

---

(١) درع الحديد، وهو من شأن الرجل.
(٢) الذي لا قرن له وهو حيوان لا يعقل فضلاً.
(٣) هو قَصْر الصلاة الرُّبَاعيَّة.
(٤) من أصابه عذر يوجب له الفطر.
(٥) أعرس: إذا دَخلَ بالعروس.
(٦) جمع عارٍ، وهو: ضد المُكْتَسِي.
(٧) وجع والٍ، قاضيا كان أو غيره.
(٨) الاحتياط: هو الأخذ بالحزم في الأمور.
(٩) تغيب وتستتر، والبيضاءُ: المورى بها المرأة. (١٠) استدعى.
(١١) هو الغيظ واستثارته لا تفطر.
(١٢) المرأة المجتمعة معها تحت عصمة زوجها.

مْصبَاحٍ؟ قَالَ: حقَّتَان (١) يَا صَاحِ، قَالَ: فَإنْ مَلَكَ عَشْرَ خنَاجِرَ (٢)؟ قَالَ: يُخرِجُ شَاتَينِ وَلاَ يُشَاجِرُ، قَالَ: فَإنْ سَمَحَ للسَّاعي بِحَميمته (٣)؟ قَالَ: يَا بُشْرَى لَهُ يَوْمَ قيَامته! قَالَ: أيستَحقَّ حَمَلَةُ الأوْزار (٤) منَ الزَّكَاة جُزْأً؟ قَالَ: نَعَمْ إذَا كَانُوا غُزًّى، قَالَ: أيَجوزُ للحَاجِّ أَنْ يَعتَمرَ (٥)؟ قَالَ: لاَ ولاَ أَنْ يَختَمرَ، قَالَ: فَهَلْ لَهُ أَنْ يَقتُلَ الشُّجَاعَ؟ قَالَ: نَعَمْ كَمَا يَقتُلُ السِّبَاع، قَالَ: فَإنْ قَتلَ زَمَّارَةً فِي الحَرَمِ؟ قَالَ: عَلَيْه بدَنَةٌ منَ النَّعَمِ، قَالَ: فَإنْ رَمَى سَاقَ حُرٍّ فَجدَّلَهُ؟ قَالَ: يُخرِجُ شَاةً بَدَلَهُ، قَالَ: فَإنْ قَتَلَ أمَّ عوف بَعْدَ الإحْرَامِ؟ قَالَ: يَتَصدَّقُ بقَبْضَة منْ طَعَامٍ، قَالَ: أيجبُ عَلَى الْحَاجِّ اسْتصْحَابُ القَارب (٦)؟ قَالَ: نَعَمْ ليَسوقَهُمْ إلَى الْمَشَاربِ، قَالَ: مَا تَقولُ فِي الْحَرامِ بَعْدَ السَّبْت؟ قَالَ: قَدْ حلَّ فِي ذَلكَ الوقت، قَالَ: مَا تَقولُ فِي بيْعِ الكُمَيت (٧)؟ قَالَ: حَرامٌ كبَيعِ المَيْت، قَالَ: أيَجوزُ بيعُ الخَلِّ بلَحْمِ الجَمَلِ؟ قَالَ: وَلاَ بلَحْمِ الحَمَلِ، قَالَ: أيَحلّ بيْعُ الْهَديَّة (٨)؟ قَالَ: لا وَلاَ بيعُ السَّبِيَّة، قَالَ: مَا تَقولُ فِي بيْعِ العَقيقَة (٩)؟ قَالَ: مَحْظُورٌ عَلَى الْحَقيقَة، قَالَ: أيَجُوزُ بيْعُ الدَّاعي (١٠)، عَلَى الرَّاعِي؟ قَالَ: لا وَلاَ عَلَى السَّاعِي، قَالَ: أيُبَاعُ الصَّقْرُ (١١)

---

(١) التي مضى عليها ثلاث سنوات ودخلت في الرَّابعة؛ لأنَّها استحقت طرق الفحل.

(٢) السكين المعروفة التي توضع في الحزام للزِّينَة.

(٣) أعزّ الأهل والأقارب.

(٤) المرتكبون للذّنُوب.

(٥) الإتيان بالعمرة، وهي عبادة أركانها: الإحرام، والطَّوَاف، والسَّعْي.

(٦) هو ضرب من السفن صغير يستعمله أصحاب السفن في قضاء مصالحهم.

(٧) الفرس الذي اسودَّ عرفه وذنبه من الكمتة وهي لون يُضْرَب إلى السواد.

(٨) المهداة من الأحباب.

(٩) ما يُذْبَحُ عن المولود في اليوم السَّابع من ولادته.

(١٠) هي بقية اللَّبَن في الدّرع.

(١١) الطائر المعروف من جوارح الطَّيْر.

بالتَّمْرِ؟ قَالَ: لا ومَالك الْـخَلْقِ والأمْـرِ، قَالَ: أيَشْتَري الْـمُسْلِمُ سَلَبَ[١] الْـمُسْلِمَات؟ قَالَ: نعَـمْ ويُورَثُ عنهُ إذَا مَاتَ، قَـالَ: فَهَل يجوزُ أَنْ يبْـتاعَ الشَّافعُ[٢]، قَـالَ: مَـا لجَوازِه مِنْ دَافِـعٍ، قَالَ: أَيُبَـاعُ الإبْريقُ علَـى بَني الأصْفَرِ[٣]؟ قَالَ: يُكرهُ كبَيْعِ المْغْفَرِ، قَالَ: أيَـجوزُ أَنْ يبيعَ الرّجُلُ صَيْفيَّهُ؟ قَالَ: لا ولكنْ لـيَبِعْ صَفيَّـهُ، قَالَ: فإن اشتَـرَى عبْداً فبانَ بـأمِّه جراحٌ[٤]؟ قَالَ: مَا فِـي ردّه مِنْ جُنَاحٍ، قَالَ: أتَثْـبُتُ الشُّفْعَـةُ للشّريك فِي الصّـحْراء؟ قَالَ: لا ولاَ للشّريكِ فِي الصَّفْرَاءِ، قَالَ: أيَحلّ أَنْ يُحْمَى مَاء البِئْرِ والْـخَلا؟ قَالَ: إنْ كَانَ فِي الفَلا فَـلا، قَالَ: مَا تَقولُ فِي ميْـتَة الكافرِ[٥]؟ قَالَ: حلٌّ للمُقـيمِ والْـمُسافـرِ، قَالَ: أيجوزُ أَنْ يُضَـحَّى بالحُولِ[٦]؟ قَالَ: هُوَ أجدَرُ بالقَـبولِ، قَـالَ: فَهَلْ يُـضحَّى بالـطَّالِق[٧]؟ قَالَ: نَعَـمْ ويُقْرَى[٨] منْهَا الطَّارِقُ، قَالَ: فَإنْ ضحَّى قبْلَ ظُهورِ الغَزالَة؟ قَالَ: شاةُ لَحْمٍ[٩] بِلا مَحالَة، قَالَ: أيحلّ التكسّبُ بالطَّرْقِ[١٠]؟ قَالَ: هُوَ كالقِمَارِ بلا فرْقٍ، قَالَ: أيُسَلِّمُ القَائمُ عَلَى القَاعدِ؟ قَالَ: مَحْظُورٌ فيمَا بَيْنَ الأباعِدِ، قَالَ: أيَنَامُ العاقلُ تَحْتَ الرّقيعِ؟ قَالَ: أحْبِبْ به فِي البَقِيعِ[١١]، قَالَ: أيُمنَعُ الذِّمِّيُّ مِنْ قَتْلِ العَجُوزِ؟ قَالَ: مُعـارضَتُهُ فِي العَـجوزِ لا تَجوزُ، قَـالَ: أيجوزُ أَنْ ينتَقِـلَ الرَّجُلُ عَنْ

---

(١) ما يُؤخَذُ من النساء من السلب كَالحُلِيّ والثّيَاب.

(٢) الشَّفيعُ: أي ذو الشَّفَاعَة.

(٣) بنو الأصفر: الرُّوم.

(٤) أُمّه: والدته، ولا دخل لجرح أمّه.

(٥) الآدمي الكافر، المقابل للمؤمن.

(٦) جمع الأحول، وهو الذي يميل سواد عينه عن موضعه.

(٧) الّتي طلَّقها زوجها.

(٨) ما يقدم للضَّيْفِ من الطعام.

(٩) لا تقع أضحية بل هي لحم يُبَاعُ وَيُؤكَل.

(١٠) طرق الصوف؛ أي: ضربه بنحو قضيب.

(١١) مقبرة أهل المدينة المنورة.

عِمَارَةَ أبيه (١) ؟ قَالَ: مَا جُـوِّزَ لِخَامِـلٍ وَلاَ نَبِـيه، قَـالَ: مَـا تَقولُ فِي التهوُّدِ (٢) ؟ قَالَ: هُوَ مِفْـتاحُ التَّزهُّد، قَالَ: مَـا تَقولُ فِي صبرِ الـبَلِيَّة (٣) ؟ قَالَ: أعـظِمْ بِهِ من خَـطِيَّة، قَـالَ: أَيَحِلُّ ضربُ الـسَّفِـير (٤) ؟ قَالَ: نَعَمْ والْـحَملُ عَلَى الْـمُسْتَشِيرِ (٥) ، قَالَ: أيُعزِّزُ الرَّجُلُ أباهُ؟ قَالَ: يفعَلُهُ البَرُّ وَلاَ يأباهُ، قَالَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ أفقَر أخاهُ (٦) ؟ قَالَ: حَبَّذَا مَا توخَّاهُ! قَالَ: فَإِنْ أعْرَى وَلَدَهُ؟ قَالَ: يَا حُسْنَ مَا اعتَمَـدَهُ! قَالَ: فَإِنْ أَصْلَى مَمْلُوكَهُ النَّارَ (٧) ؟ قَالَ: لا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلاَ عارٌ، قَالَ: أَيَجـوزُ للمرأة أَنْ تصرِمَ بعْلَها (٨) ؟ قَالَ: مَا حَظَرَ (٩) أَحَدٌ فعلَـها، قَالَ: فَهَلْ تؤدَّبُ الْمرأةُ عَـلَى الخْجَلِ (١٠) ؟ قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: مَـا تَقُولُ فِيـمَنْ نَحتَ أثْلَةَ أخِـيه؟ قَالَ: أَثِمَ وَلَوْ أذنَ لَهُ فِـيه، قَـالَ: أيَحْـجُـرُ الْـحَـاكِـمُ عَلَى صَاحِبِ الثَّـــوْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ لِيَأْمَـنَ غائلَةَ الْـجَوْرِ (١١) ، قَالَ: فَـهَلْ لَهُ أَنْ يضرِبَ عَلَى يَـدِ اليَتيمِ؟ قَـالَ: نَعَمْ إِلَى أَنْ يَستَـقيمَ، قَالَ: فَهَـلْ يجوزُ أَنْ يتّخِـذَ لَهُ ربَضاً (١٢) ؟ قَالَ: لاَ وَلَوْ كَانَ لَهُ رِضًى، قَالَ: فَمَـتى يَبِيعُ بَدَنَ السَّـفِيه (١٣) ؟ قَالَ: حِينَ يَرَى لَهُ الْحَـظَّ فِيه، قَالَ: فَهَـلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْتَـاعَ لَهُ حَشّاً؟ قَالَ: نَـعَمْ إِذَا لَمْ يكُنْ مُغَـشًّى، قَالَ:

---

(١) ما كان يعمره أبوه من دار وغيرها.
(٢) الدخول في ملَّة اليهود.
(٣) صبر الإنسان وعدم جزعه على ما يصيبه من البلاء.
(٤) الرسول المُصْلِح بين القوم.
(٥) الذي يطلب إرشاد المشير له إلى أحسن الأحوال.
(٦) الفقار والفقرات: محركة خرزات سلسلة الظهر.
(٧) أدخله في الصلاء وهو النَّار.
(٨) البعل: هو الزوج وصرمها له كناية عن عدم موافاتها له.
(٩) الحظر: المنع.
(١٠) الاستحياء.
(١١) غائلة الإنسان: شرّه وانحرافه عن الحقِّ.
(١٢) ما كان خارجًا عن سور المدينة من الأبنية.
(١٣) جسد السفينة.

أيجوزُ أَنْ يكُونَ الحَاكِمُ ظالمًا (١)؟ قَالَ: نَعَمْ إذَا كَانَ عَالمًا، قَالَ: أيُستَقْضَى مِنْ لَيْسَتْ لَهُ بَصِيرةٌ (٢)؟ قَالَ: نَعَمْ إذَا حَسُنَتْ مِنْهُ السِّيرَةُ، قَالَ: فَإنْ تَعرَّى مِنَ العَقْلِ؟ قَالَ: ذَاكَ عُنْوَانُ الفَضْلِ، قَالَ: فَإنْ كَانَ لَهُ زَهْوُ جَبَّارٍ؟ قَالَ: لا إنْكَارَ عَلَيْه وَلاَ إكْبار، قَالَ: أيَجُوزُ أَنْ يكُونَ الشاهدُ مُريباً (٣)؟ قَالَ: نَعَمْ إذَا كَانَ أَرِيباً (٤)، قَالَ: فَإنْ بَانَ أَنَّهُ لاَطَ؟ قَالَ: هُوَ كَمَا لَوْ خَاطَ، قَالَ: فَإنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُ غرِبلَ؟ قَالَ: تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَلاَ تُقْبَلُ، قَالَ: فَإنْ وضَحَ (٥) أَنَّهُ مَائِنٌ؟ قَالَ: هُوَ لَهُ وصْفٌ زائِنٌ، قَالَ: مَا يجِبُ عَلَى عابِدِ الْحَقّ؟ قَالَ: يُحلَّفُ بإلَه الخَلْقِ، قَالَ: مَا تَقولُ فِي مِنْ فقَأ عينَ بُلبُلٍ (٦) عامداً؟ قَالَ: تُفقَأُ عينُه قوْلاً واحداً، قَالَ: فَإنْ جرَحَ قَطاةَ امْرأَةٍ (٧) فمَاتَتْ؟ قَالَ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ إذَا فَاتَتْ، قَالَ: فَإنْ ألقَتِ الحَامِلُ حَشِيشاً (٨) مِنْ ضربِهِ؟ قَالَ: ليُكفِّرْ بالإعْتاقِ عَنْ ذنْبِه، قَالَ: مَا يجبُ عَلَى الْمُختَفِي (٩) فِي الشَّرْعِ؟ قَالَ: القطْعُ لإقامَةِ الرَّدْعِ، قَالَ: فَمَا يُصنَعُ بِمَنْ سرَقَ أَسَاوِدَ الدَّارِ؟ قَالَ: يُقطَعُ إنْ ساوَيْنَ رُبعَ دينَارٍ، قَالَ: فَإنْ سرَقَ ثَمِينًا مَنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لا قَطْعَ كَمَا لَوْ غَصَبَ، قَالَ: فَإنْ بَانَ عَلَى الْمَرْأَةِ السَّرَقُ؟ قَالَ: لا حَرَجَ عَلَيْهَا وَلاَ فَرَقَ، قَالَ: أينعَقِدُ نكاحٌ لَمْ يَشْهَدْهُ القَوَارِي (١٠)؟ قَالَ: لاَ وَالْخَالِقِ البَارِي، قَالَ: مَا تَقُولُ فِي عَروسٍ باتَتْ بِلَيلَةٍ حُرَّةٍ، ثُمَّ رُدَّتْ فِي حَافِرَتِهَا

---

(١) الظالم ضد العادل، والحاكم لا يجوز له الظلم.

(٢) لا يتبصّر في أمور مصالح الخصوم.

(٣) العيب والشّك.

(٤) عاقلاً.

(٥) تبيَّن وظهر.

(٦) النوع المعروف من العصافير.

(٧) القطاة: واحدة القطا، وهي: الطير المعروف.

(٨) ما ينبت من الكلأ.

(٩) المستكنّ في محلٍّ لا يخرج منه.

(١٠) جمع قارية، وهو نوع من الطير يتيمن به الأعراب.

بسُحْرَة(١)؟ قَالَ: يجبُ لَهَا نصفُ الصّداق، ولاَ تلزَمُها عدّةُ الطّلاق، فَقَالَ لَهُ السَّائلُ لله درُّكَ من بحرٍ لا يُغضْغضُهُ الْماتِحُ(٢)، وحبْرٍ لا يبلُغُ مدْحَهُ الْمَادحُ! ثُمَّ أطرَقَ(٣) إطْراقَ الْحَيِيِّ(٤)، وأرَمَّ(٥) إرْمَامَ العَيِيِّ(٦)، فَقَالَ لَهُ أَبُو زَيْد: إيه يَا فَتَى! فإلَى متَى وإلَى متَى؟ فَقَالَ لَهُ: لَمْ يبْقَ في كنَانَتي مرْمَاةٌ، وَلاَ بَعْدَ إشْراقِ صبُحكَ مُمَاراةٌ(٧)، فبالله أيُّ ابنِ أرْضٍ أنتَ، فَمَا أحسنَ مَا أبَنْتَ، فأنشَدَ بلسان ذَلق(٨)، وصوت صهْصَلق(٩):

أنَا في العَالَمِ مُثْلَهْ ... ولأهْلِ العِلْمِ قِبْلَهْ(١٠)
غَيْرَ أنّي كُلَّ يَوم ... بَينَ تَعْرِيس(١١) ورحلَهْ
وَالغَرِيبُ الدَّارِ لَوْ حَلَّ ... بِطُوبَى لَمْ تَطِبْ لَهْ

ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ كَمَا جعلْتَنَا ممَّنْ هُدِيَ ويَهْدي، فاجعَلْهُمْ ممَّنْ يَهْتَدي(١٢) ويُهْدي(١٣)، فَسَاقَ إليْهِ الْقَوْمُ ذَوْداً مَعَ قَيْنَة(١٤)، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَزُورَهُمُ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنةِ(١٥)، فَنَهَضَ يُمَنِّيهِمِ الْعَوْدَ(١٦)، ويُزَجِّي(١٧) الأَمَةَ والذّوْدَ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَاعْتَرَضْتُهُ(١٨) وَقُلْتُ لَهُ: عَهْدِي بكَ سَفِيهاً،

---

(١) هي آخر الليل.
(٢) الذي يسقي فوق البئر.
(٣) سكت.
(٤) المستحيي.
(٥) صمت وسكت.
(٦) كسكوت المتّصف بعدم القدرة على التّكَلُّمِ.
(٧) مجادلة.
(٨) حادّ فصيح.
(٩) شديد.
(١٠) يتوجّهُون إلَيَّ.
(١١) النزول آخر الليل.
(١٢) يستدلّ.
(١٣) يعطي الهدية.
(١٤) جارية تعمل جيدًا، وقيل: هي الجميلة المغنية.
(١٥) الحين بعد الحين.
(١٦) الرجوع إليهم.
(١٧) يسوق.
(١٨) وقفت له في الطريق وحالت بينه وبين السَّيْرِ.

فمتَى صِرْتَ فَقيهاً؟ فظَلَّ هُنَيْهَةً (١) يَجولُ، ثُمَّ أَنْشَدَ يَقُولُ:

لَبِسْتُ لِكُلِّ زمَانٍ لَبوسَا ولابَسْتُ صَرْفَيه (٢) نُعمَى وبوسَى
وعَاشَرْتُ كُلَّ جَلِيسٍ بمَا يُلائمُهُ (٣) لأروقَ الْجَلِيسَا
فَعِنْدَ الرُّواة أُديرُ الكَلامَ وبَينَ السُّقاة أديرُ الكؤوسَا
وَطَوْراً بوَعْظي أُسيلُ الدُّموعَ وطَوْراً بلَهْوي أَسُرُّ النُّفُوسَا
وأقْري الْمَسَامعَ إمّا نطَقْتُ بيانًا (٤) يَقُودُ الحَرُونَ الشَّموسَا
وإنْ شئْتُ أرعفَ (٥) كَفِّي اليَرَاعَ (٦) فَسَاقطَ دُرّاً يُحَلّي الطُّروسَا (٧)
وَكَم مُشكلات حَكَينَ السُّهَى خَفَاءً فَصِرْنَ بكَشفي (٨) شُموسَا
وَكَمْ مُلَحٍ لي خلَبْنَ العُقُولَ (٩) وأسْأرْنَ في كُلِّ قلْبٍ رَسيسا
وعَذْراءَ فُهْتُ بهَا فَانْثَنَى عليها الثّنَاءُ طَليقاً حَبيسَا
علَى أنّني منْ زَمَانٍ خُصِصْتُ بكيْدٍ ولاَ كيدَ فرعَونَ موسَى
يسَعِّرُ (١٠) لي كُلَّ يومٍ وغًى أطامنْ لَظَاهَا وَطيساً وَطيسَا
ويَطْرُقُني بالْخُطُوبِ (١١) الَّتي يُذبنَ القُوَى ويُشبنَ الرّؤوسَا
ويُدْني إلَيَّ البَعيدَ البَغيضَ ويُبْعدُ عَنِّي القَريبَ الأنيسَا
ولَوْلا خَسَاسَةُ أخْلاقه (١٢) لَمَا كَانَ حظّي منْهُ خَسيسَا

فَقُلتُ لَهُ: خفِّضِ الأَحْزَانَ، وَلاَ تلُمِ الزّمَانَ، وَاشْكُرْ لِمَنْ نَقَلَكَ عَنْ

---

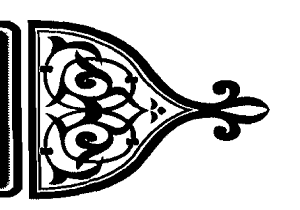
(١) برهة أو ساعة وقطعة من الزمان.
(٢) تصريفية.
(٣) يوافقه.
(٤) فصاحة كالسحر.
(٥) أسأل.
(٦) القلم.
(٧) يزين الكتب.
(٨) ببياني وإيضاحي.
(٩) خدعنها.
(١٠) يشعل ويلهب.
(١١) المصائب.
(١٢) أخلاق الزمان.

مَذْهَبِ إبْلِيسَ، إلَى مَذْهَبِ ابنِ إدْريسَ، فَقَالَ: دَعِ الْهِتَارَ(١)، وَلاَ تَهْتُكِ الأسْتَارَ! وانْهَضْ بنَا لِنَضْرِبَ إلَى مسْجِدِ يثْرِبَ، فعسَى أَنْ نرْحَضَ(٢) بالْمَزارِ(٣) درَنَ الأوْزَارِ، فَقُلْتُ: هَيْهَاتَ أَنْ أَسِيرَ، أَوْ أَفْقَهَ(٤) التَّفْسِيرَ! فَقَالَ: تَاللهِ لَقَدْ أوْجَبْتَ ذِمَمًا(٥)، وطلَبْتَ إذْ طلَبْتَ أمَمًا(٦)، فَهَاكَ مَا يَشْفِي النَّفْسَ، ويَنْفِي اللَّبْسَ(٧)، قَالَ: فَلَمَّا أوضحَ لِي الْمُعَمَّى(٨)، وكشفَ عنّي الغُمَّى، شَدَدْنَا الأكْوَارَ(٩)، وَسِرْتُ وسارَ، ولَمْ أزَلْ منْ مُسَامرَتِه، مُدَّةَ مُسَايَرَتِه، فِي مَا أنْسَانِي طَعْمَ الْمَشَقَّةِ، ووَدِدْتُ مَعَهُ بُعْدَ الشُّقَّةِ(١٠)، حتَّى إذَا دَخَلْنَا مَدِينَةَ الرَّسُولِ، وَفُزْنَا مِنَ الزِّيَارَةِ بِالسُّولِ(١١)، أَشْأَمَ وَأَعْرَقْتُ(١٢)، وَغَرَّبَ(١٣) وَشَرَّقْتُ(١٤).



---

(١) الْفُحْش أو الدَّاهِية.
(٢) نغسل ونطهر.
(٣) الزيارة.
(٤) حتى أعلم وأفهم.
(٥) جمع ذمة، وهي: العهد.
(٦) شيئًا هيِّنًا قريبًا.
(٧) التخليط.
(٨) هو الكلام الملغز به.
(٩) الرِّحَال.
(١٠) طول مسافة السَّفَر.
(١١) ببلوغ الأمل.
(١٢) قصدتُ.
(١٣) توجه إلى المغرب.
(١٤) وسرت إلى جهة المشرق.



الْمَقَامَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلاثُونَ
التَّفْلِيسِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: عَاهَدْتُ اللهَ تَعَالَى مُذْ يفَعْتُ، أَنْ لا أؤخِّرَ الصَّلاةَ مَا اسْتَطَعْتُ، فَكُنْتُ مَعَ جَوْبِ الفَلَوات (١)، ولَهْوِ الْخَلَوَاتِ (٢) أُرَاعِي أَوْقَاتَ الصّلاة، وأُحَاذِرُ مِنْ مَأْثَمِ الفَوَاتِ (٣)، وَإِذَا رافقْتُ فِي رِحلَة، أَوْ حَلَلْتُ بِحِلَّة (٤)، مرْحَبْتُ بصَوْتِ الدَّاعِي إليْها، وَاقتدَيْتُ بِمَنْ يُحَافظُ عَلَيْهَا، فَاتَّفَقَ حِينَ دخلْتُ تَفْلِيسَ، أَنْ صَلَّيتُ مَعَ زُمْرَةٍ مَفَالِيسَ (٥)، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلاةَ، وأَزْمَعْنَا الانْفِلاتَ، برزَ شيخٌ بَادِي (٦) اللَّقْوَة، بالِي الكُسوَةِ والقُوّة، فَقَالَ: عزمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طِينَةِ الْحُرِيّة، وتفوّقَ درَّ العَصَبِيَّة (٧)، إلا مَا تكلّفَ لِي لُبْثَةً (٨)، واسْتَمَعَ مِنِّي نَفْثَةً، ثُمَّ لَهُ الْخِيارُ مِنْ بَعْدُ، وبيده البَذْلُ وَالرَّدُّ (٩)، فَعَقَدَ لَهُ الْقَوْمُ الْحُبَى، ورَسَوْا (١٠) أمْثَالَ الرُّبَى، فَلَمَّا آنسَ (١١) حُسْنَ إنْصاتِهِمْ، ورزانَةَ حَصاتِهِمْ، قَالَ: يَا أُولِي الأبْصارِ الرَّامِقَة (١٢)، والبَصَائِرِ الرَّائِقَة (١٣)، أمَا يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ العِيَانُ، ويُنْبِئُ عَنِ النَّارِ الدُّخَانُ؟ شَيبٌ لائِحٌ (١٤)، ووهْنٌ

---

(١) قطع القفار.
(٢) لعب أوقات الفراغ.
(٣) إثم فوات وقت الصلاة.
(٤) نزلت بقوم أو ببلدة.
(٥) فقراء.
(٦) ظاهر.
(٧) أن يدعو إلى نصرة عصبته.
(٨) وقفة.
(٩) المنع والحرمان.
(١٠) ثبتوا وسكنوا.
(١١) أحسَّ وعلم ورأى.
(١٢) الناظرة.
(١٣) الصافية المعجبة.
(١٤) أي: ظاهر.

فَادِحٌ، وَدَاءٌ وَاضِحٌ، والبَاطِنُ فَاضِحٌ، وَلَقَدْ كُنتُ والله ممَّنْ مَلَكَ ومَالَ، وولِيَ وآلَ، وَرَفَدَ وَأَنَالَ، ووَصَلَ وصَالَ، فَلَمْ تَزَلِ الْجَوائِحُ تَسْحَتُ، والنَّوائِبُ (١) تنحَتُ، حَتَّى الوَكْرُ (٢) قَفْرٌ، والكَفُّ صِفْرٌ (٣)، والشِّعَارُ ضُرٌّ، والعَيشُ مُرٌّ، والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ (٤) من الطَّوَى، ويَتَمَنَّونَ مُصَاصَةَ النَّوَى، ولَمْ أَقُمْ هَذَا الْمَقامَ الشَّائنَ، وأَكْشِفْ لكُمُ الدَّفائِنَ (٥)، إلا بعْدَمَا شَقِيتُ وَلُقِيتُ، وَشِبْتُ مِمَّا لَقِيتُ، فَلَيتَني لَمْ أكُنْ بَقِيتُ، ثُمَّ تأوَّهَ تأوُّهَ الأسِيفِ، وأَنْشَدَ بِصَوتٍ ضَعِيفٍ:

أَشْكُو إلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ ... تَقَلُّبَ الدَّهْرِ وعُدْوانَهُ (٦)
وحَادِثَاتٍ قَرَعَتْ مَرْوَتِي ... وَقَوَّضَتْ مَجْدي وبُنْيَانَهُ
وَاهْتَصَرَتْ عُودِي (٧) ويا وَيلَ مَنْ ... تَهْتَصِرُ الأحْدَاثُ (٨) أَغْصَانَهُ
وأَمْحَلَتْ رَبْعِي حَتَّى جَلَتْ ... مِنْ رَبْعِيَ الْمُمْحِلِ جِرْذَانَهُ
وغَادَرَتْنِي (٩) حَائِراً بَائِراً ... أُكَابِدُ الفَقْرَ وأَشْجَانَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ أَخَا ثَرْوَةٍ ... يَسْحَبُ فِي النِّعْمَةِ أَرْدَانَهُ
يَخْتَبِطُ العَافُونَ أَوْرَاقَهُ ... وَيَحْمَدُ السَّارُونَ (١٠) نِيرَانَهُ
فَأَصْبَحَ اليَوْمَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ... أَعَانَهُ الدَّهْرُ الَّذِي عَانَهُ (١١)
وازْوَرَّ (١٢) مَنْ كَانَ لَهُ زَائِراً ... وعَافَ عَافِي العُرْفِ عِرْفَانَهُ
فَهَلْ فَتًى يَحْزُنُهُ مَا يَرَى ... مِنْ ضُرِّ شَيخٍ دَهْرُهُ خَانَهُ

---

(١) الدَّوَاهِي.
(٢) البيت.
(٣) فارغ من الدراهم وغيرها.
(٤) يبكون بصياح.
(٥) الأمور المستورة.
(٦) ظلمه.
(٧) أمالت ظهري.
(٨) الخطوب والمصائب.
(٩) تركتني.
(١٠) المسافرون ليلاً.
(١١) الذي أصابه بالعين.
(١٢) مال وأعرض وامتنع من مواجهته.

فَيَفْرِجَ الْهَمَّ الَّذي هَمَّهُ ويُصْلِحَ الشَّانَ الَّذي شَانَهُ (١)

قَالَ الرَّاوِي: فصَبَتِ الجْمَاعَةُ إلَى أَنْ تَسْتَثْبِتَهُ (٢)، لتَستَنجِشَ خُبْأتَهُ، وتستَنفِضَ حَقيبَتهُ، فَقَالَتْ لَهُ: قَدْ عرَفْنَا قَدرَ رُتبتكَ، ورَأَيْنَا درَّ مُزنَتكَ، فعرِّفْنَا دوْحةَ شُعبَتكَ (٣)، واحْسِرِ اللِّثَامَ (٤) عَنْ نسبَتكَ، فَأعْرَضَ إعْرَاضَ منْ مُنيَ بالإعْنَات (٥)، أَوْ بُشِّرَ بالبَنَات، وَجَعَلَ يَلْعَنُ الضَّرُورَات، ويَتَأَفَّفُ (٦) منْ تَغَيُّضِ الْمُرُوءَات، ثُمَّ أَنْشَدَ بلَفظٍ صَادعٍ (٧)، وَجَرْسٍ خَادعٍ:

لعَمْرُكَ مَا كُلُّ فَرْعٍ يَدُلُّ جَنَاهُ (٨) اللَّذِيذُ عَلَى أصْلِه
فكُلْ مَا حَلا حينَ تُؤتَى به ولاَ تَسْأَلِ الشَّهْدَ (٩) عَنْ نحْلِه
ومَيِّزْ إذَا مَا اعتَصَرْتَ الكُرُومَ سُلافَةَ عَصْرِكَ منْ خَلِّه (١٠)
لتُغْلي وتُرْخِصَ عَنْ خبرَةٍ وتشْرِي كُلاًّ شرَى مثْله
فعارٌ عَلَى الفَطنِ اللَّوْذَعيِّ دُخُولُ الغَميزَة في عَقله

قَالَ: فَازْدَهَى الْقَوْمُ بذَكَائه ودَهَائه، واختَلَبَهُمْ بحُسْنِ أدَائه مَعَ دَائه، حَتَّى جَمَعُوا لَهُ خَبايَا الْخُبَن، وخَفَايَا الثُّبَن، وَقَالُوا لَهُ: يَا هَذَا إنكَ حُمْتَ (١١) عَلَى رَكيَّةٍ (١٢) بَكيَّةٍ (١٣)، وتعرَّضْتَ لخَليَّةٍ خليَّة، فخُذْ هَذه الصُّبَابَةَ (١٤)، وهَبْها لا خطأً ولاَ إصَابَةً، فنزَّلَ قُلَّهُمْ مَنزِلَةَ الكُثْرِ، ووصَلَ

---

(١) عابه.
(٢) تعرَّفه حتى وقف على حقيقته.
(٣) أراد أصله ونسبه، والدوحة في الأصل: الشجرة العظيمة.
(٤) اكشفه وازله؛ أي: بيِّن وأظهر لنا.
(٥) بتكلف المشقة.
(٦) أي: يقول أفٍّ أفٍّ.
(٧) ظاهر مكشوف.
(٨) ثمره.
(٩) العسل الخالص.
(١٠) من فاسده.
(١١) طفت.
(١٢) هي البئر.
(١٣) قليلة الماء.
(١٤) الشيء اليسير. وأصلها: بقية الماء في الإناء.

قَبولَهُ بالشُكْرِ، ثُمَّ تولَّى يجرُّ شقَّهُ، وينْهَبُ بالْخَبْط طُرْقَهُ (١)، قالَ الْمُخبرُ بهَذه الْحكايَة، فَصُوِّرَ لي أَنَّهُ مُحيلٌ (٢) لحلْيَته، مُتصنِّعٌ في مشْيَته، فَنَهضْتُ أَنْهَجُ منْهَاجَهُ، وأَقْفُو أَدْرَاجَهُ (٣)، وَهُوَ يَلْحَظُني شَزْراً، ويُوسعُني هَجْراً، حَتَّى إذَا خَلا الطَّريقُ، وأمْكَنَ التّحْقيقُ، نَظَرَ إلَيَّ نَظَرَ مَنْ هشَّ وبشَّ، ومَاحَضَ (٤) بعْدَمَا غَشَّ، وَقَالَ: إنِّي لإخَالُكَ أخَا غُرْبَة، ورائدَ صُحبَة، فَهَلْ لَكَ في رَفيق يَرفُقُ بكَ ويُرفقُ (٥)، ويَنفُقُ عليْك ويُنفقُ (٦)؟ فَقُلْتُ لَهُ: لَو أَتَاني هَذَا الرَّفيقُ، لوَاتَاني التَّوفيقُ، فَقَالَ لي: قَدْ وَجَدْتَ فاغْتَبطْ (٧)، واستكْرَمْتَ فارتَبطْ، ثُمَّ ضحكَ مَليّاً (٨)، وتمثّلَ لي بَشَراً سَوِيّاً، فَإذَا هُوَ شيخُنَا السَّروجيّ لا قَلَبَةَ بجسمه، ولاَ شُبهَةَ في وسْمه، ففرحْتُ بلُقيَته، وكذب لَقْوَته (٩)، وهمَمْتُ بمَلامَته، عَلَى سُوء مَقامَته، فشَحَا (١٠) فَاهُ، وأَنْشَدَ قَبْلَ أَنْ أَلْحاهُ:

ظَهَرْتُ برَثٍّ لكَيْمَا يُقَالَ ... فَقيرٌ يُزجِّي (١١) الزّمَانَ الْمُزَجَّى
وأظهرْتُ للنَّاسِ أَنْ قَدْ فُلجْتُ (١٢) ... فَكَمْ نَالَ قَلْبي به مَا ترَجَّى
ولَوْلا الرَّثَاثَةُ لَمْ يُرْثَ لي ... ولَوْلا التَّفَالُجُ لَمْ أَلْقَ فُلْجَا

ثُمَّ قَالَ: إنَّهُ لَمْ يبْقَ لي بهَذه الأَرْضِ مرتَعٌ (١٣)، ولاَ في أهلها مطْمَعٌ،

---

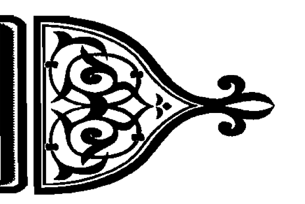
(١) يقطع الأرض ويطويها بالخبط، وهو: السير على غير معرفة.
(٢) مغير.
(٣) آثاره.
(٤) أخلص ودّه.
(٥) بضم أوله؛ أي: يعين.
(٦) يعطيك النفقة.
(٧) فافرح بما وجدت.
(٨) طويلاً.
(٩) فالجه.
(١٠) ففتح فمه.
(١١) يسوق.
(١٢) أصابني الفالج.
(١٣) مأكل، وأصله محل رعي الدّوابّ.

فَإِنْ كُنْتَ الرَّفِيقَ، فَالطَّرِيقَ الطَّرِيقَ، فسِرْنَا منْهَا متجرِّدَين (١)، ورافَقْتُهُ عَامَين أجرَدَين (٢)، وكُنْتُ عَلَى أَنْ أصْحَبَهُ مَا عِشْتُ، فَأَبَى الدَّهْرُ الْمُشِتُّ (٣).

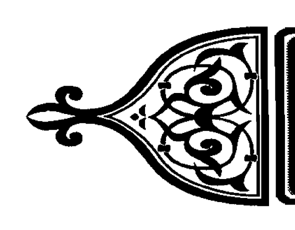
(١) منفردين عن الناس.

(٢) تامين.

(٣) الزمان المفرق.



المَقَامَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلاثُون الزَّبِيدِيَّةُ



أَخبَرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: لَمَّا جُبْتُ (١) البِيدَ إِلَى زَبِيدَ صَحِبَنِي غُلامٌ قَدْ كُنْتُ رَبَّيْتُهُ إِلَى أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، وثقَّفْتُهُ (٢) حَتَّى أَكْمَلَ رُشْدَهُ، وكَانَ قَدْ أَنِسَ بأَخْلاَقِي، وخبَرَ مجالِبَ وِفاقِي، فَلَمْ يكُنْ يتخَطَّى مَرَامِي (٣)، ولاَ يُخطئ فِي الْمَرَامِي، لا جَرَمَ (٤) أَنَّ قُربَهُ التاطَتْ (٥) بِصَفَري (٦)، وأَخْلَصْتُهُ لِحَضَري وَسَفَري، فَأَلْوَى (٧) بِهِ الدَّهْرُ الْمُبِيدُ، حِينَ ضمَّتْنَا زَبِيدُ، فَلَمَّا شَالَتْ نَعامتُهُ (٨)، وسكَنَتْ نامَتُهُ، بقِيتُ عَامًا، لا أُسِيغُ طَعَامًا، وَلاَ أُرِيغُ (٩) غُلامًا، حَتَّى أَلْجَأَتْنِي شَوائِبُ الوَحْدَةِ، وَمَتَاعِبُ القَومَةِ والقَعْدَةِ (١٠)، إِلَى أَنْ أَعْتَاضَ (١١) عَنِ الدُّرِّ الْخرَزَ، وأَرْتَادَ (١٢) مَنْ هُوَ سِدادٌ مِنْ عوزٍ، فَقَصَدْتُ مِنْ يَبِيعُ الْعَبِيدَ بِسُوقِ زبِيدَ، فَقُلْتُ: أُرِيدُ غُلامًا يُعجِبُ إِذَا قُلِّبَ، ويُحمَدُ إِذَا جُرِّبَ، ولْيكُنْ مِمَّنْ خرَّجَهُ الأَكْيَاسُ (١٣)،

---

(١) قطعت.
(٢) قومته وأدّبته.
(٣) مقاصدي.
(٤) حقًّا ولا محالة.
(٥) التصقت.
(٦) بقلبي.
(٧) أهلكه.
(٨) أي: مات.
(٩) أطلب وأريد.
(١٠) القيام والقعود.
(١١) أستبدل.
(١٢) أطلب.
(١٣) العقلاء ذوو الكياسة، وهي: العقل.

وأَخْرَجَهُ إلَى السّوقِ الإفْلاسُ، فاهتزَ كُلٌّ منهُمْ لِمَطْلَبي ووثَبَ، وبَذَلَ تَحْصيلَهُ عَنْ كثَبٍ (١)، ثُمَّ دارَت الأهلَّةُ دوْرَهَا، وتَقلَّبَتْ كَورَها وَحَوْرَها (٢)، ومَا نَجزَ منْ وُعُودِهِمْ وَعْدٌ، ولاَ سَحَّ لَهَا رعْدٌ، فَلَمَّا رأَيتُ النَّخَّاسينَ (٣) نَاسينَ أَوْ مُتَنَاسينَ، علِمتُ أَنْ لَيسَ كُلٌّ مِنْ خلقَ يَفْرِي، وأن لنْ يَحُكَّ جِلدِي مِثْلُ ظُفْرِي، فَرفَضْتُ مَذْهَبَ التَّفْويضِ، وبرَزْتُ إلَى السُّوقِ بالصُّفْرِ والبِيضِ (٤)، فَإنِّي لأَستَعرِضُ الغِلْمَانَ، وأَستَعْرِفُ الأثْمَانَ، إذْ عَارَضَني رَجُلٌ قَدِ اختَطَمَ بلِثَامٍ، وَقَبَضَ عَلَى زَنْدِ (٥) غُلامٍ، وَقَالَ:

مَن يشتَرِي مِنِّي غُلامًا صنَعَا … في خَلْقِه وخُلْقِه قَدْ بَرَعَا (٦)
بكلِّ مَا نُطْتَ بِه مُضطَلِعاً … يَشْفِيكَ إنْ قَالَ وإنْ قُلتَ وَعَى
وإنْ تُصِبْكَ عَثْرَةٌ يَقُلْ لَعَا … وإنْ تسُمْهُ السَّعْيَ فِي النَّارِ سَعَى
وإن تُصَاحِبهُ وَلَوْ يومًا رَعَى … وَإنْ تُقَنِّعْهُ بِظِلْفٍ قَنِعَا
وَهْوَ عَلَى الكَيْسِ (٧) الَّذِي قَدْ جَمَعَا … مَا فَاهَ قَطُّ كَاذِباً لا ادَّعَى
وَلاَ أجَابَ مَطْمَعاً حِينَ دعَا … ولاَ استَجَازَ (٨) نَثَّ سِرٍّ أُودِعَا (٩)
وَطَالَمَا أبدَعَ فِي مَا صَنَعَا … وفاقَ فِي النَّثْرِ وَفِي النَّظْمِ مَعَا
واللهِ لوْلا ضَنْكُ عَيشٍ صدَعَا (١٠) … وَصِبْيَةٌ أضْحَوْا عُراةً جُوَّعَا
مَا بِعْتُهُ بِمُلْكِ كِسْرَى أجْمَعَا

(١) عن قرب.
(٢) تمامها ونقصانها.
(٣) الدلالين في الرقيق.
(٤) الدنانير والدراهم.
(٥) هو السَّاعد من اليَد.
(٦) فاق غيره.
(٧) الحذق والعقل.
(٨) استحلَّ.
(٩) اؤتمن عليه واستُحْفِظه.
(١٠) شق القلب وكسره.

قَالَ: فَلَمَّا تأمَّلْتُ خَلقَهُ القَوِيمَ (١)، وحُسْنَهُ الصَّمِيمَ (٢)، خِلتُهُ مِنْ وِلْدَانِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَقُلْتُ: مَا هَذَا بشَراً إنْ هَذَا إلا مَلَكٌ كَرِيمٌ! ثُمَّ استَنْطَقْتُهُ عَنِ اسْمِه، لا لرَغْبَةٍ فِي عِلمِه، بل لأنظُرَ أَيْنَ فَصَاحَتُهُ من صَبَاحَتِه(٣)، وكيفَ لهْجَتُهُ مِنْ بهجَتِه، فَلَمْ ينطِقْ بحُلوَةٍ ولاَ مُرَّةٍ (٤)، ولاَ فاهَ فَوْهَةَ ابنِ أمَةٍ ولاَ حُرَّةٍ، فضرَبْتُ عنهُ صَفْحاً، وقلتُ لَهُ: قُبْحاً لعِيِّكَ وشُقْحاً! فَغارَ فِي الضّحكِ وأنْجدَ، ثُمَّ أنْغَضَ رأسهُ (٥) إلَيَّ وأَنْشَدَ:

يا مَنْ تلَهَّبَ غَيْظُهُ إذْ لَمْ أبُحْ ... باسْمِي لَهُ مَا هكذا مَنْ يُنْصِفُ
إنْ كَانَ لا يُرْضِيكَ إلا كَشْفُهُ ... فأصِخْ (٦) لَهُ أَنَا يُوسُفٌ أَنَا يوسُفُ
ولَقَدْ كَشَفْتُ لَكَ الغطاء فإن تكنْ ... فَطِناً عَرَفتَ وما إخَالُك تَعرِفُ

قَالَ: فسَرَّى عَتْبِي بشِعْرِه، واستَبَى لُبِّي (٧) بسِحْرِه، حَتَّى شُدِهْتُ عَنِ التّحقيقِ، وأُنسِيتُ قِصَّةَ يوسُفَ الصِّدِّيقِ، ولَمْ يكُنْ لِي همٌّ إلا مُساوَمَةُ موْلاهُ فيه، واستِطْلاعُ طِلعِ الثَّمَنِ (٨) لأُوفِيه، وكُنْتُ أحسَبُ أَنَّهُ سينظُرُ شَزْراً إلَيَّ، ويُغْلِي السِّمَةَ (٩) عَلَيَّ، فَمَا حَلَّقَ إِلَى حَيْثُ حَلَّقْتُ، وَلاَ اعْتَلَقَ بِمَا بِهِ اعتَلَقْتُ بَلْ قَالَ: إنَّ الغُلامَ إذَا نَزُرَ (١٠) ثمَنُهُ، وَخَفَّتْ مُؤَنُهُ (١١)، تَبَرَّكَ بِهِ مَوْلاهُ، والتَحَفَ (١٢) عَلَيْهِ هَوَاهُ، وَإِنِّي

(١) المستقيم الحسن. (٢) الخالص.
(٣) حسن وجهه. (٤) بكلمة حسنة ولا قبيحة.
(٥) حركه متعجبًا على سبيل الاستهزاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١].
(٦) استمع.
(٧) ملك قلبي وأسره. (٨) قدره.
(٩) القيمة. (١٠) قل.
(١١) كلفه. (١٢) اشتمل.

لأوثِرُ (١) تَحبِيبَ هَـذَا الغُلامِ إليْكَ، بِأنْ أُخَفِّفَ ثمنَهُ عليْكَ، فزِنْ مَائَتَيْ دِرْهَمٍ إن شِيتَ، واشْكرْ لِي مَا حَيِيتَ! فنَقَدْتُهُ المْبلغَ فِي الحْالِ، كَمَا يُنقَدُ فِي الرَّخِيصِ الْحَلالُ، ولَمْ يَخْطُرْ لِي ببالٍ، أَنَّ كُلَّ مُرْخَصٍ غَالٍ، فَلَمَّا تَحَقَّقَت الصَّفْقَةُ، وحَقَّتِ الفُرقَةُ، هَمَلَتْ عَيْنَا الغُلامِ، وَلاَ هُمُولَ دمْعِ الغَمَامِ، ثُمَّ أقبلَ عَلَى صَاحِبِه وَقَالَ:

لَحَاكَ اللهُ هَلْ مِثْلي يُبَاعُ … لِكَيْمَا تَشْبَعَ الكَرِشُ الجِيَاعُ
وَهَلْ فِي شِرْعَةِ الإِنْصَافِ أنِي … أُكَلَّفُ (٢) خُطَّةً لا تُسْتَطَاعُ
وأنْ أُبْلَى بِرَوْعٍ بَعْدَ رَوعٍ … وَمِثْلِي حِينَ يُبْلَى لا يُرَاعُ
أمَا جرّبْتَنِي فخَبَرْتَ مِنِّي … نصَائِحَ لَمْ يُمَازِجْها (٣) خداعُ (٤)
وكمْ أرْصَدْتَنِي (٥) شَرَكاً لِصَيْدٍ … فَعُدْتُ وَفِي حَبَائلِيَ (٦) السِّباعُ
ونُطْتَ (٧) بِيَ المْصَاعِبَ فاسْتَقادَتْ … مُطاوِعَةً وكَانَ بِهَا امْتِنَاعُ
وأيُّ كَرِيهَةٍ (٨) لَمْ أُبْلِ فِيهَا … وغُنْمٍ لَمْ يكُنْ لِي فِيهِ باعُ
ومَا أبدَتْ لِي الأيامُ جُرْمًا … فيُكشَفَ فِي مُصارَمَتِي (٩) القِنَاعُ
ولم تعثُرْ بِحمْدِ اللهِ مِنِّي … عَلَى عَيْبٍ يُكَتَّمُ أَوْ يُذاعُ
فَأنَّى سَاغَ عِنْدَكَ نَبْذُ عَهدِي … كَمَا نَبَذَتْ بُرايَتَها الصَّنَاعُ (١٠)
ولِمْ سمحَتْ قَرونُكَ بِامْتِهَانِي (١١) … وأنْ أُشْرَى كَمَا يُشْرَى المْتَاعُ

---

(١) أقدم.
(٢) مشقة.
(٣) لم يخالطها.
(٤) مكر وحيلة.
(٥) أعددتني ونصبتني.
(٦) أشراكي.
(٧) وعلقت.
(٨) حرب.
(٩) مقاطعتي.
(١٠) المرأة الحاذقة بالصنعة.
(١١) بإذلالي.

وَهَلاّ صُنتَ عِرضي عنهُ صَوْني ... حَديثَكَ يَومَ جَدّ بِنَا الوداعُ
وقلتَ لِمَنْ يُساوِمُ في هَـٰذَا ... سَكَابِ فَمَا يُعَارُ وَلاَ يُبَاعُ
فَمَا أَنَا دونَ ذاكَ الطِّرْفِ لَكِنْ ... طِبَاعُكَ فوقَها تِلْكَ الطِّبَاعُ
علَى أَنّي سَأُنْشِدُ عِنْدَ بَيْعي ... أَضَاعُوني [1] وأيَّ فتًى أَضَاعُوا

قَالَ: فَلَمَّا وعَى الشَّيْخُ أبياتَهُ، وَعَقَلَ مُنَاغَاتَهُ [2]، تنفّسَ الصُّعَداءَ، وبكَى حتَّى أبْكَى البُعَداءَ، ثُمَّ قَالَ لي: إنِّي أُحلّ هَـٰذَا الغُلامَ محَلّ ولَدي، ولاَ أميِّزُهُ عَنْ أفْلاذِ كبدي، ولوْلا خُلوُّ مُرَاحِي [3]، وخُبُوُّ مصْباحَي [4]، لَمَا درَج عَنْ عُشّي، إلَى أنْ يُشَيِّعَ نعْشي، وَقَدْ رأيْتَ مَا نزلَ به من لوْعَةِ البَينِ، والْمُؤْمنُ هَينٌ لَينٌ، فَهَلْ لَكَ في تسليَةِ قَلْبه، وتسْريَةِ [5] كَربه، بأن تُعاهدَني علَى الإقَالَة فيه متَى استَقلْتُ، وأَنْ لا تَستَثْقلَني إذَا ثَقَّلْتُ [6]؟ ففي الآثارِ الْمُنتَقَاة، الْمَرويَّة عَنِ الثِّقات: مَنْ أقالَ نَادمًا بيعَتَهُ، أقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ.

قَالَ الْحارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَوعَدْتُهُ وعْداً أبرزَهُ الْحياءُ، وفِي القلْبِ أشياءُ، فاستَدْنَى حينَئذٍ الغُلامَ إليْهِ، وقبَّلَ مَا بينَ عينَيه، وأَنْشَدَ والدَّمْعُ يرْفَضُّ [7] من جفْنَيه:

خفِّضْ فدَتْكَ النّفسُ مَا تُلاقي ... منْ بُرَحَاء [8] الوَجْد والإشْفَاق [9]
فَمَا تَطولُ مُدّةُ الفِراق ... ولاَ تَني [10] رَكَائبُ التَّلاقي
بِحُسْنِ عَوْنِ القَادرِ الخَلاَّق

---

(١) لَم يعرفوا قَدْرِي.
(٢) كلامه.
(٣) منزلي.
(٤) خمود سراجي.
(٥) إزالته.
(٦) أكثرت الكلام عليك في ذلك.
(٧) يترشش ويتفرّق.
(٨) شدَّة.
(٩) لخوف.
(١٠) تفتر وتضعف.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَسْتودِعُكَ مَنْ هُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى، وشمَّرَ ذيلَهُ وولَّى، فلبثَ الغُلامُ فِي زَفيرٍ (١) وعَويلٍ (٢)، ريثَمَا (٣) يَقْطَعُ مَدَى مِيلٍ، فَلَمَّا اسْتَفاقَ، وكفْكَفَ دمعَهُ الْمُهْرَاقَ (٤)، قَالَ: أَتَدْرِي لِمَ أعولْتُ، وَعَلامَ عوَّلْتُ؟ فَقُلْتُ: أظنُّ فِرَاقَ مولاكَ، هُوَ الَّذِي أبْكاكَ! فقَالَ: إِنَّكَ لَفي وادٍ وأَنَا فِي وَادٍ، ولَكَمْ بيْنَ مُريدٍ ومُرادٍ، ثُمَّ أنشدَ:

لمْ أبْكِ واللهِ علَى إلْفٍ نزَحْ (٥) وَلاَ عَلَى فَوْتِ نَعيمٍ وفَرَحْ
وإنّمَا مَدمَعُ أجْفاني سفَحْ عَلَى غبيٍّ (٦) لَحْظُهُ (٧) حينَ طمَحْ
وَرطَهُ حَتَّى تَعَنَّى وَافْتَضَحْ وَضيَّعَ الْمَنْقُوشَةَ البَيضَ الوَضَحْ
ويْكَ أمَا نَاجَتْكَ هاتيكَ الْمُلَحْ (٨) بأنّني حُرٌّ وبيْعي لَمْ يُبَحْ (٩)
إذ كَانَ فِي يُوسُفَ معنًى قَدْ وضَحْ

قَالَ: فتَمَثَّلْتُ (١٠) مَقَالَهُ فِي مرآة الْمُدَاعِبِ (١١)، ومَعرِضِ الْمُلاعِبِ. فتصلَّبَ (١٢) تصلُّبَ الْمُحِقِّ، وتَبَرَّأَ منْ طِينَةِ (١٣) الرِّقِّ، فَجُلْنَا فِي مُخَاصَمَةٍ، اتّصلَتْ بِمُلاكَمَةٍ، وأفضَتْ (١٤) إلَى مُحاكمَةٍ، فَلَمَّا أوضَحْنَا للقاضي الصورَةَ، وتلَوْنَا علَيْهِ السُّورَةَ، قَالَ: ألا إنَّ منْ أنذرَ فَقَدْ أعْذرَ، ومَنْ حَذَّرَ كَمَنْ بَشَّرَ، ومَنْ بَصَّرَ (١٥) فَمَا قَصَّرَ، وَإِنَّ فِيمَا شَرَحْتُمَاهُ لَدليلاً

(١) هو إخراج النَّفَس بِشِدَّة.
(٢) بكاء بصياح.
(٣) مقدار ما.
(٤) المنصب.
(٥) صاحب بَعُدَ.
(٦) جاهل.
(٧) نظره.
(٨) الكلمات المستحسنة.
(٩) لم يحلّ.
(١٠) تصورت.
(١١) الممازح.
(١٢) توقف.
(١٣) تخلص وتنحّى عن كونه رقّا.
(١٤) وصلت.
(١٥) عرف حقيقة الحال.

عَلَى أَنَّ هَـذَا الغُلامَ قَدْ نبَّهَكَ فَمَا ارْعَوَيْتَ (١)، ونَصَحَ لَكَ فَمَا وعَيْتَ، فاستُرْ داءَ بلَهِكَ واكْتُمْهُ، ولُمْ نَفْسَكَ ولاَ تلُمْهُ، وحَذارِ منِ اعتلاقه (٢)، والطَّمَعِ فِي استرْقَاقه، فإنهُ حُرُّ الأديمِ، غيرُ معرَّضٍ للتَّقْويم، وقَدْ كَانَ أبُوهُ أحْضَرَهُ أمسِ، قُبَيْلَ أُفُولِ الشَّمْسِ، واعْتَرَفَ بأنَّهُ فرْعُهُ الَّذي أنْشاهُ، وأَنْ لا وارثَ لَهُ سواهُ، فقلْتُ للقاضي: أوتَعْرِفُ أباهُ، أخزاهُ اللهُ؟ فَقَالَ: وَهَلْ يُجهَلُ أَبُو زيْدٍ الَّذي جُرْحُهُ جُبارٌ، وعندَ كُلِّ قاضٍ لَهُ أخبارٌ وإخْبارٌ؟ فتحرَّقْتُ حينئذٍ وحوْقلَتُ (٣)، وأفَقْتُ ولكنْ حينَ فاتَ الوقتُ! وأيقَنْتُ أَنَّ لثامَهُ كَانَ شركَ مكيدَته، وبيْتَ قَصيدَتِه، فنكَّسَ طَرْفي (٤) ما لَقيتُ، وآلَيْتُ (٥) أَنْ لا أُعاملَ مُلَثَّمًا مَا بَقيتُ، ولَمْ أزلْ أتأوَّهُ لِخُسْرِ صَفْقَتِي، وافتضَاحِي بَيْنَ رُفقَتي، فَقَالَ لي القَاضِي، حينَ رأَى امْتعَاضِي (٦)، وتَبيَّنَ حَرَّ ارْتمَاضِي (٧): يَا هَـذَا مَا ذهَبَ منْ مَالكَ مَا وعظَكَ، ولاَ أجْرَمَ إليْكَ مَنْ أيقَظَكَ (٨)، فاتَّعظْ بمَا نَابَكَ، وكاتمْ أصْحابَكَ مَا أصابَكَ، وتذكَّرْ أبداً مَا دهمَكَ (٩)، لتَقِيَ الذِّكْرَى دراهمَكَ، وتخلَّقْ بخُلُقِ منِ ابتُلِيَ فصبَرَ، وتجلَّتْ لَهُ العبَرُ فاعتبَرَ، قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فودَّعْتُهُ لابساً ثوبَ الخَجَلِ والحَزَنِ، ساحباً ذيْلَي الغَبْنِ والغَبَنِ، ونَوَيْتُ مُكَاشَفَةَ (١٠) أبي زَيْدٍ بالهَجْرِ، ومُصَارَمَتَهُ (١١) يدَ الدَّهْرِ، فجعَلْتُ أتنكَّبُ عن ذَراهُ (١٢)، وأتَجَنَّبُ أَنْ

(١) فما انتبهت ولا انكففت. (٢) إمساكه.
(٣) قلتُ: لا حول ولا قوَّة إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم.
(٤) أمال عيني إلى أسفل. (٥) حلفت.
(٦) الامتعاض: القلق والتَّوجع والتحرّق، وقيل: الغضب.
(٧) حرقة توجعي. (٨) نبهك.
(٩) غشيك. (١٠) إظهار عداوته.
(١١) مقاطعته. (١٢) أعدل وأتباعد عن بيته.

أَرَاهُ، إِلَى أَنْ غَشِيَني (١) فِي طَرِيقٍ ضيِّقٍ، فحيَّاني تحيَّةَ شيِّقٍ، فَمَا زِدْتُ عَلَى أَنْ عبسْتُ، ومَا نبَسْتُ (٢)، فَقَالَ: مَا بالُكَ شَمَخْتَ بأنفكَ، عَلَى إلْفِكَ؟ (٣) فَقُلْتُ: أنَسيتَ أنَّكَ احتلْتَ وختَلْتَ (٤)، وفعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتي فَعَلْتَ؟ فَأضْرَطَ بِي (٥) مُتَهازِياً، ثُمَّ أنشَدَ مُتَلافياً:

يَا مَنْ بَدَا مِنْهُ صُدُو ... دٌ مُوحِشٌ وَتَجَهُّمُ (٦)
وغَدَا يَرِيشُ مَلاوِمًا (٧) ... مَنْ دونِهِنَّ الأَسْهُمُ
ويَقُولُ هَلْ حُرٌّ يُبَا ... عُ كَمَا يُبَاعُ الأدْهَمُ
أقْصِرْ فَمَا أَنَا فِيهِ بِدْ ... عاً مِثْلَمَا تتَوَهَّمُ
قَدْ بَاعَتِ الأسْبَاطُ قَبْـ ... ـلي يوسُفاً وهُمُ هُمُ
هَذَا وأُقْسِمُ بِالَّتِي ... يَسْرِي إِلَيْهَا الْمُتْهِمُ
والطَّائفينَ بِهَا وهُمْ ... شُعْثُ النَّواصِي (٨) سُهَّمُ
مَا قُمْتُ ذاكَ الْمَوْقِفَ الـ ... ـمُخْزِي (٩) وعِنْدي دِرْهَمُ
فَاعْذِرْ أخَاكَ وَكُفَّ عَنْـ ... ـهُ مَلامَ مَنْ لا يَفْهَمُ

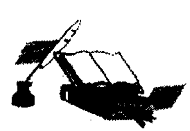
ثُمَّ قَالَ: أمَّا مَعْذِرَتِي فَقَدْ لاحَتْ، وأمَّا دراهِمُكَ فَقَدْ طَاحَتْ (١٠)، فَإِنْ كَانَ اقْشِعْرَارُكَ (١١) مِنِّي، وازْوِرارُكَ عَنِّي، لِفَرْطِ شَفَقَتِكَ (١٢)، عَلَى غُبَّرِ

---

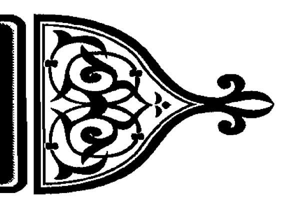
(١) لقيني وقابلني.
(٢) تكلمت.
(٣) رفعت أنفك تكبّرًا على صاحبك.
(٤) خدعت.
(٥) سخر مني.
(٦) عبوس.
(٧) جمع ملامة، بمعنى: اللَّوْم.
(٨) غبر الرؤوس.
(٩) الذي يورث الخزي.
(١٠) وقعت وفنيت.
(١١) انقباضك.
(١٢) لكثرة خوفك.

نفقَتكَ، فلسْتُ ممَّنْ يلْسَعُ مـرَّتَين، ويُوطئُ علَى جَمْرَتَين، وإنْ كُنْتَ طَوَيْتَ كشْحَكَ، وأطَعْتَ شُحّكَ، لتَستَنْقِذَ مَا علِقَ بأشْراكي، فلْتَبْكِ علَى عقلِكَ البَواكي.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَاضْطَرَّني بلَفْظِهِ الْخَالبِ (١)، وسِحْرِه الغَالبِ(٢)، إلَى أنْ عُدْتُ لَهُ صَفيّاً، وَبِهِ حَفِيّاً، ونَبَذْتُ فَعْلَتَهُ ظِهْرِيّاً، وَإنْ كَانَتْ شَيئاً فَرِيّاً (٣).



(١) الخادع.
(٢) القويّ.
(٣) أمرًا عظيمًا.



الْمَقَامَةُ الْخَامِسَةُ والثَّلاثُونَ الشِّيرَازِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: مَرَرْتُ فِي تَطْوافِي (١) بشِيرَازَ على نَادٍ يستَوقِفُ الْمُجْتَازَ (٢)، ولَوْ كَانَ عَلَى أوْفازٍ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ تعَدِّيه، ولاَ خطَتْ قدَمي فِي تخَطِّيه (٣)، فعُجْتُ إليْهِ لأسْبُكَ سِرَّ جَوْهَرِهِ (٤)، وأَنْظُرَ كَيْفَ ثمَرُهُ من زَهَرِهِ، فَإذَا أهْلُهُ أفْرادٌ، والعائِجُ (٥) إلَيْهِمْ مُفادٌ، وبينَمَا نَحْنُ فِي فُكاهَةٍ أطْرَبَ منَ الأغَارِيدِ، وأَطيَبَ مِنْ حلَبِ العَنَاقِيدِ (٦)، إذِ احْتَفَّ بنَا (٧) ذُو طِمْرَيْنِ (٨)، قَدْ كَادَ يُنَاهِزُ العُمْرَيْنِ، فَحَيَّا بلِسَانٍ طَلِيقٍ، وأَبَانَ إبانَةَ منطِيقٍ (٩)، ثُمَّ احتَبَى حُبوَةَ الْمُنْتَدِينَ، وقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُهتَدِينَ، فازْدَراهُ الْقَوْمُ لطِمْرَيْهِ، ونَسوا أَنَّ الْمرءَ بأَصْغَرَيْه (١٠)، وأخَذُوا يتَدَاعَوْنَ (١١) فَصْلَ الخِطَابِ، ويعْتَدُّونَ عَودَهُ من الأحْطَابِ، وَهُوَ لا يُفِيصُ (١٢) بِكلِمَةٍ، وَلاَ يُبِينُ عَنْ سِمَةٍ، إلَى أَنْ سبَرَ قَرائحَهُمْ (١٣)، وَخبَرَ شائلَهُمْ وَرَاجِحَهُمْ (١٤)، فحِينَ اسْتخْرَجَ دفائِنَهُمْ، واستَنْثَلَ كنَائِنَهُمْ، قَالَ: يَا قَوْمُ لَوْ

---

(١) دوراني.
(٢) المار.
(٣) مفارقته.
(٤) باطن أمره.
(٥) العاطف المائل.
(٦) كناية عن الخمر.
(٧) توسطنا.
(٨) ثوبين باليين.
(٩) ذي نطق فصيح.
(١٠) قلبه ولسانه.
(١١) يدعون بمعنى: يتفاوضون.
(١٢) بالصاد المهملة؛ أي: لا يبين.
(١٣) اختبر أفهامهم.
(١٤) عاطلهم وفاضلهم أو ناقصهم وكاملهم.

عِلمتُمْ أَنَّ وراءَ الفدامِ، صفوَ المُدامِ، لَمَا احتقرتُم ذَا أخلاقٍ، وقُلتُمْ: مَا لَهُ مِنْ خلاقٍ! ثُمَّ فَجَّرَ مِنْ ينابيعِ الأدبِ والنُكتِ النُّخبِ (١)، مَا جلَبَ بهِ بَدائعَ العجَبِ، واستَوجَبَ أَنْ يُكتَبَ بذَوْبِ الذّهَبِ، فَلَمَّا خلَبَ (٢) كُلَّ خِلْبٍ، وقلَبَ إليْهِ كُلَّ قلْبٍ، تحلْحَلَ، ليرْحَلَ، وتأهَّبَ، ليَذْهَبَ، فعلقَتِ الجماعَةُ بذَيله (٣)، وعاقَتْ مسرَبَ سيْلِه، وقالَتْ لَهُ: قَدْ أريْتَنَا وسْمَ قدْحِكَ، فخبّرْنَا عَنْ قَيْضِكَ ومُحِّكَ، فصمَتَ صُمُوتَ مَنْ أُفحِمَ (٤)، ثُمَّ أعْوَلَ حَتَّى رُحِمَ.

قَالَ الرَّاوِي: فَلَمَّا رَأَيْتُ شوْبَ أبي زَيْدٍ ورَوْبَهُ، وأُسْلوبَهُ (٥) المْألوفَ وصَوْبَهُ، تأمَّلْتُ الشَّيْخَ عَلَى سُهومَةِ مُحَيَّاهُ (٦)، وسُهُوكَةِ ريَّاهُ، فَإِذَا هُوَ إيّاهُ، فكتَمْتُ سِرَّهُ كَمَا يُكتَمُ الدَّاءُ الدَّخيلُ، وسَتَرْتُ مَكْرَهُ وإنْ لَمْ يكُنْ يُخيلُ (٧)، حتَّى إذَا نزَعَ عَنْ إعْوالِه، وقدْ عرَفَ عُثُوري (٨) عَلَى حَالِه، رَمَقَني بِعَيْنِ مضْحاكٍ، ثُمَّ طَفِقَ يُنْشِدُ بلِسانٍ مُتَبَاكٍ (٩):

أسْتَغْفِرُ اللهَ وأعْنُو لَهُ (١٠) ... مِنْ فَرَطَاتٍ أثقَلَتْ ظَهْرِيَهْ
يَا قَوْمُ كَمْ مِنْ عاتقٍ عانسٍ ... مَمْدُوحَةِ الأوْصافِ فِي الأنْدِيَهْ
قَتَلْتُهَا (١١) لا أتَّقي وارثاً ... يطْلُبُ منِّي قَوَداً أَوْ دِيَهْ
وكُلَّمَا اسْتَذْنَبْتُ فِي قَتْلِهَا ... أَحَلْتُ بالذَّنْبِ عَلَى الأقْضِيَهْ (١٢)

---

(١) هي النوادر المختارة من الكلام.
(٢) خدع.
(٣) أطراف ثيابه.
(٤) أسكت لانقطاع حجته.
(٥) فنه.
(٦) تغير وجهه من وعثاء السفر.
(٧) يتلبس ويشتبه.
(٨) اطلاعي.
(٩) هو الذي يظهر أنه يبكي ولم يبك.
(١٠) أخضع له.
(١١) أراد بالقتل هنا: مزجها بالماء.
(١٢) جمع القضاء؛ أي: أقول هذا بالقضاء والقدر.

وَلَمْ تزلْ نَفْسي فِي غَيِّهَا وقتْلِهَا الأبكَارَ (١) مُستَشْرِيَهْ (٢)
حَتَّى نَهَانِي الشَّيْبُ لمَّا بَدا فِي مَفْرِقي عَنْ تلكمُ الْمَعصيَهْ
فلمْ أُرِقْ مُذْ شابَ فَوْدي (٣) دمًا منْ عاتِق يومًا وَلاَ مُصْبِيَهْ (٤)
وها أَنَا الآن عَلَى مَا يُرى مني ومنْ حِرفَتي الْمُكديَهْ
أرُبُّ بِكْراً طالَ تعْنيسُها وحجْبُها حَتَّى عَنِ الأهويَهْ
وهْيَ عَلَى التّعنيسِ مخطوبَةٌ كَخطبَةِ الغانيَة (٥) الْمُغْنِيَهْ (٦)
ولَيسَ يَكْفيني لتَجْهيزِهَا عَلَى الرِّضَى بالدُّون إلاَّ مِيَهْ (٧)
واليَدُ لا تُوكي (٨) عَلَى درْهَمٍ وَالأَرْضُ قفرٌ والسَّمَا مُصْحيَهْ
فهلْ مُعينٌ لي عَلَى نَقلهَا مصْحوبَةً بالقَيْنَة (٩) المُلْهيَهْ (١٠)
فَيَغْسلَ الهمَّ بصَابونه وَالقَلْبُ من أفكاره الْمُضْنيَهْ
وَيقْتَني مِنِّي الثّنَاءَ الَّذي تَضُوعُ ريَّاهُ (١١) مَعَ الأدْعيَهْ

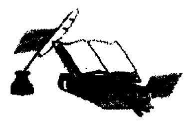
قَالَ الرَّاوِي: فَلَمْ يبْقَ فِي الْجَمَاعَةِ إلاَّ منْ نديَتْ لَهُ (١٢) كفُّهُ، وَانْبَاعَ إليْه عُرْفهُ (١٣)، فَلَمَّا نَجَحَتْ بُغيَتُهُ، وكَمَلَتْ مِئَتُهُ، أَخَذَ يُثْني عَلَيْهِمْ بِصَالِحٍ، ويُشَمِّرُ عَنْ سَاقٍ سَارِحٍ، فتَبِعْتُهُ لأَسْتَعْرِفَ رَبِيبَةَ خِدْرِه، وَمَنْ قتَلَ

(١) مزجها أنواع الخمر.
(٢) متمادية.
(٣) جانب رأسي من أعلى الصدغ.
(٤) ذات صبية؛ أي: كبيرة.
(٥) هي المرأة الجميلة التي غنيت عن التزين لجمالها.
(٦) الكافية عن غيرها.
(٧) مائة دينار أو درهم.
(٨) لا تقبض، والوكاءُ: خيط يشدُّ به فم السّقاء.
(٩) الجميلة المغنية.
(١٠) المطربة.
(١١) تفوح رائحته الذكيَّة.
(١٢) رشحت بالعطاء يده.
(١٣) العُرْف: المعروف.

فِي حِدْثَانِ أمرِهِ، فكَأَنَّ وشْكَ قِيامي (١)، مَثَّلَ لَهُ مَرَامِي (٢)، فَازْدَلَفَ مِنِّي (٣)، وقَالَ: افْقَهْ (٤) عَنِّي:

قتْلُ مِثلي يَا صاحِ مزْجُ الْمُدامِ لَيسَ قتْلي بلَهْذَمٍ (٥) أَوْ حُسَامِ
والتِي عُنسَتْ هيَ البِكرُ بنتُ الْـ ـكَرْمِ لا البِكْرُ من بنَاتِ الْكِرامِ
ولتَجْهيزِها إلَى الكَاسِ والطَّا سِ قِيامِي الَّذي تَرَى ومُقَامِي (٦)
فتَفَهّمْ مَا قُلتُهُ وتحَكّمْ في التَّغاضِي (٧) إنْ شِئتَ أَوْ في المَلامِ

ثُمَّ قَالَ: أَنَا عِرْبِيدٌ، وأَنْتَ رِعْدِيدٌ (٨)، وبيْنَنَا بونٌ بَعِيدٌ، ثُمَّ ودّعَني وانطَلَقَ، وزوّدَني نظرَةً مِنْ ذي علَقٍ.



---

(١) سرعة قيامي.

(٢) صوّرَ له مطلوبي.

(٣) قرب منِّي.

(٤) افهم واحفظ.

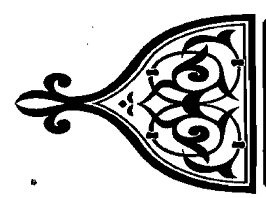
(٥) اللهذم: سنان حادّ، والحسام: القاطع.

(٦) إقامتي ومكثي.

(٧) الاحتمال.

(٨) جبان.





الْمَقَامَةُ السَّادسَةُ والثَّلاثُونَ الْمَلَطِيَّةُ

أَخْبَرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَنَـخْتُ بمَلَطِيَّةَ مطيَّةَ الْبَيْنِ (١)، وحقيبتي ملأَى منَ العينِ، فجعَلْتُ هِجِّيرايَ (٢)، مُذْ أَلقَيْتُ بِهَا عصايَ، أَنْ أَتَوَرَّدَ(٣) مَوارِدَ الْمَرَحِ، وأتصيّدَ شوارِدَ الْمُلَحِ (٤)، فَلَمْ يَفُتْني بِهَا منظَرٌ وَلاَ مسمَعٌ، وَلاَ خَلا مِنِّي ملعَبٌ وَلاَ مرتَعٌ، حَتَّى إذَا لَمْ يبْقَ لِي فِيهَا مَأرَبٌ (٥)، وَلاَ فِي الثّواء بِهَا مَرْغَبٌ، عمَدْتُ لإنْفاقِ الذَّهبِ فِي ابتياعِ الأُهَبِ (٦)، فَلَمَّا أكْمَلْتُ الإعْدَادَ، وتَهَيَّأَ الظَّعْنُ (٧) منْهَا أَوْ كادَ، رَأَيْتُ تِسعَـةَ رهْطٍ قَدْ سَبَؤُوا قهوَةً، وارتَبَؤُوا (٨) ربْوَةً، ودمَاثَـتُهُمْ (٩) قَيْـدُ الألحاظِ، وفُـكاهَتُـهُمْ (١٠) حُلْوَةُ الألْفاظِ، فنحوَتُهُمْ طلَبَاً لُمنَادَمَتِهِمْ (١١)، لا لُمدامَتِهِمْ، وشَغَفاً بِمُمَازَجَتِهِمْ(١٢) لا بزُجاجَتِهِمْ، فَلَمَّا انتظَمْتُ عاشِرَهُمْ، وأضـحَيْتُ مُعاشِرَهُمْ، أَلفَيْتُهُمْ أبناءَ عَـلاّتٍ، وقَذائِـفَ فلَواتٍ، إلا أَنَّ لُحْـمَةَ الأدَبِ قَـدْ أَلّفَـتْ شمْلَـهُمْ أُلفَـةَ النَّسَبِ(١٣)، وساوَتْ بـينَهُم فِي الـرُّتَبِ، حَتَّـى لاحُوا (١٤) مثلَ كَـواكِبِ

---

(١) راحلة الفراق.

(٢) دأبي وعادتي.

(٣) أرد وأدخل.

(٤) نوادر النكت اللطيفة.

(٥) المأرب، والأرب: الحاجة.

(٦) في اشتراء ما استعدّ للارتحال عنها.

(٧) الارتحال.

(٨) ارتبأ البقاع: علاه وظهر فوقه.

(٩) سهولة خلقهم ولينهم.

(١٠) فاكهتهم التي يتفكّهونَ بها.

(١١) لمحادثتهم.

(١٢) بمخالطتهم ومصاحبتهم.

(١٣) كألفه القرابة.

(١٤) حتى صارُوا.

الْـجَوْزاءِ، وبدَوْا كَـالْـجُملَةِ الْـمتُناسِـبَةِ الأجْزَاءِ، فأبْهَجَني الاهْـتداءُ إليْهِمْ، وأَحْمَـدْتُ الطَّالِعَ الَّذِي أطْلعَـنِي عَلَيْهِمْ، وَطَـفِقْتُ (١) أُفيضُ بقِـدْحي مَعَ قداحِـهِمْ، وأسْتَشْـفي (٢) بريَاحِـهِمْ (٣) لا براحِهِـمْ، حَتَّى أدّتْنَا شُـجونُ الْـمفُاوضَةِ، إلَى التَّحَاجِي (٤) بالْـمُقَايضَةِ، كقوْلِكَ إذَا عَنَيْتَ به الكَرامَات: مَا مثلُ النَّوْمُ فاتَ، فأنْشأنَا (٥) نَجْلو السُّهَى والقَمرَ، ونجْني الشّوْكَ والثّمرَ، وبيْنَا نَحْنُ ننْشُرُ القَشيبَ (٦) والرّثَّ، وننْشُلُ السَّمينَ والغَثَّ، وَغَلَ (٧) علينَا شيخٌ قَدْ ذهَبَ حِـبرُهُ وسبْرُهُ (٨)، وبقِيَ خُبْرُهُ وسَـبْرُهُ، فَمَثَلَ (٩) مُثُولَ مَنْ يسمَعُ وينظُرُ، ويلتَقِطُ مَا ننْثُرُ، إلَى أنْ نُفِضَتِ الأكياسُ، وحصْحَصَ الياسُ، فَلَمَّا رَأَى إجْـبالَ القَرائِحِ، وإكْداءَ الْـمَاتِحِ والْـمَائِحِ، جـمَعَ أذيالَهُ، ووَلاّنَا قَذالَهُ(١٠)، وَقَالَ: مَا كُلُّ سَوْداء تَمْرَةٌ (١١)، ولاَ كُلّ صهْباء خمرَةٌ، فاعْتَلَقْنَا بهِ اعتِلاقَ الحِرْباء بالأعْوادِ، وضربْنَا دونَ وجْهَتِهِ بالأسْدادِ، وقلْنَا لَهُ: إن دَواء الشّقّ أنْ يُـحاصَ، وإلاَّ فَـالقِصَـاصَ القِـصَاصَ، فَـلا تطمَعْ فِـي أَنْ تجْرَحَ وتطْرَحَ، وتُنهِـرَ الفَتْقَ وتسْرَحَ! فَـلَوَى عِنَانَهُ راجِعـاً، ثُمَّ جثَمَ (١٢) بمكَانه راصِعاً (١٣)، وَقَالَ: أَمَّـا إذَا اسْتَرْتُـمُوني (١٤) بالبَحْثِ، فَـلأحْكُمُ حُكمَ

---

(١) شرعت.
(٢) أشفي نفسي وأروحها.
(٣) يريد بآدابهم.
(٤) مطارحة المسائل العويصة.
(٥) فشرعنا.
(٦) النشر: ضد الطي، والقشيب: الجديد.
(٧) أي: أدخل.
(٨) هيئته وحسنه.
(٩) انتصب قائمًا.
(١٠) القذال: مجتمع مُؤخّرَ الرَّأس.
(١١) مثل يُضْرَبُ في خطأ الظَّنِّ.
(١٢) جلس.
(١٣) الرصوع: اللزوم واللصوق.
(١٤) طلبتم إثارة كلامي واستنطقتموني.

سُلَيْمَانَ فِي الحَرْثِ، اعْلَموا يَا ذَوِي الشَّمَائِلِ [١] الأدبيَّةِ، والشَّمولِ الذَّهَبِيَّةِ [٢]، أَنَّ وضْعَ الأُحجِيَّةِ [٣] لامتحانِ الألْمعيَّةِ [٤]، واستخْراجِ الْخَبيّةِ الخفيَّةِ، وشَرْطُها أَنْ تكُونَ ذاتَ مُمَاثلَةٍ حَقيقيَّةٍ، وألْفاظٍ معْنَويَّةٍ، ولَطيفَةٍ أدبيَّةٍ، فمتَى نَافَتْ هَذَا النَّمطَ، ضَاهتِ السَّقَطَ [٥]، ولَمْ تدْخُلِ السَّفَطَ، ولَمْ أرَكُمْ حافَظتُمْ علَى هَذهِ الحُدودِ، ولاَ مزتُمْ بيْنَ المَقْبولِ والمَرْدودِ، فقُلْنَا لَهُ: صدَقْتَ، وبالحَقِّ نطَقْتَ، فكِلْ لَنَا مِنْ لُبابِكَ [٦]، وأفضْ علينَا منْ عُبابِكَ، فَقَالَ: أفْعَلُ لئلاَّ يرْتابَ الْمُبطِلونَ [٧]، ويَظنُّوا بيَ الظُّنونَ، ثُمَّ قابلَ نَاظُورَةَ الْقَوْمِ، وقَالَ:

يَا مَنْ سَمَا بذَكَاءٍ ... فِي الفَضْلِ واري الزِّنَادِ [٨]
مَاذَا يُمَاثِلُ قَوْلِي ... جُوعٌ [٩] أمِدّ بزادِ

ثُمَّ ضحِكَ إلَى الثَّاني وأَنْشَدَ:

يَا ذَا الَّذي فَاقَ فَضْلاً ... ولَمْ يُدَنِّسْهُ شَيْنُ
مَا مثلُ قَوْلِ المُحَاجي ... ظَهْرٌ أصَابَتْهُ عَيْنُ

ثُمَّ لحَظَ الثَّالثَ، وأنشأ يَقُولُ:

يَا مَنْ نَتَائِجُ فِكْرِهِ ... مِثْلُ النُّقُودِ الجَائِزَهْ [١٠]
مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلَّذي ... حَاجَيْتَ صَادَفَ جَائِزَهْ

---

(١) الأخلاق.
(٢) الشبيهة في اللون بالذَّهَب.
(٣) المسألة العويصة.
(٤) الذكاء والفطنة.
(٥) ماثلت الرَّديء.
(٦) اللباب الخاص من كل شيء.
(٧) من ليسوا على حقٍّ.
(٨) كناية عن حدَّة الفهم.
(٩) هو معلوم.
(١٠) النافذة.

ثُمَّ أتلَعَ [(١)] إلَى الرَّابِعِ، وَقَالَ:

أيا مُستَنْبطَ [(٢)] الغامض ... من لُغز وإضْمَار [(٣)]

ألا اكْشِفْ لي مَا مثلُ ... تَنَاولْ ألفَ دينارِ

ثُمَّ رمَى الخَامسَ ببصرِه، وقَالَ:

يا أيّهذا الألمعي [(٤)] ... أخو الذّكاء المُنجَلي [(٥)]

مَا مثلُ أهْمَلَ حليَة ... بيّنْ هُديتَ وعجِّلِ

ثُمَّ التفَت لفْتَ السّادسِ وقَالَ:

يا مَنْ تقصّرُ عن مَداه [(٦)] ... خُطَى مُجاريه وتضْعُفْ

مَا مثلُ قولكَ للّذي ... أضحَى يُحَاجِيكَ اكففْ اكْفُفْ

ثُمَّ خلجَ السابعَ بحاجبه وقَالَ:

يَا مَنْ لَهُ فطنَةٌ تَجَلَّتْ [(٧)] ... ورتبَةٌ في الذَّكاء جَلَّتْ [(٨)]

بيّنْ فَمَا زلتَ ذَا بَيَان ... مَا مثلُ قولي الشّقيقُ أَفلَتْ

ثُمَّ استنْصَتَ الثَّامنَ [(٩)]، وأَنْشَدَ:

يا مَنْ حدائقُ فضله ... مطلولَةُ الأزهار غضَّه [(١٠)]

مَا مثلُ قَولَكَ للمُحَا ... جي ذي الحِجَى [(١١)] مَا اخْتَارَ فضّه

ثُمَّ حدجَ التَّاسعَ ببصرِه، وقَالَ:

---

(١) مد عنقه.
(٢) مستخرج.
(٣) إخفاء.
(٤) الفطن الحاد الفهم.
(٥) المنكشف المرئي.
(٦) غايته.
(٧) تكشفت ووضحت.
(٨) سبقت.
(٩) طلبت إنصاته؛ أي: سكوته.
(١٠) طرية رطبة.
(١١) صاحب العقل.

يا مَنْ يُشارُ إليه في الـ ـقَلْبِ الذّكيّ وَفي البَراعَهْ
أوضِحْ لنَا مَا مِثْلُ قوْ لَكَ للمُحاجي دُسْ جماعَهْ

قَالَ الرَّاوي: فَلَمَّا انتهَى إِلَيَّ، هزّ مَنكبَيَّ[(١)]، وقَالَ:

يا مَنْ لَهُ النُّكَتُ الَّتي يُشجي الخُصُومَ[(٢)] بهَا وَينكُتْ
أنْتَ المُبينُ فَقُلْ لَنَا مَا مِثلُ قولي خالِيَ اسْكُتْ

ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَنْهلْتُكُمْ وأَمهلتُكُمْ، وإنْ شئْتُمْ أَنْ أعُلِّكُمْ علّلتُكُمْ، قَالَ: فألْجأنَا لهَبُ الغُلَلِ[(٣)]، إلَى استسقاء العلَلِ، فقَالَ: لستُ كمَنْ يستأثِرُ عَلَى نَديمِه، ولاَ مِمَّنْ سمنُهُ في أديمِه، ثُمَّ كرّ عَلَى الأوَّل، وقَالَ:

يا مَنْ إذَا أشكَلَ[(٤)] الْمُعَمَّى جلَتْهُ أفكارُه الدّقيقَهْ
إنْ قَالَ يومًا لَكَ الْمُحاجي خُذْ تلكَ مَا مثلُهُ حَقيقَهْ

ثُمَّ ثَنَى[(٥)] جيدَهُ إلَى الثَّاني، وقَالَ:

يَا مَنْ بَدَا بَيَانُهُ[(٦)] عَنْ فَضلِه مُبيِّنَا
مَاذَا مِثَالُ قَولِهِمْ حِمَارُ وحْشٍ زُيِّنَا

ثُمَّ أَوْحَى[(٧)] إلَى الثَّالثِ بلحْظِه[(٨)]، وقَالَ:

يَا مَنْ غَدَا في فَضلِه وذكَائِه كَالأصْمَعي
مَا مِثلُ قَولِكَ للذي حاجَاكَ أنْفِقْ تقمَعِ[(٩)]

ثُمَّ حَمْلَقَ[(١٠)] إلَى الرَّابعِ، وأَنْشَدَ:

---

(١) المنكب: الكتف.
(٢) أي: يغصهم.
(٣) شدَّة حرارة العطش، كناية عن الاشتياق.
(٤) زاد في الصعوبة والخفاء.
(٥) أمال عنقه وعطفه.
(٦) ظهر علمه بالبلاغة.
(٧) أومأ.
(٨) بجانب عينه.
(٩) القمع: القهر والإذلال.
(١٠) أحدّ النظر.

يَا مَنْ إذَا مَا عَوِيصٌ[١] ... دجا أنَارَ ظَلامَهْ
مَاذا يُمَاثِلُ قَوْلِي ... إسْتَنْشِ[٢] رِيحَ مُدامَهْ

ثُمَّ أومضَ إلَى الخَامِسِ وَقَالَ:

يَا مَنْ تنزَّهَ[٣] فَهمُهُ ... عَنْ أنْ يُرَوِّيَ أَوْ يَشُكَّا
مَا مثلُ قَولِكَ لِلذي ... أضْحَى يُحَاجِي غطٌّ هَلْكَى[٤]

ثُمَّ أَقْبلَ قِبَلَ السَّادِسِ، وَأَنْشَدَ:

يَا أخَا الفِطْنَةِ[٥] الَّتِي ... بَانَ فِيهَا كمَالُهُ
سَارَ بِاللَّيْلِ مُدَّةً ... أيُّ شَيءٍ مِثَالُهُ

ثُمَّ نَحا بصرَهُ إلَى السَّابِعِ، وَقَالَ:

يَا مَنْ تحلَّى بِفَهْمٍ ... أقَامَ فِي النَاسِ سُوقَهْ
لَكَ البَيَانُ فَبَيِّنْ ... مَا مثلُ أحْبِبْ فَرُوقَهْ

ثُمَّ قصدَ قصْدَ الثَّامنِ، وَأَنْشَدَ:

يَا مَنْ تَبَوَّأ[٦] ذروةً ... فِي المَجْدِ فَاقَتْ كُلَّ ذرْوَهْ[٧]
مَا مثلُ قَولِكَ أعطِ إبـ ... ـريقاً يلُوحُ بِغَيرِ عُروَهْ

ثُمَّ ابتسمَ إلَى التَّاسعِ، وَقَالَ:

يَا مَنْ حَوَى حُسنَ الدِّرَا ... يَةِ[٨] وَالبَيَانِ بِغَيرِ شَكٍّ
مَا مثلُ قولِكَ لِلمُحَا ... جِي ذِي الذَّكَاءِ[٩] الثَّورُ مِلكي

---

(١) صعب مشكل.
(٢) استنشق وتشمم.
(٣) تباعد.
(٤) جمع هالك، بمعنى: بائر.
(٥) صاحب الذكاء.
(٦) أي: حلَّ وتمكَّن.
(٧) الذّروة أعلى الجبل.
(٨) العلم والمعرفة.
(٩) صاحب الفطنة.

ثُمَّ قبَضَ بجُمْعِهِ عَلَى رُدْنِي، وَقَالَ:

يا مَنْ سَمَا بثُقُوبِ فطنَتِهِ   في المُشكلاتِ ونورِ كُوكَبِهِ
مَاذا مثالُ صَفيرُ جَحْفَلَةٍ[١]   بيّنْهُ تبْيَانًا يَنمُّ بِهِ[٢]

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا أطربَنَا بِمَا سمعْنَاهُ، وطالبْنَا مُكاشَفَةَ معْنَاهُ، قُلنَا لَهُ: لسْنَا مِنْ خيلِ هَذَا الْمَيدانِ، ولاَ لَنَا بحلِّ هَذه العُقَد يَدانِ، فَإنْ أبَنْتَ، منَنْتَ[٣]، وَإنْ كتَمْتَ، غمَمْتَ، فَظَلَّ يُشاوِرُ نَفْسَيْهِ[٤]، ويُقلّبُ قِدْحَيْهِ، حتَّى هَانَ بذْلُ الْمَاعون علَيْهِ، فَأَقْبَلَ حِينَئِذٍ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَقَالَ: يَا أهلَ البَلاغَةِ والبَرَاعَةِ، سأعلّمُكُمْ مَا لَمْ تكُونُوا تَعْلَمُونَ، ولاَ ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ تُعلَّمونَ، فَأَوْكُوا[٥] عَلَيْهِ الأوعيَةَ، ورَوِّضُوا به الأنْديَةَ، ثُمَّ أَخَذَ في تفسيرِ صَقَلَ[٦] به الأذْهانَ، واستَفْرَغَ[٧] مَعَهُ الأرْدَانَ، حَتَّى آضَت[٨] الأفْهَامُ أنْوَرَ مِنَ الشَّمْسِ، والأكْمَامُ كأنْ لَمْ تغْنَ بالأمسِ، ولَمَّا همّ بالْمَفرّ، سُئِلَ عَنِ الْمَقَرّ، فتنفّسَ كم تتنفّسُ الثَّكُولُ، وأنشأ يقولُ:

كلُّ شِعْبٍ لِيَ شِعْبُ[٩]   وبِهِ رَبْعِيَ رَحْبُ
غَيْرَ أنِّي بسَروجٍ   مُسْتَهامُ القلْبِ صَبٌّ[١٠]
هيَ أرضي البِكْرُ والْجَوُّ   الَّذي فيهِ المَهَبُّ
وَإلَى روضَتِهَا الْغَنَاء   دونَ الرّوضِ أصْبُو[١١]
مَا حَلا لِي بعْدَهَا حُلْوٌ   وَلاَ اعْذَوْذَبَ عَذْبُ

---

(١) لذي الحافر كالشفة للإنسان.
(٢) يُظهره ويذيعه.
(٣) صارت لك المنَّة علينا.
(٤) أراد أنه يردد رأيه.
(٥) فشدّوا وربطوا.
(٦) جلا ونظف.
(٧) فرغ وأخلى.
(٨) صارت.
(٩) كل طريق لي طريق.
(١٠) عاشق.
(١١) أميل.

قَالَ الرَّاوِي: فقلْتُ لأصحابي هَـذَا أَبُو زَيْدِ السَّروجيّ، الَّذِي أدْنَى مُلَحه الأحَاجِيُّ، وأخذْتُ أصفُ لهُمْ حُسنَ تَوْشِيَتِه(١)، وانقيادَ الكَلامِ لمشِيّتِه، ثُمَّ التَفَتُّ فَإذَا بِـهِ قَدْ طمرَ(٢)، ونَاءَ(٣) بِمَا قمرَ(٤)، فعجِبْنَـا مِمَّا صنَعَ إذْ وقَعَ، ولَمْ ندْرِ أيْنَ سكَعَ(٥) وصَقَعَ(٦).

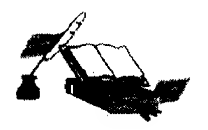


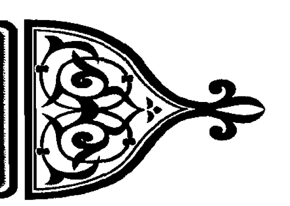
(١) تزيينه للكلام.
(٢) وثب.
(٣) نهض وقام به بثقل.
(٤) بما حازه من القمار.
(٥) ذهب من غير هداية.
(٦) أخذ صقعا من الأرض وهو الناحية.

تَفْسِير الأحَاجِي الْمودعَة هَذِه الْمقَامَة

أمَا جوع أمدَّ بزاد، فمثله طوامير، وأمَا ظَهر إصابته عَين، فمثله مطاعين، وأمَا صادف جائزة، فمثله الفاصلة، وأمَا تنَاول ألف دينَار، فمثله هادية، وأمَا أهمل حلية، فمثله الغاشية، وأمَا اكفف اكفف، فمثله مهمه، وأمَا الشقيق افلت، فمثله أخطار، وأمَا مَا اختار فضة، فمثله أبارقة، لأن الرقة من أَسْمَاء الفضة وَقَدْ نطق بهَا النبي ﷺ، فَقَالَ: «**فِي الرقة ربع العشر**»، وأمَا دس جمَاعة، فمثله طافية، وأمَا خالي اسْكت، فمثله خالصة، لأنك إذَا نَاديت مضافاً إلَى نَفْسك جاز لَكَ حذف الياء وإثباتها ساكنة ومتحرّكة، وَقَدْ حذف هَهُنَا حرف النداء كَمَا حذفه فِي أصل الأحجية، وصه بمعنَى اسْكت، وأمَا خذ تلك، فمثله هاتيك، وأمَا حمَار وحش زينَا، فمثله فرازين؛ لأنَّ الفرا حمَار الوَحش، وَمنه الْحَديث: كُلّ الصَّيد فِي جوف الفرا، وأمَا قوله انفق تقمع، فمثله منتقم، لأن الأمر من مَان يمون مُنْ، ومضارع وقمت تقم، وأمَا استنش ريح مدامة، فمثله رحراح؛ لأن الأمر من اسْتدعاء الرائحة رح، وأمَا غطّ هلكَى، فمثله صُنبور، لأن البور هم الْهلكَى، وَفِي القرآن: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، وأمَا سار باللّيْل مدة، فمثله سراحين، وأمَا احبب فروقة، فمثله مقلاع، لأن الأمر من ومق يمق مق، واللاع الجْبان، يُقَالُ فلان هاع لاع إذَا كَانَ جبانًا جزوعاً، وأمَا اعطِ إبريقاً يلوح بغير عروة، فمثله اسْكُوب، لأن الأوس الإعطاء والأمر اسْ، والكُوب الإبريق بغير عروة، وأمَا الثور ملكي، فمثله اللآلي، لأن اللأَى عَلَى وزن القنَا هو ثور الوحش، وأمَا صفير جحفلة، فمثله مكاشفة،

لأن المْكاء الصفير، قَالَ الله تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾؛ والأصل فِي المْكاء المْد ولكنه قصره فِي هذه الأحجية كَمَا حذف همزة الفراء فِي أحجيته، وكلا الأمرين من قصر المْمدود وحذف همزة المْهموز جائز.





المَقَامَةُ السَّابِعَةُ والثَّلاثُونَ الصَّعْدِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أصْعَدْتُ إلَى صَعْدَةَ، وَأَنَا ذُو شَطَاطٍ يحْكِي الصَّعْدَةَ (١)، وَاشْتِدَادٍ (٢) يبذُرُ بنَات صَعدةَ، فَلَمَّا رأَيْتُ نَضرتَها، وَرعَيْتُ خُضرتَها، سَألتُ نَحارِيرَ (٣) الرُّواة، عمّنْ تحْوِيه منَ السَّراة، ومعادنِ الخَيْرات، لأتَّخذَهُ جَذْوَةً فِي الظُّلُمَات، ونَجدَةً (٤) فِي الظُّلامَات(٥) فنُعِتَ لِي قَاضٍ بِهَا رَحيبُ البَاعِ، خَصيبُ الرِّباعِ (٦)، تَميميُّ النَّسَبِ والطِّباعِ، فَلَمْ أزَلْ أتقرَّبُ إليْهِ بالإلْمَامِ (٧)، وأتَنَفّقُ عليه بالإجْمَامِ(٨)، حَتَّى صِرْتُ صَدَى صَوْته، وسَلْمَانَ بيته وكُنْتُ مَعَ اشْتِيارِ شَهْده، وانتشاق رَنْده(٩) أشْهَدُ مَشاجِرَ الْخُصُومِ، وأسفِرُ بَيْنَ الْمَعصُومِ(١٠) منهُمْ والْمَوصُومِ(١١) فَبَينَمَا الْقَاضِي جَالِسٌ للإسْجَالِ، فِي يومِ المحْفِلِ والاحتفال، إذْ دخَلَ شيخٌ بالِي الرِّياشِ، بادِي الارتعاشِ، فتبصَّرَ الحَفْلَ تبصُّرَ (١٢) نَقَّادٍ، ثُمَّ زعَمَ أَنَّ لَهُ خصْمًا غيرَ مُنقَادٍ، فَلَمْ يكُنْ إلا كضَوْءِ شَرارَةٍ (١٣)، أَوْ وحْيِ إشارَة، حَتَّى

---

(١) قوام معتدل.
(٢) عدو.
(٣) جمع نحرير ـ بالكسر ـ وهو الحاذق المتمكّن.
(٤) هي الشجاعة والقوَّة.
(٥) جمع ظلامة، وهو ما يشتكيه المظلوم.
(٦) يعني: أنه متيسر الحال.
(٧) بالاجتماع عليه وتردد الزيارة.
(٨) يعني: بتقليل زيارته.
(٩) الرند: شجر طيب الرائحة كالعود.
(١٠) الذي لا عيب عنده.
(١١) المعيب.
(١٢) هو من يميّز بين الجيّد والزّيف.
(١٣) كأسرع مدَّة يسيرة.

أُحضِرَ غُلامٌ، كأنَّهُ ضِرغَامٌ، فقَالَ الشَّيْخُ: أيَّدَ اللهُ الْقَاضِيَ، وعَصَمَهُ منَ التَّغاضي، إنَّ ابْني هَذَا كالقَلَمِ الرّديّ، والسيف الصَّديِّ، يَجهَلُ أوْصَافَ الإنصاف، ويرْضَعُ أخلافَ الخِلاف، إنْ أقدَمتُ أَحْجَمَ(١)، وإذَا أعربْتُ أعجَمَ(٢)، وإنْ أذْكَيْتُ(٣) أخْمَدَ(٤)، ومَتَى شَوَيتُ رمَّدَ، مَعَ أنّي كفَلْتُهُ مُذْ دبَّ(٥)، إلَى أنْ شبَّ، وكُنْتُ لَهُ ألْطَفَ مَنْ ربَّى وربَّ، فأكْبرَ الْقَاضِي مَا شَكَا إليْه، وأطْرَفَ به منْ حوالَيْه، ثُمَّ قَالَ: أشْهَدُ أنَّ العُقُوقَ أحدُ الثُّكْلَين، ولَرُبَّ عُقْمٍ أقرُّ للعَينِ(٦)، فقَالَ الغُلامُ، وقَدْ أمعَضَهُ(٧) هَذَا الكلامُ: وَالَّذي نصَبَ القُضاةَ للعدْل، وَملَّكَهُمْ أعِنّةَ الفضْلِ والفَصْلِ، إنَّهُ مَا دَعا قَطُّ إلا أمَّنْتُ، وَلاَ ادَّعَى إلا آمَنْتُ، ولاَ لَبَّى إلا أحرَمْتُ، ولاَ أورَى إلا أضْرَمْتُ(٨)، بيْدَ أنَّهُ كمَنْ يبْغي بيْضَ الأنُوق، ويطْلُبُ الطَّيَرانَ منَ النُّوق! فقَالَ لَهُ الْقَاضي: وبِمَ أعنَتَكَ، وامتَحَنَ طاعتَكَ؟ قَالَ: إنَّهُ مُذْ صَفِرَ منَ الْمَالِ، ومُنِيَ بالإمْحَالِ(٩)، يسومُني أنْ أتلَمَّظَ بالسُّؤالِ، وأستَمْطِرَ سُحْبَ النَّوَالِ(١٠)، ليَفيضَ شِربُهُ الَّذي غاضَ، وينْجبِرَ منْ حالِه مَا انْهاضَ(١١)، وقدكَانَ حينَ أخذَني بالدَّرْسِ، وعلَّمَني أدبَ النَّفْسِ، أشْرَبَ قَلْبِي أنَّ الحِرْصَ متَعَبَةٌ، والطَّمَعَ معْتَبَةٌ، والشَّرَهَ(١٢) مَتْخَمَةٌ(١٣)، والمسألَةَ مَلأمَةٌ، ثُمَّ أنشدَني مِنْ فلْقِ فيهِ، ونحتِ قَوافيه:

---

(١) تأخَّر.
(٢) أبهم واستعجم استبهم.
(٣) أشعلت.
(٤) أطفأ.
(٥) من وقت أن مشى على يديه ورجليه.
(٦) أروح للإنسان من الولد العاقّ.
(٧) شق عليه وأغضبه.
(٨) أشعلت وقويت.
(٩) يكلفني.
(١٠) هو العطاء.
(١١) ما انكسر.
(١٢) شدة الحرص وغلبته.
(١٣) مفسدة.

إرْضَ بِأدنَى العيشِ واشْكُرْ عَلَيْه شُكْرَ مِنَ القُلُّ كَثِيرٌ لَدَيْهْ
وجَانِبِ الحِرْصَ الَّذي لَمْ يزَلْ يحُطُّ قَدْرَ الْمُتَراقي إلَيْهْ
وحامِ عَنْ عِرضِكَ واستَبْقه كَمَا يُحَامِي اللَّيْثُ عَنْ لِبْدتَيهْ
واصْبِرْ عَلَى مَا نَابَ مِنْ فَاقَةٍ (١) صبْرَ أُولِي العزْمِ وأغمضْ عليْهْ (٢)
وَلاَ تُرقْ مَاءَ الْمُحَيَّا ولَوْ خوَّلَكَ (٣) الْمَسْؤولُ مَا فِي يديَهْ
فَالْحُرُّ مَنْ إنْ قَذيَتْ عينُهُ أخْفَى قَذَى جَفنَيْه عن نَاظرَيهْ
ومَنْ إذَا أخْلَقَ ديبَاجُهُ لَمْ يرَ أَنْ يُخْلِقَ ديبَاجَتَيهْ

قَالَ: فعبَسَ الشَّيْخُ واكفهَرَّ (٤)، وانْدرأ عَلَى ابنه وهرَّ، وقَالَ لَهُ: صَهْ يَا عُقَقُ (٥)، يَا مَنْ هُوَ الشّجَى والشَّرَقُ! ويْكَ أتُعَلِّمُ أُمَّكَ البضاعَ، وظِئْرَكَ (٦) الإرْضَاعَ؟ لَقَدْ تحكّكَت العقْرَبُ بالأفعَى، واستَنَّت الفصَالُ حَتَّى القَرْعَى! ثُمَّ كَأنَّهُ نَدمَ عَلَى مَا فرَطَ مِنْ فيه، وحدَتْهُ الْمِقَةُ عَلَى تَلافِيه، فرَنَا إلَيْه بعينِ عاطِفٍ، وخفضَ لَهُ جنَاحَ مُلاطِفٍ، وقَالَ لَهُ: ويْكَ يَا بُنيَّ إنَّ مَنْ أُمِرَ بالقَنَاعَةِ، وزُجِرَ عَنِ الضَّراعَة (٧)، هُمْ أرْبابُ البضاعَة (٨)، وأولُو الْمكسَبَة بِالصِّنَاعَة، فَأَمَّا ذَوو الضَّرُورَات، فَقَد استُثْنيَ بهِمْ فِي الْمَحْظُورات (٩)، وهبْكَ جهِلْتُ هَذَا التَّأويلَ، ولَمْ يبلُغْكَ مَا قِيلَ، ألسْتَ الَّذِي عارَضَ أباهُ، فِي مَا قالَ ومَا حاباهُ:

لا تقْعُدَنَّ عَلَى ضُرٍّ ومسْغَبَةٍ (١٠) لكيْ يُقالَ عزيزُ النّفسِ مُصطَبِرُ

---

(١) أصاب من فقر.
(٢) استره ولا تظهره.
(٣) ملكك.
(٤) اشتدَّ عبوسه.
(٥) يا عاقُّ.
(٦) الظئر: المرضعة.
(٧) الخضوع والتَّذلل.
(٨) هم التجار أصحاب الأموال.
(٩) المحظورات؛ أي: رُخِّصَ لهم فيها.
(١٠) جوع.

وانظُرْ بعينِكَ هل أرضٌ مُعطَّلةٌ(١) ... منَ النّباتِ كأرضٍ حفّها الشَّجَرُ
فعَدِّ عمّا تُشيرُ الأغْبياءُ(٢) به ... فأيُّ فَضْلٍ لعُودٍ ما لَهُ ثَمَرُ
وارْحَلْ رِكابَكَ عن ربْعٍ ظمئتَ به ... إلَى الْجنَابِ الَّذي يَهمي به(٣) المَطَرُ
واستَنزِلِ الرّيَّ من دَرِّ السَّحابِ فإنْ ... بُلَّتْ يَداكَ بهِ فليَهنكَ الظّفَرُ
وَإنْ رُدِدتَ فَمَا فِي الرَّدِّ مَنقَصَةٌ ... عَلَيكَ قَدْ رُدَّ موسَى قبلُ والخَضِرُ

قَالَ: فَلَمَّا أَنْ رَأَى الْقَاضِي تَنَافِيَ قولِ الفتَى وفعلِه، وتحلّيَهُ(٤) بمَا ليسَ مِنْ أهلِه، نظَرَ إليْهِ بعَينِ غَضبَى، وَقَالَ: أتَميمياً مرّةً وقَيسيّاً أخرَى؟ أُفٍّ لِمَنْ ينقُضُ مَا يَقولُ، ويتلوَّنُ كَمَا تتلوّنُ الغُولُ! فَقَالَ الغُلامُ: وَالَّذي جعلَكَ مفْتَاحاً للحَقِّ، وفتّاحاً بَيْنَ الْخَلْقِ(٥)، لَقَدْ أُنسيتُ مُذْ أَسِيتُ(٦)، وصَدِئَ ذِهْنِي مُذْ صَدِيتُ، عَلَى أَنَّهُ أَيْنَ البابُ الفُتُحُ، والعَطاءُ السُّرُحُ(٧)؟ وَهَلْ بقيَ مَنْ يتبرّعُ باللُّهَى، وَإِذَا استُطْعِمَ يقولُ ها؟ فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: مَهْ! فمَعَ الْخَواطئِ سهمٌ صَائبٌ، ومَا كُلُّ برْقٍ خَالِبٌ(٨)، فميِّزِ البُروقَ إذَا شِمْتَ، وَلاَ تشْهَدْ إلا بِمَا علِمْتَ.

فَلَمَّا تبيَّنَ للشّيخِ أَنَّ الْقَاضِيَ قَدْ غضبَ للكرامِ، وأعْظَمَ تبْخيلَ جميعِ الأنَامِ، علِمَ أنّهُ سيَنصرُ كلِمتَهُ، ويُظهِرُ أُكْرومتَهُ، فَمَا كَذَّبَ(٩) أَنْ نصَبَ شَبَكَتَهُ، وشَوَى فِي الْحَريقِ سَمكتَهُ، وأنْشأ يَقُولُ:

يا أيُّهَا الْقَاضِي الَّذي عِلْمُهُ ... وحِلْمُهُ أرسَخُ مِنْ رَضْوَى

---

(١) خالية. (٢) جمع الغبي، وهو: الأحمق الجاهل.
(٣) يسيل به. (٤) تلبسه وتزينه.
(٥) حاكمًا. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٨٩]؛ أي: احكم.
(٦) مذ حزنت من الأسى، وهو: الحزن. (٧) السهل الكثير السريع.
(٨) لا غيث فيه. (٩) فما لبث.

قَـد ادَّعَى هَـذَا عَلَى جَهْلِه أنْ ليسَ في الدُنيا أخُو جَدوَى [١]
ومَا دَرَى أنكَ منْ معشَر عطاؤهُمْ كالمَنِّ والسَّلْوَى [٢]
فَجُدْ بِمَ يَثْنيه [٣] مُستَخْزِياً [٤] مـمَّا افتَرَى من كذبِ الدَّعوَى
وَأَنثَني جَذْلانَ [٥] أُثْني بِمَا أوليتَ من جَدوَى [٦] ومن عَدوَى [٧]

قَالَ: فهَشَّ الْقَاضِي لقوله، وأجزَلَ لَهُ منْ طوله، ثُمَّ لفتَ وجهَهُ إلَى الغُلامِ، وَقَدْ نصَلَ لَهُ أَسْهُمَ الْمَلامِ، وَقَالَ لَهُ: أرأيتَ بُطْلَ زعمِكَ، وخطأَ وهْمِكَ؟ فلا تَعجَلْ بعدَها بذَمّ، ولاَ تنْحَتْ عوداً [٨] قَبْلَ عَجْمٍ، وإيَّاكَ وتأبِّيك، عن مُطاوَعَة أبيكَ! فإنَّكَ إنْ عُدتَ تعُقُّهُ [٩]، حاقَ بكَ منِّي مَا تَستحقُّهُ، فَسُقطَ الفتَى فِي يدِهِ، ولاذَ بحِقْوِ والِدِهِ، ثُمَّ نهضَ يُحْفِدُ [١٠]، وتبعَهُ الشَّيْخُ يُنشِدُ:

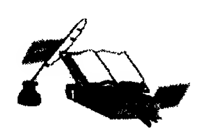
مَنْ ضَامَهُ [١١] أَوْ ضَارَهُ دهرُهُ فلْيَقْصد الْقَاضيَ في صَعْدَهْ
سمَاحُهُ [١٢] أزْرَى بمَنْ قبلَهُ وعدْلُهُ أتْعَبَ مَنْ بَعْدَهْ

قَالَ الرَّاوِي: فحِرْتُ [١٣] بَيْنَ تعْريفِ الشَّيْخِ وتنْكيرِهِ، إلَى أنِ احْرَورَفَ [١٤] لِمَسيرِهِ، فنَاجَيْتُ النَّفْسَ باتِّبَاعِهِ، ولَوْ إلَى رِبَاعِهِ [١٥]، لعَلِّي أظهَرُ عَلَى أسْرارِهِ، وأعرِفُ شَجَرَةَ نَارِهِ [١٦]، فَنَبَذْتُ العُلَقَ، وانْطَلَقْتُ

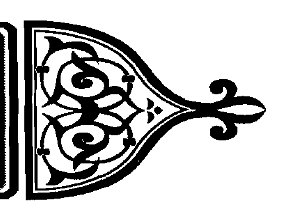
---

(١) صاحب جدوى، وهي: العطية والكرم.
(٢) طائر يشبه السمان.
(٣) بما يرده.
(٤) من الخزاية، وهي: الحياء.
(٥) وأرجع فرحًا مسرورًا.
(٦) هي العطيَّة.
(٧) هنا بمعنى الإعانة بإزالة إحدى المظالم.
(٨) لا تنجره.
(٩) تعصيه وتغضبه.
(١٠) قام يسعى.
(١١) من الضَّيم، وهو: الظلم.
(١٢) جوده.
(١٣) تَحيَّرْت.
(١٤) انحرف؛ أي: مال وعدل.
(١٥) دياره ومنازله.
(١٦) يريد حقيقة حاله.

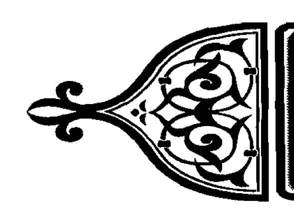
حيثُ انطلَقَ، ولَمْ يزَلْ يخْطو وأعتَقبُ، ويبْعُدُ وأقتَرِبُ، إلَى أَنْ تراءَى الشّخْصانِ، وحقّ التّعارُفُ عَلَى الْخُلْصانِ، فأبْدَى حينَئذ الاهْتشاشَ (١)، ورفَعَ الارتعاشَ، وقَالَ: منْ كاذَبَ أخاهُ فلا عاشَ! فعرَفْتُ عنْدَ ذَلكَ أَنَّهُ السَّروجيُّ بِلا مَحالَة (٢)، ولاَ حؤول حالَة، فأسرَعْتُ إليْه لأصافحَهُ، وأستَعْرِفَ سانحَهُ وبارِحَهُ (٣)، فَقَالَ: دونَكَ ابنَ أخيكَ البَرَّ (٤)، وتركَني ومَرَّ (٥)، فَلَمْ يعْدُ الفتَى أنِ افْتَرّ، ثُمَّ فَرّ كَمَا فَرّ، فعُدْتُ وقَدْ استَبَنْتُ عينَهُمَا، ولكنِ أَيْنَ هُمَا.



(١) الطَّرب والفرح.
(٢) من غير شك.
(٣) يريد خيره وشرّه.
(٤) البارٌ بأبيه.
(٥) ذهب لحاله.



الْمَقَامَةُ الثَّامِنَةُ والثَّلاثُونَ
الْمَرْوِيَّةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: حُبِّبَ إِلَيَّ مُذْ سعَتْ قدَمي، ونفَثَ قلَمي، أَنْ أتّخذَ الأدَبَ شِرْعَةً، والاقْتِبَاسَ (١) منْهُ نُجْعَةً، فكُنتُ أُنَقِّبُ (٢) عَنْ أخْبارِهِ، وخزَنَةِ أَسْرارِهِ، فَإذَا أَلْفَيْتُ منهُمْ بُغيَةَ الْمُلتَمِسِ (٣)، وجُذْوَةَ الْمُقتَبِسِ، شدَدْتُ يَدي بغَرْزِه، واستَنزَلْتُ منْهُ زكاةَ (٤) كنزِهِ، عَلَى أنّي لَمْ أَلْقَ كالسَّروجيّ فِي غَزارَةِ السُّحْبِ (٥)، ووضْعِ الْهِنَاء مَواضِعَ النُّقْبِ، إلا أَنَّهُ كَانَ أَسْيَرَ مِنَ الْمَثَلِ، وأسرَعَ مِنَ القمَرِ فِي النُّقَلِ، وكُنْتُ لهَوَى مُلاقاته (٦)، واستِحْسانِ مَقامَاتِه، أرْغَبُ فِي الاغتِرابِ، وأستَعْذِبُ السّفَرَ الَّذي هُوَ قطْعَةٌ من العَذابِ، فَلَمَّا تَطوَّحْتُ (٧) إلَى مروَ، ولاَ غرْوَ (٨)، بَشَّرَني بمَلقَاهُ زَجْرُ الطَّيرِ، والفألُ الَّذي هُوَ بَريدُ الخَيرِ، فَلَمْ أزَلْ أنشُدُهُ فِي المحَافِلِ (٩)، وعِنْدَ تلَقّي القَوافِلِ (١٠)، فلا أجدُ عَنْهُ مُخبِراً، ولاَ أرَى لَهُ أثَراً ولاَ عِثْيَراً، حَتَّى غلَبَ اليأسُ الطّمَعَ، وانْزَوَى (١١) التَّأميلُ وانْقمَعَ، فَإنِّي لَذَاتَ يَومٍ بِحَضْرَةِ والي مرْوَ، وكانَ مِمَّنْ جمَعَ الفضْلَ والسَّرْوَ، إذْ طلَعَ أَبُو زيْدٍ فِي خلَقٍ مِمْلاقٍ، وخُلُقٍ مَلاّقٍ، فحَيّا تَحِيَّةَ الْمُحْتاجِ، إذَا لقِيَ ربَّ التَّاجِ (١٢)، ثُمَّ

---

(١) الاستفادة.
(٢) أبحث وأتفحّص.
(٣) طلبه الطالب وحاجته.
(٤) تطلب منه زكاة ماله.
(٥) جمع سحابة، وكني به عن كثرة العلم.
(٦) لرغبتي في التّلاقي معه.
(٧) رميت بنفسي.
(٨) لا غرابة في ذلك.
(٩) جمع المحفل، وهو: مجتمع الناس.
(١٠) استقبال المسافرين.
(١١) اختفى.
(١٢) هو الملك.

قالَ لَهُ: اعلَمْ وُقيتَ الذَّمَّ، وكُفيتَ الْهَمَّ، أَنَّ مَنْ عُذقَتْ بِه الأعْمَالُ، أُعْلقَتْ بِه الأمَالُ، ومَنْ رُفعَتْ لَهُ الدّرَجاتُ، رُفعَتْ إلَيْه الحَاجاتُ، وأنَّ السَّعيدَ مَنْ إذَا قدرَ، وواتاهُ القَدَرُ (١)، أدَّى زكاةَ النِّعَمِ، كَمَا يؤدِّي زكاةَ النَّعَمِ، والتزَمَ لأهْلِ الْحُرَمِ مَا يُلتزَمُ للأهْلِ والحرَمِ، وقَدْ أصبحْتَ بحمدِ الله عَميدَ مصرِكَ(٢)، وعمَادَ عصرِكَ، تُزْجَى (٣) الرّكائبُ إلَى حرَمكَ، وتُرْجَى (٤) الرَّغائبُ منْ كَرَمكَ، وتُنزَلُ الْمَطَالبُ بسَاحَتكَ، وتُسْتَنْزَلُ الرَّاحَةُ منْ رَاحَتكَ(٥). وكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظيمًا، وإحْسَانُهُ لديْكَ عَميمًا، ثُمَّ إنِّي شَيْخٌ تربَ بَعْدَ الإتْرابِ (٦)، وعدمَ الإعْشابَ حينَ شابَ، قصَدْتُكَ منْ محلَّة نَازحَة (٧)، وحالَة رازحَة، آمُلُ منْ بحرِكَ دُفعَةً، ومنْ جاهكَ رفعَةً، والتَّأميلُ أفضَلُ وسائلِ السائلِ، ونَائلِ النَّائلِ (٨)، فأوْجبْ لي مَا يجبُ عليْكَ، وأحسنْ كَمَا أحْسَنَ اللهُ إليْكَ، وإيّاكَ أنْ تلْويَ عذاركَ (٩)، عمَّنِ ازْدَراكَ، وأمَّ داركَ، أَوْ تقبِضَ راحَكَ، عمّنِ امْتاحَكَ (١٠) وامْتارَ سَمَاحَكَ، فوَالله مَا مجَدَ (١١) مَنْ جمَدَ (١٢)، ولاَ رشَدَ منْ حشَدَ، بلِ اللَّبيبُ مَنْ إذَا وَجَدَ جادَ (١٣)، وإنْ بَدأ بعائدَة عادَ، والكَريمُ منْ إذَا اسْتُوهبَ الذَّهَبَ، لَمْ يَهَبْ أَنْ يهبَ (١٤)، ثُمَّ أمسَكَ يرقُبُ أُكُلَ غرسه، ويرْصُدُ (١٥) مَطيَّةَ

(١) وساعده ما قدره الله.
(٢) الْعَميدُ: السيد الذي يُعْمَدُ إليه في الحوائج؛ أي: يُقْصَدُ، والْمِصْرُ: المدينة مطلقًا.
(٣) تساق.
(٤) تؤمل.
(٥) من كفك.
(٦) بعد الاستغناء بكثرة المال.
(٧) منزل بعيد.
(٨) عطاء المعطي.
(٩) يعني: تصرف وجهك.
(١٠) طلب عطاءك.
(١١) ما شَرُفَ.
(١٢) من بخل.
(١٣) أعطى.
(١٤) أن يعطي الهبة.
(١٥) بمعنى: يرقب.

نَفْسه(١)، وأحبَّ الْوَالِي أَنْ يعلَمَ هلْ نُطفَتُهُ ثمَدٌ، أم لقَريحَتِه مدَدٌ، فأطْرَقَ(٢) يرَوِّي فِي استِيراء زَنْده، واستشْفاف فِرِنْدِه، والتَبَسَ عَلَى أبي زَيْدٍ سِرُّ صَمْتِه، وإرْجاء صِلَتِه (٣)، فتوَغَّرَ (٤) غضباً، وأنْشَدَ مُقتَضِباً:

لا تَحْقِرَنَّ أبيْتَ اللّعنَ ذَا أدب
لأنْ بَدا خلَقَ السِّرْبال (٥) سُبْرُوتَا (٦)
وَلاَ تُضِعْ لأخي التَّأمِيلِ (٧) حُرْمَتَهُ
أكانَ ذَا لَسَنٍ أم كَانَ سِكّيتَا
وانفَحْ بعُرْفِكَ مَنْ وافاكَ مختَبطاً (٨)
وانعَشْ بغَوْثكَ (٩) من ألفيتَ مَنكُوتَا
فخَيرُ مَال الفتَى مَالٌ أشادَ لهُ
ذكْراً تنَاقَلَهُ الرُكبَانُ أَوْ صِيتَا
ومَا علَى الْمُشتَري حَمْداً بمَوْهبَة
غَبنٌ (١٠) ولَوْ كَانَ مَا أَعْطَاهُ ياقُوتَا
لَوْلا الْمُروءةُ ضَاقَ العُذْرُ عن فَطِنٍ
إذَا اشْرأبَّ (١١) إلَى مَا جَاوَزَ القُوتَا (١٢)

---

(١) ما تطيب به نفسه.
(٢) أكب برأسه.
(٣) تأخير عطيَّته.
(٤) تلهب من الوغرة، وهي: شدَّة توقّد النار.
(٥) رث الثوب.
(٦) فقيرًا لا يملك شيئًا.
(٧) لصاحب الأمل المترجى.
(٨) سائلاً يطلب معروفك.
(٩) بإغاثتك.
(١٠) هو تجاوز ثمن المبيع فوق قيمته.
(١١) مدَّ عنقه إلى شيءٍ ينظر إليه، فاستعير للطمع.
(١٢) طلب الزيادة عن الكفاية.

لكنّهُ لابْتناء المجْد جدَّ[١] ومنْ
حُبّ السّماحِ ثنَى نحوَ العُلَى[٢] ليتَا[٣]
ومَا تنشّقَ نشْرَ الشُّكْرِ ذُو كرَمٍ
إلا وأزْرَى بنَشْرِ المسكِ مَفتوتا
والحَمدُ والبُخلُ لَمْ يُقضَ اجتمَاعهمَا[٤]
حَتّى لقَدْ خيلَ ذَا ضَبّاً وذا حوتَا
والسَّمحُ[٥] فِي النَاسِ محبوبٌ خلائقُهُ
والجامدُ الْكَفِّ[٦] مَا ينفَكّ مَمْقُوتا
وللشَّحيحِ عَلَى أمْوَالهِ عِلَلٌ[٧]
يوسعْنَهُ أبَداً ذَمّاً[٨]. وتبْكيتا
فَجُدْ بِمَا جَمَعتَ كَفَّاكَ منْ نَشَب[٩]
حَتَّى يُرَى مُجْتَدي جَدواكَ[١٠] مَبهوتا
وخُذْ نصيبَكَ منْهُ قَبْلَ رائعَةٍ
منَ الزَّمَانِ تُريكَ العودَ مَنْحُوتَا[١١]
فَالدَّهْرُ أنكَدُ منْ أنْ تَسْتَمرّ بِه
حالٌ تكرَّهْتَ تلكَ الحَالَ أم شِيتَا

فَقَالَ لَهُ الْوَالِي: تَالله لَقَدْ أحسَنْتَ، فأيُّ ولَدِ الرّجُلِ أنتَ؟ فنظَرَ إليْهِ عَنْ

(١) سعى واجتهد لرفع مرتبته. (٢) لفت إلى جهة المعالي.
(٣) هو صفحة العنُق. (٤) لا يجتمعان.
(٥) الجواد. (٦) كناية عن الْبُخْل.
(٧) أعذار. (٨) يكثرن ذمّه دائمًا. (٩) مال.
(١٠) طالب عطائك، والجادي: السائل. الجدوى وهي: العطيَّة. (١١) مقوسًا.

عُرْضٍ، وأنشَدَ وهُوَ مُغْضٍ (١):

لا تسْأَلِ المَرْءَ مَنْ أبوهُ ورُزْ
خلالَهُ (٢) ثُمَّ صِلْهُ أَوْ فاصْرِمِ (٣)
فما يَشينُ (٤) السُّلافَ (٥) حينَ حَلا
مَذاقُها كَونُها ابنَةَ الحِصْرِمِ

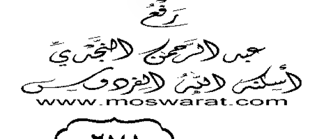
قَالَ: فقرَّبَهُ الْوَالي لبَيانه الفاتنِ (٦)، حَتَّى أحلّهُ مقْعَدَ الخْاتنِ، ثُمَّ فرَضَ له من سُيُوبِ (٧) نيْلِه، مَا آذنَ بطُول ذَيله، وقصرِ لَيله، فنَهَضَ عَنْهُ بِرُدْنٍ مَلآنَ، وَقَلْبٍ جَذْلانَ (٨)، وتبعْتهُ حاذيا حَذْوَهُ، وقَافِيا خَطْوَهُ، حَتَّى إذَا خرَجَ مِنْ بابِه، وفصَلَ (٩) عَنْ غابِه، قُلتُ لَهُ: هُنّئْتَ بِمَا أوتيتَ، وَمُلِّيتَ بِمَا أُوليتَ! فأسْفَرَ وجهُهُ وتَلالا (١٠)، ووالَى شُكْراً للهِ تَعالَى، ثُمَّ خطَرَ اخْتيالاً، وأَنْشَدَ ارتجالاً (١١):

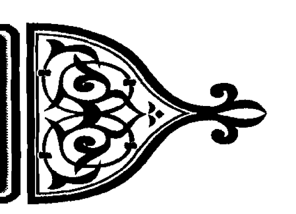
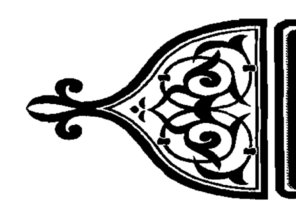
مَنْ يكُنْ نَالَ بالحَمَاقَةِ حَظّاً أو سَمَا قدرُهُ لطيبِ الأُصُولِ
فبِفَضْلِي انتَفَعْتُ لا بفُضولِي (١٢) وبقَوْلي ارتفَعْتُ لا بقُيولي (١٣)

ثُمَّ قَالَ: تَعْساً (١٤) لِمَنْ جدَبَ (١٥) الأدَبَ، وطُوبَى لِمَنْ جَدَّ فِيهِ ودأبَ (١٦)! ثُمَّ ودّعَني وذهَبَ، وأوْدَعَني اللّهَبَ.

---

(١) مقارب بين جفنيه.
(٢) خصاله.
(٣) اقطع الصُّحبة.
(٤) يعيب.
(٥) الخمر الصالحة.
(٦) السالب للعقل.
(٧) عطاياه.
(٨) فرح مسروراً.
(٩) خرج.
(١٠) لمع.
(١١) من غير فكرة.
(١٢) لا بدخولي فيما لا يعنيني.
(١٣) لا بملوكي؛ لأنَّ القيل الملك بلغة حميَر، والجمع: قيُول.
(١٤) هلاكًا، وأصله الكبّ.
(١٥) عاب.
(١٦) دام عليه وتعب فيه.




المَقَامَةُ التَّاسِعَةُ والثَّلاثُونَ العُمَانِيَّةُ


حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: لَهِجْتُ (١) مُذْ اخْضَرَّ إزَارِي، وبَقَلَ (٢) عِذَارِي (٣)، بِأَنْ أجُوبَ (٤) البَرارِي (٥) علَى ظُهُورِ الْمَهَارِي، أُنْجِدُ طَوْراً، وأسْلُكُ تارَةً غوْراً (٦)، حتَّى فلَيْتُ الْمَعالِمَ والْمَجاهِلَ، وبَلَوْتُ الْمَنَازِلَ والْمَنَاهِلَ (٧)، وأدْمَيْتُ السَّنَابِكَ والْمَنَاسِمَ، وأنْضَيْتُ السَّوَابِقَ (٨) والرَّواسِمَ، فَلَمَّا مَلِلْتُ الإصْحَارَ (٩)، وَقَدْ سَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحَارَ، مِلْتُ إلَى اجْتِيازِ التَّيارِ، واختِيارِ الفُلْكِ السَّيَّارِ (١٠)، فنقَلْتُ إليْهِ أَسَاوِدِي، واسْتَصْحَبْتُ زادي ومَزَاوِدِي، ثُمَّ ركِبْتُهُ فيهِ رُكُوبَ حاذِرٍ (١١) نَاذِرٍ، عَاذِلٍ (١٢) لنفْسِه عَاذِرٍ (١٣)، فَلَمَّا شَرَعْنَا فِي القُلْعَةِ، ورفَعْنَا الشُّرُعَ (١٤) للسُّرْعَةِ، سَمِعْنَا مِنْ شَاطِئِ الْمَرْسَى حِينَ دَجا اللَّيْلُ وأغْسَى (١٥)، هاتِفاً يَقُولُ: يَا أَهْلَ ذَا الفُلْكِ القَوِيمِ، الْمُزجَّى فِي البحرِ العَظِيمِ، بِتَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيمِ، هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى

---

(١) ولعت واشتدَّ حبِّي.
(٢) نبت.
(٣) شعر خدّي.
(٤) أقطع.
(٥) الصحارى.
(٦) ما انخفض منها.
(٧) مواضع الماء.
(٨) الخيل.
(٩) السير في الصحراء.
(١٠) كثير السير.
(١١) خائف.
(١٢) لائم.
(١٣) ملتمس لها عذراً.
(١٤) جمع شراع، وهو: قلع السفينة.
(١٥) اشتدَّت ظلمته.

تجارَة تُنجيكُمْ مِنْ عذابٍ أليمٍ؟ فقُلْنَـا لَهُ: أقْبِسْنَا نَارَك أَيُّهَا الدّليلُ، وأرشِدْنَا كَمَا يُرشِدُ الْـخَليلُ الْـخَليلَ، فَقَالَ: أتستَصْحِبونَ ابنَ سبيلٍ، زادُهُ فِي زَبيلٍ، وظِلُّهُ (١) غيرُ ثَقيلٍ، ومَا يَبغي سوَى مَقيلٍ (٢)؟ فأجْمعنَا عَلَى الْـجُنُوحِ (٣) إليْه، وأَنْ لا نبْخَلَ بالْـمَاعونِ علَيْه، فَلَمَّا استَوَى عَـلَى الفُلْك، قَالَ: أعوذُ بمَالك الْـمُلْك، مِنْ مسالك الْـهُلْك (٤)! ثُمَّ قَالَ: إنَّا رُوِّينَا فِي الأخْبارِ الْمنقولَة عَنِ الأحْبارِ، أَنَّ اللهَ تَعالَى مَا أَخَـذَ عَلَى الْـجُهَّالِ أَنْ يتعلَّمُوا، حَتَّى أَخَذَ عَلَى العُلَمَاء أَنْ يعلِّموا، وإنَّ مَعـي لَعوذَةً عَنِ الأنبيَاء مَأخُوذَة، وعندي لكُمْ نَصيحةٌ، بَرَاهِينُهَا (٥) صَحيحةٌ، ومَا وَسعَنـي الكتْمَانُ، وَلاَ مِنْ خيمي الحِرْمَانُ، فتَدَبَّروا الْـقولَ وتفهّموا، واعمَلوا بِمَا تُعلَّـمُونَ وعَلِّمُوا، ثُمَّ صَاحَ صيْحَةَ الْـمُباهي (٦)، وَقَالَ: أتَدْرونَ مَا هيَ؟ هيَ واللهِ حِـرزُ السَّفْرِ، عِنْدَ مَسـيرِهِـمْ فِي البَـحْرِ، والجُنّـةُ مِنَ الغَمِّ، إذَا جَـاشَ (٧) موْجُ اليَـمِّ، وبها استَـعْصَمَ نوحٌ مِـنَ الطُّوفانِ، ونَـجا ومَـنْ مـعَهُ مِنَ الْـحَيَوانِ، عَلَـى مَا صدَعَتْ (٨) بهِ آيُ القُرْآنِ، ثُمَّ قرأ بعْضَ أَسَاطيرَ (٩) تَلاها، وزخارفَ (١٠) جَلاها (١١)، وقَالَ: اركَـبوا فِيهَـا باسْمِ اللهِ مُجْـراها ومُرْساها، ثُـمَّ تنفّسَ تنفُّسَ الْـمُـغرَمينَ، أَوْ عِبادِ اللهِ الْـمُـكرَمينَ، وَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ قُـمتُ فيكُم مَقَامَ الْـمبلِّغينَ (١٢)، ونصَحْتُ لكُمْ نُصْحَ الْـمُبَالِغينَ، وسلَكْتُ بكُمْ محَجّةَ

---

(١) شخصه.
(٢) موضع جلوس.
(٣) الميل.
(٤) الهلاك.
(٥) حججها.
(٦) المفاخر.
(٧) تحرَّك وهَاجَ.
(٨) نطقت وصرحت.
(٩) أباطيل.
(١٠) تمويهات مزينة.
(١١) كشفها.
(١٢) المجتهدين.

الرَّاشِدينَ (١)، فاشْهَدِ اللَّهُمَّ وأَنْتَ خيرُ الشَّاهِدينَ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فأعْجَبَنَا بيانُهُ البَادِي الطُّلاوَةِ، وعجَّتْ (٢) لَهُ أصواتُنَا بالتِّلاوَةِ، وآنَسَ قَلْبِي مِنْ جرْسِهِ (٣)، معرِفَةَ عينِ شَمْسِهِ، فقلْتُ لَهُ: بالَّذِي سخَّرَ البحرَ اللُّجِّيَّ (٤)، ألسْتَ السَّروجيَّ؟ فقَالَ لِي: بلَى، وَهَلْ يَخْفَى ابنُ جَلا؟ فأحْمَدْتُ حينَئذٍ السَّفَرَ، وسفَرْتُ عن نفْسِي إذْ سفَرَ، ولَمْ نزَلْ نسيرُ والبحرُ رَهْوٌ (٥)، والجوُّ صحْوٌ، والعيشُ صَفوٌ، والزَّمَانُ لهْوٌ، وأَنَا أجِدُ لِلقِيانِهِ، وجْدَ الْمُثْرِي بعِقْيانِهِ، وأفرَحُ بِمُنْجَاتِهِ (٦)، فرَحَ الغَرِيقِ بِمَنْجاتِهِ، إلَى أَنْ عَصفَتِ الْجَنوبُ، وعسفَتِ الْجُنُوبُ، ونَسِيَ السَّفْرُ مَا كانَ، وجاءهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مكانٍ، فملْنَا لهَذَا الحدَثِ الثَّائرِ (٧)، إلَى إحْدَى الْجزائرِ، لنُريحَ ونستَريحَ، ريثَمَا تُؤاتِي (٨) الرِّيحُ، فتَمادَى اعتِيَاصُ الْمَسِيرِ، حتَّى نفدَ الزَّادُ غيرَ اليَسِيرِ، فقَالَ لِي أَبُو زَيْدٍ: إنَّهُ لنْ يُحرِزَ جَنَى العودِ (٩) بالقُعودِ، فَهَلْ لَكَ فِي استِثارَةِ (١٠) السُّعودِ بالصُّعودِ (١١)؟ فقلْتُ لَهُ: إنِّي لأتبَعُ لَكَ من ظلِّكَ، وأطْوَعُ مِنْ نعلِكَ، فنَهَدْنَا إلَى الْجَزيرَةِ، عَلَى ضُعْفِ الْمَرِيرَةِ (١٢)، لنركُضَ فِي امتِراءِ المِيرَةِ (١٣)، وكلانَا لا يملِكُ فَتيلاً، وَلاَ يهتَدِي فِيهَا سَبيلاً، فأقبَلْنَا نَجوسُ خِلالَهَا، ونَتَفَيَّأُ (١٤) ظِلالَهَا، حتَّى

---

(١) طريقة الهادين.
(٢) ارتفعت.
(٣) صوته الخفيّ.
(٤) الذي لا يدرك قراره.
(٥) ساكن لا تضطرب أمواجه.
(٦) بنجاته وسلامته.
(٧) الأمر الطارئ الهائج.
(٨) توافق.
(٩) ثمرة الأمل.
(١٠) استخراج.
(١١) الطلوع من السفينة.
(١٢) القوّة.
(١٣) لنجدّ في طلب العطاء.
(١٤) نستظل.

أفْضَيْنَا إلَى قصرٍ مَشِيد، لَهُ بابٌ مِنْ حَديد، ودونَهُ زُمرةٌ من عَبيد، فَنَاسَمْنَاهُمْ لنتخذَهُمْ سُلَّمًا إلَى الارتقَاء، وأرشيَةً للاستقاء، فألْفَيْنَا كُلاً منهُمْ كَئيباً حَسيراً (١)، حتَّى خِلْنَاهُ كسيراً أَوْ أَسْيراً، فقُلْنَا: أيتُها الغلْمَةُ، مَا هَذي الغُمَّةُ؟ فَلَمْ يُجيبُوا النِّدَاءَ، وَلاَ فَاهُوا (٢) بِبَيْضَاء (٣) وَلاَ سَوْدَاء (٤)، فَلَمَّا رأيْنَا نَارَهُمْ نَارَ الْحُبَاحِبِ، وخُبرَهُمْ (٥) كسَرابِ السَّبَاسِب (٦)، قُلْنَا: شاهَت (٧) الوُجُوهُ، وقَبُحَ اللُّكَعُ ومَنْ يرجوهُ! فابتَدَرَ خادمٌ قَدْ عَلَتْهُ (٨) كَبْرَةٌ، وَعَرَتْهُ (٩) عَبْرَةٌ، وقَالَ: يَا قَوْمُ لا توسِعونَا (١٠) سَبّاً، وَلاَ توجِعونَا عتْباً، فَإنَّا لَفي حُزنٍ شاملٍ، وشُغْلٍ عَنِ الحْديثِ شاغلٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو زَيْد: نفِّسْ خنَاقَ البَثِّ (١١)، وانفثْ إنْ قدَرْتَ عَلَى النَّفْث (١٢)، فَإنَّكَ ستَجدُ منِّي عرَّافاً كَافيا، ووَصَّافاً شَافيا، فقَالَ لَهُ: اعلَمْ أَنَّ ربّ هَذَا القصرِ هُوَ قُطْبُ هَذه البُقعَة، وشاهُ هَذه الرُقعَة، إلاَّ أنّهُ لَم يخلُ منْ كمَد، لخُلوّه من ولَد، ولَمْ يزَلْ يستكرِمُ الْمغَارسَ، ويتَخيَّرُ منَ الْمفارشِ النَّفَائس، إلَى أَنْ بُشِّرَ بحملِ عقيلَة، وآذَنَتْ (١٣) رقْلَتُهُ (١٤) بفَسيلَة، فنُذِرَتْ له النُّذُورُ، وأُحصِيَتِ الأيامُ والشّهورُ، ولَمَّا حانَ النِّتاجُ (١٥)، وصيغَ الطَّوقُ والتَّاجُ،

---

(١) حزينًا متحسرًا.
(٢) نطقوا.
(٣) كلمة طيبة.
(٤) كلمة رديئة.
(٥) حقيقة أمرهم وباطنه.
(٦) السباسب: جمع سبسب، وهي: الصحراء الواسعة.
(٧) قبحت.
(٨) غشيته.
(٩) اعترته ومسَّته.
(١٠) لا تكثروا سبّنا.
(١١) هوّن شدَّة الحزن.
(١٢) تكلَّم إن أمكنك الكلام.
(١٣) أعلمت.
(١٤) المراد: زوجته.
(١٥) وضع الجنين.

عسُرَ مَخَاضُ الوضْعِ (١)، حتَّى خِيفَ علَى الأصْلِ (٢) والفرْعِ (٣)، فَمَا فينَا مَنْ يعرِفُ قرَاراً، ولاَ يطْعَمُ النّومَ إلا غِراراً، ثُمَّ أجْهَشَ بالبُكاء وأعْولَ، وردّدَ الاسترْجاعَ وطوّلَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو زَيْد: اسْكُنْ يَا هَذَا واستَبْشِرْ، وابْشِرْ بالفَرَجِ وبشّرْ! فعِندي عَزِيمَةُ الطَّلْقِ، الَّتِي انتشَرَ سَمْعُها فِي الْخَلْقِ، فتبادَرَت الغِلْمَةُ إلَى موْلاهُمْ، مُتبَاشِرينَ بانْكشَاف بلْواهُمْ، فَلَمْ يكُنْ إلا كَلا ولاَ حَتَّى برزَ مَنْ هلْمَمَ بِنا (٤) إلَيْه، فَلَمَّا دَخلْنَا علَيْه، ومثَلْنَا (٥) بيْنَ يديْه، قَالَ لأبِي زَيْد: ليَهْنكَ مَنَالُكَ (٦)، إنْ صَدَقَ مقالُكَ، ولَمْ يفِلْ فالُكَ، فاستَحضَرَ قلَمًا مبرِيّاً، وزبَداً بحرِيّاً، وزَعفَرانًا قَدْ دِيفَ (٧)، في مَاء وردٍ نظيف، فَمَا إنْ رجَعَ النفَسُ، حَتَّى أُحْضِرَ مَا التَمَسَ، فَسَجَدَ أَبُو زَيْد وعَفَّرَ (٨)، وسبّحَ واستَغفَرَ، وأبْعَدَ الحَاضرينَ ونفّرَ، ثُمَّ أَخَذَ القلَمَ واسْحَنْفَرَ، وكتبَ علَى الزّبَدِ بالْمُزَعْفَرِ:

أيّهَذا الْجَنِينُ إنِّي نَصِيحٌ
لَكَ والنُّصحُ مِنْ شُرُوطِ الدِّينِ
أنتَ مُستَعْصِمٌ (٩) بكِنٍّ (١٠) كَنِينٍ (١١)
وقَرَارٍ مِنَ السُّكُونِ مَكِينِ
مَا تَرَى فِيهِ مَا يَرُوعُكَ مِنْ إلْـ
ـفٍ مُدَاجٍ (١٢) ولاَ عَدوٍّ مُبِينِ

---

(١) وجع الولادة وهو المعروف بالطَّلْقِ.
(٢) الأم.
(٣) الولد.
(٤) قال لنا: هلمُّوا.
(٥) حضرنا ووقفنا.
(٦) ما تناله من العطاء.
(٧) سُحق.
(٨) قلب خديه في التُّراب.
(٩) متمسك وممتنع.
(١٠) بيت.
(١١) ساتر.
(١٢) أليف منافق.

فـمـتـى مـا بـرزْتَ مِنْـهُ تَحَـوَّلْـ
ـتَ (١) إلـى مـنـزلِ الأذَى
والـهُـونِ وتَراءَى لَـكَ الـشَّـقَـاءُ الَّـذي تـلْـ
ـقَى فَـتَـبْـكِـي لَـهُ بـدَمْعٍ هَـتُـونِ
فَـاسْـتَـدِمْ عَـيْشَـكَ (٢) الـرَّغـيـدَ وحـاذرْ
أن تَـبـيـعَ الْـمَـحـقُـوقَ بـالمظْـنونِ
واحـتَـرِسْ مِـن مُـخـادِعٍ لَـكَ يـرْقِـيـ
ـكَ لـيُـلقِـيـكَ في الـعـذابِ الْـمُـهِـينِ
ولَـعَـمْـري لَقَـدْ نـصَحْـتُ ولـكِـنْ
كَـمْ نَـصِـيحٍ مُـشَـبَّـهٍ بـظَـنـينِ (٣)

ثُمَّ إِنَّهُ طمَسَ الْمكتـوبَ عَلَى غفلَةٍ، وتفلَ عَلَيْه مائَـةَ تَفلَةٍ، وشدّ الزّبَدَ فِي خِرقَةِ حَرِيرٍ، بعـدَمَا ضَمَّخَها (٤) بِعَبيرٍ (٥)، وأَمرَ بِتَعْليقـهَا عَلَى فَخْذ الْـمَاخِضِ (٦)، وأَنْ لا تعْلَقَ بِهَا يَدُ حَائـضٍ، فَلَمْ يكُنْ إلا كَذُواقِ شَارِبٍ، أَوْ فُواقِ حالـبٍ، حَتَّى اندَلَقَ شخْـصُ الولَدِ، لخصّيـصَى الزّبَدِ (٧)، بقُدرَةِ الواحِدِ الصّـمَدِ، فامتـلأ القصرُ حُبـوراً، واستُطيرَ عَـميدُهُ وعَبـيدُهُ سُروراً، وأحاطَت الْـجماعَةُ بـأبي زَيْد تُثْني عَلَـيْهِ، وتُقبّلُ يـدَيْه، وتَتبرَّكُ بِمـسَاسِ طِمْرَيْهِ، حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ الـقَرَنِيُّ أُوَيْسٌ، أوِ الأسَديُّ دُبَيسٌ، ثُمَّ انْثالَ (٨)

---

(١) انتقلت.

(٢) فالزم معيشتك.

(٣) بِمتَّهم.

(٤) لطخها.

(٥) بأخلاط من الطيب.

(٦) التي أخذها المخاض، وهو: الطَّلْق.

(٧) لشدة اختصاصه بذلك.

(٨) تتابع وانصبَّ.

عَلَيْه مِنْ جوائزِ الْـمُجَازاة (١)، ووصَائِلِ الصِّلات، مَا قيَّضَ (٢) لَهُ الغِنَى، وبيَّضَ وَجْهَ الْـمُنَى، ولَمْ يزَلْ ينْتابُهُ (٣) الدَّخْلُ (٤)، مُذْ نُتِجَ السَّخْلُ، إلَى أَنْ أُعطِيَ البحْرُ الأمَانَ، وتسنَّى الإتْمَامُ (٥) إلَى عُمَانَ، فَاكْتَفَى أَبُو زَيْدٍ بالنِّحْلَة، وتأهَّبَ للرِّحلَة، فَلَمْ يسمَحِ الْوَالِي بحَرَكَته (٦)، بَعْدَ تجربَة برَكَته، بلْ أوعزَ (٧) بضَمِّه إلَى خُزانَته، وأَنْ تُطلَقَ يدُهُ فِي خزانَته، قالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ مَالَ إلَى حَيْثُ يكتَسبُ الْـمَالَ، أنْحَيْتُ علَيْه بالتَّعْنيف، وَهَجَّنْتُ لَهُ مُفارَقَةَ الْـمَألَف والأَلِيف (٨)، فَقَالَ إليْكَ عَنِّي، واسْمَعْ مِنِّي:

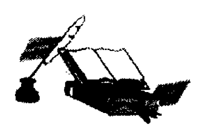
لا تَصْبُوَنَّ (٩) إلَى وطَنْ ... فِيهِ تُضامُ وتُمتَهَنْ (١٠)
وارْحَلْ عَنِ الدَّارِ الَّتِي ... تُعْلِي الوِهَادَ (١١) عَلَى القُنَنْ
واهْرُبْ إلَى كِنٍّ يَقِـي ... ولَوَ انَّهُ حِضْنَا حَضَنْ
وارْبَأْ (١٢) بنَفْسكَ أنْ تُقيـ ... ـمَ بحَيثُ يغْشاكَ الدَّرَنْ (١٣)
وجُبِ البِلادَ فأيُّها ... أرْضَاكَ (١٤) فاخْتَرْهُ وطَنْ
ودَعِ التَّذكُّرَ للمَعَا ... هِدِ والحَنِينَ إلَى السَّكَنْ
واعْلَمْ بأنَّ الحُرَّ فِي ... أوطَانِه يَلْقَى الغَبَنْ
كالدُّرِّ فِي الأصْدافِ يُسْتَـ ... ـزَرَى (١٥) ويُبْخَسُ فِي الثَّمَنْ

---

(١) عطايا المقابلة.
(٢) ما سبب.
(٣) يأتيه نوبة بعد نوبة.
(٤) الرزق الداخل.
(٥) المضي.
(٦) أي: سفره.
(٧) أشار وأمر.
(٨) الصَّاحب.
(٩) تميلنَّ وتشتاقنَّ.
(١٠) تحتقر.
(١١) جمع وهدة، وهي: ما انخفضَ من الأرض.
(١٢) ارفع.
(١٣) الوسخ، وأراد به: الهوان والذُّلّ.
(١٤) أعجبك ورضيت له.
(١٥) يحتقر.

ثُمَّ قَالَ: حسبُكَ مَا استَمَعْتَ، وَحَبَّذا أَنْتَ لَوِ اتَّبَعْتَ (١)! فأوْضَحْتُ لَهُ مَعَاذيري (٢)، وَقُلْتُ لَهُ: كُنْ عَذيري، فعـذَرَ واعتَذَرَ، وَزَوَّدَ حَتَّى لَمْ يذَرْ، ثُمَّ شَيَّـعَني (٣) تشْيـيعَ الأقَارِبِ، إلَى أَنْ رَكِبْـتُ في القَارِبِ، فَودَّعْـتُهُ وَأَنَا أشْكُو الفِراقَ وأذُمُّهُ، وأوَدُّ لَوْ كَانَ هَلَكَ الْـجَنينُ وأُمُّهُ.

۞۞۞



(١) طاوعت.

(٢) أعذاري.

(٣) ودَّعني.

المَقَامَةُ الأرْبَعُون التَّبْرِيزِيَّةُ

أَخْبَرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أزْمَعْتُ التَّبريزَ مِنْ تبريزَ، حِينَ نبَتْ بالذَّليلِ والعَزيزِ، وَخَلَتْ مِنَ الْمُجيرِ (١) وَالْمُجيزِ، فبَيْنَا أنَا فِي إعدادِ الأُهبَة(٢)، وارْتِيادِ الصُحْبَة (٣)، ألْفيتُ بِهَا أَبَا زَيْدٍ السَّروجيَّ مُلتَفًّا بكساءٍ، ومُحْتَفًّا (٤) بنساءٍ، فسألْتُهُ عَنْ خَطْبِهِ (٥)، وإِلَى أَيْنَ يَسْرُبُ (٦) مَعَ سِرْبِهِ؟ فَأَوْمأ إِلَى امْرأَةٍ مِنهنَّ بَاهِرَةِ السُّفُورِ، ظَاهِرَةِ النُّفُورِ، وَقَالَ: تَزوَّجْتُ هَذِه لتؤنسَني فِي الغُرْبَةِ، وترْحَضَ (٧) عَنِّي قَشَفَ العُزْبَةِ، فَلَقِيتُ مِنْهَا عرقَ القِرْبَةِ، تمْطُلُني بحقِّي، وتكلِّفُني فوْقَ طَوْقِي (٨)، فأنَا مِنْهَا نِضْوُ وَجًى، وَحِلْفُ شَجْوٍ (٩) وشَجًى. وَهَا نَحْنُ قَدْ تساعَيْنَا إِلَى الحَاكِمِ، ليَضْرِبَ عَلَى يد الظَّالِمِ، فإنِ انتظَمَ بيْنَنَا الوِفَاقُ، وإلاَّ فَالطَّلَاقُ وَالانطلاقُ (١٠)، قَالَ: فَمِلْتُ إِلَى أَنْ أخبُرَ لِمَنِ الغَلَبُ، وكَيفَ يكُونُ الْمُنقلَبُ، فجعلْتُ شُغْلي دَبْرَ أُذْني، وصحِبتُهُمَا وإنْ كُنتُ لا أُغْني (١١)، فَلَمَّا حَضَرَ الْقَاضِي وكَانَ ممَّن يَرَى فضْلَ الإمْسَاكِ (١٢)، ويضَنُّ بنُفاثَةِ السِّوَاكِ، جَثَا (١٣) أَبُو زَيْدٍ بَيْنَ

---

(١) من الجوار، وهو: الأمان.
(٢) تهيئة حوائج السفر.
(٣) طلب من يصاحبه في السَّفر.
(٤) ومحاطًا حوله.
(٥) أمره وشأنه.
(٦) يذهب ويسير.
(٧) تغسل وتزيل.
(٨) طاقتي.
(٩) ملازم للحزن من سوء عشرتها.
(١٠) الذهاب.
(١١) لا أنفع.
(١٢) البُخْل والشّح.
(١٣) أي: برك.

يدَيْه، وَقَالَ: أيَّدَ اللهُ الْقَاضيَ وأَحْسَنَ إليْه، إنَّ مطيَّتي هَذه أبيَّةُ القِيَاد، كَثيرَةُ الشِّراد، معَ أنِّي أطْوَعُ لَهَا منْ بنَانها [١]، وأحْنَى علَيْهَا منْ جنَانها[٢]. فَقَالَ لَهَا الْقَاضِي: ويْحكِ! أمَا علمْت أنَّ النُّشوزَ [٣] يُغْضبُ الرَّبَّ، وَيُوجِبُ الضَّرْبَ؟ فقَالَتْ: إنَّهُ ممَّن يَدُورُ خَلْفَ الدَّار، ويأخُذُ الجَارَ بالْجَار، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: تبّاً لكَ [٤]! أتبْذُرُ فِي السِّباخِ، وتَستَفرِخُ حيثُ لا إفْراخَ؟ اعزُبْ [٥] عنِّي لا نَعِمَ عوفُكَ، ولاَ أمِنَ خوفُكَ!

فَقَالَ أَبُو زَيْد: إنَّهَا ومُرْسلِ الرِّياحِ، لأكْذَبُ منْ سَجاحِ! فقَالَتْ: بل هُوَ ومَنْ طوّقَ الْحمَامَةَ [٦]، وجَنَّحَ النَّعامَةَ [٧]، لأكْذَبُ من أبي ثُمَامَةَ، حينَ مَخْرَقَ باليمَامَة، فزفَرَ أبُو زَيْد زفيرَ الشُّواظ [٨]، واستَشاطَ استشَاطَةَ الْمُغْتاظ، وقَالَ لها: ويْلَك يَا دفارِ يَا فَجارِ، يَا غُصّةَ البَعْلِ والْجَار! أتَعْمدينَ فِي الْخلوَة لتعْذيبي، وتُبدينَ فِي الْحفْلَة تكْذيبي؟ وَقَدْ علمْت أنِّي حينَ بنَيتُ علَيْك [٩]، ورَنَوْتُ إلَيْك [١٠]، ألفيتُك أقْبحَ من قِرْدَة، وأيْبسَ منْ قِدَّة، وأخْشَنَ من لِيفَة، وأنْتَنَ منْ جيفَة، وأثقَلَ منْ هَيضَة [١١]، وأقْذَرَ منْ حَيضَة، وأبرزَ من قِشْرَة [١٢]، وأبْرَدَ منْ قِرَّة [١٣]، وأحْمَقَ منْ رِجْلَة، وأوسعَ منْ دِجلَة! فستَرْتُ عوارَكِ [١٤]، ولَمْ أُبْدِ عارَكِ [١٥]، علَى أنَّهُ لَوْ

---

(١) أطراف أصابعها.
(٢) قلبها.
(٣) مخالفة الزوج.
(٤) خسراً وهلاكًا.
(٥) أبعد.
(٦) جعل لها طوقًا.
(٧) جعل لها جناحين.
(٨) النَّار بلا دخان.
(٩) ليلة دخولي بك.
(١٠) نظرتك.
(١١) تخمة ينشأ عنها القَيْءُ والإسهال.
(١٢) أنها غير مخدرة.
(١٣) من ليلة باردة.
(١٤) عيبكِ.
(١٥) لم أظهر فضيحتك.

حبَتْكِ شيرينُ بجَمَالِها، وزُبَيدَةُ بمَالِها، وبِلْقيسُ بعَرْشِها، وبُورانُ بفَرْشِها، والزَّبَّاء بِمُلْكِها، وَرابعَةُ بنُسْكِها، وخِنِدفُ بفَخْرِها، والخَنْساءُ بشِعْرِها في صَخْرِها، لأنفْتُ (١) أنْ تكُوني قَعِيدَةَ رَحْلِي (٢)، وطَرُوقَةَ فحْلي! قَالَ: فتذمَّرَت (٣) المْرأةُ وتنمَّرَتْ، وحسَرَتْ عَنْ ساعدِها وشمَّرَتْ، وقَالَتْ لَهُ: يَا ألأمَ مِنْ مَادِرٍ (٤)، وأشْأمَ مِنْ قاشِرٍ، وأجْبَنَ مِنْ صافِرٍ، وأطْيَشَ مِنْ طامِرٍ! أتَرْميني بشَنَارِكَ (٥)، وتَفْرِي (٦) عِرْضِي بشِفَارِكَ (٧)؟ وَأَنْتَ تعْلَمُ أنكَ أحقَرُ مِنْ قُلامَةٍ (٨)، وأعْيَبُ مِنْ بَغْلَةِ أبي دُلامَةَ، وأفضَحُ مِنْ حَبْقَةٍ في حلْقَةٍ، وأحْيَرُ مِنْ بَقّةٍ في حُقّةٍ! وهَبْكَ الْحَسَنَ في وعْظِهِ ولفْظِه، والشّعْبيَّ في عِلْمِه وحِفْظِه، والْخَليلَ في عَروضِه ونحوِه، وجَريراً في غزَلِه(٩) وهجْوِه (١٠)، وقُسّاً في فَصاحَتِه وخِطابَتِه، وَعَبْدَ الْحَميدِ في بَلاغَتِه وكتابَتِه (١١)، وأبا عَمْرٍو في قِراءَتِهِ وإعْرابِه، وابنَ قُرَيبٍ في رِوايَتِه عَنْ أعْرابِه (١٢)، أتظُنّني أرْضاكَ إمَامًا لمِحْرابي، وحُسامًا لِقرابي؟ لا واللهِ وَلاَ بَوَّاباً لبابي، وَلاَ عَصاً لجِرابي! فَقَالَ لهُمَا الْقَاضِي: أراكُمَا شَنّاً وطَبَقةَ، وحِدَأةً وبُنْدُقَةً، فَاتْرُكْ أيُّهَا الرَّجُلُ اللَّدَدَ (١٣)، واسْلُكْ في سيْرِكَ الْجَدَدَ، وأَمَّا أنْتِ فكُفّي عَنْ سِبابِه (١٤)، وَقَرّي (١٥) إذَا أتَى البَيتَ مِنْ بابِه، فَقَالَتِ المْرأةُ: واللهِ مَا

---

(١) لكرهت.
(٢) القعيدة: ما يركب عليه.
(٣) غضبت.
(٤) رجل بخيل لَئيم.
(٥) عارك وعيبك.
(٦) تقطع.
(٧) بكلامك المؤلم.
(٨) ما يُقَصُّ من الظُّفرِ ويُرْمَى.
(٩) الغزل: ذِكْر محاسن المحبوب ومدحه.
(١٠) ذكر قبائح المبغض وذمّه.
(١١) إنشائه.
(١٢) هم أهل البادية.
(١٣) الخصومة الشديدة.
(١٤) سبّه.
(١٥) اسكني.

أَسْجُنُ (١) عنهُ لِسَانِي، إلا إذَا كَسَانِي، ولاَ أرْفَعُ لَهُ شِرَاعِي، دونَ إشْبَاعِي، فحلَفَ أَبُو زيْدٍ بالْـمُحَرِّجَـات الثَّلاث، أنَّهُ لا يملكُ سوَى أطْمَارِه الرِّثَاث (٢)، فنظَرَ الْقَاضِي في قَصَصِهِمَا (٣) نظرَ الألْمعِيِّ، وأفْكرَ فكرَةَ اللّوذَعِيِّ (٤)، ثُمَّ أقبلَ عَلَيْهِمَا بوجْه قَدْ قطّبَهُ، ومجَنٍّ قَدْ قلَبَهُ، وقَالَ: ألَمْ يكفكُمَا التَّسَافُهُ (٥) في مجلسِ الْـحُكْمِ، والإقْدامُ عَلَى هَـذَا الْـجُرْمِ (٦)، حَتَّى تَراقَيـتُمَا منْ فُحْشِ الْـمُقَاذَعَةِ (٧)، إلَى خُبْثِ الْـمُخادعَةِ؟ وايْمُ الله لَقَدْ أخطأت استُكُمَا الْـحُفْـرَةَ، ولَمْ يُصِبْ سَهْمُكُمَـا الثُّغْرَةَ، فإنَّ أمـيرَ المُؤمنينَ، أعزَّ اللهُ بـبقائه الدّينَ، نصبَنِي لأقْضيَ بيْنَ الْـخُـصَمَاء، لا لأقضيَ دَينَ الغُرَمَاء (٨)، وحَقِّ نعمَته الَّتي أحلَّتْني هَذَا الْـمَحَلَّ، وملّكَتْني العَقْدَ والحَلَّ، لَئِنْ لَمْ تُوضِحا لِي جَلِيَّةَ (٩) خَـطْبِكُمَا، وخَبيئَةَ (١٠) خِبِّكُمَا، لأُنَدِّدَنَّ بكُمَا فِي الأمْصَارِ (١١)، ولأجْعلَنّكُمَـا عِبرَةً لأُولِي الأبصارِ! فأطْرَقَ أَبُو زَيْدٍ إطْرَاقَ الـشُجاعِ، ثُمَّ قالَ لَهُ: سَمَاعِ سَمَـاعِ:

أنَـا الـسَّـروجـيُّ وهَـذي عِـرْسِـي (١٢)
ولـيـس كُـفْـؤُ الـبـدْرِ غـيـرَ الـشَّـمْسِ
ومَـا تَـنَـافَـى (١٣) أُنْـسُـهَـا وأُنْـسِـي
وَلاَ تَـنَـاءَى دَيْـرُهَـا عَـنْ قَـسِّـي

(١) ما أكف.
(٢) البالية.
(٣) خبرهما.
(٤) الفطن الذّكيّ الظّريف الحادّ الذّهن.
(٥) الإفحاش والتّشاتم.
(٦) الذّنب.
(٧) المشاتمة.
(٨) جمع غريم، وهو: من عليه الدّين ومن له الدّين معًا.
(٩) حقيقة.
(١٠) ما أخفيتما من خداعكما.
(١١) المدائن.
(١٢) زوجتي.
(١٣) تباعد واختلف.

وَلاَ عَدَتْ (١) سُقْيَايَ أَرْضَ غَرْسي (٢)
لكنَّنَا مُنْذُ لَيَالٍ خَمْسِ
نُصبحُ فِي ثَوبِ الطَّوَى (٣) ونُمْسي
لا نعرِفُ الْمَضْغَ وَلاَ التَّحَسِّي (٤)
حَتَّى كَأَنَّا لِخُفُوت النَّفْس (٥)
أشْبَاحُ (٦) مَوْتَى نُشِرُوا مِنْ رَمْسِ (٧)
فَحِينَ عَزَّ الصَّبْرُ (٨) والتأسِّي
وَشَقَّنَا الضُّرُّ الأليمُ الْمَسّ
قُمْنَا لِسَعْدِ الْجَدِّ (٩) أَوْ للنَّحْسِ (١٠)
هَذَا الْمَقَامَ لاجتِلابِ فَلْسِ
وَالفَقْرُ يُلْحِي الْحُرَّ حِينَ يُرْسِي
إلَى التَّحَلِّي فِي لِبَاسِ اللَّبْسِ
فَهَذِهِ حَالي وَهَذَا دَرْسِي
فانظُرْ إلَى يَومي وَسَلْ عَنْ أمسِي
وأمُرْ بجَبْرِي إنْ تَشَا أَوْ حَبْسِي
فَفِي يَدَيْكَ صِحَّتِي (١١) ونُكْسي (١٢)

---

(١) تجاوزت.
(٢) محلّ الولد.
(٣) الجوع.
(٤) الأكل والشّرب.
(٥) ضعفها من شدَّة الجوع.
(٦) أجساد.
(٧) خرجوا من قبر.
(٨) قلّ.
(٩) الحظ والبخت.
(١٠) للخَيْبَة والحِرْمَان.
(١١) شفائي من المرض.
(١٢) خَيْبَتي.

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: لِيَثُبْ أُنسُكَ، ولْتَطِبْ نَفْسُكَ، فَقَدْ حقّ لَكَ أَنْ تُغفَرَ خَطِيّتُكَ، وتُوَفَّرَ عطِيّتُكَ، فثارَتِ الزّوجَةُ عِنْدَ ذلك واستَطالَتْ، وأشارَتْ إلَى الحْاضِرينَ وقَالَتْ:

يا أهلَ تبريزَ لكُمْ حاكِمٌ ... أوْفَى عَلَى الحُكّامِ تبْريزا (١)
مَا فيه من عيْبٍ سوَى أنهُ ... يومَ النّدَى قِسْمَتُهُ ضِيزَى
قَصَدْتُهُ والشَّيْخُ نَبْغي جَنَى ... عودٍ لَهُ مَا زال مهْزوزا (٢)
فسَرّحَ الشَّيْخَ (٣) وَقَدْ نَالَ مِنْ ... جَدْوَاهُ (٤) تخْصيصاً وتَمْييزا
وردَّني أخْيَبَ مِنْ شائمٍ (٥) ... بَرْقاً خَفا في شهْرِ تَمُّوزا
كَأنَّهُ لَمْ يدْرِ أَنّي الَّتي ... لَقَّنْتُ ذَا الشَّيخَ الأرَاجيزَا
وأنّني إنْ شِئْتُ غَادَرْتُهُ (٦) ... أُضْحوكَةً في أَهْلِ تَبْريزا

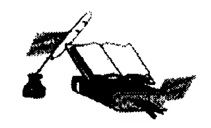
قَالَ: فَلَمَّا رأَى الْقَاضِي اجْتراء جَنَانِهِمَا (٧)، وانصلاتَ لِسَانِهِمَا، عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ مُنِيَ (٨) منهُمَا بالدَّاءِ العَياء، والدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ (٩)، وأَنَّهُ مَتَى مَنَحَ أَحَدَ الزَّوجَيْنِ، وصرَفَ الآخرَ صفْرَ اليَدَيْنِ، كَانَ كمَنْ قضَى الدّيْنَ بالدَّيْنِ، أَوْ صَلَّى الْمغرِبَ ركْعتَيْنِ، فطَلْسَمَ وطرْسَمَ، واخرَنْطَمَ وبرْطَمَ، وهمْهَمَ وغمْغَمَ، ثُمَّ التفَتَ يَمنَةً وشَامَةً (١٠)، وتَمَلْمَلَ (١١) كَآبَةً ونَدامةً (١٢)، وَأَخَذَ يَذُمُّ الْقَضَاءَ ومَتاعِبَهُ، ويَعُدّ شَوائِبَهُ ونَوائِبَهُ (١٣)، ويفَنِّدُ طالِبَهُ

---

(١) ظهورًا وسبقًا.
(٢) مقصودًا يقصده كل أحد ويهزه لينال من ثمره.
(٣) أرْضَاهُ.
(٤) عطيَّته.
(٥) ناظر.
(٦) تركته.
(٧) قوَّة قلبها.
(٨) ابْتُلِيَ.
(٩) المصيبة العظمى الشديدة الدَّهَاء.
(١٠) يمينًا وشمالاً، أو جهة اليَمَن وجهة الشَّام.
(١١) اضطرب.
(١٢) حسرة.
(١٣) مصائبه.

وخاطِبَهُ (١)، ثُمَّ تنفس كَمَا يتنفَّسُ الْحَريبُ (٢)، وانتَحَبَ (٣) حَتَّى كادَ يفضَحُهُ النّحيبُ، وقَالَ: إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عجيبٌ، أأُرْشَقُ (٤) فِي موقفٍ بِسَهْمَيْنِ، أأُلزَمُ فِي قَضيَّةٍ بِمَغْرَمَينِ، أأُطيقُ أَنْ أُرضيَ الخَصْمَين، ومنْ أَيْنَ ومِنْ أينَ؟ ثُمَّ عطَفَ إِلَى حاجِبه الْمُنفذِ لِمَآربِه، وقَالَ: مَا هَذَا يومُ حُكْمٍ وقَضاء، وفصْلٍ وإمْضاء (٥)! هَذَا يَوْمُ الاعتِمَام، هَذَا يومُ الاغتِرامِ، هَذَا يومُ البُحْرانِ، هَذَا يومُ الْخُسْرانِ (٦)، هَذَا يومٌ عصيبٌ، هَذَا يومٌ نُصابُ فيهِ ولاَ نُصيبُ! فأرِحْني منْ هَذَينِ الْمِهذَارَيْنِ، واقطَعْ لِسَانَهُمَا بدينارَينِ، ثُمَّ فَرِّقَ الأصْحَابَ، وأغْلِقِ البَابَ، وأشِعْ أَنَّهُ يومٌ مذْمومٌ، وأنَّ الْقَاضِيَ فيهِ مَهْمُومٌ، لِئَلاَّ يحْضُرَني خُصومٌ! قَالَ: فأمَّنَ الْحَاجِبُ عَلَى دُعَائِه، وتَبَاكَى لِبُكَائِه، ثُمَّ نقَدَ أَبَا زَيْدٍ وعِرْسَهُ الْمِثْقالَين، وقَالَ: أشْهَدُ أَنَّكُمَا لأحْيَلُ الثَّقَلَين (٧)، لكِنِ احْتَرِمَا مجَالِسَ الْحُكَّامِ، واجتَنبا فِيهَا فُحْشَ الكَلامِ، فَمَا كُلُّ قَاضٍ قَاضِيَ تبريزَ، ولاَ كُلَّ وقتٍ تُسمَعُ الأراجيزُ، فَقَالاَ لَهُ: مثلُك مَنْ حجَبَ، وشُكْرُكَ قَدْ وجَبَ (٨)، ونهَضَا وقَدْ حظِيَا بِدينَارَينِ، وأصْلَيَا (٩) قَلْبَ الْقَاضِي نارَينِ (١٠).

✧✧✧



---

(١) قاصده.

(٢) المحروب الَّذي سُلِبَ ماله بالحرب.

(٣) بكى بصوتٍ.

(٤) أأُرْمَى.

(٥) تنفيذ حكم.

(٦) الخسارة.

(٧) الثَّقَلَيْنِ: هما الإنس والجنّ.

(٨) لما فعلته معناه من المعروف.

(٩) أحرقا.

(١٠) أي: لكلِّ دينار نار.

تفسير مَا أُودعَ هَذه الْمَقَامَةُ
منَ الألفَاظ اللُّغَوِيَّة والأمثَال العَرَبيَّة

قَوْلُهُ: (لقيت منْهَا عرق القربة) هَذَا مثل يضرب لمن يلقَى شدة من الأمر الَّذِي يزاوله كَمَا أَنْ حامل القربة يلقي جهداً حَتَّى يعرق، وقَوْلُهُ: (جعلته دبر أذني) يعني طرحته وهو كقوله تعالَى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقَوْلُهُ: (أكذب من سجاح) يعني الَّتِي تنبأت فِي عهد مسيلمة الكذاب وسارت إليه لتناظره وتختبره ثُمَّ آمنت به ووهبت نَفْسها له، وَهَذَا الاسم مبني عَلَى الكسر مثل حذام وقطام لكونه من الأسمَاء الْمعدولة واشتقاقه من السجاحة وهي السهولة ومنه قولهم: ملكت فاسجح.

وقولها: (أكذب من أبي ثمَامة) هذه كنية مسيلمة الكذاب وكَانَ تنبأ باليمَامة ومخرق بِهَا إلَى أَنْ سار إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه فقتله.

وقوله: (لا نعم عوفك) العوف الْحَال والعوف أيضاً الذكر ويدعي للباني عَلَى أهله فيُقَالُ له: نعم عوفك.

وقوله: (يا دفار يَا فجار) هذان الاسمَان معدولان عن دافرة وفاجرة والدفر النتن وبه سميت الدنيا أم دفر وكل مَا سمي بصفة غالبة ثُمَّ عدل بِهَا إلَى فعال بني عَلَى الكسر عند النداء كقولك: يَا لكاع يَا خباث يَا دفار يَا فجار ولاَ يجوز استعمَال ذلك فِي غير النداء إلا فِي ضرورة الشعر كقول الْحطيئة:

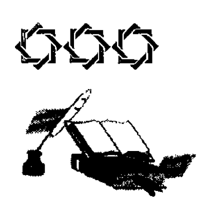
أطوف مَا أطوف ثُمَّ آوي ... إلَى بيت قعيدته لكاع

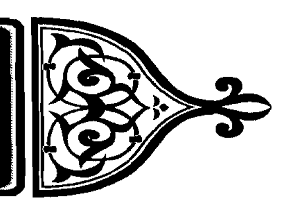
وإمَا قوله: (أحمق من رجلة) فهي ضرب من الحْمض تنبت فِي مجاري السيل فيجترفها، وإمَا قولها (الأم من مَادر) فهو رجل من بني هلال بن عامر كَانَ اتخذ حوضاً لسقي إبله فَلَمَّا رويت سلح فيه ومدره بسلحه لئلا ينتفع به من بعده، وإمَا قولها (أشأم من قاشر) فإنه فحل كَانَ فِي بَعْضِ قبائل سعد بن زيد مناة بن تميم مَا طرق إبلاً إلا مَاتت وقيل الْمراد به العام المجْدب وسمي قاشراً لقشره مَا عَلَى وجه الأرض من النبات، وأمَا قولها: (أجبن من صافر) فَقَد اختلف فِي تفسيره فَقَالَ بَعْضهُمْ: عَنِّي به كُل مَا يصفر من الطير وخص بالجبن لكثرة مَا يتقيه من جوارح الجْو ومصايد الأرض وَقِيلَ: إنَّهُ طائر بعينه إذَا جنه اللَّيْل تعلق ببَعْض الأغصان ولَمْ يزل يصفر طول ليلته خوفاً عَلَى نَفْسه من أَنْ ينام فيؤخذ وَقِيلَ: إنَّهُ الَّذِي يصفر بالْمرأة لريبة وهو يجبن وقت صفيره مخافة أَنْ يظهر عَلَى أمره وقيل: إنْ الْمراد به الْمثل الْمصفور به وهو الَّذِي ينذر بالصفير ليهرب. فعلَى هَذَا القول فاعل هنَا بمعنَى مفعول كقوله تعالَى: ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ مدفوق وكقولهم راحلة بمعنَى مرحولة وهو كثير فِي كلامهم وَقَدْ جاء مفعول بمعنَى فاعل كقوله تعالَى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي ساتراً وكقوله تعالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، وأمَا قولها (اطيش من طامر) فالْمراد به البرغوث ويسمَى طامر بن طامر لكثرة وثوبه، وأمَا قول الْقَاضِي (أراكمَا شنا وطبقة وحدأة وبندقة) فإنه أراد به أَنْ كُلاً منكمَا كفء، لصاحبه ومقاوم له ولكل من الْمثلين تفسير مختلف فيه.
أمَا شن وطبقة فإن العلمَاء مختلفون فِي معنَى قولهم وافق شن طبقة فَقَالَ الأكثرون: إنهمَا قبيلتان فشن هو ابن أفصَى بن دعمي بن جديلة بن أَسْد بن ربيعة بن نزار وطبقة حي من إياد وكانت طبقة لا تطاق فأوقعت بهَا شن فانتصفت منها، وقَالَ بَعْضهُمْ كَانَ شن رجلاً من دهاة العرب وَكَانَ ألزم

نَفْسه أَنْ لا يتزوج إلا بامرأة تلائمه فكان يجوب البلاد فِي ارتياد طلبته فصاحبه رجل فِي بَعْضِ أَسْفاره، فَلَمَّا أخذ منهمَا السير قَالَ له شن أتحملني أم أحملك فَقَالَ له الرجل يَا جاهل وَهَل يحمل الراكب الراكب فأمسك وسارا حَتَّى أتيا عَلَى زرع فَقَالَ له شن أترَى هَذَا الزرع أكل أم لا فَقَالَ له يَا جاهل أمَا تراه فِي سنبله فأمسك إلَى أَنْ اسْتقبلتهمَا جنَازة فَقَالَ له شن أترَى صاحبها حياً أم لا فَقَالَ له مَا رَأَيْت أجهل منك أتراهم حملوا إلَى القبر حيا ثُمَّ أنهمَا وصلا إلَى قرية الرجل فصار به إلَى منزله وكانت له بنت تسمَى طبقة فأخذ يطرفها بحديث رفيقه فَقَالَت له مَا نطق إلا بالصواب وَلاَ اسْتفهمك إلا عمَا يستفهم عن مثله ذوو الألباب، أمَا قوله: أتحملني أم أحملك فإنه أراد أتحدثني أم أحدثك حَتَّى نقطع الطريق بالحديث، وأمَا قوله أترَى هَذَا الزرع أكل أم لا فإنه أراد هل استسلف أربابه ثمنه أم لا، وأمَا اسْتفهامه عن حياة صاحب الجنَازة فإنه أراد به أخلف عقباً يحيَى ذكره به أم لا، فَلَمَّا خرج إلَى الرجل حدثه بتأويل ابنته كلامه فخطبها إليه فزوجه إياها فَلَمَّا سار بِهَا إلَى قومه وخبروا مَا فِيهَا من الدهاء والفطنة قالوا وافق شن طبقة فسار مثلاً، وحكي أَنْ الأصمعي سئل عن تفسير هَذَا المْثل فَقَالَ أظن الشن وعاء من أدم كَانَ قَدْ اسْتشن فَلَمَّا اتخذ له غطاء وافقه ضرب فيه هَذَا المْثل. وأمَا حدأة وبندقة فَإِنَّهُ يُقَالُ في المثل المضروب لمن يفزع بعدوِّه أو يُبْلَى بنظيره حدَاَ حدَاَ وراءَكَ بندقة. وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء فرخم في النداء. وقد اختُلِفَ في المراد بهما فقيل: الحدأة هو الطائر المعروف، وبندقة: الرامي، وقيل: إنَّهما قبيلتان من سعد العشيرة، فأغارت حدأة وكانت تنزل بالكوفة، على بندقة وكانت تنزل باليمن، فنالت منهم ثم كرّت بندقة على حدأة فأنحت عليهم. وروى بعضهم هذا المثل حداَ حداَ غير

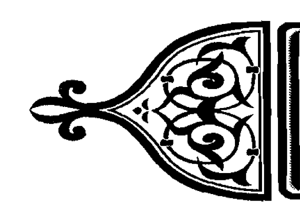
مهموز على مثال عَصًا وَقَفًا. وزعم أنه اسم القبيلة.

وأمَّا قوله: «أخطأت استكما الحفرة» فـإنه يضرب لمن يخطئُ في مقصده ويضع الشيءَ في غير موضعه. وأمَّا قوله: «طلسم وطرسم» فمعنى «طلسم»: كرَّه وجهه، ومعنى «طرسم»: أطرق، وقوله: «اخرَنْطَمَ وبرطمَ»؛ أي: غضب وقطب وجهه، وقيل: معنى «اخرنطم»: غضب مع تكبّر، ومعنى «برطم»: غضب مع تعبّس، وأمَّا قوله: «همهم وغمغم»؛ أي: لم يبيِّنْ الكلام.





المَقَامَةُ الحَادِيَةُ والأَرْبَعُونَ التِّنِّيسِيَّةُ



حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَطَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي، فِي غُلَوَاءِ شَبَابِي[(١)]، فَلَمْ أَزَلْ زِيراً لِلْغِيدِ، وأُذُنًا للأَغَارِيدِ[(٢)]، إِلَى أَنْ وَافَى النَّذِيرُ[(٣)]، وولَّى العيشُ النَّضيرُ[(٤)]، فقَرِمْتُ[(٥)] إِلَى رُشْدِ الانتباه، وندمْتُ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي كَسْعِ الْهَنَاتِ بالْحَسَنَاتِ[(٦)]، وتلافِي الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الفَوَاتِ[(٧)]، فملْتُ عَنْ مُغَادَاةِ الغَادَاتِ، إِلَى مُلاقَاةِ التُّقَاةِ[(٨)]، وَعَنْ مُقَانَاةِ القَيْنَاتِ[(٩)]، إِلَى مُدَانَاةِ[(١٠)] أَهْلِ الدِّيانَاتِ، وآلَيْتُ أَنْ لا أَصْحَبَ إلا مَنْ نزَعَ عَنِ الغَيِّ، وَفَاءَ منشَرُهُ إِلَى الطَّيِّ، وإِنْ أَلْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ، مَدِيدُ الوَسَنِ[(١١)]، أَنْأَيْتُ دَارِي[(١٢)] عن دارِهِ، وفرَرْتُ عَنْ عَرِّهِ وعارِهِ، فَلَمَّا أَلقَتني الغُرْبَةُ بتِنِّيسَ، وأحَلَّتني مسجِدَهَا الأَنِيسَ، رَأَيْتُ بِهِ ذَا حَلْقَةٍ[(١٣)] مُلْتَحِمَةٍ[(١٤)]، ونظَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ، وَهُوَ يَقُولُ بِجَأْشٍ

---

(١) أوّله.
(٢) دائم السماع والاستماع.
(٣) أتى المنذر، والمراد به: الشَّيْب.
(٤) المعيشة الناعمة. وهي: أيام الشبيبة.
(٥) اشتهيت واشتقت.
(٦) أراد: اتبعت الحسنات خلف السيِّئات.
(٧) تدارك الزلات قبل فواتها بالموت.
(٨) هم العلماء العاملون.
(٩) جمع القينة، وهي: الأمة الحسناء المغنية.
(١٠) مقاربة.
(١١) طويل النوم كناية عن شدَّة الغفلة.
(١٢) أبعدتها.
(١٣) صاحب جمع من الناس محتاطين به.
(١٤) ملتصقة.

مكينٍ ولسانٍ مُبِينٍ: مسكينٌ ابنُ آدمَ وأيُّ مسكينٍ، رَكَنَ من الدُّنْيَا إلَى غيرِ رَكينٍ، واستَعصَمَ منْهَا بغيرِ مكينٍ (١)، وذُبِحَ من حُبّهَا بغيرِ سكّينٍ، يَكْلَفُ(٢) بِهَا لغَبَاوَته (٣)، ويكْلَبُ عَلَيْهَا لشَقَاوَته، ويعْتَدُّ فِيهَا لمُفَاخَرَته، ولاَ يتزوّدُ منْهَا لآخِرَته، أُقسمُ بِمَنْ مرجَ البَحرَينِ، ونَوَّرَ القَمَرَينِ (٤)، ورفَعَ قَدْرَ الحْجرَيْنِ، لَوْ عقَلَ ابنُ آدَمَ، لمَا نَادَمَ (٥)، ولَوْ فكَّرَ فِيمَا قدّمَ، لبكَى الدَّمَ، ولَوْ ذكَرَ الْمُكافاةَ (٦)، لاستَدْرَكَ مَا فَاتَ، ولَوْ نظَرَ فِي المْآلِ (٧)، لحسَّنَ قُبْحَ الأعْمَالِ، يَا عجَباً كُلَّ العجَبِ، لِمَنْ يقتَحِمُ ذاتَ اللَّهَبِ، فِي اكْتنَازِ الذَّهَبِ، وخزْنِ النَّشَبِ (٨) لذوي النَّسَبِ، ثُمَّ مِنَ البِدْعِ (٩) العَجِيبِ، أَنْ يعظَكَ وخْطُ المْشيبِ، وتؤذنُ شمسُكَ بالْمَغيبِ، ولستَ ترَى أَنْ تُنيبَ(١٠)، وتُهَذِّبَ الْمعيبَ، ثُمَّ اندفَعَ يُنشدُ، إنشَادَ مِنْ يُرْشدُ:

يَا ويْحَ مَنْ أنْذرَهُ شَيْبُهُ
وهوَ عَلَى غَيِّ الصِّبَا منكَمِشْ (١١)
يَعْشُو (١٢) إلَى نَارِ الْهَوَى (١٣) بعْدَمَا
أصبَحَ من ضُعْفِ القُوَى يرتَعِش (١٤)
ويمْتَطِي اللهْوَ ويعْتَدُّهُ (١٥)
أوْطأ مَا يَفْتَرِشُ الْمُفْتَرِشْ

(١) بغير ذي مكانة، وهو ما لا دَوَامَ له.
(٢) يتولع ويتشبث بها.
(٣) لجهله وحمقه.
(٤) الشمس والقمر.
(٥) من المنادمة وهي: المحادثة على الشّراب.
(٦) المجازاة على الذنب يوم القيامة.
(٧) ما يؤول إليه أمره.
(٨) ادّخار المال.
(٩) الشيء المبتدع وكل شيء لم يسبق مثله.
(١٠) ترجع عما أنت فيه.
(١١) مُسْرع وماضٍ في أموره على فعل.
(١٢) ينظر ويقصد.
(١٣) شهوات النَّفْس.
(١٤) يضطرب.
(١٥) يعده.

لَـمْ يـهَـبِ الـشَّـيـبَ الَّذي مَـا رأى
نُـجُـومَـهُ ذُو الـلُّـبِّ إلا دُهِـشْ (١)
وَلاَ انـتـهَـى عـمَّـا نَـهَـاهُ الـنُّـهَـى
عـنـهُ وَلاَ بـالَـى بـعِـرْضٍ خُـدِشْ
فـذاكَ إنْ مَـاتَ فَـسُـحْـقـاً لَـهُ
وإن يـعِـشْ عُـدّ كَـأنْ لَـمْ يـعِـشْ
لا خـيْـرَ فِي مَـحْـيـا امـرئٍ نشْـرهُ (٢)
كـنَـشْـرِ مـيْـتٍ (٣) بَـعْـدَ عـشْـرٍ نُـبِشْ (٤)
وحَـبَّـذا مَـن عِـرضُـهُ طَـيِّـبٌ
يَـروقُ حُـسْـنًـا مِـثـلَ بُـرْدٍ رُقِـشْ
فـقُـلْ لمَـن قَـدْ شَـاكَـهُ ذنـبُـهُ
هـلَـكْـتَ يَا مـسـكِـينُ أَوْ تـنـتَـقِـشْ
فـأخْـلِـصِ الـتَّـوبَـةَ تـطـمسْ بِهَـا (٥)
مـنَ الْـخَطَـايَا الـسُّـود (٦) مَـا قَـدْ نُقِشْ (٧)
وعَـاشِـرِ الـنَّـاسَ بـخُـلُـق رضًـى (٨)
ودارِ مَـنْ طَـاشَ ومَـنْ لَـمْ يـطِـشْ
ورِشْ جَـنَـاحَ الْـحُـرِّ إنْ حَـصَّـهُ
زمَـانُـهُ لا كَـانَ مِـنْ لَـمْ يـرِشْ

(١) تحيَّر عقله.
(٢) رائحته، ويعني بها سيرته.
(٣) كرائحة الميت بعد مضي عشرة أيام.
(٤) أخرج من قبره فإنه يكون أنْتَن.
(٥) تمحُ بها.
(٦) الذنوب المظلمة القبيحة.
(٧) كتب في صحيفتك.
(٨) بطبع مرضيّ.

وأنجِدِ المْوتورَ ظُلمًا فإنْ
عجزْتَ عن إنْجاده فاستجِشْ
وانعَشْ (١) إذا ناداكَ ذُو كَبْوَة (٢)
عساكَ في الْحَشْرِ به تنتَعِشْ
وهاكَ كأسَ النُصْحِ فاشرَبْ وجُدْ
بِفَضْلَةِ الكأسِ عَلَى مَنْ عطِشْ

قَالَ: فَلَمَّا فرَغَ من مُبكياته (٣)، وقضَى إنشادَ أبياته، نَهَضَ صَبيٌّ قَدْ شَدَنَ، وأعْرَى البَدَنَ، وقَالَ: يَا ذَوي الْحَصَاة (٤)، والإنْصَات (٥) إلَى الوصاة (٦)، قَدْ وعَيْتُمُ الإنشادَ، وفقهتُمُ الإرْشَادَ، فَمَنْ نَوى منكُمْ أَنْ يقبَلَ، ويُصْلحَ الْمُستَقبَلَ، فلْيُبِنْ ببِرِّي عَنْ نِيَّته، ولاَ يَعْدِلْ عَنِّي بعَطيّته، فوالذي يعلَمُ الأسرارَ، ويغفرُ الإصْرارَ (٧)، إنَّ سرِّي لَكَمَا تَرَوْنَ، وإنّ وجهي ليَستَوجبُ الصَّوْنَ (٨)، فَأَعِينُوني رُزِقْتُمُ العونَ. قَالَ: فأخذَ الشَّيْخُ فيمَا يعطفُ عَلَيْه القُلوبَ، ويُسَنِّي (٩) لَهُ الْمَطْلوبَ، حَتَّى أَنْبَطَ حَفرُهُ، واعْشَوشَبَ قَفْرُهُ (١٠)، فَلَمَّا أَنْ ترِعَ الكيسُ (١١) انصَلَتَ (١٢) يَميسُ (١٣)، ويَحْمَدُ تِنِّيسَ، ولَمْ يحْلُ لِلشَّيْخِ الْمُقَامُ، بعْدَمَا انْصَاعَ الغُلامُ، فاستَرْفَعَ الأيْدي

---

(١) وارفع.
(٢) صاحب عثرة وسقطة.
(٣) مواعظه المبكية.
(٤) يا أهل العقول والرزانة والحكم.
(٥) السكوت والاستماع.
(٦) الوصيَّة.
(٧) التَّمادي على الذنوب والمداومة عليه.
(٨) الصيانة وعدم البذل.
(٩) يسهل.
(١٠) نبت فيه العشب وأخصب.
(١١) امتلأ جدًا.
(١٢) مضى مُسْرِعًا.
(١٣) يتمايل من فرحه.

بالدُّعَاء، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الانكفَاء.

قَالَ الرَّاوِي: فارتَحْتُ إلَى أَنْ أعجُمَهُ (١)، وأحُلَّ مُترجَمَهُ، فتَبعتُهُ وهو يشتَدّ فِي سمْتِه، ولاَ يفْتُقُ رتْقَ صمته، فَلَمَّا أمِنَ الْمُفَاجيَ (٢)، وأمكَنَ التَّنَاجي، لَفَتَ جيدَهُ إِلَيَّ، وسلَّمَ تَسْليمَ البَشَاشَةِ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: أراقَكَ ذكاءُ ذاكَ الشُّوَيْدنِ؟

فقُلْتُ: إي والمُؤمِنِ الْمُهَيمِنِ! قَالَ: إِنَّهُ فتَى السَّروجيّ، ومُخرِجِ الدُّرّ مِنَ اللُّجِّيِّ! فَقلْتُ: أشهَدُ إنَّكَ لَشَجَرَةُ ثمرَتِه، وَشُوَاظُ (٣) شررَتِه، فَصَدَّقَ كَهَانَتِي، وَاسْتَحْسَنَ إبانَتي، ثُمَّ قَالَ: هل لَكَ فِي ابتدارِ الْبَيْت (٤)، لنتنازَعَ(٥) كأسَ الكُمَيْت؟ فَقُلْتُ لَهُ: ويْحَكَ أتأمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنسَوْنَ أنْفُسكُمْ؟ فَافْتَرَّ (٦) افترارَ مُتَضَاحِك، وَمَرَّ غيرَ مُمَاحِكٍ، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ تَراجَعَ(٧) إِلَيَّ، وَقَالَ: احفَظْها عَنِّي وعليّ:

اصْرِفْ بصرْفِ الرّاحِ عنكَ الأسَى ... وروِّحِ القلْبَ (٨) ولاَ تكتَئِبْ (٩)
وقلْ لِمَنْ لامَكَ فِي مَا بِهِ ... تدفَعُ عنكَ الْهمّ قَدْكَ اتَّئِبْ

ثُمَّ قَالَ: أمَا أَنَا فَسأَنطَلِقُ إِلَى حيثُ أصطَبِحُ وأغْتَبِقُ، وَإذَا كُنتَ لاَ تَصْحَبُ، وَلاَ تُلائِمُ (١٠) مَن يطرَبُ، فَلَسْتَ لِي بِرَفِيق، ولاَ طَرِيقُكَ لِي بِطَرِيقٍ، فخَلِّ سَبِيلي ونَكِّبْ (١١)، ولاَ تُنقّرْ عَنِّي وَلاَ تُنقّبْ، ثُمَّ ولَّى

(١) أختبره لأعرف من هو.
(٢) لم يخفْ من أحد يأتيه بغْتَةً.
(٣) هي نار محضة لا دخان بها.
(٤) تبادر بالذهاب إلى بيتي.
(٥) لنتعاطى.
(٦) فتح شفتيه مبتسمًا.
(٧) قرب مني.
(٨) أرِحْهُ ونَفِّسْ عنه.
(٩) لا تتلبس بالكآبة وهي: الحزن.
(١٠) لا توافق.
(١١) انحرف وتَبَاعَد.

مُدْبِراً (١) ولَمْ يُعَقِّبْ (٢).

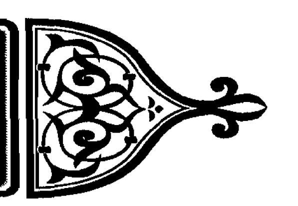
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فالْتَهَبْتُ وجْداً عِنْدَ انطِلاقِهِ، ووَدِدْتُ لَوْ لَمْ أُلاقِهِ.

۞۞۞

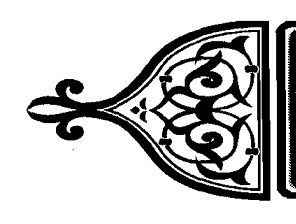


(١) ذهب وتركني خلفه.

(٢) لم يعد راجعًا.



الْمَقَامَةُ الثَّانِيَةُ والأرْبَعُونَ
النَّجْرانيّةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: تَرامتْ بِي مَرامي النّوَى، ومسَاري (١) الْهوَى، إلَى أنْ صِرْتُ ابنَ كُلِّ تُربَةٍ (٢)، وأخا كُلّ غُربةٍ، إلا أنّي لَمْ أكُنْ أقطَعُ واديًا، ولاَ أشهَدُ ناديًا، إلا لاقْتباسِ الأدَبِ (٣) الْمُسْلي (٤) عَنِ الأشْجَانِ (٥)، الْمُغْلي قيمَةَ الإنسانِ، حَتَّى عُرِفَتْ لِي هَذه الشِّنْشِنَةُ (٦)، وتنَاقلَتْها عنِّي الألْسنَةُ، وصارتْ أعْلَقَ بِي مِنَ الْهوَى ببَني عُذْرَةَ، والشّجاعَةِ بآلِ أبي صُفرَةَ، فَلَمَّا ألْقَيتُ الجِرَانَ بنَجْرانَ، واصطَفَيتُ بِهَا الْخُلاّنَ والجيرانَ، تخذْتُ أنديَتَها مُعتَمَري (٧)، وموسِمَ فُكاهَتِي وسمَري، فكنْتُ أتعهّدُها (٨) صَباحَ مساء، وأظهَرُ فِيهَا عَلَى مَا سرّ وساء، فبَينَمَا أنَا فِي نَادٍ محْشودٍ (٩)، ومحْفِلٍ مشْهودٍ، إذْ جثَمَ لدَيْنَا همٌّ، علَيه هدْمٌ، فحَيَّا تحيَّةَ ملِقٍ، بلِسانٍ ذلِقٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا بُدورَ الْمَحَافِلِ، وبُحورَ النَّوافِلِ (١٠)، قَدْ بيّنَ الصُّبْحُ لِذي عيْنَينِ، ونَابَ العيانُ منَابَ عدْلَينِ، فَمَاذَا ترَوْنَ، فِي مَا ترَوْنَ؟ أتُحسِنونَ العوْنَ، أم تنْأوْنَ (١١) إذْ تُدعَوْنَ؟ فَقَالُوا: تالله لقَدْ غظْتَ (١٢)، ورُمْتَ أنْ تُنبِطَ فَغِضْتَ، فناشَدَهُمُ اللهَ عمَّاذا صدَّهُمْ، حَتَّى استَوجَبَ ردَّهُمْ؟ فَقَالُوا:

---

(١) جمع المسرى، وهو المذهب.
(٢) أنسب لكل بلدة.
(٣) لاستفادته.
(٤) الملهي والمشغل.
(٥) عن الأحزان.
(٦) العادة والطبيعة.
(٧) موضع زيارتي.
(٨) أقصدها مواظبًا.
(٩) مزدحم.
(١٠) جمع النافلة، بمعنى: العطيّة.
(١١) تبعدون وتتأخرون.
(١٢) أغضبت.

كُنَّا نتَنَاضَلُ بالألْغَازِ، كَمَا يُتَنَاضَلُ يومَ البِرازِ، فَمَا تَمَالَكَ أَنْ شَعَّثَ منَ الْمَنْضولِ، وألْحَقَ هَذَا الفَضْلَ بنمَطِ (١) الفُضُولِ، فلَسَنَتْهُ لُسْنُ القومِ، ووَخَزوهُ (٢) بِأَسِنَّةِ اللَّوْمِ، وأخذَ هُوَ يتنصَّلُ من هَفوتِهِ، ويتندّمُ عَلَى فَوْهَتِه، وهُمْ مُضِبُّونَ (٣) عَلَى مُؤَاخَذَتِه، ومُلَبُّونَ داعيَ مُنَابَذَتِه، إِلَى أَنْ قالَ لَهُمْ: يَا قومِ إِنَّ الاحْتِمَالَ مِنْ كرَمِ الطَّبْعِ، فعَدّوا عَنِ اللّذْعِ والقَذْعِ، ثُمَّ هلُمّ إِلَى أَنْ نُلغِزَ، ونُحكِّمَ الْمُبرِّزَ، فسكَنَ عِنْدَ ذلك توقُّدُهُمْ (٤)، وانحلّتْ عُقَدُهُمْ (٥)، ورَضُوا بِمَا شَرَطَ عليهِمْ ولَهُمْ، واقتَرَحُوا أَنْ يكُونَ أوّلَهُمْ، فأمْسَكَ رَيْثَمَا يُعقَدُ شِسعٌ (٦)، أَوْ يُشَدّ نِسْعٌ، ثُمَّ قَالَ: اسْمَعوا وُقِيتُمُ الطَّيْشَ (٧)، ومُلّيتُمُ العَيْشَ (٨)، وأَنْشَدَ مُلغِزاً فِي مروَحَةِ الخَيْشِ:

وجارِيَةٍ فِي سَيرِها مُشمَعِلَّةٍ (٩) ... ولكِنْ عَلَى إِثْرِ الْمَسيرِ قُفُولُها (١٠)
لهَا سائقٌ مِن جنسِها يستَحِثُّهَا ... عَلَى أَنَّهُ فِي الإحْتِثَاثِ رَسِيلُها
تُرَى فِي أَوانِ القَيظِ (١١) تنطُفُ بالنَّدَى ... ويَبدو إِذَا وَلَّى الْمَصيفُ قُحولُها (١٢)

ثُمَّ قَالَ: وهاكُمْ يَا أُولِي الفَضْلِ، ومَرَاكِزَ العقْلِ، وأنشَدَ مُلغِزاً فِي حابولِ النّخْلِ:

ومُنتَسِبٍ إِلَى أمٍّ ... تَنَشّا أصْلُهُ مِنْها

---

(١) من كلّ شيء نوع منه.
(٢) طعنوه وشاكوه وآلموه.
(٣) مقيمون وملازمون.
(٤) السابق الفائق.
(٥) حرارتهم.
(٦) سألوه وتحكموا عليه في السؤال حسب مرغوبهم.
(٧) حُفِظْتُمْ منه وهو خفَّة العقل.
(٨) مُتِّعْتُمْ بالمعيشة.
(٩) مسرعة نشيطة.
(١٠) رجوعها.
(١١) زمن الحرّ الشديد.
(١٢) يبسها.

يعانقها وقد كانت نفته برهة عنها
به يتوصل الجاني ولا يلحى[١] ولا ينهى

ثُمَّ قالَ: ودونكمُ الخفيّةَ العلَمِ، المعتكِرةَ الظُّلَمِ[٢]، وأنْشدَ مُلغِزاً في القلَمِ:

ومأموم به عُرفَ الإمَامُ كمَا باهَتْ بصُحْبَتِه الكرامُ
لهُ إذْ يرتَوي طَيْشانُ صاد[٣] ويسكُنُ حينَ يعْروهُ الأُوامُ[٤]
ويُذْري حين يُستَسْعَى[٥] دُموعاً يرُقْنَ كَمَا يروقُ الابتِسامُ

ثُمَّ قالَ: وعلَيْكُمْ بالواضِحَةِ الدّليلِ، الفَاضِحَةِ مَا قِيلَ، وأَنْشدَ مُلغِزاً في المِيلِ:

ومَا نَاكِحٌ أُختَينِ[٦] جَهْراً وخُفيَةً
وليسَ عليهِ في النِّكاحِ سَبيلُ
متَى يغْشَ هذي يغْشَ في الحَال هذه
وإنْ مَالَ بعْلٌ لَمْ تجِدْهُ يَميلُ
يَزيدُهُمَا عِنْدَ المَشيبِ تعهّداً
وبِراً وهَذَا في البُعولِ[٧] قَليلُ

ثُمَّ قَالَ: وهَذِهِ يَا أُولِي الألْبابِ، مِعْيارُ[٨] الآدابِ، وأنشَدَ مُلغِزاً في الدُّولابِ:

---

(١) ولا يُعذل ويُلام.
(٢) اعتكر الظلام: تراكم.
(٣) الصَّادي، هو: العطشان.
(٤) يعتريه ويصيبه العطش.
(٥) يطلب منه السَّعي.
(٦) أراد بالأختين: العينين.
(٧) أي: في حال هرمه.
(٨) ميزان.

وجاف وهْوَ موْصولٌ(١) وَصولٌ لَيْسَ بِالجَافي
غَريقٌ بَارِزٌ فاعْجَبْ لهُ منْ راسب طَافِ
يسُحُّ(٢) دُموعَ مهْضومٍ(٣) ويهْضمُ هَضْمَ مِتْلافِ
وتُخْشَى منْهُ حِدَّتُهُ ولكنْ قَلْبُهُ صافِ

قَالَ: فَلَمَّا رشَقَ(٤)، بالْخَمْسِ الَّتي نسَقَ(٥)، قَالَ: يَا قَوْمِ تدبَّروا هَذه الخَمْسَ، واعقدُوا علَيْهَا الْخَمْسَ، ثُمَّ رأيكُم وضَمَّ الذَّيلِ، أَوِ الازدِيَادَ منْ هَذَا الْكَيْلِ! قَالَ: فاستَفزّتِ القومَ شَهْوَةُ الزِّيادَة، علَى مَا أُشْرِبُوا منَ البَلادَةِ، فقَالُوا لَهُ: إنَّ وُقوفَنَا دونَ حدّكَ، ليُفْحِمُنَا عَنِ استيراءِ(٦) زنْدكَ، واستشْفَافِ فِرِنْدكَ، فَإنْ أتْمَمْتَ عشْراً فَمنْ عنْدكَ، فاهتزَّ اهتزَازَ منْ فلَجَ سهمُهُ(٧)، وانخزَلَ(٨) خصمُهُ، ثُمَّ افتتَح النُطْقَ بالبَسْمَلَةِ، وأنْشَدَ مُلْغِزاً فِي الْمزَمَّلَة:

ومَسْرُورَةٍ مَغْمُومَةٍ(٩) طولَ دهرِها
ومَا هيَ تدري مَا السُّرورُ ولاَ الغَمُّ
تُقَرَّبُ أحيانًا لأجْلِ جَنينِهَا
وكمْ ولد لوْلاهُ طُلِّقَتِ الأمُّ
وتُبعَدُ أحيانًا ومَا حالَ عهدُهَا
وإبعَادُ من لَمْ يَستَحِلْ عهدُه ظُلمُ

(١) ملتصق ببعضه.
(٢) يصب.
(٣) كمظلوم يبكي.
(٤) رمى.
(٥) التي قالها متتابعة.
(٦) إيقاد.
(٧) مَنْ ظَفَرَ وَغَلَب.
(٨) انقطع.
(٩) مستورة بما لفّ عليها.

إذا قَصُرَ اللَّيْلُ اسْتُلِذّ وِصالُها
وإن طالَ فالإعراضُ عن وصْلِها غُنمُ
لها مَلبَسٌ بادٍ أنيقٌ مُبَطَّنٌ
بما يُزْدَرى (١) لكنْ لِمَا يُزْدَرى الحُكْمُ (٢)

ثُمَّ كَشَّرَ عَنْ أنيابِهِ الصُّفْرِ، وأنشَدَ مُلغِزاً في الظُّفْرِ:

ومَرهوبِ الشَّبا (٣) نَامٍ (٤) ... ومَا يرْعَى ولاَ يشرَبْ
يُرَى في العَشْرِ دونَ النَّحْـ ... ـرِ فاسمَعْ وصفَهُ واعْجَبْ

ثُمَّ تخازرَ تخازُرَ العفْريت (٥)، وأنشَدَ مُلغزاً في طاقَة الكبريت (٦):

ومَا مَحْقورةٌ تُدْنَى وتُقْصَى ... ومَا منْهَا إذَا فكّرْتَ بُدُّ
لها رأسان مُشتَبِهان جدا ... وكُلٌّ مِنهُمَا لأخيه ضِدُّ
تعذَّبُ إن هُمَا خُضِبا وتُلْغَى ... إذَا عَدِمَا الخِضابَ ولاَ تُعَدّ

ثُمَّ تخمَّطَ (٧) تَخَمُّطَ القرْمِ (٨)، وأنْشَدَ مُلغِزًا في حلَبِ الكَرْمِ:

ومَا شَيْءٌ إذَا فَسَدَا ... تَحَوَّلَ غَيُّهُ رَشَدَا
وإنْ هُوَ راقَ أوصافاً ... أثارَ الشرّ حيثُ بَدَا
زَكيُّ العِرْقِ وَالِدُهُ (٩) ... ولكنْ بِئْسَ مَا ولَدَا

ثُمَّ اعتَضَدَ عَصا التَّسيارِ، وأنشدَ مُلغِزاً في الطيّارِ:

---

(١) طول عمرها. (٢) أي: الحكمة ومنه قولهم: الصبر حكم وقليل فاعله.
(٣) هو الطَّرف والحدّ. (٤) إنه ينمو ويزداد.
(٥) الداهي الخبيث القويّ. (٦) حزمة منه.
(٧) تكبر وتهيّأ للقول، وقيل: غضب. (٨) الفحل الهائج إذا هدر حرق أنيابه بعضها ببعض.
(٩) أصله زكيٌّ طيِّبٌ وهو العنب، ولا يخفى ما في العنب من الفضل.

وذي طَيشَةٍ[١] شقُّهُ مائلٌ وما عابَهُ بهما عاقلُ
يُرى أبداً فوقَ عِلِّيَّةٍ كما يعتلي المَلِكُ العادلُ
تساوَى لديْه الحَصا والنُّضارُ وما يستوي الحَقُّ والباطلُ
وأعجبُ أوصافهِ إنْ نظرْتَ كما ينظُرُ الكيِّسُ الفاضلُ
تَراضي الخُصومِ بهِ حاكمًا وقدْ عرَفُوا أنَّهُ مائلُ

قَالَ: فظلّتِ الأفكارُ تَهيمُ[٢] في أوديةِ الأوْهامِ[٣]، وتَجولُ جولَانَ الْمُستهامِ، إلَى أنْ طالَ الأمَدُ، وحصْحَصَ الكمَدُ، فَلَمَّا رآهُمْ يزندونَ ولَا سَنَا، ويقْضونَ النّهارَ بالْمُنَى، قَالَ: يَا قومِ إلامَ تنظُرونَ، وحتّامَ تُنظَرونَ؟ ألَمْ يأنِ لكُمُ استِخْراجُ الْخَبيّ[٤]، أو استِسلامُ الغَبيّ؟ فَقَالُوا: تالله لَقَدْ أعْوَصْتَ[٥]، ونصَبْتَ الشَّرَكَ فقنَصْتَ، فتحكّمْ كَيْفَ شيتَ، وحُزِ الغُنْمَ والصِّيتَ، ففَرَضَ عَنْ كُلِّ مُعَمًّى فرْضاً، واستَخلَصَهُ منهُمْ نَضّاً، ثُمَّ فتَحَ الأقفالَ، ورسمَ الأغْفالَ[٦]، وحَاولَ الإجْفَالَ[٧]، فاعتلَقَ به مدرَهُ الْقَوْمِ، وقَالَ لَهُ: لا لُبسَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فاستَنْسِبْ قَبْلَ الانطلاقِ، وهَبْها مُتعَةَ الطَّلاقِ، فأَطْرَقَ حَتَّى قُلْنَا: مُريبٌ، ثُمَّ أنشَدَ والدمعُ مُجيبٌ:

سَروجُ مطْلِعُ شَمْسِي[٨] وربْعُ لَهْوي وأُنسِي
لَكِنْ حُرِمْتُ نَعيمي بِهَا ولَذةَ نفْسي
واعْتَضْتُ عَنْهَا اغْتِراباً أمَرَّ يَومي وأَمْسِي[٩]

---

(١) خفَّة.
(٢) تذهب حائرة.
(٣) في مجاري الفكرة.
(٤) المستور.
(٥) أتيت بالعويص؛ أي: ما لا يفطن له من الكلام.
(٦) بَيَّنَ لهم ما خَفِيَ عَلَيْهِم.
(٧) قصد الانطلاق والخروج.
(٨) يريد أنها بلده وبها مولده.
(٩) صَيَّر عيشي مُرًّا نهارًا وليلاً.

مَا لِي مَقَرٌّ بأرض ... وَلاَ قَرَارٌ لِعَنْسِي[١]

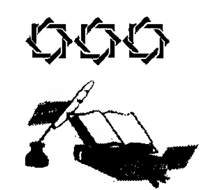
يوماً بنَجد ويوماً ... بالشَّأمِ أُضْحي وأُمسي

أُزْجي الزَّمَانَ بقوت ... مُنَغَّص[٢] مُسْتَخَسّ

وَلاَ أَبيتُ وَعِنْدِي ... فَلْسٌ وَمَنْ لي بِفَلْس

وَمَنْ يعِشْ مثلَ عَيْشي[٣] ... بَاعَ الحَياةَ بِبَخْسِ[٤]

ثُمَّ إِنَّهُ اخْتَبَن خُلاصةَ النَّضِّ[٥]، ونَدَرَ ضَارِباً فِي الأرْضِ، فَنَاشَدْنَاهُ أَنْ يَعُودَ، وأَسْنَيْنَا لَهُ الوُعُودَ[٦]، فَلا وأَبيكَ مَا رَجَعَ، وَلاَ التَّرْغِيبُ لَهُ نَجع[٧].



(١) هي الناقة الصلبة القوية.

(٢) مكدر.

(٣) مثل حياتي.

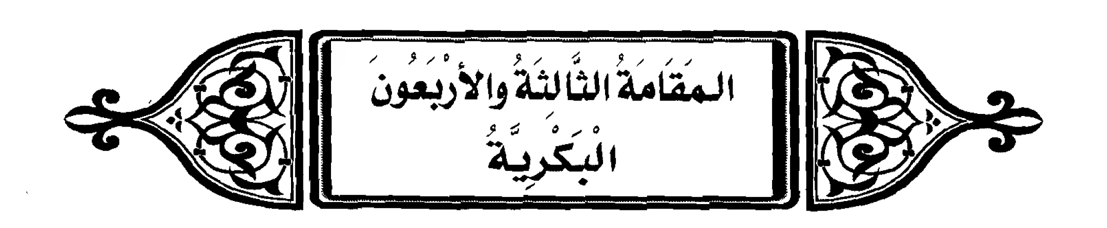
(٤) بنقص.

(٥) الخالص من المتحصل الحاضر.

(٦) الوعود جمع الوعد؛ أي: وعدنا بوعود عظيمة.

(٧) نفع وأثَّرَ.





المَقامَةُ الثَّالثَةُ والأرْبَعُون البَكْرِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بن هَمَّام قَالَ: هَفَا بي البَيَنُ الْمطَوِّحُ (١)، والسَّيرُ المْبرِّحُ، إلَى أرضٍ يضِلُّ بهَا الخرِّيتُ، وتَفْرَقُ فيهَا المْصَاليتُ (٢)، فَوجَدتُ مَا يجِدُ الحْائرُ الوحيدُ، ورأَيْتُ مَا كُنتُ منْهُ أَحِيدُ (٣)، إلا أَنِّي شجّعْتُ قَلْبِيَ الْمَزْؤودَ (٤)، ونَسَأْتُ نِضْوِيَ (٥) الْمَجْهودَ، وسِرْتُ سِيرَ الضَّارِبِ بقِدْحَيْنِ، الْمُسْتَسلِمِ للحَيْنِ، ولَمْ أزَلْ بيْنَ وَخْدٍ وذَميلٍ، وإجازَةِ ميلٍ بَعْدَ ميلٍ، إلَى أنْ كادَت الشَّمْسُ تَجِبُ، والضِّياءُ يَحْتَجِبُ، فَارْتَعْتُ لإظْلال الظَّلامِ، واقْتِحَامِ جَيْشٍ حَامٍ (٦)، ولَمْ أدرِ أأكْفِتُ الذَّيلَ وأرتبِطُ، أمْ أعْتَمِدُ اللَّيْلَ وأَخْتَبِطُ (٧)؟ وبَيْنَا أنَا أقلِّبُ العزْمَ، وأمتَخِضُ الْحزْمَ، تراءَى لِي (٨) شَبَحُ جمَلٍ، مُسْتَذْرٍ بِجَبَلٍ (٩)، فترَجَّيْتُهُ قُعْدَةَ مُرِيحٍ، وقَصَدْتُهُ قَصْدَ مُشِيحٍ، فَإذَا الظَّنُّ كَهَانَةٌ (١٠)، والقُعْدَةُ عَيرانَةٌ، والْمُرِيحُ قَد ازدَمَلَ بِبِجَادِه، واكتَحَلَ برُقَادِه، فَجَلَسْتُ عِنْدَ رَاسِه، حَتَّى هَبَّ من نُعاسِه، فَلَمَّا ازْدَهَرَ سَرَاجَاهُ (١١)، وأَحَسَّ بِمَنْ فَاجَاهُ، نفَرَ كَمَا ينْفِرُ الْمُرِيبُ، وقَالَ: أخوكَ أمِ

---

(١) المبعد من طوّحه إذا رماه.

(٢) جمع مصلات ومصليت وهو: الشجاع الماضي في أموره.

(٣) أميل.

(٤) الخائف المذعور.

(٥) جملي المهزول.

(٦) كناية عن اشتداد الظلام.

(٧) يعني أسير على غير اهتداء في الظلام.

(٨) ظهر لي.

(٩) مستتر به.

(١٠) يعني: صادف الواقع.

(١١) فتح عينيه بعدما انتبه.

الذِّيبُ؟ فَقُلْتُ: بلْ خابطُ ليلٍ ضَلّ الْمسلَكَ، فأضئْ أقْدَحْ لكَ، فَقَالَ: لِيَسْرُ عَنْكَ (١) همُّكَ، فرُبَّ أخٍ لَكَ لَمْ تلدهُ أمُكَ، فانسرى عندَ ذَلكَ إشْفاقي، وسرَى الوسَنُ إلَى آمَاقي، فَقَالَ: عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى، فَهَلْ تَرَى كَمَا أرَى؟ فَقُلْتُ: إنِّي لَكَ لأطْوَعُ منْ حذَائكَ، وأوْفَقُ من غذائكَ، فَصَدَعَ (٢) بِمَحَبَّتِي، وبخْبَخَ بصُحْبَتِي، ثُمَّ احتَمَلْنَا (٣) مُجدِّينَ، وارتَحلْنَا مُدْلِجينَ، ولَمْ نَزَلْ نُعَانِي السُّرَى (٤)، ونُعاصِي الكرَى (٥)، إلَى أنْ بَلَغَ اللَّيْلُ غايتَهُ، ورفَعَ الفجْرُ رايتَهُ، فَلَمَّا أسفرَ الفَاضِحُ (٦)، ولَمْ يبْقَ إلا واضِحٌ، توسّمتُ رفيقَ رِحْلَتِي، وسَمِيرَ لَيلَتِي، فإذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ مطلَبُ النّاشد، ومَعلَمُ الرَّاشد(٧)، فتهادَيْنَا تَحيَّةَ الْمُحبِّينِ، إذَا التَقَينا بَعْدَ البينِ، ثُمَّ تباثَثْنَا الأسْرارَ، وتنَاثَثْنَا الأخبارَ، وبَعيري يَنْحِطُ منَ الكلاَلِ (٨)، ورَاحِلَتُهُ تَزِفُّ زَفيفَ الرّالِ، فأعْجَبَنِي اشْتِدَادُ أسرِها، وامتِدادُ صبرِها، فأخَذْتُ أَسْتَشِفُّ جَوْهَرَهَا (٩)، وأسأَلُهُ منْ أَيْنَ تخيّرَها، فَقَالَ: إنَّ لِهَذه النّاقَة خبراً حُلْوَ الْمَذاقَة، مليحَ السّياقَة، فَإنْ أحببْتَ استمَاعَهُ فَأنِخْ، وإنْ لَمْ تَشَأْ فَلاَ تُصِخْ (١٠)، فأنَخْتُ لقوله نِضْوي، وأهدَفْتُ السّمْعَ لمَا يَروي، فَقَالَ: اعْلَمْ أنّي اسْتَعَرَضْتُهَا بحَضرَمَوْتَ، وكَابدْتُ (١١) في تَحْصيلهَا الْمَوْتَ، ومَازلتُ أجوبُ علَيهَا البُلْدَانَ، وأَطِسُ (١٢) بأخفافِها الظِّرَّانَ (١٣)، إلَى أنْ وجدتُها

---

(١) ليُزل وينكشف من سرا يسرو.
(٢) فكشف وباح.
(٣) رحلنا.
(٤) نكابد سير الليل.
(٥) نمانع النوم.
(٦) أضاء الصُّبح.
(٧) المعلم الأثر الذي يُسْتَدَلُّ به على الطريق والرَّاشد المهتدي.
(٨) من الإعياء.
(٩) أمعن النظر في خلقتها.
(١٠) فلا تسمع.
(١١) قاسيت.
(١٢) الوطس هو الوطءُ الشديد.
(١٣) هو حجر له حدّ كحدّ السكين.

عُبْرَ أَسْفار، وعُدَّةَ قرار، لا يلحَقُها العَنَاءُ، وَلاَ تُواهِقُها (١) وجْنَاءُ، وَلاَ تدْري مَا الْهِنَاءُ، فأَرْصَدْتُها للخَيرِ والشرّ، وأَحَلَلْتُهَا (٢) محَلَّ البَرّ السِّرّ، فاتّفَقَ أَنْ ندَّتْ مُذْ مُدة، وَمَا لِي سِوَاهَا قُعدَةٌ، فَاستَشْعَرْتُ الأسَفَ، واستَشرفْتُ التّلَفَ، ونسِيتُ كُلَّ رُزْءٍ (٣) سَلَفَ، ومكَثْتُ ثَلاثًا لا أَسْتطيع انبعَاثًا (٤) وَلاَ أطعم النوم إلا حَثَاثًا (٥)، ثُمَّ أخَذْتُ فِي اسْتِقْراء الْمَسالِك، وتفقُّد الْمَسارِحِ والْمَبارِك، وَأَنَا لا أَسْتَنْشِي مِنْهَا ريحاً، وَلاَ أَسْتَغْشي يأساً مُريحاً، وكُلَّمَا ادّكَرْتُ مضَاءَهَا (٦) فِي السيرِ، وانبراءها لِمُباراة الطَّيرِ، لاعَني الادِّكارُ (٧)، واستَهوَتْني الأفْكَارُ، فبَيْنَمَا أَنَا فِي حوَاءِ بَعْضِ الأحْياء إذْ سمعْتُ مِنْ شخْصٍ متبَعِّد، وصوْت متجرِّد: منْ ضَلَّتْ لَهُ مطيّةٌ، حضرَميّةٌ وَطِيَّةٌ (٨)، جلدُها قَدْ وُسِمَ، وعَرُّهَا (٩) قَدْ حُسِمَ، وزِمَامُها قَدْ ضُفِرَ، وظهرُها كأنْ قَدْ كُسِرَ ثُمَّ جُبِرَ، تَزِينُ الْمَاشيَةَ، وتُعينُ النَّاشيَةَ (١٠)، وتقطَعُ الْمَسافَةَ النّائيَةَ، وتظَلّ أبداً لَكَ مُدانِية، لا يعتَوِرُها الوَنَى، وَلاَ يعترِضُها الوَجَى (١١)، وَلاَ تُحْوِجُ إِلَى العَصا، وَلاَ تَعْصي فِي مَنْ عصَى.

قَالَ أَبُو زَيْدٍ: فجذَبَني الصوتُ إِلَى الصّائت، وبشّرَني بدرْك الفائت، فَلَمَّا أَفْضَيْتُ إليْهِ، وَسَلَّمْتُ علَيْهِ، قلتُ لَهُ: سلّمِ الْمَطِيَّةَ، وتسلّمِ العَطِيَّةَ (١٢)، فَقَالَ: وَمَا مطِيَّتُكَ، غُفِرَتْ خطِيّتُكَ؟ قلت لَهُ: نَاقَةٌ جُثَّتُها

---

(١) لا توازيها في السَّيْر.
(٢) أنزلتها منّي.
(٣) كل مصيبة.
(٤) قيامًا وسيرًا.
(٥) بفتح الحاء وكسرها؛ أي: قليلاً.
(٦) سرعتها.
(٧) أي التّذكر.
(٨) ذلول سهلة لا تحرّك راكبها.
(٩) بفتح العين وكسرها؛ أي: عيبها.
(١٠) الجارية الحديثة السن.
(١١) وجع الرجل.
(١٢) أي: اقبض الجُعَالة.

كَالهَضْبَة، وذروتُها كالقُبّة، وَجلَبُها مِلْءُ العُلبَة، وكُنْتُ أُعطيتُ بِهَا عِشرينَ، إذْ حَلَلْتُ يَبرينَ، فَاستَزَدْتُ الَّذي أعطَى، ودَرَيْتُ [١] أنَّهُ أخْطَا. قالَ: فأعْرَضَ عَنِّي حِينَ سمِعَ صِفَتِي. وَقَالَ: لستَ بصاحِبِ لُقطَتي! فأخَذْتُ بتَلابيبِه [٢]، وأصرَرْتُ عَلَى تكذيبِه، وهمَمْتُ بتمزيقِ جَلابيبِه، وَهُوَ يَقُولُ: يَا هَذَا مَا مطيَّتي بطِلْبَك، فاكْفُفْ عَنِّي مِنْ غَرْبِكَ [٣]، وعدّ عَنْ سَبِّكَ، وإلا فَقَاضِني إلَى حكَمِ هَذَا الحَيِّ، البَرِيء من الغَيِّ، فَإنْ أوجبَهَا لَكَ فتسلّمْ، وإن زوَاهَا [٤] عَنْكَ فَلا تتكلّمْ، فَلَمْ أرَ دَواءَ قِصّتي، وَلاَ مَساغَ غُصّتي، إلا أَنْ آتيَ الْحكَمَ، وَلَوْ لكَمَ، فانْخَرَطْنَا [٥] إلَى شيخٍ رَكينِ النِّصْبَة [٦]، أنيقِ العِصْبَة، يُؤنَسُ منْهُ سُكُونُ الطائِرِ، وأَنْ ليسَ بالجائِرِ، فاندَرأتُ أتظلّمُ وأتألّمُ، وصاحبي مُرِمٌّ [٧] لا يترَمْرَمُ [٨]، حَتَّى إذَا نثلْتُ كِنَانَتي، وقضَيْتُ من القَصَصِ لُبانَتي، أبرزَ نعْلاً رَزينَةَ الوزْنِ، مَحْذُوّةً لِمَسلَك الْحَزْنِ، وقَالَ: هَذِهِ الَّتي عرفْتُ، وإيَّاهَا وَصَفْتُ، فَإنْ كَانتْ هِيَ الَّتي أُعطِيَ بِهَا عِشرِينَ، وها هُوَ من الْمُبصِرينَ، فَقَدْ كَذَبَ فِي دعْواهُ، وكبُرَ مَا افتَراهُ، اللَّهُمَّ إلا أنْ يَمُدَّ قَذالَهُ [٩]، ويُبيِّنَ مِصداقَ مَا قالَهُ، فَقَالَ الْحكَمُ: اللَّهُمَّ غَفراً، وجعلَ يقلِّبُ النّعْلَ بطْنًا وظهْراً، ثُمَّ قَالَ: أمَا هَذهِ النّعلُ فنَعْلِي، وأمَا مطِيَّتُكَ ففي رحْلِي، فانهَضْ لتسَلُّمِ نَاقتِك، وافعَلِ الخَيرَ بحسَبِ طاقَتِك، فقُمْتُ وقُلْتُ:

---

(١) علمت.
(٢) يجمع ثيابه من عند لبته.
(٣) من حدِّكَ.
(٤) أي: منعها.
(٥) مضينا مسرعين.
(٦) وقور الانتصاب
(٧) ساكت.
(٨) لا يحرّك فاه للكلام.
(٩) القذال: مؤخّر الرأس.

أُقسمُ بالبَيْتِ العَتيقِ (١) ذي الْـحُرَمْ والطَّائفينَ العَاكفينَ في الْـحَرَمْ
إنّك نِعْمَ مَنْ إليْهِ يُحتكَمْ وخيرُ قَاضٍ في الأعَاريبِ (٢) حكَمْ
فاسلَمْ ودُمْ دوْمَ النَّعامِ والنُّعَمْ

فَأجَابَ من غيرِ رويّةٍ (٣)، ولاَ عقْدِ نيَّة، وقَالَ:

جُزيتَ عن شُكرِكَ خيراً يَا ابنَ عمْ إذ لستُ أَسْتَوجبُ شكراً يُلتَزَمْ
شرُّ الأنَامِ مِنْ إذَا اسْتُقْضي ظلمْ ثُمَّ مَنِ اسْتُرْعي فلَمْ يرْعَ الْحُرَمْ (٤)
فذانِ والكَلْبُ سَواءٌ في القِيَمْ

ثُمَّ إنَّهُ نَفَّذَ بَيْنَ يديّ مِنْ سلّم النّاقةَ إلَيَّ، ولَمْ يمْتَنَّ عليَّ، فَرُحْتُ نَجيحَ الأرَبِ (٥)، أَجرُّ ذيْلَ الطَّرَبِ، وأَقُولُ: يَا لَلْعَجَبِ!

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَقُلْتُ لَهُ تالله لَقَدْ أطْرَفْتَ، وهرَفْتَ بِمَا عرَفْتَ، فناشَدتُكَ اللهَ هلْ ألفيْتَ أَسْحَرَ منكَ بلاغَةً، وأحسَنَ للّفْظِ صِياغَةً؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نعَمْ، فاستَمِعْ وانْعَمْ، كُنتُ عزَمْتُ، حين أتْهمْتُ (٦)، علَى أَنْ أَتَّخذَ ظَعينَةً (٧)، لتكُونَ لِي مُعينَةً، فحينَ تعيّنَ الخَطْبُ الْمُلبّ، وكادَ الأمرُ يستَتِبُّ (٨)، أفْكَرْتُ فِكْرَ الْمتحرّزِ مِنَ الوَهْمِ (٩)، الْمتأمِّلِ كيْفَ مَسقطُ السَّهْمِ، وبِتُّ ليلَتِي أُنَاجي القلْبَ الْمعذَّبَ، وأقلّبُ العزْمَ الْمُذَبذَبَ (١٠)،

(١) هو الكعبة سمي العتيق بمعنى: القديم.
(٢) جمع الأعراب، وهم سُكَّان البادية.
(٣) فكرة.
(٤) لا يحترم من له حق تحت رعايته.
(٥) فذهبت مقضيّ الحاجة.
(٦) قصدت تهامة.
(٧) المرأة أو الزوجة.
(٨) يتهيَّأ ويتمّ.
(٩) الخائف من الغلط.
(١٠) القصد المضطرب المتردد بين أمرين.

إلَى أَنْ أجمَعْت عَلَى أَنْ أُسْحرَ، وأُشاوِرَ أوّلَ من أُبصِرُ، فَلَمَّا قوّضَت الظُّلمَةُ أطْنَابَها (١)، وَولَّتِ الشُّهُبُ أذْنَابَها، غَدَوْتُ غُدُوَّ الْمتعرِّف، وَابتكرْتُ ابتِكارَ الْـمُتعيِّف، فانْبَرَى (٢) لِي يافعٌ فِي وجْهِهِ شافعٌ، فتيمَّنْتُ بمنظَرِهِ البَهيج، واستَقْدَحْتُ رأيَهُ فِي التَّزويجِ، فَقَالَ: أوَتبْغيها عوانًا، أم بِكْراً تُعانَى؟ فَقُلْتُ: اختَرْ لِي مَا تَرَى، فَقَدْ أَلْقَيتُ إليكَ العُرَى (٣)، فَقَالَ: إلَيَّ التّبيينُ، وعليْكَ التَّعيينُ، فاسمَعْ أَنَا أفْديكَ، بَعْدَ دفْنِ أعاديكَ، أمَا البِكرُ فالدُّرّةُ المخْزونَةُ، والبَيضَةُ الْـمكنونَةُ (٤)، والباكُورَةُ (٥) الْـجَنِيَّةُ (٦)، والسُّلافَةُ الْهَنِيَّةُ، والروْضَةُ الأُنُفُ (٧)، والطَّوْقُ الَّذي ثَمُنَ وشَرُفَ، لَمْ يُدَنِّسْها لامسٌ (٨)، وَلاَ استَغْشَاهَا لابِسٌ، وَلاَ مَارسَهَا عَابِثٌ، وَلاَ وكَسَهَا طَامِثٌ، وَلَهَا الوَجهُ الْـحَيِيُّ، والطَّرْفُ الخَفِيُّ، واللِّسانُ العَيِيُّ (٩)، والقلْبُ النَّقيُّ، ثُمَّ هيَ الدُّمْيَةُ الْـمُلاعبَةُ، واللّعْبَةُ الْـمُداعبَةُ، والغَزالَةُ الْـمُغازلَةُ (١٠)، والْـمُلْحَةُ الكاملَةُ، والوِشاحُ الطاهرُ القَشيبُ (١١)، والضَّجيعُ الَّذي يُشبُّ وَلاَ يُشيبُ (١٢)، وأمَا الثّيّبُ فالْـمَطيَّةُ المْذَلَّلَةُ، واللُّهْنَةُ (١٣) الْمَعجَّلَةُ، والبغْيَةُ الْـمُسهَّلَةُ، والطَّبَّةُ (١٤) الْـمُعلِّلَةُ (١٥)، والقَرينةُ الْمتحبِّبَةُ، والْـخَليلَةُ الْمتقرِّبَةُ، والصَّنَّاعُ (١٦) الْمدبِّرَةُ، والفَطْنَةُ المختَبِرَةُ،

---

(١) كناية عن انتهاء الليل والأطناب: حبالٌ تُشَدُّ بها الخيمة وتقويضها: حلّها، ونقضها: استعارها لانقضاء الظّلمة.

(٢) اعترض.

(٣) كناية عن تفويض الأمر إليه.

(٤) المخبأة المستورة.

(٥) أول ثمرة الشجرة.

(٦) التي لم تَذْبُلْ.

(٧) التي لم ترع بعد.

(٨) زوج.

(٩) يعني: الذي لا سلاطة فيه.

(١٠) المحادثة والمراودة.

(١١) الجديد.

(١٢) يجعلك شابًا ولا يشيّبك.

(١٣) هي ما يتقدّم من الطعام قبل الغداء.

(١٤) الخبيرة العالمة.

(١٥) المؤنسة.

(١٦) الماهرة الحاذقة.

ثُمَّ إنّها عُجالَةُ الرّاكِبِ، وأُنشوطَةُ الخاطِبِ، وقُعدَةُ العاجزِ، ونُهْزَةُ الْمُبارِزِ (١) عريكَتُها لَيّنَةٌ، وعُقْلَتُها هيِّنَةٌ، ودخلَتُها (٢) مُتَبيِّنَةٌ (٣)، وخدمَتُها مزيِّنَةٌ، وأُقسمُ لقد صدَقْتُ في النَّعتَينِ، وجلَوْتُ الْمَهاتَينِ، فبأيّتِهِما هامَ قَلْبُكَ؟

قالَ أَبُو زَيْد: فرأَيْتُهُ جَنْدَلَةً (٤) يتَّقيها الْمُراجِمُ، وتُدمَى منْها الْمَحاجِمُ، إلا أَنّي قُلْتُ لَهُ: كُنتُ سَمِعْتُ أَنَّ البِكْرَ أشَدُّ حُبّا، وأَقلُّ خِبّا (٥)، فقَالَ: لَعَمْري قَدْ قِيلَ هَـٰذَا، ولكِنْ كَمْ قولٍ آذَى! ويْحَكَ أمَا هِيَ الْمُهرَةُ الأبيّةُ العِنَانِ (٦)، والْمَطِيّةُ البَطيَّةُ الإذْعانِ! والزَّنْدَةُ الْمُتَعَسِّرَةُ الاقْتِداحِ، والقَلْعَةُ الْمُستَصْعَبَةُ الافتِتاحِ! ثُمَّ إنَّ مؤونَتَها كثيرةٌ، ومَعونتَها يَسيرةٌ، وعِشْرَتَها صَلِفَةٌ، ودَالَّتَها (٧) مُكلَّفَةٌ، ويدَها خرْقاءُ (٨)، وفِتْنَتَها صَمَّاءُ (٩)، وعَريكتَها خشْنَاء، وليلَتَها لَيْلاءُ (١٠)، وفي رياضَتِها عَنَاءٌ، وعلَى خِبرَتِها غِشاءٌ! وطالَمَا أخزَتِ الْمنَازِلَ، وفرِكَتِ الْمُغازِلَ، وأحنَقَتِ (١١) الْهازِلَ (١٢)، وأضرَعَتِ الفَنِيقَ البازِلَ، ثُمَّ إنَّهَا الَّتِي تقول: أَنَا أَلْبَسُ وأجلِسُ، فأطلُبُ مِنْ يُطلِقُ ويحبِسُ! فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا ترَى فِي الثَّيِّبِ، يَا أَبَا الطَّيِّبِ؟ فَقَالَ: ويْحَكَ أترغبُ فِي فُضالَةِ الْمآكِلِ، وثُمَالَةِ الْمَناهِلِ (١٣)، واللِّباسِ الْمُستَبذَلِ، والوِعاءِ الْمُستَعْمَلِ؟ والذَّواقَةِ الْمُتطرِّفَةِ، والْخَرَّاجةِ (١٤) الْمتصرِّفَةِ؟

---

(١) غنيمة المحارب.
(٢) باطن أمرها.
(٣) ظاهرة.
(٤) حجراً، والجمع: جنادل.
(٥) خداعًا ومكرًا.
(٦) يعني: المستعصبة الانقياد.
(٧) دلالها.
(٨) التي لا تحسن التصرف في معيشتها مبذّرة.
(٩) شديدة شبّهت بالحيَّة.
(١٠) يُقال: ليلة ليلاء، إذا كانت شديدة الظّلام.
(١١) غاظت.
(١٢) المستعمل الهزل ضد الجدّ.
(١٣) بقيَّة الماء.
(١٤) هي كثيرة الخروج أو الإخراج.

والوَقاحِ(١) الْمتسلِّطَة، والْمُحتكِرَة (٢) الْمُتسخِّطة؟ ثُمَّ كلمتُها كُنتُ وصِرتُ، وطالَما بُغِيَ عَلَيَّ فنُصِرْتُ، وشتَّان بَيْنَ الْيَوْمِ وأمْسِ، وأينَ القَمَرُ منَ الشَّمْسِ؟ وإنْ كانت الْحنَّانَةَ البَروكَ (٣)، والطَّمّاحَةَ الْهَلوكَ (٤)، فهيَ الغُلُّ القَمِلُ، والجُرْحُ الَّذي لا يندَمِلُ! فقُلْتُ لَهُ: فَهَل ترَى أَنْ أترهَّبَ، وأَسْلُكَ هَذَا الْمَذْهَبَ؟ فانْتَهَرني انتهارَ الْمؤدِّب، عِنْدَ زلَّة الْمتأدِّب، ثُمَّ قَالَ: ويلَكَ أتَقتَدي بالرُّهْبانِ، والحقُّ قد استَبانَ؟ أُفٍّ لكَ، ولوَهْنِ رائكَ (٥)، وتبّاً لَكَ ولأولَئكَ! أتُراكَ مَا سمعْت بأنْ لا رَهْبانيّةَ فِي الإسلام، أَوْ مَا حُدِّثْتَ بمَناكحِ نبيّكَ عَلَيْهِ أزكَى السَّلاَمِ؟ ثُمَّ أمَا تعلَمُ أَنَّ القَرينَةَ (٦) الصَّالِحَةَ تَرُبُّ بيتَكَ (٧)، وتُلبِّي صَوتَكَ، وتغُضُّ طرْفَكَ (٨)، وتطيِّبُ عرفكَ؟ وبها ترَى قُرّةَ عينِكَ، وريْحانَةَ أنفِكَ، وفرْحةَ قَلْبِكَ وخُلْدَ ذكرِكَ، وتعِلّةَ يومكَ وغدكَ، فكيفَ رَغِبْتَ عَنْ سُنّة الْمرسَلينَ، ومُتعَةِ الْمتأهِّلينَ (٩)، وشِرْعَةِ الْمُحْصَنينَ، ومَجْلَبَة الْمَال والبَنين؟ والله لَقَدْ ساءني فيكَ، مَا سمعْتُ من فيكَ، ثُمَّ أعْرَضَ إعْراضَ الْمُغضَبِ، ونَزا نَزَوانَ العُنظَبِ (١٠)، فَقُلْتُ لَهُ: قاتَلَكَ اللهُ أتنطَلِقُ متبختراً، وتدعُني متحيِّراً؟ فقَالَ: أظنّكَ تدَّعي الْحيرَةَ، لتَستَغْنِيَ عَنِ الْمُهَيْرَة (١١)! فَقُلْتُ لَهُ: قبَّحَ اللهُ ظَنَّكَ، ولاَ أشَبَّ قرنَكَ! ثُمَّ رُحْتُ عنهُ مَراحَ الْخَزْيانِ، وتُبتُ مِنْ مُشاوَرَةِ الصِّبيانِ.

---

(١) قليلة الحياء.
(٢) الجامعة المانعة.
(٣) هي التي تتزوج ولها ابن بالغ.
(٤) الفاجرة التي تتساقط على الرِّجَال من التهالك، وهي شدَّةُ الحِرْص.
(٥) لضعف رأيك.
(٦) المراد بها: المرأة.
(٧) تصلحه.
(٨) تمنع بصرك من التطلّع للنساء.
(٩) ما يتمتَّع به المتزوجون.
(١٠) ذكر الجراد.
(١١) بفتح الميم وكسر الهاء، وهي: الحرَّة الغالية المهر.

قَالَ الْـحَـارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَقُـلْتُ لَهُ أُقسِمُ بِمَنْ أنْـبتَ الأيْكَ، أَنَّ الجَدْلَ منكَ وإلَيْكَ، فأغْرَبَ (١) فِي الضَّحِـك وطربَ طَرْبَةَ الْـمُنهَـمِك، ثُمَّ قَالَ: العَقِ العسَلَ، ولاَ تسَـلْ! فأخَذْتُ أُسهِبُ (٢) فِي مدْحِ الأدبِ، وأُفَضِّلُ ربَّهُ عَلَى ذي النَّشَبِ (٣)، وَهُوَ ينظُرُ إلَيَّ نَظَرَ الْـمُستَجْهِلِ، ويُغْضي عَنِّي إغْضاءَ الْمتمهّلِ، فَلَمَّـا أفْرَطْتُ فِي العَصبيّةِ، للعُـصبَةِ الأدبيَّةِ (٤)، قَالَ لي: صَهْ، واسمعْ مِنِّي وافْقَهْ:

يـقـولـونَ إنَّ جَـمَـالَ الـفـتَـى ... وزيــنَـتَــهُ أدَبٌ راسِـخُ (٥)
ومَـا إنْ يَزيـنُ سوَى الْـمُكثرينَ ... ومِــنْ طـوْدُ ســودَدِه شَـامِـخُ
فـأمَـا الـفَـقـيـرُ فـخَـيْـرٌ لـهُ ... مـنَ الأدَبِ الـقُـرْصُ والـكَـامِخُ
وأيّ جَـمَـال لَـهُ أنْ يُـقـال ... أديـبٌ يـعـلِّـمُ أَوْ نَـاسِـخُ

ثُمَّ قَالَ: سَيَتَّـضِحُ لَكَ صِدْقُ لهجَتِي، واستِـنَارَةُ حُجَّتِي (٦)، وسِرْنَا لا نألو جُهْداً، ولاَ نَـستَفيقُ جَهْداً، حَـتَّى أدَّانَا السيرُ، إلَى قريَـةٍ عَزَبَ عَنْهَا (٧) الخَيرُ، فدخلْـنَاها للارْتِياد (٨)، وكِلانَا منْفِضٌ (٩) منَ الزّادِ، فَمَـا إنْ بلَغْنَا الْـمَحَـطَّ، والْـمُنَاخَ المختَطَّ، أَوْ لَـقِينَا غُلامٌ لَم يـبلُغِ الحِنْثَ، وعلَى عـاتِقه ضِغْثٌ، فحـيّاه أَبُو زَيْد تَحيَّةَ الْـمُسـلِمِ، وسألَهُ وَقفَةَ الْـمُفـهِمِ، فَقَالَ: وعمّ تسألُ وفّقَـكَ اللهُ؟ قَالَ: أيُباعُ هَـهُنَا الرُّطَبُ، بالْـخُـطَبِ؟ قَالَ: لا واللهِ! قَالَ: وَلاَ البلَحُ (١٠)، بالْـمُلَحِ (١١)؟ قَالَ: كلا واللهِ، قَـالَ: وَلاَ الثّمرُ،

(١) بالغ.
(٢) الإسهاب: الإكثار في الكلام والإطالة فيه.
(٣) صاحب المال.
(٤) أرباب الأدب.
(٥) ثابت متمكّن.
(٦) ظهورها نيرة مضيئة.
(٧) غاب عنها.
(٨) للطلب.
(٩) خال.
(١٠) هو: ثَمَر النخل قبل البسر وبعد الخلال.
(١١) بالكَلام المستملح المستحسن.

بالسَّمَرِ؟ قَالَ: هَيْهَاتَ والله! قَالَ: وَلاَ العَصائدُ، بالقَصَائد؟ قَالَ: اسْكُتْ عافاكَ اللهُ! قَالَ: وَلاَ الثَّرائدُ، بالفَرائد [١]؟ قَالَ: أَيْنَ يُذهَبُ بكَ أرشَدَكَ اللهُ؟ قَالَ: وَلاَ الدّقيقُ، بالْمَعْنَى الدَّقِيقِ؟ قَالَ: عَدِّ عَنْ هَـٰذَا أصلَحَكَ اللهُ! واستَحْلَى أَبُو زَيْد تَراجُعَ السُّؤالِ والجَوابِ، والتّكايُلَ منْ هَـٰذَا الجِرابِ، ولَمَحَ الغُلامُ أَنَّ الشّوطَ بَطينٌ [٢]، والشَّيْخَ شُوَيْطَيْنٌ [٣]، فَقَالَ لَهُ: حَسبُكَ يَا شيخُ قَدْ عرفْتُ فنّكَ، واستَبَنْتُ أَنَّكَ، فخُذِ الجْوابَ صُبرَةً، واكْتَفِ به خِبرَةً [٤]. أما بهَـٰذَا الْمكانِ فلا يُشتَرَى الشِّعرُ بشَعيرَةٍ، وَلاَ النَّثْرُ بنُثارَة، وَلاَ القَصَصُ بقُصاصَة، وَلاَ الرّسالَةُ بغُسالَة، وَلاَ حكَمُ لُقْمَانَ بلُقمَة، وَلاَ أخْبارُ الْمَلاحِمِ [٥] بلَحْمَة [٦]، وأمَّا جيلُ هَـٰذَا الزَّمَانِ فمَا منهُمْ مَنْ يَميحُ [٧]، إذَا صيغَ لَهُ الْمديحُ، وَلاَ مَنْ يُجيزُ، إذَا أُنشدَ لَهُ الأراجيزُ، وَلاَ مَن يُغيثُ، إذَا أطرَبَهُ الحَديثُ، وَلاَ منْ يَميرُ، وَلَوْ أَنّهُ أميرٌ، وعِنْدَهُمْ أَنَّ مَثَلَ الأديب، كالرَّبْعِ الْجَديبِ، إنْ لَمْ تَجُدِ الرَّبْعَ دِيمَةٌ [٨]، لَمْ تَكُنْ لَهُ قيمةٌ، وَلاَ دانَتْهُ بَهيمةٌ، وكذا الأدَبُ، إنْ لَمْ يعْضُدْهُ نشَبٌ، فدَرْسُهُ نَصَبٌ، وَخَزْنُهُ حَصَبٌ، ثُمَّ انْسَدَرَ [٩] يَعْدو، وَوَلَّى يحْدُو، فَقَالَ لي أَبُو زَيْد: أعَلمْتَ أَنَّ الأدَبَ قَدْ بَارَ [١٠]، وولَّتْ أنْصارُهُ الأدْبارَ؟ فبُؤتُ [١١] لَهُ بحُسْنِ البَصيرَة، وَسلَّمْتُ بِحُكْمِ الضَّرورةِ، فَقَالَ: دعْنَا الآنَ منَ الْمِصَاعِ [١٢]، وخُضْ فِي حديثِ

(١) جمع فريدة، وأراد بها: أبيات القصائد.
(٢) البطين: البعيد.
(٣) صاحب أدب ودهاء.
(٤) علمًا.
(٥) هي: الوقائع والحروب.
(٦) بقطعة لحم.
(٧) يعطي.
(٨) هي: المطر الدائم.
(٩) أسرع بعض الإسراع.
(١٠) كسد.
(١١) فاعترفت له وأقررت.
(١٢) المجادلة والمحاربة.

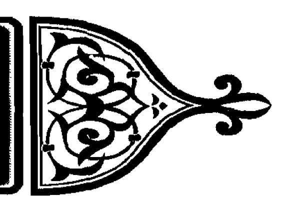
القصاعِ، واعلَـمْ أَنَّ الأسْجاعَ، لا تُشبِعُ مِنْ جاعَ، فَـمَا التَّدبيرُ فِيـمَا يُمسكُ الرَّمَقَ (١)، ويُطفِئ الحْرَقَ؟ فَقُلْتُ: الأمرُ إليْكَ، والزِّمَامُ بيديْكَ، فَقَالَ: أرَى أَنْ ترْهَنَ سيفَكَ، لتُشبِعَ جوفَكَ وضيـفَكَ، فنَاولْنيه وأقمْ، لأنقَلبَ إليكَ بِمَا تلْتَـقمُ، فأحْسـنْتُ به الظَّنَّ، وقلَّـدتُهُ السَّيْفَ والـرَّهْنَ، فَمَا لَـبثَ أَنْ ركبَ النَّاقَـةَ، ورفضَ الصِّدقَ والصَّدَاقَـةَ، فَمكثْتُ مَـلِيًا (٢) أترَقَّبُهُ، ثُـمَّ نهضْتُ أَتعقَّبُهُ (٣)، فكُنتُ كمَنْ ضيّعَ اللّبَنَ فِي الصَّيْفِ، ولَمْ ألْقَهُ ولاَ السّيفَ.



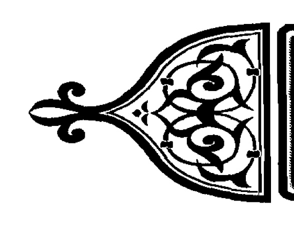
(١) بقيَّة الحياة.

(٢) زمانًا طويلاً.

(٣) أتبعه في عقبه.



المَقَامَةُ الرَّابِعَةُ والأَرْبَعُون
الشَّتْوِيَّةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: عَشَوْتُ(١) فِي لَيلَةٍ داجِيَةِ الظُّلَمِ(٢)، فَاحِمَةِ اللِّمَمِ، إِلَى نَارٍ تُضْرَمُ(٣) عَلَى عَلَمٍ(٤)، وتُخبِرُ عَنْ كَرَمٍ، وكَانَتْ لَيلَةً جوُّها مَقْرُورٌ، وجَيْبُها مَزْرورٌ، ونجمُها مغمومٌ(٥)، وَغَيْمُهَا مرْكُومٌ، وأَنَا فِيهَا أَصْرَدُ مِنْ عينِ الحِرْباء، والعَنْزِ الجَرْباء، فَلَمْ أزلْ أُنصُّ عَنْسِي، وأَقُولُ: طوبَى لَكَ ولنفْسِي! إِلَى أَنْ تبصَّرَ(٦) المُوقِدُ آلِي(٧)، وتبيَّنَ إرْقالِي، فانحدَرَ يعْدو الجَمَزَى، ويُنشِدُ مُرتَجزاً:

حُيِّيتَ مِنْ خَابِطِ لَيْلٍ سَارِي ... هَداهُ(٨) بلْ أَهْداهُ(٩) ضَوءُ النَّارِ
إِلَى رَحِيبِ البَاعِ(١٠) رَحْبِ الدَّارِ(١١) ... مرحِّبٍ بالطَّارِقِ المُمْتَارِ(١٢)
تَرْحَابَ جَعْدِ الكَفِّ بالدِّينَارِ ... لَيسَ بمُزْوَرٍّ عَنِ الزُّوَّارِ
ولاَ بمِعْتَامِ القِرَى مِئْخَارِ(١٣) ... إِذَا اقْشَعَرَّتْ تُرَبُ الأَقْطَارِ
وضَنَّتِ الأَنْوَاءُ بِالأَمْطَارِ ... فهْوَ عَلَى بُؤسِ الزَّمَانِ(١٤) الضَّارِي

---

(١) قصدت.
(٢) معتمة شديدة الظلام.
(٣) تشعل.
(٤) جبل.
(٥) مستور تحت الغيم.
(٦) تأمل ببصره.
(٧) شخصي.
(٨) دلّه وأرشده.
(٩) من الهدية.
(١٠) إلى واسع العطاء.
(١١) واسعها.
(١٢) طالب الميرة لنفسه، وهي: الطعام.
(١٣) مؤَخّر له.
(١٤) شدّته.

جمُّ الرّمَادِ مرهَفُ الشِّفَارِ لمْ يخْلُ في ليلٍ ولاَ نَهَارِ

من نحْرِ وارٍ واقتِداحِ وارِي

ثُمَّ تلقَّاني بِمُحيًّا حَيِيٍّ، وصافَحَني براحَةِ أريَحِيٍّ، واقْتادَني إلَى بيتٍ عِشارُهُ تخورُ، وأعْشارُهُ تَفُورُ (١)، ووَلائدُهُ (٢) تَمُورُ (٣)، ومَوائدُهُ تَدُورُ، وبِأكْسارِهِ أضْيافٌ قَدْ جَلبَهُم جالِبي، وقُلِّبوا فِي قَالَبي، وهُمْ يجتَنونَ فاكهةَ الشّتاءِ، ويمرَحونَ مرَحَ ذَوي الفَتاءِ، فَأخذْتُ مَأخذَهُمْ في الاصطلاءِ، ووجدْتُ بهِمْ وجْدَ الثّملِ بالطِّلاءِ، ولَمَّا أنْ سرَى الحَصَرُ (٤)، وانْسَرَى الخَصَرُ، أُتينا بمَوائِدَ كالهالاتِ دَوْراً، والرّوْضاتِ نَوْراً (٥)، وقَدْ شُحِنَّ (٦) بأطْعِمَةِ الوَلائمِ، وحُمِينَ (٧) مِنَ العائِبِ واللائِمِ، فرفَضْنَا مَا قِيلَ فِي البِطنَةِ، ورأيْنَا الإمْعانَ (٨) فِيهَا مِنَ الفِطنَةِ، حَتَّى إذَا اكتَلْنَا بصاعِ الحُطَمِ(٩)، وأشْفَيْنَا عَلَى خطَرِ التُخَمِ، تعاوَرْنَا (١٠) مَشوشَ الغَمَرِ، ثُمَّ تبوَّأنَا (١١) مقاعِدَ السَّمَرِ (١٢)، وأخذَ كُلُّ واحدٍ منَا يَشولُ بلسانِه، وينشُرُ مَا فِي صِوانِه، مَا عدَا شيخاً مُشتَهِبا فَوْداهُ، مُخلَوْلِقاً بُرْداهُ، فإنَّهُ ربَضَ حَجرَةً، وأوسَعَنَا هجرَةً، فغاظَنَا تجنُّبُهُ، الْمُلتَبِسُ موجِبُهُ، الْمَعْذورُ فيه مؤنِّبُهُ، إلا أنّا ألَنَّا (١٣) لَهُ القوْلَ، وخشِينَا فِي الْمسألَةِ العَوْلَ (١٤)، وكُلَّمَا رُمْنَا أنْ يَفيضَ

---

(١) أي تغلي.

(٢) جمع وليدة، وهي: الجارية.

(٣) تجيءُ وتذهب لخدمة الأضياف.

(٤) زال التضييق.

(٥) أي: زهراً.

(٦) مُلئنَ.

(٧) مُنِعْنَ.

(٨) المبالغة والإكثار.

(٩) أي الأكول.

(١٠) تداولنا.

(١١) حللنا وتمكنّا.

(١٢) حديث اللّيل.

(١٣) من اللين، ضدّ الصلابة.

(١٤) خفنا أن نتكلّم معه فيزيد.

كَمَا فـضْنَا، أَوْ يُفيضَ فـيمَا أفَضْـنَا، أعْرَضَ إعْرَاضَ العلِّـيَّة عَنِ الأرْذَلينَ، وتَلا: ﴿إنْ هَذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ﴾، ثُمَّ كأنّ الْـحَـميَّةَ (١) هَاجَتْهُ (٢)، والنّفْسَ الأبيّةَ نَاجَتْهُ (٣)، فدلَفَ وازدلَفَ، وخلعَ الصّـلَفَ، وبذلَ أَنْ يَتلافَى (٤) مَا سلَفَ، ثُمَّ اسْتَرْعَى سمْعَ السَّامرِ، واندفَعَ كالسَّيلِ الْهَامِرِ (٥)، وقَالَ:

عِـنْدي أَعَـاجِـيبُ أَرْوِيـهَـا بـلا كَـذِبِ
عَـنِ الـعَـيَـانِ (٦) فـكَـنُّـونـي أَبَا الـعَـجَـبِ

رَأَيْـتُ يَـا قَـوْمِ أقْـوامـاً غِـذَاؤُهُـمُ
بَـوْلُ العَـجُـوزِ ومَـا أعـنـي ابنَـةَ الـعِـنَـبِ (٧)

ومُـسْـنِـتـينَ مِـنَ الأعْـرَابِ قُـوتُـهُـمُ
أَن يَـشْـتَـووا خِـرقَـةً تُـغْني مِـن السَّـغَـبِ (٨)

وقَـادِريـنَ مـتَـى مَـا سَـاءَ صُـنْـعُـهُـمُ
أو قـصَّـروا فـيـه قَـالُـوا الـتـذَّنْبُ لـلـحَـطَـبِ

وكَـاتِـبِـينَ ومَـا خَـطَّـتْ أَنَـامِـلُـهُـمْ
حَـرْفـاً ولاَ قَـرَؤُوا مَـا خُـطَّ فـي الـكُـتُـبِ

وتَـابِـعـينَ عُـقَـاباً (٩) فـي مَـسِـيـرهِـمِ
عَـلَـى تـكَـمّـيـهِـم فـي الـبِـيْـضِ والـيَـلَـبِ

ومُـنْـتَـديـنَ ذَوي نُـبْـلٍ بـدَتْ لَـهُـمُ
نـبـيـلَـةٌ فَـانْـثَـنـوْا مِـنْـهَـا إِلَـى الْـهَـرَبِ

---

(١) الأنفة والعظمة.
(٢) هيجته.
(٣) حدَّثته.
(٤) يتدارك.
(٥) السائل الجاري.
(٦) المشاهدة.
(٧) الخمرَ.
(٨) الجوع.
(٩) بضم العين: نوع من الطّيْر.

وعُصبَةً لَمْ ترَ البيْتَ العَتيقَ وقدْ
حَجَّتْ جُثيّاً بلا شكٍّ عَلَى الرُّكَبِ
ونِسوَةً بَعْدَمَا أَدْلجْنَ (١) من حلَبِ
صَبَّحْنَ كاظمَةً (٢) منْ غيرِ مَا تعَبِ
ومُدلجِينَ سرَوْا من أرضِ كَاظمَةٍ
فَأصْبَحُوا حينَ لاحَ الصُّبحُ فِي حَلَبِ (٣)
ويافِعاً لَمْ يُلامسْ قطُّ غانيَةً
شاهَدتُهُ ولهُ نسلٌ منَ العَقِبِ (٤)
وشائباً غيرَ مُخْفٍ للمَشيبِ بَدا
في البَدْوِ وهْوَ فتيُّ السِّنّ لَمْ يشِبِ
ومُرضَعاً بلبانٍ لَمْ يفُهْ فمُهُ (٥)
رَأَيْتُهُ في شجَارٍ بيِّنِ السَّبَبِ
وزارِعاً ذُرَةً حتَّى إذَا حُصِدَتْ
صَارتْ غُبَيراءَ (٦) يهوَاهَا أخو الطَّرَبِ
وراكِباً وهْوَ مغلولٌ (٧) عَلَى فرَسٍ
قد غُلَّ أيْضاً ومَا يَنْفَكّ عن خبَبِ
وذا يدٍ طُلُقٍ (٨) يقْتادُ راحلَةً
مُستَعجِلاً وهْوَ مأسورٌ أخو كُرَبِ

---

(١) أي: سرين في جوف اللَّيل.
(٢) هي من بلاد البصرة.
(٣) أصبحوا يحلبون اللبن.
(٤) مؤخر القدم.
(٥) لم ينطق بالكلام.
(٦) النبات المعروف، وهو: نوع من البنج.
(٧) مشدود في الغل والأسر.
(٨) صاحب يد مطلوقة، وهو: ضد المشدود.

وجـالِـسـا مَـاشـيـا تـهْـوي مـطيَّـتُـهُ
بـه ومَـا فـي الَّـذي أوْرَدتُ مِـنْ رِيَـبِ
وَحَـائكـاً أجْـذَمَ الْـكَـفَّين (١) ذَا خـرَس
فَـإن عـجـبـتمْ فكـمْ في الْـخَلقِ من عـجَبِ
وذا شَطـاطٍ (٢) كَـصَـدْرِ الـرُّمْح قَـامَـتُـهُ
صـادَفـتُـهُ بمنًى يشكُـو مـنَ الْـحَـدَبِ (٣)
وسـاعـيـا فِـي مـسَـرَّاتِ الأنَـامِ يـرَى
إفْـراحَـهُـمْ مَـأثـمًـا كـالظُّـلـمِ والـكـذبِ
ومُـغْـرمًـا (٤) بِـمُـنَـاجَـاة الـرِّجَـال لـهُ
ومَـا لـه فـي حـديـث الخَلْـقِ مـن أرَبِ
وذا ذِمَـامٍ (٥) وفَـتْ بـالـعَـهْـد ذمَّـتُـهُ
ولاَ ذمَـامَ لَـهُ فـي مـذهَـبِ الـعـرَبِ
وذا قُـوًى مَـا اسْـتَـبـانَـتْ قَـطُّ لـينَـتُـهُ
ولـينُـهُ مُـسـتَـبينٌ غَـيـرُ مُـحـتـجِـبِ
وسَـاجـداً فـوقَ فَـحْلٍ غـيـرَ مـكـتـرث (٦)
بِـمَـا أتَـى بَـلْ يـراهُ أفـضـلَ الـقُـرَبِ (٧)
وعـاذراً مـؤلِمـا (٨) مَـنْ ظَـلَّ يـعـذرهُ
مـعَ التَّـلَطُّفِ والْـمَـعْـذورُ في صَـخَبِ (٩)

---

(١) أقطع.
(٢) قامة معتدلة.
(٣) تقوّس الظهر وبروزه كالسّنام.
(٤) ولوعًا.
(٥) صاحب عهد وذمّة.
(٦) غير مبالٍ.
(٧) جمع قربة ـ بالضَّمِّ ـ وهي: الطاعة.
(٨) مُؤْذِيًا.
(٩) ارتفاع الصوت والصِّيَاح.

وبلْدَةً ما بِهَا ماءٌ لمُغْتَرِف
والْمَاءُ يجري عَلَيْهَا جَرْيَ مُنسرِبِ
وقريةً دونَ أُفحوصِ القطَا شُحنتْ
بِدَيْلَمٍ (١) عيشهُمْ من خُلسةِ (٢) السَّلَبِ (٣)
وكُوكَباً يتَوارَى (٤) عندَ رؤيته الـ
إنسَانُ حَتَّى يُرَى في أمنَعِ الْحُجُبِ
وَرَوْثَةً (٥) قوّمَتْ مَالاً لَهُ خطَرٌ (٦)
ونفْسُ صاحبِها بالْمَالِ لَمْ تطِبِ
وصحفَةً من نُضار خالص شُرِيتْ (٧)
بعدَ الْمِكَاسِ (٨) بقيراطٍ من الذَّهبِ
ومُستَجيشاً (٩) بخشْخاش ليَدفعَ ما
أظَلَّهُ (١٠) منْ أعاديه فَلَمْ يخِبِ
وطالَمَا مرّ بي كلبٌ وفي فمه
ثورٌ ولَكنَّهُ ثورٌ بلا ذنَبِ
وكَمْ رأَى ناظِري فيلاً عَلَى جَمَلِ
وقَدْ تورَّكَ فَوقَ الرَّحْلِ والقتَبِ

---

(١) يطلق على جيل من العجم.
(٢) هي ما يُؤْخَذُ كالسَّرِقَة.
(٣) ما يُسلَب من القتلى.
(٤) يختفي.
(٥) ما يخرج من بطون الماشية.
(٦) له قدر وشرف.
(٧) بيعت.
(٨) المشاحَّة بين المتبايعين.
(٩) طالب جيش يستعين به.
(١٠) ما غشيه وقرب منه.

وَكَمْ لَقِيتُ بعرضِ البَيْدِ مُشْتَكِيا (١)
وما اشْتَكَى قَطّ في جِدٍّ وَفي لعبِ
وَكُنتُ أبصرْتُ كَرَّازاً لراعيَةٍ (٢)
بالدَّوِّ (٣) ينظُرُ من عَينَينِ كالشُهُبِ
وَكَمْ رَأتْ مُقلَتي عينَين مَاؤهُمَا
يجري من الغَرْبِ والعَينَانِ في حَلَبِ
وَصَادعاً بالقَنَا من غَيرِ أنْ علقَتْ
كَفَّاهُ يَوماً برُمْحٍ لا ولَمْ يثبِ (٤)
وَكَم نزلْتُ بأرضٍ لا نَخيلَ بها
وَبَعْدَ يَوم رَأَيْتُ البُسرَ في القُلُبِ
وكم رَأَيْتُ بأقْطَار الفَلا طَبَقاً (٥)
يَطيرُ في الجَوِّ منصَبّا (٦) إلَى صَبَبِ
وَكَم مشَايخَ في الدُّنْيَا رَأَيْتُهُمُ
مُخَلَّدينَ ومَنْ ينْجو من العطَبِ
وَكَم بَدا لِي وَحْشٌ (٧) يَشْتَكِي سَغَبا (٨)
بمَنْطِقٍ ذَلِقٍ (٩) أمضَى مِنَ القُضُبِ

---

(١) ذا شكوى.
(٢) مؤنث راعٍ.
(٣) أي: بالفلاة.
(٤) لم يحمل على عدو ولم يظفر.
(٥) إناء مفرطح.
(٦) هاوياً من أعلى إلى أسفل.
(٧) الحيوان المتوحّش في البادية.
(٨) جوعًا.
(٩) فصيح.

وَكَمْ دَعانيَ مُسْتَنْجٍ فَحَادثَني
ومَا أخَلَّ ولاَ أخْلَلْتُ بالأدَبِ
وَكَمْ أنختُ قَلوصي تحت جُنبُذَة
تُظلّ مَا شئتَ من عُجَمٍ ومن عُرُبِ
وَكَمْ نظرْتُ إلَى من سُرّ ساعَتَهُ (١)
ودمعُهُ مستَهِلٌّ القطرِ كالسحُبِ
وَكَمْ رأَيْتُ قَميصاً ضرَّ صاحبَهُ
حَتَّى انثنَى (٢) وَاهيَ الأعضَاء والعَصَبِ (٣)
وَكَمْ إزارٍ لوَ انّ الدَّهْرَ أتلَفَهُ
لجفّ لبْدُ حَثيث السيرِ مُضطرِبِ
هَذَا وكمْ مِنْ أفانين مُعجِّبَةٍ (٤)
عندي ومن مُلَحٍ (٥) تُلْهي ومن نُخَبِ (٦)
فإنْ فطِنتمْ للَحنِ القولْ بان لكُمْ
صدْقي ودلَّكُمُ طلْعي عَلَى رُطَبي
وإنْ شُدِهتُمْ (٧) فَإنَّ العَارَ فيه عَلَى
مَنْ لا يُمَيِّزُ بَيْنَ العُودِ والخَشَبِ

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فطفِقْنَا نخبِطُ (٨) فِي تقْليبِ قَريضِهِ (٩)،

---

(١) من دخل عليه سرور في ساعة.
(٢) رجع.
(٣) ضعيف الأعضاء مسترخي العصب.
(٤) يتعجب منها.
(٥) ما يُسْتَحسن من الكلام.
(٦) ما ينتخب ويختار من الكلام.
(٧) بهتُّم وارتبتم فيما سمعتم.
(٨) نفكر ونقول.
(٩) الشعر الذي قاله.

وَتأويلِ مَعاريضِــه، وَهُوَ يلهُو بِنَا لَهْوَ الخَلِيِّ بالشّجيِّ، وَيَـقُولُ: ليسَ بعُشِّك فادرُجــي، إلَى أَنْ تعسَّـرَ النِّتَاجُ، واستحْكَمَ الارْتِـجَاجُ (١)، فألْـقَينا إلَـيْه الْـمَقادَةَ، وخطَبْنَا مِنْهُ الإفادَةَ، فوقَـفْنَا بَيْنَ الْـمَطمَعِ والياسِ، وقَالَ: الإينَاسُ قَبْلَ الإبْسَـاسِ! فعلِمنَا أَنَّهُ ممَّــنْ يرغَبُ فِي الشُّكْمِ، ويرتَشي فِـي الْـحُكْمِ، وساء أَبَا مثْوانَا أَنْ نعرَّضَ للغُرْمِ، أَوْ نُخَـيَّبَ بالرُّغْمِ، فأحْضَرَ صاحِبُ الْمَنزِلِ نَاقةً عِـيديّةً، وحُلّةً سَعِـيديّةً، وَقَالَ لَهُ: خُـذْهُمَا حَلالاً، وَلاَ ترزأ أضْـيافي زِبالاً، فَقَالَ: أشـهَدُ أنها شِنشِنَةٌ أخزَميّــةٌ، وأريَحيّةٌ (٢) حاتميَّــةٌ، ثُمَّ قابلَنَا بوجه بِـشرِهُ (٣) يشِفُّ، ونَضْـرَتُهُ ترِفُّ (٤)، وقَالَ: يَـا قَوْمِ إنَّ اللَّيْـلَ قَد اجْلَوَّذَ (٥)، والنُّعَاسَ قَد اسْتَحْوَذَ (٦)، فَافزَعُوا (٧) إلَى الْـمَرَاقِد، واغتَنِمُوا رَاحَةَ الرَّاقِد، لتَشرَبوا نَـشاطاً، وتُبعَثُوا (٨) نشَاطاً، فَتَعوا مَـا أفَسِّرُ، ويتَسهَّلَ لكُمُ الْـمُتَـعَسِّرُ، فَاستَصْـوَبَ كُلٌّ مَا رآهُ، وتَوَسَّدَ وِسَادَةَ كَرَاهُ، فَـلَمَّا وَسَنَت الأجْفانُ (٩)، وأغْفَـتِ الضِّيفَـانُ، وثَبَ إلَى النَّاقَـةِ فَرحَلَـها، ثُمَّ ارتَحلَـها ورحّلَها، وقَالَ مُخاطِباً لها:

سَروجَ يَا نَاقَ فَسِيري وخدي (١٠) ... وأدْلِجـي وأوِّبـي وأسْـئـدي
حَتَّى تَطا خُفّاكِ مرْعـاها النّدي ... فـتَـنـعَـمـي حـينـئـذ وتَسْـعَـدي
وتـأمَـني أَنْ تُـتْـهِــمي وتُـنْـجِـدي ... إيه فِـدَتك النّوقُ جِـدّي واجهَـدي
وافْـرِي (١١) أديمَ فَـدْفَـدٍ فـفَـدْفَـدِ ... واقْتَـنعي بالـنَّشْحِ (١٢) عِنْدَ الْمَوْرِدِ

---

(١) الاستغلاق والانسداد.
(٢) كرم وجود.
(٣) طلاقته وبشاشته ظاهرة.
(٤) تبرق وتتلألأ.
(٥) أسرع الذهاب.
(٦) استولى وغلب.
(٧) فانهضوا وقوموا.
(٨) تقوموا من نومكم.
(٩) أخذت في مبدأ النَّوْم.
(١٠) الوخد: الإسراع في السَّيْرِ.
(١١) أي: اقطعي.
(١٢) هو: الشُّرْب.

وَلاَ تَحُطِّي دونَ ذاكَ الْمَقصد   فَقَدْ حلَفْتُ حَلفَةَ الْمجتَهد
بحُرمَةِ البيتِ الرّفيعِ العُمُدَ   إنّك إنْ أحلَلْتِني فِي بلَدي
حللْتِ منِّي بمحَلِّ الولَد

قالْ: فعلِمْتُ أَنَّهُ السَّرُوجيُّ الَّذي إذَا باعَ انْباعَ (١)، وَإذَا ملأ الصَّاعَ انْصَاعَ (٢)، ولَمَّا انبلَجَ صَبَاحُ الْيَوْمِ، وهبّ النُّوَّامُ (٣) منَ النَّومِ، أعلَمتُهُمْ أَنْ الشَّيْخَ حِينَ أغْشاهُمُ السُّباتَ (٤)، طلّقَهُمُ البَتَاتَ، وَرَكِبَ النّاقَةَ وفاتَ، فأخذَهُم مَا قَدُمَ ومَا حَدُثَ، ونَسُوا مَا طابَ مِنْهُ بِمَا خبُثَ، ثُمَّ انشَعَبْنَا (٥) فِي كُلِّ مشْعَبٍ (٦)، وذَهَبْنَا تَحْتَ كُلِّ كُوكَبٍ.

قَالَ الشَّيْخ الرئيس أَبُو محمد القاسم بن علي ـ رضي الله عنه: قَدْ فسرت سر كل لغز تحته ولَمْ أبعد عَلَى من يقرأه كشفه وَقَدْ بقيت أليفَاظ اشتملت عليها هَذه الْمقامة ربمَا التمس تفسيرها عَلَى بَعْضٍ من تقع إليه فأحببت إيضاحها له؛ ليُكْفَى حيرة الشبهة، وكلفة الفكرة، ووصمة البحث والمسألة، وبالله تعالى الاستعانة والقوَّة.

قوله: (عشوت إلى نار) يعني: تنورتها فقصدتها فإن لم تقصدها قلت: عشوت عنها. كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]، أي: يعرض. وقوله: (وأنا أصرد من عين الحرباء والعنز الجرباء) هذان مثلان يُضْرَبَانِ لمن يبلغ منه البرد، وذلك لأنَّ الحرباء تدور أبدًا مع الشمس وتستقبلها بعينها، ولذلك شبَّه ابن الرُّومِيّ الرَّقيب بالحرباء في قوله:

---

(١) انبعث للذهاب.
(٢) مال وراح.
(٣) استيقظ النائمون.
(٤) غلب عليهم النوم والراحة.
(٥) تفرَّقنا.
(٦) طريق.

مـا بـالـهـا حُـسِّـنَـتْ ورقـيـبـهَـا أبـدًا قَـبـيـحٌ قُـبِّـحَ الـرَّقَـبَـاءُ
مَـا ذَاكَ إلا أنَّهـا شـمس الـضُّـحَى أبَـدًا يَـكُـونُ رَقِـيـبـهَـا الْحِـرْبَـاءُ

والعنز الجرباءُ لا تدفأ في الشتاء؛ لِقِلَّة شعرها، ذكر بعضهم أن العنز الجرباءَ تصحيف المثل الأول. وقَوْلُهُ: (من نحر وار) يعني الجمل الْمكتنز شحمًا الكثير مخا، وقَوْلُهُ: (عشاره تخور وإعشاره تفور) العشار النوق الْحوامل والأعشار البرمة العظيمة كأنها شعبت لعظمها يُقَالُك برمة أعشار وجفنة أكسار وثوب أَسْمَال وبرد أخلاق وحبل أرمَام ووصف الجْمَاعة منْهَا كوصف الواحد، وقَوْلُهُ: (فاكهة الشتاء) كني بِهَا عن النَار ومنه قول بَعْضِ المحْدثين:

الـنَار فـاكـهـة الـشـتـاء فـمن يـرد أكل الـفـواكه شـاتـيـا فليـصـطـل
إن الـفـواكـه فِي الـشـتـاء شـهـيـة والـنـار الْمقـرور أفـضـل مـأكـل

وقوله: (موائد كالهالات) يعني دارات القمر ودارة الشمس تسمَى الطفاوة.

وقوله: (مشوش الغمر) يعني الْمنديل يُقَالُ: مش يده بالْمنديل أي مسحها ومنه قول امرئ القيس

نمـشُّ بـأعـراف الجْـيـاد أكـفـنَـا إذَا نحـن قمنَـا عن شـواء مضـهب

وقوله: (مشتهبا فوداه) أي صارا من الشيب فِي لون الأشهب ومنه قول امرئ القيس أيضاً

قـالت الخْـنـسـاء لمَا جـئـتـهـا شـاب بعدي رأس هَـذَا واشتـهب

وقوله: (ربض حجرة) يعني نَاحية ويُقَالُ فِي الْمثل لمن يشارك فِي الرخاء ويجانب عند البلاء يرتع وسطاً ويربض حجرة، وقَوْلُهُ: (فاسترعة سمع السامر) يعني السمَار لأن السامر اسْم للجمع كالحاضر اسْم للحي النَازلين

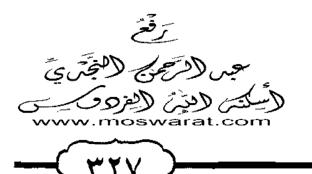
عَلَى الْماء وكالباقر اسْم لجمَاعة البقر وَقَالَ بَعْضِ أهل اللغة هو اسْم للبقر مَعَ رعاتها واشتقاق السامر من السمر وهو ظل القمر مأخوذ من السمرة فَلَمَّا كَانَ غالب أحوال السمَار أنهم يتحدثون فِي ظل القمر اشتق لهم اسْم مِنْهُ وإلَى هَذَا يرجع قولهم لا أكلمه القمر والسمر، وقَوْلُهُ: (ليس بعشك فادرجي) هَذَا مثل يضرب لمن يتعاطَى مَا لا ينبغي له والعش مَا يكُون فِي شجرة فَإذَا كَانَ فِي حائط أَوْ كهف جبل فهو وكر، وقَوْلُهُ: (الإينَاس قبل الإبساس) هَذَا مثل أيضاً ومعنَاه أَنَّهُ ينبغي أَنْ يؤنس الإنسان ثم يكلف وأصله أَنْ حالب النَاقة يؤنسها حين يروم حلبها ثُمَّ يبس بِهَا للْحلب والإبساس أَنْ تقول لَهَا: بس لتسكن وتدر وتسمَى النَاقة الَّتِي تدر عَلَى الإبساس البسوس.

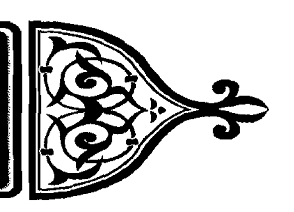
وقوله: (يرغب فِي الشكم) الشكم مَا أعطيته عَلَى سبيل المجْازاة فإن أعطيته مبتدءاً فهو الشكد، وقَولُهُ: (ساء أَبَا مثوانا) يعني المْضيف الَّذِي أووا إليه وثووا عنده، وقَوْلُهُ: (نَاقة عيدية) قيل: إنها منسوبة إلَى فحل منجب اسْمه عيد، وقيل: هِيَ منسوبة إلَى فخذ من مهرة اسْمه عيد بن مهرة وكانت مهرة وعيد تتخذان نجائب الإبل فنسبت إليهمَا. وقوله: (حلة سعيدية) هِيَ منسوبة إلَى سعيد بن العاص وكَانَ رسول الله ﷺ كساه وهو غلام حلة فنسب جنسها إليه. وقوله: (لا ترزأ أضيافي زبالاً) أي لا ترزأهم شيئاً وإن قل والأصل فِي الزبال مَا تحمله النملة بفيها. وقوله: (شنشنة أخزمية) أشار به إلَى المْثل الَّذِي ضربه جد حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحْشرج بن أخزم الطائي حين نشأ حاتم وتقيل أخلاق جده أخزم فِي الجْود فقَيلَ: شنشنة أعرفها من أخزم وتمثل عقيل بن غلفة به حين قَالَ:

إن بني ضرَّجوني بالدَّمِ من يلق آساد الرجال يُكْلَم
شنشة أعرفها من أخزم

ومن ادعَى أَنْ المْثل فَقَدْ سها فيه وقَوْلُهُ: (اجلوذ) أي أَسْرِع فِي الذهاب ومثله اخروط. وقوله: (وثب إلَى النَاقة فرحلها) يعني شد عليها الرحل وبه سميت الراحلة لأنها فاعلة بمعنَى مفعولة كقوله تعالَى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية وكقوله تعالَى: ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي مدفوق والراحلة تقع عَلَى النَاقة والجمل ودخول الْهاء فِيهَا للمبالغة مثل داهية وراوية. وقوله: (ارتحلها) أي ركبها وَفِي الحْديث أَنْ النبي ﷺ سجد فركبه الحْسن فأبطأ فِي سجوده فَلَمَّا قضَى صلاته قَالَ: «**إن ابني ارتحلني فكرهت أَنْ أعجله**». وقوله: (ورحَّلها) أي أزعجها وأشخصها وأجدّ بها في الرَّحِيل. ومنه الخبر: «**تخرج عند اقتراب السَّاعة نارٌ من قعر عدن ترحّل الناس**». وقوله: (فأدلجي وأوبي وأسئدي): الإدلاج أن تسير اللَّيل كلّه، والاسم منه: الدَّلجة ـ بفتح الدَّال ـ والادّلاج ـ بالتشديد: أن تسير من آخره والاسم منه الدُّلجة ـ بضم الدَّال ـ وقيلَ: فتحها وضمها بمعنى واحد. والتأويب: سير النهار وحده. والإسآد: أن تسير ليلاً ونهاراً. والنشح: أن تشرب دون الريّ. وقوله: (فأخذهم ما قدم وما حدث): يُقالُ ذلك لمن تستولي الهموم عليه وتتلاعب به. وتضم الدَّال من حدث في هذا الموضع وحده ليوافق لفظها لفظ قدم، فإن أفردت حدث عن قدم وجب فتح الدال من حدث. ومثله قولهم: «هنأني ومرأني» بحذف الألف من أمرأني إذا ذكر مع هنأني فإن أفردته وجب أن تقول: أمرأني الشيء. وقوله: (ذهبنا تحت كل كوكب»: هذا المثل يُضْرَبُ لمن تختلف في السفر طرقهم، وتتَبَايَن سبلهم.

۞۞۞





المَقَامَةُ الْخَامسَةُ وَالأرْبَعُونَ
الرَّمْلِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: كُنْتُ أخذتُ عَنْ أُولِي التّجاريبِ، أَنَّ السّفَرَ مِرآةُ الأعاجيبِ، فَلَمْ أزَلْ أجوبُ كُلَّ تَنوفَةٍ (١)، وأقتَحِمُ كُلَّ مَخوفَةٍ(٢)، حَتَّى اجتَلَبْتُ كلَّ أُطروفَةٍ، فمِنْ أحسَنِ مَا لَمَحْتُهُ، وأغْرَبِ مَا اسْتَمْلَحْتُهُ (٣)، أَنْ حضَرْتُ قاضيَ الرّملَةِ، وكانَ مِنْ أربابِ الدّولَةِ والصّولَةِ، وَقَدْ تَرافَعَ إليْهِ بالٍ فِي بالٍ، وذاتُ جَمَالٍ فِي أَسْمَالٍ، فهمّ الشّيْخُ بالكلامِ، وتبْيانِ الْمَرامِ (٤)، فَمَنَعَتْهُ الفَتاةُ مِنَ الإفْصَاحِ، وخَسأَتْهُ عَنِ النُّباحِ، ثُمَّ نَضَتْ عَنْهَا فَضْلَةَ الوِشَاحِ (٥)، وأَنْشَدَتْ بلِسَانِ السَّليطَةِ الوَقاحِ:

يَا قَاضيَ الرَّملَةِ يَا ذَا الَّذي ... فِي يَدِه الثَّمْرَةُ والجَمْرَهْ (٦)
إليْكَ أشْكُو جوْرَ بَعْلي الَّذي ... لَمْ يحجُجِ البيتَ سوَى مرَّهْ
ولَيْتَهُ لَمَّا قَضَى نُسُكَهُ ... وَخَفَّ ظَهراً إذْ رمَى الجَمرَهْ
كَانَ عَلَى رأيِ أبي يوسُفٍ ... فِي صِلَةِ الحَجَّةِ بالعُمْرَهْ
هَذَا عَلَى أنِّيَ مُذْ ضَمَّني (٧) ... إلَيْهِ لَمْ أَعْصِ لَهُ أمْرَهْ
فَمُرْهُ إمَّا أُلْفَةً حُلوَةً ... تُرْضِي وَإمَّا فُرقَةً مُرَّهْ
مِنْ قبلِ أَنْ أخلَعَ ثَوْبَ الحَيَا ... فِي طَاعَةِ الشَّيْخِ أبي مُرَّهْ

(١) أقطع كل مفازة.
(٢) ما يخاف منها.
(٣) عددته مليحًا.
(٤) إظهار المطلوب والإفصاح عنه.
(٥) أزالت عن وجهها ما عليه من غطاء.
(٦) بيده الخير والشَّر والنَّفع والضرّ.
(٧) من حين تزوجني.

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: قَدْ سَمِعْتَ بِمَا عَزَتْكَ (١) إليْه، وتوعَّدتْكَ عَلَيْه، فَجانِبْ مَا عرَّكَ (٢)، وحاذِرْ أَنْ تُفرِكَ، وتُعْرِكَ، فجَثا (٣) الشَّيْخُ عَلَى ثفنَاته (٤)، وَفَجَرَ ينبوعَ نفثَاته (٥)، وقَالَ:

اسْمَعْ عَداكَ الذَّمُّ قَولَ امرئٍ يوضِحُ في مَا رَابَهَا عُذرَهْ
وَالله مَا أعرَضْتُ عَنْهَا قِلًى (٦) ولاَ هوَى (٧) قَلْبِي قَضَى نذرَهْ (٨)
وإنَّمَا الدهْرُ عَدَا صَرْفُهُ فَابْتَزَّنَا الدُّرَّةَ والذَّرَّهْ
فمنزلي قفرٌ كَمَا جيدُهَا عُطْلٌ (٩) منَ الخَرْعَة والشَّذْرَهْ
وَكُنتُ منْ قَبْلُ أرَى في الْهَوَى ودينه رأيَ بني عُذرَهْ
فمُذْ نَبَا الدَّهْرُ هَجَرْتُ الدُّمَى هجْرَانَ عَفٍّ (١٠) آخذ حذْرَهْ
وَملتُ عَنْ حَرْثي لا رَغبَةً عَنهُ ولَكِنْ أتَّقي بَذْرَهْ
فَلا تلُمْ مَنْ هَذه حالُهُ وَاعطفْ عَلَيْه وَاحتَملْ هَذرَهْ (١١)

قَالَ: فالتَظَتِ (١٢) المرْأةُ منْ مَقاله، وانتضَت الْحُجَجَ لجداله، وقَالَتْ لَهُ: ويلَكَ يَا مَرْقَعَانُ (١٣)، يَا مَنْ هُوَ لا طَعامٌ وَلاَ طعانٌ! أتَضيقُ بالولَد ذَرْعاً (١٤)، ولكُلّ أكُولَة مرعًى؟ لَقَدْ ضلّ فَهْمُكَ، وأخطأ سهمُكَ، وسفِهَتْ (١٥) نَفْسُكَ، وشقِيَتْ بِك عرسُكَ (١٦)، فَقَالَ لَهَا القَاضِي: أَمَّا

---

(١) نسبتك.
(٢) تبعد عما يعيبك.
(٣) جلس.
(٤) على ركبه.
(٥) كلماته.
(٦) بغضًا وعداوة.
(٧) حُبّ.
(٨) زال.
(٩) سلبنا الخطير والحقير.
(١٠) عفيف.
(١١) كلامه الكثير السقط.
(١٢) فاحترقت.
(١٣) الأحمق كالرقيع.
(١٤) قلبًا.
(١٥) ذهب رشدها.
(١٦) زوجتك.

أنتِ فلوْ جادلْتِ الخَنْساء، لانثَنَتْ[١] عنك خرْساء، وأمَا هُوَ فإنْ كَانَ صدقَ فِي زعمِه[٢]، ودعْوَى عُدْمِه[٣]، فَلَهُ فِي هِمٍّ قَبْقَبِه[٤]، مَا يشغلُهُ عَنْ ذبْذَبِه، فأطرَقَتْ تنظُرُ ازوِراراً[٥]، وَلاَ تُرجِعُ حِواراً، حَتَّى قُلْنَا: قَدْ راجعَها الْـخَفَرُ[٦]، أَوْ حاقَ بِهَا الظّفَرُ، فَقَالَ لَهَا الشَّيْخُ: تعْساً لَكَ إنْ زخْرفْتِ، أَوْ كتَمْتِ مَا عرفْتِ! فَقَالَت: ويْحَكَ وَهَلْ بَعْدَ الْـمُنَافَرَة كتْمٌ، أَوْ بقيَ لنَا عَلَى سِرٍّ ختْمٌ؟ ومَا فينَا إلا مَنْ صدَقَ، وهتَكَ صونَهُ إذْ نطَقَ، فلَيتَنَا لاقَيْنَا البكَمَ، وَلَمْ نلْقَ الحكَمَ، ثُمَّ التفَعَتْ بوِشاحِها، وتباكَتْ لافتْضاحِها، وجعلَ الْقَاضِي يَعجَبُ مِنْ خطبِهِمَا ويُعجِّبُ، ويلومُ لهُمَا الدّهْرَ ويؤنِّبُ[٧]، ثُمَّ أحْضَرَ من الورقِ ألْفَينِ، وَقَالَ: أرْضِيا بهِمَا الأجْوَفَينِ، وعاصِيا النَّازِغَ[٨] بَيْنَ الإلْفَيْنِ[٩]، فشكَرَاهُ عَلَى حُسنِ السَّراحِ، وانطَلَقا وهُمَا كالْمَاء والرَّاحِ[١٠]، وطفِقَ الْقَاضِي بَعْدَ مسرَحِهِمَا[١١]، وتنَائي شبَحِهِمَا[١٢]، يُثْني عَلَى أدَبِهِمَا، ويقول: هل مِنْ عارِفٍ بهِمَا؟ فَقَالَ لَهُ عينُ أعْوانه، وخالصَةُ خُلْصانه: أمَا الشَّيْخُ فالسَّروجيُّ الْـمَشْهُودُ بفضله، وأمَا الْمرأةُ فقَعيدَةُ رحْلِه، وأمَّا تحاكُمُهمَا فمكيدةٌ[١٣] من فعلِه، وأُحْبُولَةٌ[١٤] مِنْ حَبَائِلِ خَتْلِه! فأحْفَظَ الْقَاضِيَ مَا سَمِعَ، وتلهَّبَ كَيْفَ خُدِعَ، ثُمَّ قَالَ للْوَاشِي بهِمَا:

---

(١) لرجعت.
(٢) ظنّه
(٣) فقره.
(٤) القبقب: البطن.
(٥) خفيةٌ بجانب عينها.
(٦) شدَّة الحياء
(٧) يوبّخ ويبالغ في ذَمِّ الدَّهْر.
(٨) الذي يوقع الشرّ والعداوة بين الناس.
(٩) المتحابّين.
(١٠) ممتزجين مُؤْتَلفين.
(١١) بعد انصرافهما وذهابهما.
(١٢) تباعد جسمها.
(١٣) خديعة وحيلة.
(١٤) شبكة صيد.

قُمْ فرُدْهُمَا، ثُمَّ اقصِدْهُمَا وصِدْهُمَا، فنهضَ ينفُضُ مِذروَيْه، ثُمَّ عادَ يضرِبُ أصْدَرَيْه! فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: أَظْهِرْنَا عَلَى مَا نَبَثْتَ (١)، ولاَ تُخْفِ عنّا مَا اسْتَخْبَثْتَ، فَقَالَ: مَا زِلْتُ أَسْتَقْرِي (٢) الطُّرُقَ، وأستَفتِحُ الغُلُقَ، إلَى أَنْ أدركْتُهُمَا مُصْحِرَينِ (٣)، وَقَدْ زمَّا مَطِيَّ البيْنِ، فَرَغَّبْتُهُمَا فِي العَلَلِ، وكَفَلْتُ (٤) لهُمَا بنَيلِ الأمَلِ، فَأُشْرِبَ قَلْبُ الشّيخِ أَنْ ييأسَ، وقَالَ: الفرَارُ بِقُرابٍ أكيَسُ! وقَالَتْ هيَ: بلِ العودُ أحمَدُ، والفَرُوقَةُ (٥) يكْمَدُ، فَلَمَّا تبيّن الشَّيْخُ سفَهَ رَائِهَا (٦)، وغَرَرَ اجْتِرائِهَا (٧)، أمسكَ ذَلاذِلَهَا (٨)، ثُمَّ أنشأ يَقُولُ لها:

دونَكَ نُصْحي فاقتَفي سُبْلَهْ ... واغني عَنِ التَّفْصيلِ بالجُملَهْ
طيري متَى نقّرْت عن نخلَة ... وَطَلِّقيهَا بتَّةً (٩) بتْلَهْ (١٠)
وحاذري العودَ إلَيْهَا ولوْ ... سَبَّلَهَا نَاطورُهَا الأبْلَهْ
فَخَيرُ مَا للِّصِّ أَنْ لا يُرَى ... ببُقْعَةٍ فيهَا لَهُ عَمْلَهْ

ثُمَّ قَالَ لي: لَقَدْ عُنِّيتَ (١١)، فِيمَا وُلِّيتَ (١٢)، فارجِعْ مِنْ حيثُ جِئْتَ، وَقُلْ لِمُرسلكَ إنْ شئْتَ:

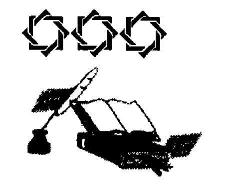
رُوَيدَكَ (١٣) لا تُعَقِبْ جَمِيلَكَ بالأذَى
فتُضْحي وَشَملُ الْمَالِ وَالْحَمْدِ مُنصَدِعْ (١٤)

---

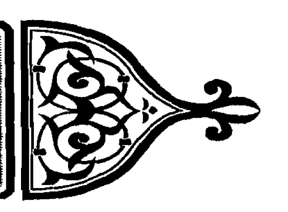
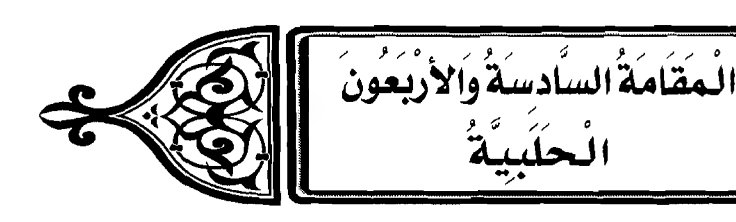
(١) على ما استخرجت من الأسرار.
(٢) أتتبع.
(٣) خارجين إلى الصحراء.
(٤) ضمنت.
(٥) الجبان كثير الخوف.
(٦) خطأها في الرأي.
(٧) خطر تجاربها وجراءتها.
(٨) أذيال قميصها مما يلي الأرض.
(٩) طلقة بائنة مقطوعًا بها.
(١٠) لا رجعة فيها.
(١١) أُتعبت.
(١٢) فيما أُمرت به.
(١٣) تمهَّل وكن ذا حلم.
(١٤) متمزق متفرق بسبب ما حصل من أذاك.

وَلاَ تتغضّبْ منْ تزيُّد سَائلٍ
فَمَا هُوَ في صَوْغِ اللّسانِ بِمُبْتَدِعْ(١)
وإنْ تكُ قَدْ ساءتكَ منِّي خَديعَةٌ
فَقَبْلَكَ شَيخُ الأشْعَرِيِّينَ قَدْ خُدِعْ

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: قَاتَلَهُ اللهُ فَمَا أَحْسَنَ شُجُونَهُ(٢)، وأَملَحَ فنونَهُ! ثُمَّ إِنَّهُ أصْحَبَ رَائِدَهُ بِرْدَيْنِ، وصُرَّةً منَ الْعَيْنِ، وقالَ لَهُ: سِرْ سَيرَ منْ لا يَرَى الالتِفَاتَ(٣)، إلَى أَنْ تَرَى الشَّيْخَ والفَتَاةَ، فَبُلَّ يديْهِمَا بهَذَا الحِبَاءِ(٤)، وبيّن لهُمَا انخِداعي للأدَباء، قَالَ الرَّاوِي: فَلَمْ أرَ فِي الاغترابِ، كهَذَا العُجَابِ، وَلاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِه ممَّنْ جَالَ وَجَابَ.



(١) بأول من زين الكذب.
(٢) طرقه وفنونه.
(٣) سَيْرًا سريعًا.
(٤) العطاء من غير جَزَاءٍ ولا مَنٍّ.

الْمَقَامَةُ السَّادِسَةُ وَالأرْبَعُونَ
الْحَلَبِيَّةُ

روَى الْحارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: نَزَعَ بِي إِلَى حَلَبَ شَوْقٌ غلَبَ، وطلَبٌ يَا لَهُ من طلَبٍ! وكُنْتُ يومَئذ خَفيفَ الحَاذِ، حَثِيثَ النَّفَاذِ(١)، فأخذْتُ أُهبةَ السَّيرِ، وخفَفْتُ نحوَها خُفُوفَ الطَّيْرِ، ولَمْ أزلْ مُذْ حلَلْتُ رُبوعَهَا(٢)، وارْتَبَعْتُ ربيعَهَا، أُفَاني الأَيَّامَ، فيمَا يَشْفي الغَرامَ(٣)، ويُرْوي الأُوَامَ(٤)، إلَى أَنْ أقْصرَ القَلْبُ عَنْ ولُوعِه، واسْتَطَارَ غُرَابُ الْبَيْنِ بَعْدَ وُقُوعِه، فَأغْراني البَالُ الخَلْوُ(٥)، والمَرحُ الْحلْوُ، بأنْ أقصدَ حِمْصَ، لأصْطافَ ببُقْعَتِها(٦)، وأَسْبُرَ(٧) رَقاعَةَ أهلِ رُقْعتِهَا، أسْرَعْتُ إِلَيْهَا إسْراعَ النَّجْمِ، إذَا انْقَضَّ(٨) للرَّجْمِ، فَحِينَ خَيَّمتُ برُسومِهَا، ووجَدْتُ رَوْحَ نَسِيمِهَا، لمحَ طَرْفِي(٩) شَيْخاً قَدْ أقبلَ هَريرُهُ، وأدبَرَ غَريرُهُ، وعِنْدَهُ عشَرَةُ صِبْيانٍ، صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ، فَطَاوَعْتُ فِي قصْدِه الحِرصَ، لأخبُرَ بِه أُدبَاءَ حِمصَ، فبَشَّ بِي(١٠) حِينَ وافَيْتُهُ، وَحَيَّا بأحسَنَ مِمَّا حيَّيتُهُ، فجلسْتُ إليْهِ لأبلوَ جنَى نُطْقِهِ(١١)،

---

(١) سريع المضيّ في الأمور.
(٢) منازلها.
(٣) فيما يزيل الولوع وعذاب الفُؤَاد.
(٤) شدَّة العطش.
(٥) القلبُ الخالي من الهَمِّ.
(٦) بأرضها.
(٧) واختبر.
(٨) نزل بسرعة.
(٩) أبصرت عيني.
(١٠) ففرح بي وقابلني بوجه طَلْق.
(١١) لأختبر ثمر كلامه.

وأكْتَنِهَ كُنْهَ حُمقِه، فَمَا لبثَ أَنْ أشارَ بعُصَيّه، إلَى كُبْرِ أُصَيْبِيَتِه، وقَالَ لَهُ: أَنْشِدِ الأبْيَاتَ العَواطِلَ(١)، واحْذَرْ أَنْ تُمَاطِلَ، فجثَا جِثوَةَ ليْثٍ، وأَنْشَدَ مِنْ غَيرِ رَيْث(٢):

أَعْدِدْ لِحُسَّادكَ حَدَّ السِّلاحْ ... وأوْرِدْ الآمِلَ وِرْدَ السَّمَاحْ(٣)
وَصَارِمِ اللَّهْوَ(٤) ووصْلَ الْمَهَا ... وَأَعْمِلِ الكُومَ وسُمرَ الرِّمَاحْ
وَاسْعَ لإدْراكِ مَحَلٍّ سَمَا ... عِمَادُهُ لا لادِّرَاعِ الْمِرَاحْ
وَاللهِ مَا السُّؤْدُدُ(٥) حسْوُ الطِّلا ... وَلاَ مَرادُ الحَمْدِ(٦) رُودٌ رَدَاحْ
واهاً لِحُرٍّ واسعٍ صدرُهُ ... وهمُّهُ مَا سرَّ أَهْلَ الصَّلاحْ
مَوردُهُ(٧) حُلْوٌ(٨) لِسُؤّالِه ... ومَالُهُ مَا سَأَلوهُ مُطاحْ
مَا أَسْمَعَ الآمِلَ رَدّاً ولا ... مَاطَلَهُ والمَطْلُ لؤمٌ صُرَاحْ(٩)
وَلاَ أطَاعَ اللَّهْوَ لَمَّا دَعَا ... وَلاَ كَسَا راحاً لَهُ كأسَ راحْ
سَوَّدَهُ إصْلاحُهُ سِرَّهُ(١٠) ... ورَدْعُهُ أهْواءَهُ والطِّمَاحْ
وحَصَّلَ الْمَدْحَ لَهُ عِلْمُهُ ... مَا مُهِرَ العورُ مُهورَ الصِّحاحْ

فَقَالَ لَهُ: أحسنتَ يَا بُدَيرُ، يَا رأسَ الدّيرِ! ثُمَّ قالَ لِتلْوِهِ(١١)، الْمُشْتَبِهِ بِصِنْوِهِ(١٢): ادنُ يَا نُوَيرَةُ، يَا قمرَ الدُّوَيرَة! فدنَا ولَمْ يتَباطَا، حَتَّى حلّ منْهُ مقْعَدَ الْمُعاطَى، فَقَالَ لَهُ: اجْلُ الأبْياتَ العَرائِسَ وإنْ لَمْ يكُنَّ نَفائِسَ، فبرَى

---

(١) جمع عاطل، وهي: العارية عن النقط.
(٢) من غير إبطاء.
(٣) مورد الكرم والجود.
(٤) هي المقاطعة؛ أي: تباعد عن اللهو.
(٥) السيادة.
(٦) ليس محل طلبه وإرادته.
(٧) أي: ماؤه، والمراد: عطاؤه.
(٨) سهل.
(٩) صريح خالص.
(١٠) قلبه واعتقاده.
(١١) لمن يليه.
(١٢) الذي كأنه أخوه.

القلَم وقَطّ، ثُمَّ احْتَجَرَ اللّوْحَ وخطّ:

فـتَـنَـتْـنـي فـجـنَّـنَـتْـنـي تجَـنّي بتَـجَـنٍّ (١) يـفْـتَنُّ غـبَّ تجَنّـي (٢)
شغَفَتني (٣) بجَفنٍ ظَبْـيٍ غَضيضٍ غـنِجٍ يـقْـتَـضي تَـغَـيُّـضَ جَـفْـني
غَـشـيَـتْـنـي بـزينـتَين فـشـفَّـتْـ ـنـي بزيٍّ (٤) يَشفُّ (٥) بيْنَ تـثَنّي
فَـتظَـنّـيـتُ تجْـتَـبـيـني (٦) فـتـجْـزِ ـنـي بنَفْـث يشْـفي فـخُـيّبَ ظَـنّي
ثـبّـتَـتْ فِي غـشٍّ جَـيْـب بتَـزْيـيـ ـنِ خَـبـيثٍ يـبْـغي تـشَفّـيَ ضِـغْن
فنَـزَتْ فِي تَجَنُّـبي (٧) فَثَنَتْـني (٨) بِـنَـشـيـجٍ (٩) يُـشْـجي بـفَنٍّ فـفَـنّ

فَلَمَّا نَظَرَ الشَّيْخُ إلَى مَا حَبَّرَهُ (١٠)، وتصفّحَ مَـا زبرَهُ، قَالَ لَهُ: بورِكَ فيكَ مِنْ طَلاً، كَـمَا بُورِكَ فِي لاَ ولاَ، ثُمَّ هتَفَ: اقْرُبْ يَا قُطْـرُبُ، فاقْتَرَبَ مِنْهُ فتًى يَحكْـي نَجْمَ دُجْيةٍ (١١)، أَوْ تِمثْـالَ دُميةٍ، فَقَالَ لَـهُ: ارقُمِ الأبْيَاتَ الأخْيافَ، وتَجَنَّبِ الْـخلاَفَ، فَأَخَذَ القلَمَ ورقَمَ:

إسْمَحْ فـبَـثُّ السَّمَاحِ (١٢) زَيـنٌ وَلاَ تُـخِـبْ آمِـلاً تـضَـيَّـفْ
وَلاَ تُـجِـزْ رَدَّ ذي سُـؤَالٍ فَـتّـنَ أَمْ فِـي الـسّـوال خَـفَّـفْ
وَلاَ تـظُـنَّ الـدُّهـورَ تُـبْـقـي مَـالَ ضَـنـين (١٣) وَلَـوْ تـقَـشَّـفْ
واحلُمْ فـجفنُ الكرامِ يُـغْضي (١٤) وصَـدرُهُمْ فِـي الـعَـطَـاء نَفْـنَفْ

---

(١) يعني بتيهٍ ودَلال.
(٢) أثر جناية.
(٣) شغلت قلبي.
(٤) هيئة.
(٥) يظهر ويلوح.
(٦) أي: تختارني.
(٧) تباعدها عنِّي.
(٨) فصرفتني وردّتني.
(٩) هو البكاءُ من غير انتحاب كالشّهيق.
(١٠) زيّنه وحسّنه.
(١١) نجم ليلة مظلمة.
(١٢) فنشر الجود.
(١٣) بخيل.
(١٤) يتغافل ويحتمل الأذى.

وَلاَ تَخُنْ عَهْدَ ذي ودادٍ ثبْتٍ (١) وَلاَ تبْغِ مَا تزيَّفْ

فَقَالَ لَهُ: لا شُلَّتْ (٢) يَداكَ، وَلاَ كلّتْ مُداكَ، ثُمَّ نَادَى: يَا عشَمْشَمُ! يا عِطْرَ منْشَمَ! فلبّاهُ غُلامٌ كَدُرَّةِ غوَّاصٍ، أَوْ جُؤذُرِ قنّاصٍ، فَقَالَ لَهُ: اكتبِ الأبيَاتَ الْمَتائيمَ (٣)، وَلاَ تكُنْ مِنَ الْمَشَائِيمِ (٤)، فتنَاولَ القلَمَ الْمُثقَّفَ، وكتبَ ولَمْ يَتَوقَّفْ:

زُيِّنَتْ زينَبُ بقَدٍّ (٥) يقُدُّ
وتَلاهُ (٦) ويْلاهُ نَهْدٌ يَهُدُّ
جُندُهَا (٧) جيدُهَا (٨) وظَرفٌ وطَرْفٌ
نَاعسٌ تاعسٌ بحدٍّ يَحُدُّ
قَدرُها قَدْ زَها وتَاهَتْ (٩) وباهَتْ (١٠)
واعْتَدَتْ (١١) وَاغْتَدَتْ بخَدٍّ يخُدُّ (١٢)
فَارَقَتْني فأرَّقَتْني (١٣) وشَطَّتْ (١٤)
وَسطَتْ (١٥) ثُمَّ نمَّ وجْدٌ وجَدُّ
فَدنَتْ فدَيْتُ وَحَنَّتْ (١٦) وحَيَّتْ
مُغْضَباً مُغْضِياً (١٧) يودُّ يَوَدُّ

---

(١) ثابت القلب.
(٢) لا ييبس.
(٣) المتماثلة.
(٤) جمع المشؤوم، ضد الميمون.
(٥) أي: بقامة.
(٦) وتبعه.
(٧) عسكرها وجيشها.
(٨) عنقها.
(٩) تكبَّرت.
(١٠) افْتَخَرَت.
(١١) من العدوان، وهو: الظلم.
(١٢) يشق القلوب.
(١٣) فأسهرتني.
(١٤) بعدت.
(١٥) بطشت بالقهر وصالت.
(١٦) من الحنين، بمعنى: الاشتياق.
(١٧) محتملاً للأذى.

فطفقَ الشَّيْخُ يتأمّلُ مَا سطرَهُ، ويقلّبُ فيه نظرَهُ، فَلَمَّا استحسنَ خطَّهُ، واستَصحّ ضبطَهُ (١)، قَالَ لَهُ: لا شلَّ عَشْرُكَ، ولاَ استُخبِثَ نشْرُكَ، ثُمَّ أهابَ (٢) بِفَتًى فتَّان، يُسفرُ عَنْ أزهَارِ بُستانٍ، فَقَالَ لَهُ: أنشد البَيتين الْمُطرَفَينِ، الْمُشتَبِهَي الطّرفَين، اللذَينِ أسْكَتَا كُلَّ نَافث (٣)، وأمنَا أَنْ يعزَّزا بثالث، فَقَالَ لَهُ: اسْمَعْ لا وُقِرَ (٤) سَمْعُكَ، ولاَ هُزِمَ جَمعُكَ، وأَنْشدَ مِنْ غيرِ تَلَبُّث (٥)، ولاَ تريُّث:

سِمْ سِمَةً تحْسُنُ آثارُهَا (٦) ... واشكُرْ لمنْ أعطَى ولَوْ سمسمَهْ

والْمكْرُ مهْمَا اسْتطَعْتَ لا تأْتِه ... لِتَقْتَني السّؤدَدَ والمَكْرُمَهْ (٧)

فَقَالَ لَهُ: أجدْتَ يَا زُغلولُ، يَا أَبَا الغُلولِ، ثُمَّ نَادَى: أوضِح يَا ياسِينُ، مَا يُشكِلُ مِنْ ذَوَاتِ السِّينِ، فَنَهَضَ ولَمْ يتَأَنَّ، وأَنْشَدَ بِصَوْتٍ أَغَنَّ:

نِقْسُ الدَّوَاةِ (٨) ورُسغُ الْكَفِّ مُثبَتَةٌ
سِيناهُمَا إنْ هُمَا خُطَّا وإنْ دُرِسَا (٩)

وهكَذا السِّينُ في قسْب وبَاسقَة
والسَّفْحِ (١٠) والبَخْس (١١) واقسِرْ واقتبس قبَسَا

وفي تَقَسَّسْتُ (١٢) باللَّيْلِ الكلامَ وفي
مُسَيطِرٍ وشَمُوسٍ واتخِذْ جرَسَا

(١) وجده صحيحًا.
(٢) دعا.
(٣) متكلّم.
(٤) لا ثقل.
(٥) بدون تأنٍّ.
(٦) عواقبها.
(٧) الكرامة.
(٨) مدادها.
(٩) قرئا.
(١٠) أسفل الجبل.
(١١) النقص.
(١٢) تسمعت.

وفي قَريسٍ وبرْد قارس [١] فخذ الـ
ـصَّوَابَ منِّي وكُنْ للعلم مُقتَبِسَا [٢]

فَقَالَ لَهُ: أحسنتَ يَا نُغَيشُ، يَا صنّاجةَ الجَيْشِ، ثُمَّ قَالَ: ثِبْ [٣] يَا عَنَبَسَةُ [٤]، وبيّنِ الصَّادَاتِ الْمُلتَبِسَةَ، فَوَثَبَ وِثْبَةَ شِبلٍ مُثارٍ [٥]، ثُمَّ أنشَدَ من غيرِ عِثار:

بالصَّادِ يُكتَبُ قَدْ قَبَصْتُ دراهمًا
بأنَاملي وأصخْ [٦] لِتَسْتَمِعَ الْخَبَرْ
وَبصَقْتُ أبصقُ والصِّمَاخُ [٧] وصَنجةٌ
والقَصُّ وهْوَ الصَّدرُ واقتصَّ [٨] الأثَرْ
وبخَصْتُ مُقْلتَهُ [٩] وهَذي فُرصَةٌ
قَد أُرعِدَتْ منْهُ الفَريصَةُ للخَوَرِ [١٠]
وَقَصَرْتُ هِنداً أي حَبَستُ وَقَدْ دنَا
فِصْحُ النَّصارَى وهْوَ عيدٌ مُنتظَر
وقَرَصْتُهُ والْخَمْرُ قارصَةٌ [١١] إذَا
حذَتِ اللِّسَانَ وَكُلُّ هَذا مُستَطَرْ [١٢]

فَقَالَ لَهُ: رَعْيا لَكَ يَا بُنيّ، فلقدْ أقرَرْتَ عيني، ثُمَّ استَنْهَضَ ذَا جُثّةٍ

(١) شديد.
(٢) آخذاً ومستفيداً.
(٣) أي: قُمْ.
(٤) اسم من أسماء الأسَد.
(٥) مزعج.
(٦) استمع.
(٧) هو ثقب الأذن.
(٨) تتبعه.
(٩) قلعت عينه وأخرجتها.
(١٠) للضعف والفتور.
(١١) حامضة.
(١٢) مكتوب.

كالبَيذَق [١]، ونَعشَة [٢] كالسَّوذَق، وأمرَهُ بأنْ يقفَ بالمِرصاد، ويَسْرُدَ [٣] مَا يجْري عَلَى السِّينِ والصَّادِ، فنهضَ يسحَبُ بُردَيْه، ثُمَّ أنشَدَ مُشيراً بيدَيْه:

إنْ شِئْتَ بالسِّين فَاكتُبْ مَا أبَيِّنُهُ
وإنْ تَشَأ فَهْوَ بالصّادات يُكتَبُ
مَغْسٌ وفَقسٌ ومُسطَارٌ ومُمَّلسٌ
وسَالغٌ وسِرَاطُ الحَقِّ [٤] والسَّقَبُ
والسّامِغانِ [٥] وسقْرٌ والسَّويقُ [٦] ومَسْـ
ـلاقٌ [٧] وعَنْ كُلِّ هَذَا تُفْصحُ الكُتُبُ

فقَالَ لَهُ: أحسَنتَ يَا حَبَقَّةُ [٨]، يَا عينَ بقَّة، ثُمَّ نَادَى: يَا دَغْفَلُ، يَا أَبَا زَنفَلَ، فلبّاهُ فتًى أحسَنُ منْ بيضَةٍ في رَوْضَة، فقَالَ لَهُ: مَا عَقْدُ هجاء الأفعال، الَّتي آخرُها حرْفُ اعتلال؟ فقَالَ: اسْمَعْ لا صُمَّ صَداكَ، ولاَ سمعَتْ عِدَاكَ [٩]! ثُمَّ أنشدَ، ومَا استَرْشَدَ [١٠]:

إذا الفِعْلُ يومًا غُمَّ عَنْكَ هِجاؤه
فألْحِقْ به تَاء الخِطَابِ ولاَ تقِفْ
فإنْ ترَ قبْلَ التَّاء يَاءً فكَتْبُهُ
بيَاءٍ وإلا فَهْوَ يُكتَبُ بالألِفْ

---

(١) البيذق: الصَّقر الصغير.
(٢) حركة ونهوض.
(٣) يتابع.
(٤) طريقه.
(٥) جانبا الفَم.
(٦) هو دقيق الشَّعير المقليّ.
(٧) هو شديد الصوت.
(٨) كلمة تُقَالُ للرَّجُلِ إذا صغرّوا إليه نفسه.
(٩) أَصَمَّ اللهُ أعداءك.
(١٠) ما طلب من يرشده.

وَلاَ تَحسُبِ الفعلَ الثُّلاثيَّ(١) والَّذي
تعدّاهُ والمهموزُ في ذَاكَ يختلفْ

فطَرِبَ الشَّيْخُ لِمَا أدَّاهُ(٢)، ثُمَّ عوَّذَهُ وَفَدَّاهُ(٣)، ثُمَّ قَالَ: هَلُمَّ يَا قَعْقاعُ، يَا باقعةَ البِقاعِ، فأقْبَلَ فتًى أحسَنُ مِنْ نَارِ القِرَى، في عينِ ابنِ السُّرَى(٤)، فَقَالَ لَهُ: اصْدَعْ(٥) بتمْييزِ الظَّاء مِنَ الضَّادِ، لتَصْدَعَ بهِ أكْبادَ الأضْدادِ، فاهتزَّ لقوْلِهِ واهتَشَّ(٦)، ثُمَّ أنشَدَ بصوت أجَشَّ:

أيها السَّائلي عَنِ الضَّادِ والظَّا
ءِ لكَيْلا تُضِلَّهُ الألفَاظُ(٧)
إنَّ حِفظَ الظّاءاتِ يُغنيكَ فَاسمَعهَا
اسْتمَاعَ امْرِئٍ لَهُ اسْتيقَاظُ(٨)
هيَ ظَمْيَاءُ والمَظَالمُ وَالإظْلامُ(٩)
والظَّلْمُ والظُّبَى واللَّحَاظُ(١٠)
وَالعَظَا والظَّليمُ والظَّبيُ والشَّيْظَمُ(١١)
والظِّلُّ واللَّظَى والشِّواظُ(١٢)
وَالتَّظَنِّي وَاللَّفْظُ والنَّظمُ والتَّقْرِيظُ(١٣)
وَالقَيْظُ والظَّمَا واللَّمَاظُ

(١) الَّذي من ثلاثة أحرف.
(٢) قاله وألقاه.
(٣) قال له: جُعلتُ فداك.
(٤) السَّاري باللَّيل.
(٥) بيِّن وأظهر وأكشف.
(٦) فرح.
(٧) تغلطه.
(٨) تَيَقُّظ وانْتبَاه.
(٩) ضد الإنارة.
(١٠) جانب العين مما يلي الصَّدْغ.
(١١) الشديد الطويل من كل شيء.
(١٢) النَّار بلا دُخان.
(١٣) المدح للحيِّ.

والحِظَا والنَّظيرُ والظِّئْرُ[١] والجاحظُ
والنَّاظرونَ والأَيْقَاظُ[٢]
والتَّشظِّي والظِّلفُ والعظمُ والظُّنْبُوبُ[٣]
والظَّهْرُ والشَّظَا والشِّظَاظُ
والأظَافِيرُ والمُظَفَّرُ والمحْـ
ـظُورُ والحَافظُونَ والإحْفَاظُ
والحَظِيراتُ والمَظنَّةُ والظِّنَّةُ[٤]
والكَاظِمُونَ[٥] والمُغْتَاظُ[٦]
والوَظِيفَاتُ والمُواظِبُ[٧] والكِظَّةُ[٨]
والانْتِظَارُ والإلْظَاظُ
ووَظِيفٌ وظَالِعٌ وَعَظِيمٌ
وظَهِيرٌ والفَظُّ والإغْلاظُ
ونَظِيفٌ والظَّرْفُ[٩] والظَّلَفُ الظَّا
هِرُ ثُمَّ الفَظِيعُ والوُعَّاظُ
وعُكاظٌ والظَّعْنُ[١٠] والمَظُّ والحنْـ
ـظَلُ والقَارِظَانِ والأوْشَاظُ[١١]

(١) المرضعة.
(٢) المتنبهون.
(٣) عظم السَّاق.
(٤) بالكسر: التُّهمة.
(٥) الحابسون غيظهم.
(٦) من قام به الغيظ.
(٧) الملازم.
(٨) الشبع المفرط.
(٩) الوعاء.
(١٠) الرحيل، وهو ضد الإقامة.
(١١) الأخلاط والجماعات.

وظِرَابُ الظِّرَّانِ والشَّظَفُ[١] البَا
هِظُ[٢] والجَعْظَرِيُّ والجَوَّاظُ
والظَّرابينُ والحَنَاظِبُ[٣] وَالعُنْظُبُ
ثُمَّ الظَّيَّانُ والأرْعَاظُ
والشَّنَاظِي[٤] والدَّلْظُ والظَّأبُ
والظَّبْظَابُ والعُنظُوانُ[٥] والجِنْعَاظُ[٦]
والشَّنَاظِيرُ والتَّعَاظُلُ والعِظْلِمُ
والبَظْرُ بَعْدُ والإنْعَاظُ
هِيَ هَذِي سِوَى النَّوادِرِ فَاحفَظْهَا
لِتَقْفُو[٧] آثَارَكَ الحُفَّاظُ
واقضِ فِي مَا صَرَّفْتَ مِنْهَا كَمَا تَقْضِيهِ
فِي أَصْلِهِ كَقَيْظ وقَاظُوا

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: أحسَنْتَ لا فُضَّ فوكَ، وَلاَ بُرَّ مَنْ يَجْفُوكَ[٨]، فَوَالله إنَّكَ مَعَ الصِّبا الغَضّ، لأحْفَظُ مِنَ الأرضِ، وَأَجْمَعُ مِنْ يَومِ العَرْضِ، ولَقَدْ أورَدْتُك ورُفْقَتَكَ زُلالي، وثَقَّفْتُكُمْ[٩] تثْقيفَ العَوالي، فاذْكُروني أذْكُرْكُمْ واشْكُروا لِي وَلا تكفُرون.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَعَجِبْتُ لِمَا أبْدَى من بَرَاعَةٍ، معجونَةٍ[١٠]

(١) البؤس وضيق المعيشة.
(٢) الشّاقّ أو الغالب.
(٣) ذكور الخنافس.
(٤) نواحي الجبل.
(٥) نبت.
(٦) الأحمق.
(٧) لتتبع.
(٨) لا أُحْسِنَ إلى من يغلظ لك القول ويهجرك.
(٩) قومتكم.
(١٠) مخلوطة.

برِقَاعَةٍ، وأظهَرَ مِنْ حَذاقَة (١) ممزوجَةٍ بحمَاقَة (٢)، ولَمْ يزَلْ بصَري يُصَعِّدُ فيهِ ويـصَوِّبُ، وينقِّرُ عنـهُ وينقِّبُ (٣)، وكُنْتُ كـمنْ ينظرُ في ظَـلْمَاء، أَوْ يَسري في بهْمَاء، فَلَمَّا استَرَاثَ تنبُّهي، واستَبان تَدلُّهي (٤)، حَملَقَ (٥) إلَيَّ وتبسّمَ، وقَالَ: لَمْ يبقَ مَنْ يَتوَسَّمُ (٦)، فبُهِتُّ لفَحوَى كلامه، ووجَدْتُه أَبَا زَيْد عنْدَ ابـتسامه، فـأخذْتُ ألومُهُ عَلَى تـديُّرِ بُقعَةِ الـنَّوْكَى، وتخيُّرِ حِـرفَةِ الحُمْقَى، فكَأَنَّ وجهَهُ أُسفَّ رمَاداً، أَوْ أُشرِبَ سَواداً.

إلا أَنَّهُ أَنْشَدَ ومَا تَمَادَى:

تـخـيّـرْتُ حِـمْـصَ وهَـذي الـصِّنَاعَـهْ (٧)
لأُرزَقَ حُـظْـوَةَ أهـلِ الـرَّقَـاعَـهْ
فـمَـا يَصـطَفـي (٨) الدَّهْـرُ غيـرَ الرَّقيـعِ (٩)
ولاَ يـوطِـنُ الْـمَـالَ إلا بِـقـاعَـهْ
ولاَ لأخـي الـلُّـبِّ (١٠) مِـنْ دهْـرِه
سِـوَى مَـا لِـعَـيْـرٍ ربِـيـطٍ بِـقـاعَـهْ

ثُمَّ قَالَ: أمَا إنَّ التَّعْليمَ أَشْرَفُ صِناعَـةٍ، وأربَحُ بِضاعةٍ، وأَنْجَعُ شَفاعة، وأَفْـضَلُ براعَـةٍ، ورَبُّهُ (١١) ذُو إمْـرَةٍ مُطاعَـةٍ، وهيـبَـةٍ مُشـاعَـةٍ، ورعيّـةٍ مِطْوَاعَةٍ(١٢)، يَتَسـيْطَرُ تسيْطُرَ أميـرٍ، ويرتِّبُ ترْتيبَ وزيرٍ، ويتـحكّمُ تحكُّمَ

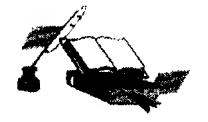
---

(١) فطنة وفهم.
(٢) جهل وقلّة رأي.
(٣) يفتش.
(٤) تحيري.
(٥) نظر بباطن جفنه.
(٦) ينظر ويتأمَّل.
(٧) هي تعليم الأطفال.
(٨) يختار.
(٩) الأحمق.
(١٠) صاحب العقل.
(١١) صاحبه.
(١٢) منقادة كثيرة الطاعة.

قَدير، وَيَتَـشَبَّهُ بِذِي مُلْكٍ كبيـرٍ، إلا أَنَّهُ يَخْرَفُ (١) فِي أمَدٍ يَسِيـرٍ، ويتَّسِمُ بِحُمْقٍ شَهِيرٍ، ويتقلَّبُ بِعَقْلٍ صَغِيرٍ (٢)، ولاَ يُنَبّئكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.

فَقُـلْتُ لَهُ: تَالله إنَّـكَ لابنُ الأيَّامِ، وعلَمُ الأعـلامِ، والسَّاحِـرُ اللاعبُ بِالأفْهَامِ (٣)، الـمُذَلَّلُ لَهُ سُبُـلُ الكَلامِ، ثُمَّ لَمْ أزَلْ معتكفاً بنَاديه، ومُـغْتَرِفاً مِنْ سَيْـلِ وَادِيهِ، إلَى أَنْ غَابَتِ الأيَّـامُ الغُرُّ (٤)، ونَابَتِ الأحْدَاثُ الـغُبْرُ، ففارقْتُهُ ولِعَيْنِي العبْرُ.

۞۞۞

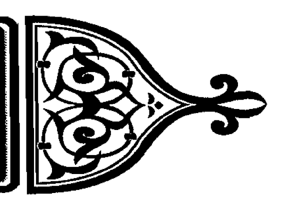


(١) فساد العقل من الكبر.

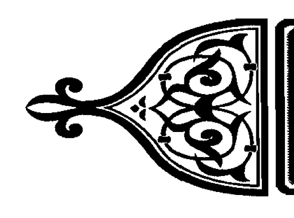
(٢) تكون أفعاله كأفعال الأطفال.

(٣) الخادع السالب للعقول.

(٤) البيض الحِسَان.



المَقَامَةُ السَّابِعَةُ وَالأَرْبَعُون
الحَجْرِيّةُ



حكَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: احتَجْتُ إلَى الحِْجامَةِ، وَأَنَا بحَجْرِ اليَمَامةِ، فأُرشِدْتُ إلَى شيخٍ يحْجُمُ بلَطافَةٍ، وَيسفِرُ (١) عَنْ نَظَافَةٍ، فبَعَثْتُ غُلامي لإِحْضَارِهِ، وأرْصَدْتُ نفْسِي لانتِظارِه، فَأَبْطأ بعْدَمَا انْطَلَقَ، حَتَّى خلتُهُ (٢) قَدْ أبَقَ (٣)، أَوْ ركِبَ طبَقاً عَنْ طبَقٍ، ثُمَّ عادَ عودَ الْمُخفِقِ مَسْعَاهُ (٤)، الكَلِّ عَلَى مَوْلاهُ (٥)، فَقُلْتُ لَهُ: ويلَكَ أبْطَأْتَ فِنْدٍ، وصُلودَ زَنْدٍ؟ فزَعَمَ أَنَّ الشَّيْخَ أشْغَلُ من ذاتِ النِّحْيَيْنِ (٦)، وفِي حَرْبٍ كَحَرْبِ حُنَيْن، فَعِفتُ الْمَمْشَى إلَى حجَّامٍ، وحِرْتُ بَيْنَ إقدامٍ وإحْجامٍ، ثُمَّ رَأَيتُ أَنْ لا تعْنيفَ، عَلَى منْ يأتي الكَنِيفَ (٧)، فَلَمَّا شهِدْتُ مَوْسِمَهُ (٨)، وشَاهدْتُ ميسَمَهُ (٩)، رَأَيْتُ شيْخاً هيئَتُهُ نَظيفَةٌ، وحركَتُهُ خَفِيفَةٌ، وعَلَيْهِ منَ النَّظَارَةِ أطْواقٌ، ومنَ الزِّحامِ طِباقٌ، وبينَ يَدَيْهِ فتًى كالصَّمْصَامَةِ (١٠)، مُستَهدِفٌ للحجامَةِ، والشَّيْخُ يقولُ لَهُ: أراكَ قَدْ أبرَزْتَ راسَكَ، قَبْلَ أَنْ تُبرِزَ قِرطَاسَكَ، ووَلَّيْتَنِي قَذالَكَ (١١)، ولَمْ

---

(١) يكشف.
(٢) ظننته.
(٣) فرَّ وشرد وهرب.
(٤) الذي خاب سعيه.
(٥) ثقيل الروح على سيده.
(٦) كثير الاشتغال.
(٧) محلّ قضاء الحاجة.
(٨) مكانه ومجمعه.
(٩) منظره.
(١٠) كالسيف.
(١١) قفاك.

تقُلْ لِي ذَا لَكَ، ولستُ ممَّنْ يبيعُ نقْداً بدَينٍ، وَلاَ يطلُبُ أثَراً (١) بَعْدَ عَيْنٍ، فَإِنْ أَنْتَ رَضَخْتَ (٢) بالعَينِ، حُجِمْتَ فِي الأخدَعَينِ، وإنْ كُنتَ ترَى الشُّحَّ أوْلَى، وخزْنَ الفَلْسِ فِي النَّفْسِ أحْلَى، فَاقْرأ عبَسَ وتولَّى، واغْرُبْ عَنِّي وإلاَّ، فَقَالَ الفَتَى: وَالَّذِي حرَّمَ صَوْغَ الْمينِ(٣)، كَمَا حَرَّمَ صَيْدَ الحَرَمَينِ، إنِّي لأفْلَسُ من ابنِ يومَينِ، فثِقْ بسَيَلِ تلْعَتِي، وأنْظِرْني إلَى سَعَتِي (٤)، فَقَالَ لَهُ الشَّيخُ: ويْحَكَ إنَّ مثَلَ الوُعودِ، كغرْسِ العودِ! هُوَ بَيْنَ أَنْ يُدرِكَهُ العطَبُ، أَوْ يُدرِكُ منْهُ الرُّطَبُ، فَمَا يُدْرِيني أيَحْصُلُ مِنْ عودِكَ جنًى، أم أحصُلُ منْهُ عَلَى ضنًى (٥)؟ ثُمَّ مَا الثِّقَةُ بأنَّكَ حِينَ تبتَعِدُ، ستَفِي بِمَا تَعِدُ؟ وَقَدْ صَارَ الغَدْرُ (٦) كالتَّحْجيلِ، فِي حِليَةِ هَذَا الجِيلِ (٧)، فأرِحْني باللهِ مِنَ التّعذيبِ، وارْحَلْ إلَى حيثُ يَعْوِي الذِّيبُ(٨)، فَاستَوَى الغُلامُ إليْه، وقد استوْلَى الخَجَلُ عليْه، وقَالَ: واللهِ مَا يَخيسُ بالعَهْدِ، غيرُ الْخَسيسِ الوَغْدِ، وَلاَ يرِدُ غَديرَ الغَدْرِ، إلا الوَضيعُ (٩) القَدْرِ، ولَوْ عرَفْتَ منْ أنَا، لَمَا أَسْمَعْتَني الْخنَا (١٠)، لكنَّكَ جهِلْتَ فقُلْتَ، وحَيْثُ وَجَبَ أَنْ تَسْجُدَ بُلْتَ، ومَا أقبحَ الغُربَةَ والإقْلالَ، وأَحسَنَ قولَ منْ قَالَ:

إنَّ الغَريبَ الطَّويلَ الذَّيلِ مُمتَهَنٌ ... فكيفَ حالُ غَريبٍ مَا لَهُ قُوتُ
لكنّهُ مَا تَشينُ الْحرُّ مُوجِعَةٌ (١١) ... فَالْمِسكُ يُسحَقُ وَالكَافُورُ مفتوتُ
وطَالَمَا أُصْلِيَ اليَاقوتُ جَمرَ غضًى ... ثُمَّ انطَفَى الجَمرُ واليَاقوتُ يَاقُوتُ

---

(١) رسمًا.
(٢) أعطيت قليلاً.
(٣) سبك الكذب.
(٤) أي: ميسرتي.
(٥) مرض وهزال.
(٦) المكر والخديعة واختلاف الوعد.
(٧) أبناء الزّمان.
(٨) المكان الخالي.
(٩) الدَّنِيءُ.
(١٠) الكلام الفاحش.
(١١) حالة مؤلمة.

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَا وَيْلَةَ أبيكَ، وَعولَةَ(١) أهليكَ! أأنْتَ فِي موقف فخرٍ يُظهَرُ، وحسَبٍ يُشهَرُ، أم موقف جِلْدٍ يُكشَطُ(٢)، وَقَفاً يُشْرَطُ؟ وهبْ أَنَّ لَكَ البَيْتَ، كَمَا ادّعَيتَ، أيَحصُلُ بذلكَ، حَجْمُ قَذالكَ؟ لاَ وَاللهِ وَلَوْ أَنَّ أبَاكَ أَنَافَ(٣)، عَلَى عَبْدِ مُنَاف، أَوْ لِخَالكَ دَانَ(٤)، عَبدُ المَدان، فَلا تضْرِبْ فِي حَدِيدٍ باردٍ، وَلاَ تطْلُبْ مَا لسْتَ لَهُ بواجدٍ، وباهِ إذَا بَاهَيْتَ بموجودِكَ، لا بجُدودِكَ، وبمَحْصولِكَ، لا بأصولِكَ، وبصِفاتِكَ، لا برُفَاتِك(٥)، وبأعْلاقِكَ، لا بأعْرَاقِكَ(٦)، وَلاَ تُطِعِ الطّمَعَ فيُذِلَّكَ، وَلاَ تتّبِعِ الْهَوَى فيُضِلّكَ، ولله در القائلُ لابنه:

بُنَيَّ اسْتَقِمْ فَالْعُودُ(٧) تَنمي عُروقُهُ
قَويمًا ويغْشَاهُ إذَا مَا التَوَى التَّوَى

وَلاَ تُطِعِ الحِرْصَ الْمُذِلَّ وكنْ فتًى
إذَا التَهَبَتْ أحْشَاؤهُ بالطَّوَى(٨) طوَى

وعاصِ الْهَوَى الْمُرْدِي(٩) فَكَمْ منْ محلّقٍ(١٠)
إلَى النَّجْمِ لَمّا أَنْ أطَاعَ الْهَوَى هوَى

وَأَسْعِفْ(١١) ذوي القُربَى فَيَقبُحُ أَنْ يُرَى
عَلَى من إلَى الحُرّ اللُّبابِ انضوَى ضوَى

---

(١) العولة من الإعوال، وهو: البكاءُ.
(٢) يسلخ.
(٣) أي: زاد.
(٤) خضع وأطاع.
(٥) الرفاة: العظام البالية.
(٦) لا بأنسابك.
(٧) فالغصن.
(٨) الجوع.
(٩) المهلك.
(١٠) مرتفع.
(١١) أعِنْ وساعِدْ.

وَحَافِظْ عَلَى مَنْ لا يخونُ إذَا نَبا
زمَانٌ ومن يرْعَى إذَا مَا النوَى نوَى
وَإنْ تقتدرْ فاصْفحْ فلا خيرَ في امرئ
إذَا اعْتَلَقَتْ (١) أظْفَارُهُ بالشَّوَى (٢) شوَى
وَإيَّاكَ والشَّكْوَى فَلَمْ ترَ ذَا نُهًى (٣)
شكَا بَلْ أَخُو الجَهْلِ (٤) الَّذي مَا ارعوَى (٥) عوَى (٦)

فَقَالَ الغُلامُ للنَّظَّارَة: يَا للعَجيبة، والطُرفَة الغَريبة! أنْفٌ في السَّمَاء، واسْتٌ في الْمَاء! ولفْظٌ كالصّهْباء، وفعْلٌ كالحَصْباء! ثُمَّ أقبلَ عَلَى الشَّيْخ بلسَانٍ سَليط، وغَيظٍ مُستَشيط (٧)، وقَالَ: أفٍّ لَكَ منْ صوّاغٍ باللّسان، روّاغٍ عَنِ الإحْسان! تأمرُ بالبرِّ، وتعُقّ عُقوقَ الْهرِّ، فَإنْ يكُنْ سببَ تعنُّتك (٨)، نَفاقَ صنعتك، فرمَاها اللهُ بالكَسَاد، وإفْساد الحُسَّاد، حتَّى تُرَى أفرَغَ منْ حَجّامِ سَاباطَ، وأضيقَ رزْقاً منْ سمِّ الخِياط، فقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: بل سلّطَ اللهُ عليكَ بَثْرَ الفَم، وتبيُّغَ الدّمِ، حَتَّى تُلْجأ إلَى حجّامٍ عظيمِ الاشْتطَاط (٩)، ثَقيلِ الاشْتراط، كَليلِ المْشْراط، كثيرِ الْمُخاط والضُّراط، قَالَ: فَلَمَّا تبيّنَ الفتَى أَنَّهُ يشْكُو إلَى غيرِ مُصَمّت، ويُرَاوِدُ (١٠) استفْتاحَ باب مُصْمَتٍ (١١)، أضْرَبَ عَنْ رجْعِ الكَلامِ، واحتفَزَ للقيامِ، وعلِمَ الشَّيْخُ أَنَّهُ

(١) نشبت.
(٢) الأطراف وجلدة الرأس.
(٣) صاحب عقل.
(٤) الأحمق الذي لا يتعقل.
(٥) كفّ ورجع.
(٦) تضجَّر وشكا.
(٧) محترق.
(٨) تشدّدك.
(٩) مجاوزة الحدّ في السّوم.
(١٠) يعاني ويعالج.
(١١) مغلق.

قَدْ ألامَ [١]، بِمَا أَسْمَعَ الغُلامَ، فجنَحَ إلَى سلمه، وبذَلَ أَنْ يُذعِنَ لحُكمه، وَلاَ يَبْغي أجْراً عَلَى حَجْمِهِ، وأبَى الغُلامُ إلاَّ الْمَشْيَ بدائه، والهرَبَ منْ لقائه، ومَا زالا فِي حِجاجٍ وسِبَابٍ [٢]، ولزازٍ وجذاب، إلَى أَنْ ضَجَّ [٣] الفتَى منَ الشِّقَاق [٤]، وتَلا رُدْنُهُ سورَةَ الانْشقَاق، فَأَعْوَلَ حينَئذ لوَفارَة خُسْرِهِ [٥]، وانْعطَاط عِرْضِه وطِمْرِه، وأخذَ الشَّيْخُ يعتَذرُ منْ فرَطاته، ويُغيِّضُ منْ عبَراته [٦]، وَهُوَ لا يُصْغي إلَى اعتذاره، ولاَ يَقصِّرُ عَن استعْباره، إلَى أَنْ قَالَ لَهُ: فَدَاكَ عمُّكَ، وعدَاكَ مَا يغُمُّكَ! أمَا تسْأَمُ الإعْوال [٧]، أمَا تعرِفُ الاحْتِمَالَ، أمَا سَمِعْتَ بِمَنْ أقالَ [٨]، وأخذَ بقول مِنْ قَالَ:

أَخْمِدْ بحِلْمِكَ مَا يُذكيه [٩] ذُو سفَه
من نَار غيظكَ وَاصْفَحْ [١٠] إن جنَى جَانِ
فَالحِلْمُ أَفْضَلُ مَا ازْدانَ اللَّبيبُ به
والأَخْذُ بالعَفْوِ أحْلَى مَا جَنَى جَانِ

فَقَالَ لَهُ الغُلاَم: أمَا إنَّكَ لَو ظَهَرْتَ عَلَى عيْشيَ الْمُنكَدِرِ [١١]، لعَذَرْتَ فِي دمْعِيَ الْمُنهَمِرِ، ولكنْ هَانَ عَلَى الأملَسِ مَا لاقَى الدَّبِرُ، ثُمَّ كأنّهُ نزَعَ إلَى الاستِحْياء، فأقْلَعَ عَنِ البُكاء، وفَاء إلَى الارْعِوَاءِ [١٢]، وَقَالَ لِلشَّيْخِ:

---

(١) أتى بما يستحق أن يُلامَ عليه.
(٢) مشاتمة.
(٣) إلى أن جزع وقلق.
(٤) المخالفة.
(٥) لزيادة خسارته.
(٦) أن ينقص من دموع بكائه.
(٧) البكاء.
(٨) عفا وسامح.
(٩) يوقده.
(١٠) تجاوز.
(١١) المتغيّر المنغص.
(١٢) الانكفاف والامتناع.

قَدْ صِرْتُ إلَى مَا اشتَهَيْتَ، فَارْقَعْ مَا أَوْهَيْتَ (١)، فَقَالَ: هَيْهَاتَ شَغلَتْ شِعَابي جَدوايَ، فَشِمْ بارِقَ سِواي، ثُمَّ إنَّهُ نهضَ يَسْتَقْرِي (٢) الصُّفُوفَ، وَيَسْتَجْدي الوُقُوفَ، وَيُنشِدُ فِي ضِمنِ مَا هُوَ يَطُوفُ:

أُقسِمُ بالبيتِ الْحَرامِ الَّذي
تَهْوي إلَيْه الزُّمَرُ (٣) الْمُحرِمَهْ
لَوْ أَنَّ عِندي قُوتَ يومٍ لَما
مَسَّتْ (٤) يَدي المِشْراطَ والمِحجَمهْ
وَلاَ ارتَضَتْ نفْسي الَّتي لَمْ تزَلْ
تسْمو إلَى المجْدِ بهَذِي السِّمَهْ
وَلاَ اشْتَكَى هَذَا الفتَى غِلْظَةً (٥)
منّي وَلاَ شَاكَتْهُ منِّي حُمَهْ
لَكِنْ صُروفُ الدَّهْرِ (٦) غَادَرْنَني
كَخَابِطٍ في اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَهْ
وَاضْطَرَّني الفَقْرُ إلَى مَوقِفٍ
منْ دونه خَوْضُ اللَّظَى الْمُضْرَمَهْ
فَهَلْ فَتًى تُدرِكُهُ رِقَّةٌ (٧)
عَلَيَّ أَوْ تعطِفُهُ (٨) مَرْحَمَهْ

---

(١) أفسدت.
(٢) يتتبع.
(٣) جمع زمرة، وهي: الجماعات.
(٤) لمست.
(٥) جفاء في الكلام.
(٦) حوادثه.
(٧) شفقة.
(٨) تميله.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فكُنتُ أوَّلَ منْ أوَى لِبَلْواهُ، وَرَقَّ لِشكْواه، فنفَحْتُهُ بدِرهَمَين، وقُلْتُ: لا كَانَا ولَوْكَانَ ذَا مَيْنٍ [(١)] ! فَابتَهجَ بباكُورَةِ جَنَاهُ، وتفاءلَ بهِمَا لغِنَاه، ولَمْ تزَلِ الدَّراهِمُ تنْهَالُ علَيْه، وتنْثالُ لديْه، حتَّى آلَ ذَا عيشَةٍ خضْراء، وحَقيبة بجْراء، فازْدَهَاه الفَرَحُ عِنْدَ ذلكَ، وهنَّأَ نفْسَه بِمَا هُنَالكَ، وقَالَ للغُلام: هَـذَا ريعٌ أنْتَ بَذْرُهُ [(٢)]، وحلَبٌ لَكَ شطرُهُ، فهلُمّ لنقتَسِمَ، ولاَ نَحتَشِمْ [(٣)]، فَتقَاسَمَاهُ بينَهُمَا شقَّ الأبْلَمَة، ونهَضا متَّفقي الكَلِمَة، ولَمَّا انتظَمَ بينهُمَا عقْدُ الاصْطِلاَحِ، وَهَمَّ الشَّيْخُ بالرَّوَاحِ [(٤)]، قُلتُ لَهُ: قَدْ تَبوَّغَ دَمي، ونَقلْتُ إليْكَ قَدَمي، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَحْجُمَني، وَتُكفْكِف [(٥)] مَا دَهَمَني [(٦)]؟ فَصَوَّبَ طَرْفَهُ وَصَعَّدَ، ثُمَّ ازدَلَفَ إليَّ وأَنْشَدَ:

كَيفَ رَأَيْتَ خُدْعَتي [(٧)] وختْلي [(٨)] ... ومَا جَرَى بيْني وبينَ سَخْلي [(٩)]
حتَّى انثَنَيْتُ فَائزاً بالْخَصْلِ ... أرْعَى رِيَاضَ الخِصْبِ بَعْدَ المَحْلِ
بالله يَا مُهجَةَ قَلْبي قلْ لي ... هلْ أبصَرَتْ عَينَاكَ قطُّ مثْلي
يفْتَحُ بالرُّقْيَةِ [(١٠)] كُلَّ قُفْلِ ... ويستَبي [(١١)] بالسِّحْرِ [(١٢)] كُلَّ عقْلِ
ويعجِنُ الْجِدّ بمَاءِ الْهزْلِ [(١٣)] ... إنْ يكُنِ الإسكَنْدَريُّ قَبْلي
فالطّلُّ قَدْ يبْدو أمَامَ الوَبْلِ ... والفَضْلُ للوابِلِ لا للطّلِّ

قَالَ: فنبّهَتْني أُرجوزَتُهُ عَلَيْهِ، وأرَتْني أَنَّهُ شيخُنَا الْمُشارُ إليهِ، فَقَرَّعتُهُ [(١٤)]

---

(١) صاحب كذب.
(٢) أي: أنت سببه.
(٣) لا نستحيي.
(٤) وعزم على الذَّهاب.
(٥) تكفّ وترفع.
(٦) غشيني وأصابني.
(٧) مكري.
(٨) تحيلي.
(٩) عَنَى به ولده.
(١٠) العزيمة.
(١١) يسلب ويأخذ.
(١٢) أحاسن الكلام.
(١٣) يمزج الحقّ بالباطل.
(١٤) لُمتهُ وَعَنَّفْته.

عَلَى الابْتذَال (١) ، والالْتحَاق بالأرْذَالِ، فأعْرضَ عـمّا سمعَ، ولَمْ يُبَلْ بمَا قُرّعَ، وَقَـالَ: كُلَّ الحْذاء يحْـتَذي الحْافـي الوَقِعُ، ثُمَّ قَاصَـانِي (٢) مُقَـاصَاةَ الْـمُهانِ (٣) ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَابنُهُ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ.

قَالَ الشَّيْخ الإمَام الرئيس أَبُو محمد القاسم بن علي رضي الله عنه: قَدْ أودعت هَـٰذه الْمقامة بضعـة عشر مثلاً من أمـثال العرب وهنا أَنَا أفـسر مَا أخاله يلتبس عَلَـى من يقتبس. أمَا قَوْلُهُ: (بطء فند) فهو مـولَى عائشة بنت سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنها وكانت بعـثته بالْمدينة ليقتـبس لَهَا نَاراً فقصد مـن فوره مصر وأقام بِهَا سنة ثُـمَّ جاءها بعد السنة وهو يشـتد ومعه جمر فتبـدد منْهُ فَقَالَ: تعست العجلة، وأمَا قَـوْلُهُ: (أنف فِي السمَاء واست فِي الْـمَاء) فـيضرب هَـٰذَا الْـمثل لمن يكبر مقـالاً ويصغر فعالاً، وأمَـا قَوْلُهُ: (أفرغ من حجام ساباط) فذكر أَنَّهُ كَانَ حجامًا ملازمًا ساباط الْمدائن، يحجم الجْندي بدانق نسِيئَـة وربمَا مرت عليه برهة لا يقرئه فِيهَـا أحد فكان يبرز أمه عند تمَادي عطلته فيحجمها لكيلاً يـقرع بالبطالة فَمَا زال يحجمها حَتَّى نزف دمها ومَاتت، وأمَا قَوْلُهُ: (يشكُو إلَى غيـر مصمت) فهو مثل يضرب لمن لا يكتـرث بشأن صاحـبه وَلاَ يعـبأ باستـمرار شكايتـه لأنه لو أشكاه لـصمت وأمسك عن الكلام ومنه قول الراجز يخاطب جملاً له:

إنـك لا تـشـكُـو إلَى مــصــمـت فاصـبر عَـلَى الحْمل الـثقـيل أو مت

ونحـو هَـٰذَا الْـمثل: (هان عَلَى الأَمْـلَسِ مَا لاَقَـى الدبر)، وأمَا قَـوْلُهُ: (شغلت شعابي شدواي) فالْمراد به أَنَّهُ ليس يفضل عَنِّي مَا أصرفه إلَى غيري

---

(١) الامتهان وترك الاحتشام. (٢) باعدني وفارقني.

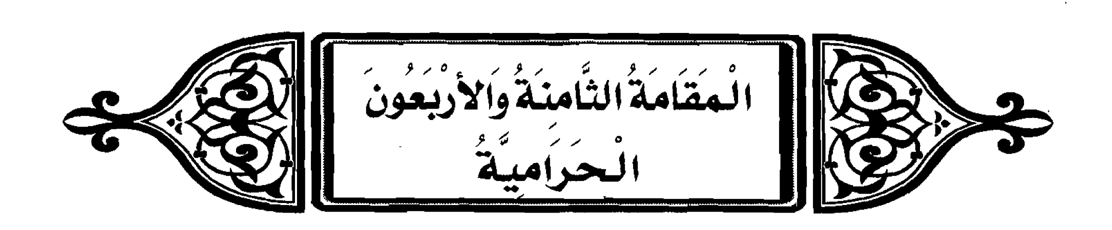
(٣) مباعدة المستحقِر للمستحقر به.

والشِّعاب هِيَ النواحي واحدها شِعب.

وقوله: (كل الحْذاء يحتذَى الحْافي الوقع) معنَاه: أَنْ المجْهود يقنع بِمَا يجد والوقع أَنْ تصيب الحْجارة القدم فتوهنها، فأمَا البعير المْوقع فهو الَّذِي يكثر آثار الدبَّر بظهره.

۞۞۞





الْمَقامَةُ الثَّامنَةُ والأرْبَعُون الْحَرَامِيَّةُ

روَى الْـحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ عَنْ أبي زَيْدٍ السَّروجيِّ قَالَ: مَا زِلْتُ مُذ رحَلْتُ عَنْسِي (١) ، وارتَحَلْتُ عَنْ عِرْسِي (٢) وغَرْسِي، أحِنُّ (٣) إلَى عِيانِ البَصرَةِ، حَنينَ الْمَظْـلومِ إلَى النُصـرَةِ، لِمَا أجمعَ عَلَـيْهِ أرْبَابُ (٤) الدِّرَايَةِ، وأصْـحابُ الرِّوَايَةِ (٥) ، مِنْ خـصائِصِ معـالِمِها وعُلَـمَائِها، ومَـآثِرِ (٦) مَشَـاهِدِهَا (٧) وشُهَدائِهَا، وَأسْألُ اللهَ أَنْ يوطِئَني ثَرَاهَا، لأفوزَ بِمرْآهَا، وَأَنْ يُمطِيَني قَراهَا، لأقْتَري (٨) قُراهَا، فَلَمَّا أحلّـنيها الحْظُّ، وَسَرَحَ (٩) لي فِيهَا اللَّحْظُ، رَأَيْتُ بِهَا مَا يَمْلأ العَينَ قُرَّةً (١٠) ، وَيُسْلي عَنِ الأوطَانِ كُلَّ غَـريبٍ، فَغَلَسْتُ فِي بَعْضِ الأيَّامِ، حِينَ نصَلَ خِضَابُ (١١) الظَّلامِ، وهتَفَ أَبُو الْـمُنذرِ بالنُّوَّامِ، لأَخْطُوَ فِي خِطَطِهَا (١٢) ، وأقْضِيَ الوَطَرَ مِنْ توسُّطِها، فَأدَّاني الاخْتِرَاقُ فِي مَسَـالِكِهـا (١٣) ، والانْصِـلاَتُ فِي سِكَكِـهَا (١٤) ، إلَى مـحلَّةٍ مَوسُـومَةٍ بالاحْتِرامِ(١٥)، منسوبَـةٍ إلَى بني حَرَامٍ، ذاتِ مَسَـاجِدَ مشهـودَةٍ، وحِياضٍ

---

(١) العنس: النَّاقة القويَّة الصَّلْبَة.
(٢) زوجتي.
(٣) أشتاق.
(٤) اتفق عليه أصحاب العلوم والمعارف.
(٥) رواة الأخبار.
(٦) مكارم ومحاسن.
(٧) محاضرها.
(٨) أتتبع.
(٩) امتدَّ.
(١٠) سرورًا.
(١١) زال، وهو كناية عن طلوع الفجر.
(١٢) أماكنها.
(١٣) طرقها.
(١٤) شوارعها.
(١٥) بالتعظيم.

مورْودَة، ومَبانٍ وثيقَة، ومغانٍ [(١)] أنيقَة، وخصائصَ أثيرَة، ومزَايَا كثيرة:

بِـهَـا مَـا شِـئْـتَ مِـنْ دِيـنٍ ودُنْـيـا
وَجِـيـرانٍ تـنَـافَـوْا [(٢)] فِـي الْـمَـعَـانِي
فَـمَـشْـغُـوفٌ [(٣)] بـآيـاتِ الْمثـانِـي
ومَـفْـتُـونٌ بِـرَنَّـاتِ الْـمَثَـانِـي
ومُـضْـطَـلِـعٌ [(٤)] بِـتَـلْـخِيصِ الْمعَانِي
ومُـطَّـلِـعٌ إِلَـى تَـخْـلِـيـصِ [(٥)] عَـانِ
وكَـمْ مِـنْ قَـارِئٍ فِـيـهَـا وَقَـارٍ
أضَـرَّا بِـالْـجُـفُـونِ وبِـالْجِـفَـانِ
وكَـمْ مِـنْ مَـعْـلَمٍ [(٦)] لِـلـعِـلْـمِ فِـيـهَـا
ونَـادٍ [(٧)] لِـلـنَّـدَى [(٨)] حُـلْـوِ الْـمَجَانِي [(٩)]
ومَـغْـنًـى لا تـزَالُ تَـغَـنُّ فِـيـهِ
أغَـارِيـدُ الْـغَـوَانِـي والأَغَـانِـي
فَـصِـلْ إنْ شِـئْـتَ فِـيـهَـا مَـنْ يُـصَلِّـي
وإمَّـا شِـئْـتَ فَـادْنُ مِـنَ الـدِّنَـانِ
وَدُونَـكَ صُـحْـبَـةَ الأكْـيَـاسِ فِـيـهَـا
أوِ الْـكَـاسَـاتِ مُـنْـطَـلِـقَ الْـعِـنَـانِ

---

(١) جمع مغنى، وهو: المنزل.
(٢) اختلفوا.
(٣) مفتون.
(٤) قوي على حمله.
(٥) فك أسير.
(٦) علامة.
(٧) مجلس.
(٨) الكرم والعطاء.
(٩) الثمار التي تُجْتَنَى.

قَالَ: فبَينَمَا أَنَا أنفُضُ(١) طُرُقَهَا، وأستَشِفُّ(٢) رَوْنَقَها(٣)، إذْ لَمحْتُ عِنْدَ دُلوكِ بَراحِ، وإظْلال الرَّوَاحِ(٤)، مَسْجِداً مُشتَهِراً بِطَرائفه، مزدَهِراً بطوائفه(٥)، وقَدْ أجْرَى أهلُهُ ذكْرَ حُروف البدَل، وجرَوْا في حلْبَة الجْدَل، فَعُجْتُ(٦) نحوَهُمْ، لأستَمطِرَ نوّهُمْ، لا لأقتَبِسَ(٧) نحوَهُمْ، فَلَمْ يكُ إلا كقَبْسَةِ العَجْلانِ، حَتَّى ارتفَعَتِ الأصْوَاتُ بالأذَانِ، ثُمَّ رَدَفَ التَّأذينَ(٨) بُروزُ الإمَامِ، فأُغْمِدَتْ ظُبَى الكلامِ، وحُلّتِ الحُبَى للقِيامِ، وشُغلْنَا بالقُنوت، عَنِ اسْتِمْداد القوت، وبالسُّجُودِ عَنِ اسْتِنْزال الجُودِ، ولَمَّا قُضيَ الفَرْضُ، وكادَ الجَمْعُ يَنفَضُّ(٩)، انبَرَى(١٠) منَ الجَمَاعَة كَهلٌ حُلْوُ البَراعَة، لَهُ منَ السَّمْتِ الحَسَنِ(١١)، ذَلاقَةُ اللَّسَنِ(١٢)، وفَصاحَةُ الحَسَنِ، وقَالَ: يَا جيرَتِي، الذينَ اصْطفَيتُهُمْ عَلَى أغصَانِ شَجرَتِي، وجعلْتُ خطتَهُمْ دارَ هجرَتِي، واتّخَذْتُهُمْ كَرِشِي وعَيبَتِي، وأعددْتُهُمْ(١٣) لَمحْضَري وغيبَتِي، أمَا تعْلَمونَ أَنَّ لَبوسَ الصّدق أبْهَى المَلابسِ الفَاخرِة، وأَنَّ فُضُوحَ الدُّنْيَا أهوَنُ مِنْ فُضوحِ الآخرَةِ؟ وأنَّ الدِّينَ إمْحاضُ النَّصيحَةِ، والإرْشَادَ عُنْوَانُ العَقيدَةِ الصّحيحة؟ وأنّ المُستَشارَ مُؤتَمَنٌ، والمْستَرشِدَ بالنُصحِ قَمِنٌ؟ وأنَّ أخاكَ هُوَ الَّذي عذلَكَ(١٤)، لا الَّذي عذَرَكَ(١٥). وصَديقَكَ مَنْ صَدَقَكَ، لا مَنْ

---

(١) أتتبعها.
(٢) أستجلي.
(٣) حسنها.
(٤) مجيء العشي.
(٥) بجماعاته.
(٦) عطفت.
(٧) لا لأستفيد.
(٨) تبع الأذان.
(٩) يتفرّق.
(١٠) اعترض.
(١١) الهيئة الحسناء.
(١٢) بلاغة المنطق مع حدّة اللسان.
(١٣) اتخذتهم عدة.
(١٤) لامك.
(١٥) قبل عذرك.

صَدَّقَكَ؟ فَقَالَ لَهُ الحَاضِرون: أَيُّهَا الخَلُّ الوَدُودُ، والخِدْنُ الْمَوْدُودُ، مَا سرُّ كلامكَ الْمُلغَزِ، ومَا شرْحُ خِطابِكَ الْموجزِ، ومَا الَّذي تبْغيه منَّا ليُنْجزَ؟ فَوالَّذي حَبانَا[١] بِمَحَبَّتكَ، وجعلَنَا منْ صَفْوَةِ[٢] أحِبَّتكَ، مَا نألوكَ نُصْحاً[٣]، ولاَ ندّخِرُ عَنْكَ نَصْحاً، فَقَالَ: جُزِيتُمْ خيراً، ووُقِيتُمْ ضَيراً[٤]، فإنّكُمْ ممَّنْ لا يَشْقَى بهِمْ جَليسٌ، ولاَ يصدُرُ عنهُمْ تلْبيسٌ، ولاَ يُخيَّبُ فيهِمْ مَظنونٌ، ولاَ يُطْوَى دونَهُمْ مكْنُونٌ[٥]، وسأُبُثُّكُمْ[٦] مَا حاكَ فِي صدْري، وأستَفْتيكُمْ فِي مَا عِيلَ فيهِ صبْري، اعْلَموا أنِّي كُنتُ عنْدَ صُلُودِ الزَّنْدِ، وصُدُودِ الْجَدِّ، أخْلَصْتُ معَ اللهِ نيّةَ العَقْدِ[٧]، وأعطَيْتُهُ صَفقَةَ العهْدِ، عَلَى أَنْ لا أَسْبأَ مُدامًا، ولاَ أُعاقِرَ نَدامَى، ولاَ أحْتَسِيَ قهوَةً، ولاَ أكْتَسِيَ[٨] نشْوَةً، فسوَّلَتْ لِيَ النّفسُ الْمُضِلَّةُ، والشَّهْوَةُ الْمُذِلَّةُ الْمزِلّةُ، أَنْ نَادَمْتُ الأَبْطالَ، وعاطَيتُ الأرْطالَ، وأضعْتُ[٩] الوَقَارَ، وارتضَعْتُ[١٠] العُقارَ[١١]، وامتطَيْتُ مَطَا الكُمَيْتِ، وتناسَيْتُ التَّوبَةَ تَنَاسِيَ المْيْتِ، ثُمَّ لَمْ أقْنَعْ بهاتيكُمُ الْمرّةِ، فِي طاعَةِ أبي مُرّةَ، حَتَّى عكَفْتُ[١٢] عَلَى الْخَنْدَريسِ، فِي يومِ الْخَميسِ، وبتُّ صَريعَ الصّهْباءِ فِي اللَّيْلَةِ الغرَّاءِ[١٣]، وها أَنَا بادي الكآبَةِ[١٤]، لِرَفْضِ الإنَابَةِ[١٥]، نَامي النَّدَامَةِ، لوصْلِ الْمُدَامَةِ[١٦]

---

(١) أعطانا.
(٢) خلاصة.
(٣) ما نكتم أو ما نترك أو ما ندَّخر عنك نصيحة.
(٤) ضررًا.
(٥) مستور.
(٦) أخبركم والبث والنث والنثر أخوات.
(٧) العقيدة.
(٨) لا أتلبس بسكر.
(٩) تركت السَّكينة.
(١٠) رضعت.
(١١) من أسماء الخمر.
(١٢) لزمت.
(١٣) البيضاء، وهي: ليلة الجمعة.
(١٤) ظاهر الحزن.
(١٥) لترك الرجوع.
(١٦) هي الخمر.

شَدِيدُ الإشْفَاقِ (١) ، مِنْ نقْضِ الْـمِيثَاقِ ، مُـعتَرِفٌ بالإسْـرافِ ، فِي عَبِّ السُّلاف :

فـيَا قـوْمِ هلْ كـفَّـارَةٌ تعْـرِفـونَهَـا ... تُـبَـاعِـدُ منْ ذَنْـبي وتُدنـي إلَى ربِّـي

قَالَ أَبُو زَيْد: فَلَمَّا حلّ أُنشوطَةَ نفْثه، وقَضَى الوَطَرَ(٢) منِ اشْتِكَاء بَثِّه، نَاجَتْني (٣) نفْسِي يَا أَبَا زيْد، هَـٰذه نُهزَةُ(٤) صيْد، فَشَمَّرْ عن يد وأيْد، فانتهَضْتُ مِـنْ مَجْثِمي(٥) انتِهَاضَ الشَّهْمِ، وَانـخَرَطْتُ مِنَ الصَّفِّ انخِرَاطَ السَّهْمِ، وَقُلْتُ:

أيـهَـا الأرْوَعُ(٦) الَّـذي ... فَـاقَ مَـجْـداً وسُـؤدُدا

والـذي يـبْـتَـغـي الـرَّشَـا ... دَ(٧) لـيَـنـجـو بـه غَـدَا

إنّ عـنـدي عِـلاجَ مَـا ... بِـتَّ مـنْـهُ مُـسَـهَّـدَا(٨)

فـاسْـتَـمِـعْـهـا عـجـيـبـةً ... غـادرَتْـنـي مُـلَـدَّدَا

أنَـا مِـنْ سَـاكـنـي سَـرُو ... جَ ذَوي الـدِّيـنِ والـهُـدَى

كـنـتُ ذَا ثـرْوَة بـهـا ... ومُـطـاعـاً مُـسَـوَّدا(٩)

مـرْبَـعـي مـألَـفُ الـضُّيُـو ... فِ(١٠) ومَـالـي لهُـمْ سُـدَى(١١)

أشـتَـري الحَـمْـدَ بـالـلُّهَـى ... وأقـي الـعِـرْضَ بـالجَـدَا(١٢)

لا أُبَـالـي بِـمُـنـفِـسٍ ... طَـاحَ فِـي الـبَـذْلِ والـنَّـدَى

---

(١) الخوف.
(٢) الغرض.
(٣) حدثتني.
(٤) فرصة.
(٥) محل جثومي؛ أي: قعودي.
(٦) السيد الذي يروعك بجماله.
(٧) الهداية.
(٨) ساهرًا.
(٩) أي: سيدًا.
(١٠) مجتمعهم.
(١١) مهمل مبذول.
(١٢) بالعطاء.

أوقِدُ النَّارَ باليَفَا ... عِ إذَا النِّكسُ أخْمَدا
وبَراني المُؤمِّلو ... نَ مَلاذاً ومَقْصِدَا
لَمْ يشِمْ بارِقي صَدٍ[(١)] ... فَانْثَنَى يشْتَكي الصَّدَى
لا ولاَ رامَ قابِسٌ ... قَدْحَ زَنْدي فأصْلَدا
طَالَمَا ساعَدَ الزَّمَا ... نُ فأصْبَحْتُ مُسْعَدا
فقَضَى اللهُ أنْ يُغيِّـ ... ـرَ مَا كَانَ عَوَّدا
بَوَّأ الرّومَ أرْضَنَا ... بَعْدَ ضِغْنٍ[(٢)] تولَّدا
فَاسْتباحوا حريمَ مَنْ ... صَادَفوهُ مُوَحِّدا
وَحَوَوْا[(٣)] كُلَّ مَا استَسَـ ... ـرَّ[(٤)] بِهَا لي ومَا بدا
فَتطوَّحْتُ في البِلا ... دِ طَريداً مُشَرَّدَا[(٥)]
أجْتَدي النَّاسَ[(٦)] بعْدَمَا ... كُنتُ من قَبْلُ مُجْتَدَى[(٧)]
وتُرَى بي خَصاصَةٌ[(٨)] ... أتَمنَّى لَهَا الرَّدَى[(٩)]
والبَلاءُ الَّذي بهِ ... شَمْلُ أُنسي تبَدَّدا[(١٠)]
إسْتِباءُ ابْنَتي[(١١)] الَّتي ... أسَروها لِتُفْتَدَى
فَاسْتَبِنْ مِحنَتي[(١٢)] ومُدَّ ... إلَى نُصْرَتي يَدا
وأجِرْني مِنَ الزَّمَا ... نِ فَقَدْ جارَ واعْتَدَى

---

(١) عطشان.
(٢) حقد.
(٣) حازوا.
(٤) خفي.
(٥) مبعدًا منفردًا.
(٦) أتكفف الناس وأسألهم الجدوى، وهي: العطية.
(٧) مسؤولاً من الجدوى.
(٨) فقر وحاجة.
(٩) الموت والهلاك.
(١٠) تفرق.
(١١) سبيها وأخذها أسيرة في أيديهم.
(١٢) بليتي.

وأعِنّي عَلَى فَكا ... ك ابْنَتي مِنْ يدِ العِدَى
فَبِذا تَنْمَحي المآ ... ثمُ [(١)] عمّنْ تَمَرَّدا
وبه تُقْبَلُ الإنا ... بَةُ [(٢)] مِمَّنْ تزَهَّدا [(٣)]
وهْوَ كَفّارَةٌ لمَنْ ... زاغَ مِنْ بعْدِ ما اهْتَدَى
ولَئِنْ قُمتُ مُنشِداً ... فلقَدْ فُهْتُ مُرشِدا
فاقْبَلِ النُّصْحَ والهدا ... يَةَ واشْكُرْ لمَنْ هَدَى
واسْمَحِ الآنَ بالّذي ... يَتَسَنَّى [(٤)] لتُحْمَدا

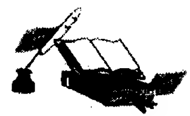
قال أَبُو زَيْد: فَلَمَّا أتْمَمْتُ هذْرَمَتي [(٥)]، وأُوهِمَ الْمَسْؤُولُ [(٦)] صِدقَ كلمَتي، أغْراهُ القَرَمُ إلَى الكرَمِ بمؤاسَاتي، ورغّبَهُ الكَلَفُ بحَمْلِ الكُلَف في مُقَاسَاتي، فرضَخَ [(٧)] لي عَلَى الْحَافِرَة، ونضَحَ لِي بالعِدَة الوَافِرَة [(٨)]، فَانقَلَبْتُ إلَى وكْري، فرِحاً بنُجْحِ مكْري، وَقَدْ حصلْتُ مِنْ صوْغِ الْمكيدة، عَلَى سوْغِ الثَّريدَةِ [(٩)]، ووصلْتُ مِنْ حوْكِ القَصيدَةِ، إلَى لوْكِ العَصيدَة [(١٠)].

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَقُلْتُ لَهُ سُبْحَانَ مَنْ أبْدعَكَ، فَمَا أعْظَمَ خُدَعَكَ، وأَخبَثَ بدعَكَ! فاستَغْرَبَ فِي الضَّحك، ثُمَّ أَنْشَدَ غيرَ مُرْتَبِك:

عِشْ بالخِداعِ فأنتَ في ... دهْرٍ بَنُوه [(١١)] كأُسْدِ بِيشَهْ

(١) جمع مأثم، بمعنى: الإثم.
(٢) الرّجوع.
(٣) ترك زخارف الدُّنْيَا.
(٤) يتسهل.
(٥) كلامي الكثير.
(٦) وقع في وهمه.
(٧) أصل الرضخ: العطاءُ القليل.
(٨) بالوعد بالعطيَّة الوافرة.
(٩) ابتلاعها بسهولة.
(١٠) يعني: أكلها، وهي طعام معروف.
(١١) أهله.

وأدرْ قَنَاةَ الْمَكْرِ حتـ ى تستَديرَ رَحَى المَعيشَهْ
وصِدِ النُّسورَ فَإنْ تعـ ذرَ صيدُها فاقْنَعْ بريشَهْ
واجْنِ الثِّمَارَ فَإنْ تفُتْ كَ فرَضِّ نَفْسَكَ بالحَشيشَهْ (١)
وأرِحْ فؤادَكَ إنْ نَبَا (٢) دهْرٌ منَ الفكَرِ المُطيشَهْ (٣)
فتغايُرُ الأحْدَاثِ (٤) يُؤْ ذِنُ باسْتِحَالَةِ كُلِّ عِيشَهْ



---

(١) واحدة الحشائش.
(٢) ارتفع.
(٣) الوساوس التي تحمل الإنسان على القلق والطيش.
(٤) تبدلها وعدم دوام حادث منها.

المُقامةُ التاسعةُ والأربعون السَّاسانيَّةُ

حكَى الحارثُ بنُ همَّامٍ قالَ: بلَغني أنَّ أبا زيدٍ حينَ ناهزَ القَبْضةَ، وابتزَّهُ(١) قيدُ الهرَمِ النَّهضةَ، أحضرَ ابنَهُ، بعدَما استَجاشَ ذهنَهُ(٢)، وقالَ لهُ: يا بُنيَّ إنَّهُ قدْ دنَا ارتحالي منَ الفنَاء، واكتحالي بمرْوَدِ الفنَاء، وأنْتَ بحمْدِ اللهِ وليُّ عهْدِي(٣)، وكبْشُ الكتيبةِ(٤) السَّاسانيَّةِ منْ بعْدي، ومثلُكَ لا تُقرَعُ لَهُ العصَا، ولاَ يُنبَّهُ بطَرْقِ الحَصَى، ولكنْ قدْ نُدبَ إلَى الإذْكارِ(٥)، وجُعلَ صقيلاً(٦) للأفكارِ، وإنِّي أُوصيكَ بمَا لَمْ يوصِ به شيثٌ(٧) الأنباطَ، ولاَ يعقُوبُ الأسْباطَ(٨)، فاحفَظْ وصيَّتي، وجانبْ معْصيتي، واحذُ مثَالِي(٩)، وافْقَهْ أمثَالِي، فإنَّكَ إن استَرشدْتَ بنُصْحي، واستَصبَحْتَ(١٠) بصُبْحي(١١)، أمرَعَ خانُكَ، وارتفعَ دُخانُكَ، وإنْ تناسَيْتَ سُورَتي(١٢)، ونبذْتَ مشُورتي، قلَّ رمَادُ أثافيكَ، وزهدَ أهلُكَ ورهطُكَ فيكَ، يا بُنيَّ إنِّي جربْتُ حقائقَ الأمورِ، وبلَوْتُ(١٣) تصاريفَ الدّهورِ، فرأيتُ المْرءَ بنَشبِه(١٤)، لاَ بنَسَبِه، والفَحْصَ عن مكْسَبِه، لا عَنْ

---

(١) سلبه.
(٢) جمع عقله واستمده.
(٣) خليفتي بعدي.
(٤) رئيسها وقائدها، والكتيبة: العسكر والجيش.
(٥) التَّذكير.
(٦) جلاءً.
(٧) هو أفضل ولد آدم عليهما السلام.
(٨) أولاد يعقوب عليه السلام.
(٩) اقتد بي وافعل مثلي.
(١٠) استضأت.
(١١) بنور رأيي.
(١٢) وصيَّتي.
(١٣) خبرت.
(١٤) بماله.

حسَبِه، وكُنتُ سمِعْتُ أَنَّ الْمَعَايِشَ إمَارَةٌ، وتجارَةٌ، وزراعَةٌ، وصِنَاعَةٌ، فمَارَسْتُ هَذِه الأربَعَ، لأنظُرَ أيّها أوفقُ وأنفعُ، فَمَا أحْمَدْتُ منْهَا معيشَةً، وَلاَ استرْغَدْتُ فيهَا عيشَةً، أمَا فرَصُ الولاَيَاتِ، وخُلَسُ الإمَارات، فكأضْغاثِ الأحْلاَمِ، وَالفَيْءِ [١] الْمُنتَسِخِ بالظَّلامِ، ونَاهِيكَ [٢] غُصَّةً [٣] بمَرارَةِ الفِطَامِ. وأمَا بضَائِعُ التِّجَارات، فعُرْضَةٌ للمُخَاطَرات، وَطُعمَةٌ للغَارَاتِ، ومَا أشبَهَها بالطُّيُورِ الطَّيَّارات، وأمَا اتِّخَاذُ الضِّياعِ، وَالتَّصدِّي [٤] للازدِرَاعِ [٥]، فمنْهكَةٌ للأعْراضِ، وقُيودٌ عائقَةٌ عَنِ الارْتكَاضِ [٦]، وقلَّمَا خَلا ربُّها عَنْ إذْلالٍ، أَوْ رُزِقَ رَوْحَ بَالٍ، وَأمَا حِرَفُ أُولِي الصنَاعات، فغيرُ فاضِلَةٍ عَنِ الأقْوَاتِ، ولاَ نَافقَة [٧] فِي جَمِيعِ الأوْقات، ومُعظَمُها معْصوبٌ بشَبيبَةِ الْحيَاةِ، ولَمْ أرَ مَا هُوَ بارِدُ الْمَغنَمِ، لَذيذُ الْمطعَمِ، وَافي الْمكْسَبِ، صافي الْمَشرَبِ، إلا الْحِرفَةَ الَّتي وضعَ ساسانُ أَسَاسَها، ونوّعَ أجْنَاسَهَا، وأضْرَمَ [٨] فِي الْخَافِقَيْنِ [٩] نَارَها، وأوضَحَ لبَنِي غَبْراءَ [١٠] مَنَارَها. فشَهِدْتُ وقائعَها مُعْلمًا، وَاخترْتُ سيماها لِي ميسَمًا [١١]، إذْ كانَتِ الْمَتْجَرَ الَّذي لا يَبورُ، وَالْمَنهَلَ الَّذي لا يغُورُ [١٢]، وَالْمِصْبَاحَ الَّذي يَعْشو إلَيْهِ الْجُمهُورُ، وَيَسْتَصْبِحُ [١٣] بِهِ العُمْيُ وَالعُورُ، وكَانَ أهلُها أعَزَّ قَبيلٍ،

---

(١) الظلّ.
(٢) ويكفيك.
(٣) ما يغص به الآكل أو الشارب.
(٤) التعرض.
(٥) للزرع.
(٦) أراد به السَّفر.
(٧) ولا رائجة.
(٨) أشعل.
(٩) هما المشرق والمغرب.
(١٠) للفقراء المحتاجين.
(١١) حسنًا وجمالاً اتسم به.
(١٢) لا ينضب ولا ينقص.
(١٣) يستضيءُ.

وَأَسْعَدَ جِيلٍ، لا يَرْهَقُهُمْ مسٌّ حَيْفٍ (١)، وَلاَ يُقلقُهُمْ سَلُّ سيْفٍ، وَلاَ يَخْشَوْنَ حُمَةَ لاسِعٍ، وَلاَ يَدينونُ لدانٍ وَلاَ شَاسِعٍ (٢)، وَلاَ يرْهَبونَ ممَّنْ برَقَ ورعَدَ، وَلاَ يحفلُونَ (٣) بِمَنْ قامَ وقعَدَ، أنديَتُهُمْ منزَّهَةٌ، وقلوبُهُمْ مرفَّهَةٌ، وطُعَمُهُمْ مُعجَّلَةٌ، وأوقاتُهُمْ محَجّلَةٌ، أيْنمَا سقَطوا، لقَطوا، وحيثُمَا انْخرَطُوا(٤)، خرَطُوا (٥)، لا يتّخذونَ أوْطانًا، وَلاَ يتّقونَ سُلطانًا، وَلاَ يمْتازونَ عمّا تغْدو خِماصاً (٦)، وتَروحُ بِطانًا (٧). فقَالَ لَهُ ابنهُ: يَا أبَتِ لَقَدْ صدَقْتَ، فِي مَا نطَقْتَ، ولكنّك رتَقْتَ، ومَا فتَقْتَ، فبيّنْ لِي كَيْفَ أقتَطِفُ، ومنْ أَيْنَ تؤكَلُ الكتِفُ؟ فَقَالَ: يَا بُنيّ إنَّ الارتكاضَ بابُهَا، وَالنّشاطَ جِلبَابُهَا(٨)، وَالفِطنَةَ مِصبَاحُهَا (٩)، وَالقحَةَ (١٠) سلاحُها، فكُنْ أجْوَلَ مِنْ قُطرُبٍ، وأسرَى من جُنُدُبٍ (١١)، وأنشَطَ من ظَبْيٍ مُقْمِرٍ، وأسلَطَ من ذئْبٍ مُتَنَمِّرٍ (١٢)، وَاقْدَحْ زَنْدَ جَدِّكَ بِجِدِّكَ، وَاقْرَعْ بابَ رِعْيِكَ بسعْيِكَ، وجُبْ كُلّ فجّ، ولِجْ كُلِّ لُجٍّ، وَانتَجِعْ كُلّ روْضٍ (١٣)، وألْقِ دلْوَكَ إلَى كُلّ حوْضٍ. وَلاَ تَسأمِ الطَّلَبَ، وَلاَ تَمَلَّ الدّأبَ، فَقَدْ كَانَ مكتوباً عَلَى عصَا شَيْخِنَا سَاسَانَ: مِنْ طَلَبَ، جلَبَ، وَمَنْ جَالَ (١٤) نَالَ: وإيّاكَ وَالكسلَ فإنهُ عُنوَانُ النّحوسِ، ولَبوسُ ذَوي البُوسِ، ومِفْتَاحُ الْمَتربَةِ(١٥)، ولِقاحُ

---

(١) إصابة ظلم.
(٢) لقريب ولا بعيد.
(٣) يبالون.
(٤) دخلوا.
(٥) قشروا.
(٦) جياعًا.
(٧) ممتلئة البطون.
(٨) لباسها.
(٩) الذي تستنير به.
(١٠) بكسر القاف؛ صلابة الوجه.
(١١) ضرب من الجراد.
(١٢) غضوب كالنِّمْر.
(١٣) كل مكان خصب.
(١٤) تحرَّك وسعى.
(١٥) شدَّة الفقر.

الْـمَتعَبَةِ، وشيمةُ العَجَزَةِ (١) الْـجهلَةِ، وشنْشنَةُ (٢) الوُكَلَةِ التُّكَلَةِ، ومَا اشْتَارَ العسَلَ، مـنِ اخْتَارَ الكَسَلَ، ولاَ ملأ الـرَّاحةَ، من اسْتَوْطَأَ الرَّاحَـةَ، وعَلَيْكَ بالإقْدَامِ (٣)، ولَوْ عَلَى الضِّرْغَامِ، فإنّ جَراءَةَ الْـجَنَانِ، تُنطقُ اللِّسَانَ، وتُطلقُ العنَانَ، وبها تُدرَكُ الْـحُظوَةُ (٤)، وتُملَكُ الثّروةُ، كَمَا أَنَّ الْـخورَ (٥) صِنْوُ الكسَلِ، وسبَبُ الفشَلِ، ومَبْطأةٌ (٦) للعمَلِ، ومَخْيَبَةٌ للأمَلِ، ولهَـذَا قيلَ فِي الْـمَثَلِ: مَنْ جَسَرَ، أيسَرَ، ومَـنْ هَابَ، خابَ، ثُمَّ ابرُزْ يَا بُنيّ فِي بكُورِ أبي زاجرٍ، وجَـراءةِ أبي الْـحارثِ، وحَـزامَةِ أبي قُـرّةَ، وخَتْلِ (٧) أبي جَعْدَةَ، وحِرْصِ أبـي عُقبَـةَ، ونَشَـاطِ أبي وَثَّابٍ (٨)، ومَكْرِ أبي الْـحُصَينِ (٩)، وصَبْرِ أبي أيُّوبَ، وتـلَطُّفِ أبي غَزْوَانَ، وتلوُّنِ أبي بَراقِشَ، وحِيلَـةِ قَصِيرٍ، ودَهَاءِ عمْرٍو، ولُـطفِ الشَّعْبيِّ، واحتـمَالِ الأحنَفِ، وفطنَةِ إياسٍ، ومَـجَانةِ أبي نُوَاسٍ، وطَـمعِ أشْعَبَ، وعَـارِضَةِ أبـي العَيَنـاءِ، واخلُبْ (١٠) بصَوْغِ اللِّسَانِ (١١)، واخدَعْ بسِحرِ البَيانِ، وارْتَدِ السوقَ قَبْلَ الْـجلَبِ، وامترِ الضَّرْعَ قَـبْلَ الْـحلَبِ، وسـائِلِ الرُكـبـانَ قَبـلَ الْـمُـنتجَـعِ، ودمّثْ لجَنـبكَ قَـبْلَ الْـمُضطَجَعِ، واشحَذْ بَصِيرتَكَ (١٢) للعِيافَةِ (١٣)، وأَنْعِمْ نَظَرَكَ للقِيَافَةِ (١٤)،

(١) سجية الكسلة.
(٢) عادة وطبيعة.
(٣) الجراءة والدخول في المخاوف.
(٤) بلوغ المنزلة الرفيعة.
(٥) الضعف والجبن.
(٦) خصلة تؤخر المرء عن مرامه.
(٧) مكر.
(٨) كنية الظبي.
(٩) كنية الثَّعلب وقد اشتهر بالمكر.
(١٠) اخدع.
(١١) كناية عن تنميق الكلام وتحسينه.
(١٢) حدد عقلك وفهمك.
(١٣) زجر الطير للفأل.
(١٤) القائف هو: الذي يعرف الآثار ويلحق الأبناءَ بالآباءِ.

فَإنَّ من صَدَقَ توسمُّهُ، طالَ تبسُّمُهُ، ومنْ أخْطَأتْ فِرَاسَتُهُ، أَبْطَأَتْ فَرِيسَتُهُ، وكُنْ يَا بُنيّ خَفِيفَ الكَلِّ (١)، قَلِيلَ الدَّلِّ، رَاغِباً عَنِ العَلِّ، قَانعاً منَ الوبَلِ بالطَّلِّ (٢)، وعَظِّمْ وقعَ الْحقِيرِ، وَاشكُرْ عَلَى النَّقِيرِ، وَلاَ تقنَطْ عنْدَ الرَّدِّ، وَلاَ تستَبعِدْ رشْحَ الصَّلْدِ، وَلاَ تيْأسْ منْ رَوحِ الله إنَّهُ لا ييْأسُ منْ رَوحِ الله إلا القومُ الكافِرونَ، وَإذَا خُيِّرتَ بَيْنَ ذَرَّةٍ (٣) منْقودَةٍ (٤)، ودُرَّةٍ موعودَةٍ، فَملْ إلَى النَّقْدِ، وفَضِّلِ الْيَوْمَ عَلَى الغد، فإنّ للتأخيرِ آفات، وللعَزائِمِ (٥) بدَوَات، وللعدات مُعَقِّبات، وبيْنَها وبينَ النَّجازِ عقَباتٌ وأيّ عقَبات، وعليْكَ بصَبْرِ أُولِي العَزْمِ، ورِفْقِ ذَوِي الحَزْمِ، وجانِبْ خُرْقَ الْمُشْتَطِّ (٦)، وتخلَّقْ بالْخُلُقِ السَّبْطِ (٧)، وقيِّدِ الدِّرْهَمَ بالرَّبْطِ، وشُبِ البَذْلَ بالضَّبْطِ، وَلاَ تَجعَلْ يَدَكَ مغْلولَةً إلَى عُنُقكَ وَلاَ تَبسُطْها كُلَّ البسْط، وَمَتَى نَبا بكَ بلَدٌ، أَوْ نَابَكَ فيهِ كَمَدٌ (٨)، فَبُتَّ منْهُ أملَكَ، وَاسْرَحْ منْهُ جملَكَ، فخيرُ البِلادِ مَا جمَّلَكَ، وَلاَ تستَثْقلَنّ الرِّحلَةَ، وَلاَ تكْرهَنَّ النُقلَةَ (٩)، فَإنَّ أعْلامَ شَرِيعتَنَا (١٠)، وأشياخَ عَشيرَتنَا، أجْمَعوا عَلَى أنَّ الْحركَةَ بركَةٌ، وَالطَّراوَةَ (١١) سُفْتَجَةٌ، وزَرَوْا عَلَى منْ زعَمَ أنَّ الغُربَةَ كُربَةٌ، وَالنُقلَةَ مُثْلَةٌ (١٢)، وَقَالُوا: هِيَ تَعلّةُ منِ اقتنَعَ بالرَّذِيلَة (١٣)، ورَضِيَ بالحشَفِ وسُوءِ الكيلَةِ، وَإذَا أزْمَعْتَ عَلَى الاغْترابِ، وأعْدَدْتَ لَهُ العَصا وَالجِرابَ، فتخيَّرِ الرّفيقَ الْمُسْعِدَ (١٤) منْ

---

(١) لا تتثاقل.
(٢) المطر الضعيف.
(٣) أقل شيء.
(٤) حاضرة.
(٥) جمع العزيمة، وهي: القصد إلى الشيء.
(٦) اترك غلظ المجاوز الحدّ أو غيظ اللجوج.
(٧) السهل.
(٨) حزن مكتوم.
(٩) الانتقال.
(١٠) مشايخها.
(١١) الغضاضة والنشاط.
(١٢) عقوبة.
(١٣) الخصلة الدَّنيئة.
(١٤) المساعد المعين.

قبلِ أنْ تُصعدَ، فإنَّ الجارَ، قبلَ الدَّارِ، والرَّفيقَ، قبلَ الطَّريقِ:

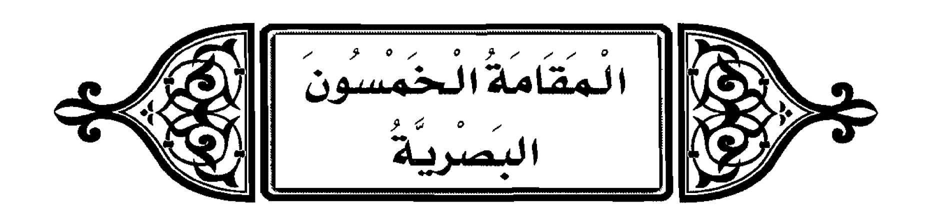
خُذْهَا إليْكَ وصيَّةً لمْ يوصِهَا قَبْلي أحَدْ
غرَّاءَ[1] حَاويَةً خُلا صَاتِ المَعَاني والزُّبَدْ
نقَّحْتُهَا تنْقيحَ منْ مَحَضَ[2] النَّصيحةَ واجتَهدْ
فَاعْمَلْ بِمَا مَثّلْتُهُ عَمَلَ اللَّبيبِ أخي الرَّشَدْ
حَتَّى يَقُولَ النَاسُ هَـ ـذَا الشِّبلُ مِنْ ذَاكَ الأسَدْ

ثُمَّ قَالَ: يَا بُنيّ قَدْ أوْصيتُ، وَاستقْصَيْتُ، فإنِ اقتَدَيْتَ فواهاً لكَ[3]، وإنِ اعتَدَيْتَ فآهاً منكَ! وَاللهُ خَليفَتي عليْكَ، وأرْجُو أنْ لا تُخْلفَ ظَنِّي فيكَ، فَقَالَ لَهُ ابنُهُ: يَا أبَتِ لا وُضِعَ عرْشُكَ، وَلاَ رُفِعَ نعْشُكَ[4]، فلقَدْ قُلْتَ سَدَداً[5]، وعَلَّمْتَ رشَداً، ونَحلْتَ مَا لَمْ ينْحَلْ وَالدٌ ولَداً، ولَئِنْ أُمْهِلْتُ بعْدَكَ، لا ذُقْتُ فَقْدَكَ، فَلأتَأدَّبَنّ بآدابكَ الصَّالحة، ولأقْتَدينَّ بآثارِكَ الوَاضحَة، حتَّى يُقَالُ: مَا أشْبَهَ اللَّيْلةَ بالبارِحَة، وَالغَاديةَ[6] بالرَّائحَة، فاهتزَّ[7] أبُو زيْدٍ لجَوَابِهِ وَابتسَمَ، وَقَالَ: مَنْ أشْبَهَ أباهُ فَمَا ظَلَمَ.

قالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فأُخبِرْتُ أَنَّ بَني ساسانَ، حينَ سَمِعوا هَذي الوَصَايَا الْحِسانَ، فضَّلُوهَا عَلَى وَصَايَا لُقْمَانَ، وَحفظُوها كَمَا تُحفَظُ أمّ القُرْآنِ[8]، حَتَّى إنَّهُمْ لَيَرونَها إلَى الآنَ أولَى مَا لقَّنُوهُ الصِّبْيَانَ، وأنفعَ لهُمْ مِنْ نِحلَةِ العقْيَانِ[9].

❖❖❖

(١) بيضاء. (٢) أخلص. (٣) ما أحسن فعلك!
(٤) ولا حملت جنازتك. (٥) صوابًا مستقيمًا. (٦) سحابة الغداة.
(٧) سرَّ وفرح. (٨) هي فاتحة الكتاب. (٩) أي: عطية ذهب.



المَقامَةُ الْخَمْسُونَ البَصْرِيَّةُ

حكَى الْحَارِثُ بن هَمَّام قَالَ: أُشعِرْتُ فِي بَعْضِ الأيَّامِ هَمّاً بَرَّحَ (١) بِي اسْتِعارُهُ، ولاحَ عَلَيَّ شِعَارُهُ، وكُنْتُ سَمِعْتُ أَنَّ غِشْيانَ مَجَالِسِ الذِّكْرِ، يسْرُو (٢) غَوَاشِيَ (٣) الفِكْرِ، فَلَمْ أرَ لإطْفَاءِ مَا بِي مِنَ الْجمْرَةِ، إلا قصْدَ الْجامِعِ بِالبَصْرَةِ، وكانَ إذْ ذاكَ مَأْهُولَ الْمسانِدِ (٤)، مَشْفوهَ الْموَارِدِ، يُجْتَنَى مِنْ رِياضِه أزاهِيرُ الكَلامِ، ويُسمَعُ فِي أَرْجائه صَرِيرُ الأقْلامِ (٥)، فانطلَقْتُ إليْه غيرَ وَانٍ، ولاَ لاوٍ علَى شانٍ، فَلَمَّا وطِئْتُ حَصاهُ، واسْتَشْرَفْتُ أقْصاهُ(٦)، تَراءَى لِي ذُو أطْمَارٍ باليَةٍ، فوْقَ صخْرَةٍ عالِيَةٍ، وقدْ عصبَتْ به عُصَبٌ (٧) لا يُحْصَى عديدُهُمْ، ولاَ يُنادَى وَلِيدُهُمْ، فابتَدَرتُ قصْدَهُ، وتورَّدْتُ وِرْدَهُ، ورجَوْتُ أَنْ أجِدَ شِفائي عِنْدَهُ، ولَمْ أزَلْ أتنقّلُ فِي الْمَراكِزِ، وأُغْضِي (٨) للاَّكِزِ وَالوَاكِزِ، إلَى أَنْ جَلَسْتُ تُجَاهَهُ، بحيْثُ أمِنْتُ اشْتِباهَهُ(٩)، فَإذَا هُوَ شيخُنَا السَّروجيّ لا رِيْبَ فيه، ولاَ لَبسَ يُخْفِيه، فانسَرَى بمَرآهُ (١٠) هَمِّي، وَارْفَضَّتْ (١١) كتيبَةُ غَمِّي، وَحِينَ رآني، وبَصُرَ

---

(١) اشتدَّ وشقّ.
(٢) يكشف.
(٣) جمع غاشية وهي: الغطاء.
(٤) معموراً بالعلماء والفضلاء.
(٥) صوت أقلام النساخ.
(٦) أبصرت منتهاه.
(٧) جمع عصبة، وهي: الجماعة.
(٨) أتحمّل وأتغافل.
(٩) تحققت من شخصه.
(١٠) أي: بمنظره.
(١١) تفرّقت.

بِمكَانِي، قَالَ: يَا أَهْلَ البصرَةِ رعاكُمُ اللهُ ووَقَاكُمْ، وَقَوَّى تُقَاكُمْ، فَمَا أَضْوَعَ رِيَّاكُمْ، وأفضلَ مَزَايَاكُمْ! بـلَدُكُمْ أوفَى البـلادِ طُهرَةً، وأزْكاهـا فِطْرَةً (١)، وَأفسَحُهُ رُقعَةً، وأَمْرَعُهَا (٢) نُجعَةً، وأقومُها قِبلَةً، وأوسَعُها دِجلَةً، وأكثرُها نهْراً ونَخلَةً، وأحسَنُهـا تَفْصيلاً وجُملَةً، دِهْليزُ البلَدِ الْـحَرامِ، وقُبالَةُ البَابِ وَالْـمَقامِ، وأحدُ جَنَاحَيِ الدُّنْيَا (٣)، وَالْـمِصرُ الْـمـؤَسّسُ عَلَى التّقْوَى، لَمْ يَتَدَنَّسْ بِبُيوتِ النِّيرانِ، وَلاَ طِيفَ فيهِ بالأوْثانِ، وَلاَ سُجِدَ عَلَى أَدِيمِهِ (٤) لِغَيرِ الرَّحْمَـٰنِ، ذُو الْـمَشَاهِدِ الْـمَشْهُودَةِ، وَالْمَسَاجِدِ (٥) الْـمَقْصُودَةِ، وَالْـمَعَالِمِ (٦) الْـمَشْهُـورَةِ، وَالْـمقابِرِ الْـمَزورَةِ، وَالآثارِ المحْـمودَةِ، وَالخُطَطِ المحْدودَةِ، بِهِ تلْتَقِي الفُلْكُ وَالرِّكابُ، وَالحِيتانُ وَالـضِّبابُ، وَالْـحَادِي وَالْـمَلاَّحُ، وَالقَانِصُ وَالفلاحُ، وَالنَّاشِبُ (٧) وَالرَّامِحُ، وَالسَّارِحُ وَالسَّابِحُ، ولَهُ آيَةُ الْـمدِّ الفائِضِ، وَالجزْرِ الغائِضِ، وأما أنتمْ فَمِمَّـنْ لا يختلفُ فِي خَصائصِهِم (٨) اثْنَانِ، وَلاَ يُنكِرُهـا ذُو شَنَآنٍ (٩)، دَهْمَـاؤكُمْ (١٠) أَطْوَعُ رَعِـيَّةٍ لِسُـلْطانٍ، وَأشكَـرُهُمْ لإِحْسَـانٍ، وزاهدكُمْ أوْرَعُ الْـخَـليقَةِ، وأحْـسَنُهُمْ طَرِيـقَةً عَلَى الْـحَقيـقَةِ، وعالِمُكُمْ عَلاَّمَةُ كُلِّ زَمَانٍ، وَالْـحُجَّةُ البالغَةُ فِي كُلّ أوَانٍ، ومنكُم مَنِ استَنبَطَ عِلمَ النَّحْوِ وَوضَعَهُ، وَالَّذي ابتدَعَ ميزانَ الشِّعْرِ وَاخترَعَهُ (١١)، ومَا مِنْ فخرٍ إلا ولكُمْ فيهِ اليَـدُ الطّولَى، وَالقِدْحُ الْـمُعَلَّى، وَلاَ صِـيتٍ إلاَّ وأنتُمْ أحَقُّ بهِ وأولَى، ثُمَّ إنّكُـمْ أكثرُ أهلِ مِـصرٍ مؤذِّنينَ، وأحْـسَنُهُمْ فِي النّسـكِ قَوانِينَ،

---

(١) أي: أعظمها خلقة.
(٢) أخصبها.
(٣) الدنيا مثل الطائر وجناحاها البصرة والكوفة.
(٤) ظاهر الأرض.
(٥) مساجدها أكثر من أن تُحْصَى عداً.
(٦) مواضع العلوم.
(٧) صاحب النشاب.
(٨) فضائلهم.
(٩) صاحب عداوة.
(١٠) جماعتكم.
(١١) الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وبكُمُ اقتُدِيَ فِي التَّعريفِ، وعُرِفَ التَّسحيرُ في الشَّهرِ الشَّرِيفِ (١)، ولكُمْ إذَا قرّتِ الْمضاجِعُ، وهجَعَ الْهاجِعُ، تَذْكَارٌ (٢) يُوقِظُ النَّائِمَ، ويؤنِسُ القائِمَ، ومَا ابتسَمَ ثغْرُ فَجرٍ (٣)، ولاَ بزَغَ نُورُهُ فِي بردٍ ولاَ حرٍّ، إلا ولتأذينكُمْ بالأسْحارِ، دويٌّ كَدَوِيِّ الريحِ فِي البِحَارِ، وبهَذَا صَدَعَ (٤) عنكُمُ النَّقْلُ (٥)، وأخْبَرَ النَّبيُّ، عليهِ السَّلامُ، منْ قُبلُ، وبَيَّنَ أَنَّ دوِيَّكُمْ بالأسْحَارِ، كَدَوِيِّ النَّحْلِ فِي القفَارِ، فشرَفاً لكُمْ ببشارَةِ الْمُصطَفَى، وواهاً لِمصْرِكُمْ (٦) وإنْ كَانَ قَدْ عَفا، ولَمْ يبْقَ منْهُ إلا شَفَا، ثُمَّ إنَّهُ خزَنَ لسانَهُ، وخطَمَ بيانَهُ، حتَّى حُدِجَ بالأبْصارِ، وقُرِفَ (٧) بالإقْصارِ، ووُسِمَ بالاستِقْصارِ، فتنفّسَ تنفُّسَ مَنْ قِيدَ لقوَدٍ، أَوْ ضبَثَتْ (٨) بهِ براثِنُ أَسَدٍ.

ثُمَّ قَالَ: أما أنتُمْ يَا أهلَ البَصرَةِ فَمَا منْكُمْ إلا العَلَمُ الْمعروفُ، ومنْ لَهُ الْمعرفَةُ وَالْمعروفُ، وأمَا أنَا فمَنْ عرفَني فأنَا ذاكَ، وشرُّ الْمَعارِفِ (٩) منْ آذاكَ، ومنْ لَمْ يُثْبِتْ عِرفَتِي فسأصْدُقُهُ صِفَتِي، أَنَا الَّذي أنجدَ وأتهمَ، وأيْمَنَ وأشأمَ، وأصْحرَ وأبْحرَ، وأدْلَجَ (١٠) وأسْحَرَ، نَشَأْتُ بسَروجَ (١١)، وربيتُ عَلَى السُّرُوجِ، ثُمَّ ولجْتُ الْمَضَايِقَ (١٢)، وفتحْتُ الْمغَالِقَ، وشهِدْتُ الْمَعارِكَ، وألَنْتُ العَرائِكَ (١٣)، وَاقْتَدْتُ الشّوَامِسَ، وأرْغَمْتُ الْمعَاطِسَ، وأذَبْتُ الْجوَامِدَ (١٤)، وأمَعْتُ الْجلامِدَ، سَلُوا عَنِّي الْمشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ،

---

(١) الإيقاظ للسحور. (٢) ذكر الله سبحانه. (٣) كناية عن ضوء الفجر.
(٤) كشف وأوضح. (٥) الخبر المنقول. (٦) لبلدكم.
(٧) عيب واتهم. (٨) نشبت فيه وعلقت به. (٩) الأصحاب والإخوان.
(١٠) سار في جوف الليل. (١١) ولدت بها.
(١٢) دخلت مضائق الحروب. (١٣) سهلت الطباع الصعبة.
(١٤) كناية عن كونه يجعل البخيل يجود بسبب خدعه له.

وَالْـمَنَـاسِمَ وَالغَوَارِبَ، وَالْـمَـحَافِلَ وَالجَـحافِلَ (١) ، وَالقَبَائِـلَ وَالقَنَابِلَ، وَاستَـوْضِحونـي مِنْ نقَلَةِ الأخْـبارِ، ورُوَاةِ الأسْمَـارِ، وَحُدَاةِ (٢) الرُكْبانِ، وحُذّاقِ الـكُهّانِ، لتَـعْلَمـوا كَمْ فجٍّ سلكْـتُ، وحِجاب هـتَكْتُ، ومَهـلَكَةٍ اقتَحَمْتُ (٣) ، ومَلحَمَةٍ ألحَمْتُ، وكَمْ ألْبابٍ (٤) خَدَعْتُ، وبِدَعٍ ابتَدَعْتُ، وفُرَصٍ اختلَسْتُ (٥) ، وأُسُدٍ افتـرَسْتُ، وكَمْ محلِّقٍ غادَرْتُهُ لَـقًى، وكامنٍ اسْتَخرَجْتُهُ بالرُّقَى (٦) ، وحجَرٍ شَحذْتُهُ حَتَّى انصدَعَ، وَاستَنْبَطْتُ زُلالَهُ (٧) بالْـخُدَعِ، ولـكِنْ فرَطَ مَا فرَطَ وَالغُصْـنُ رَطيبٌ، وَالفَوْدُ (٨) غِرْبيبٌ، وبُرْدُ الشَّبابِ قَشيبٌ، فَـأمَّا الآنَ وقد استْشَنّ الأديمُ، وتَأوَّدَ (٩) القَويمُ، وَاستَنَارَ اللَّيْلُ البَهيمُ، فليْسَ إلا النّدَمُ إنْ نفَعَ، وترْقيعُ الْـخَرْقِ الّذي قَد اتَّسَعَ (١٠) ، وكُنتُ رُوِّيتُ مِنَ الأخْـبَارِ الْـمُسنَدَةِ، وَالآثَارِ الْـمُعتَمَدةِ، أَنْ لَـكُمْ مِنَ اللهِ تعـالَى فِي كُلِّ يومٍ نَـظْرَةً، وأنّ سلاحَ النَـاسِ كُلّهِم الْـحَديدُ، وسـلاحكُمُ الأدْعيَةُ وَالتّـوْحيدُ، فقصَدْتُـكُمْ أُنْضي الرَّوَاحِلَ (١١) ، وَأَطْوي الْـمَراحِلَ، حَتَّى قُمْتُ هَـذَا الْـمَقامَ لَديْكُمْ، ولاَ مَنَّ لِي عليكُـمْ، إذْ مَا سعَيْتُ إلا فِي حاجَـتي، ولاَ تعـبْتُ إلا لراحَتـي، ولسْتُ أبْغـي أعطِيَتَـكُمْ، بل أَستَـدْعي أدعيتَكُمْ (١٢) ، وَلاَ أَسْأَلُكُمْ أموَالَكُمْ، بل أَسْتنزلُ سُؤالَكُمْ، فَادْعُوا إلَى اللهِ بتوْفيـقي للمَتَابِ، وَالإعْـدادِ للمآبِ (١٣) ، فَإِنَّهُ رَفيعُ الدَّرَجَـاتِ، مُجيبُ

---

(١) الجيوش والسَّرَايا.
(٢) جمع حادي، وهو: سائق الإبل المحمَّلة.
(٣) دخلتها من غير رويَّة.
(٤) أي: عقول.
(٥) أخذت بسرعة، كاختطفت.
(٦) جمع رقية، وهي: العزيمة.
(٧) ماءه العذب، والمراد: خالص ماله.
(٨) شعر جانب الرأس.
(٩) اعوج المعتدل، والمراد: انحنى ظهره من الكِبَر.
(١٠) تدارك ما فاته بالتوبة.
(١١) أهزل الإبل من سرعة السَّيْر.
(١٢) أن تدعوا لِي بخير.
(١٣) أي: للرجوع.

الدَّعَوَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذُنُوب ... أَفْرَطْتُ فِيهِنّ وَاعْتَدَيْتُ[1]
كَمْ خُضْتُ بَحْرَ الضَّلالِ جَهْلاً ... وَرُحْتُ فِي الغَيِّ وَاغْتَدَيْتُ
وَكَمْ أَطَعْتُ الهَوَى اغْتِراراً[2] ... وَاخْتَلْتُ وَاغْتَلْتُ وَافْتَرَيْتُ
وَكَمْ خَلَعْتُ العِذَارَ رَكْضاً[3] ... إِلَى المَعَاصِي وَمَا وَنَيْتُ
وَكَمْ تَنَاهَيْتُ[4] فِي التَّخَطِّي ... إِلَى الخَطَايَا وَمَا انتَهَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنتُ قَبلَ هَذَا ... نَسْياً وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ[5]
فَالمَوتُ لِلمُجْرِمِينَ خَيرٌ ... مِنَ المَسَاعِي[6] الَّتِي سَعَيْتُ
يَا رَبِّ عَفْواً فَأَنْتَ أَهْلٌ ... لِلعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ

قَالَ الرَّاوِي: فَطَفِقَتِ الْجَمَاعَةُ تُمِدُّهُ بِالدُّعَاءِ، وَهُوَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ، إِلَى أَنْ دَمَعَتْ أَجْفَانُهُ، وَبَدَا رَجَفَانُهُ[7]، فَصَاحَ: اللهُ أَكْبَرُ بَانَتْ أَمَارَةُ الاسْتِجَابَةِ، وَانْجَابَتْ[8] غِشَاوَةُ الاسْتِرَابَةِ، فَجُزِيتُمْ يَا أَهلَ البُصَيْرَةِ، جَزَاءَ مَنْ هَدَى مِنَ الْحَيرَةِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ القَوْمِ إِلا مَنْ سُرَّ لِسُرُورِهِ، وَرَضَخَ لَهُ بِمَيْسُورِهِ[9]، فَقَبِلَ عَفْوَ بِرِّهِمْ، وَأَقبلَ يُغْرِقُ فِي شُكْرِهِمْ، ثُمَّ انحدرَ مِنَ الصَّخرَةِ، يَؤُمُّ شَاطِئَ البَصرَةِ، وَاعْتَقَبْتُهُ[10] إِلَى حيثُ تَخَالَيْنَا، وَأَمِنَّا التَّجَسُّسَ وَالتَّحَسّسَ عَلَيْنَا، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ أَغْرَبْتَ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ، فَمَا

(١) ظلمت نفسي.
(٢) غفلة عن الصَّواب.
(٣) ساعيا مُجدّاً.
(٤) بلغت النهاية.
(٥) لم أفعل الذي فعلته.
(٦) جمع مسعاة، وهي: السَّعْي.
(٧) ظهر اضطرابه وارتعاده وخوفه.
(٨) زالت وانكشفت.
(٩) بحسب ما تيسر له.
(١٠) تبعته ومشيت خلفه.

رأيُكَ فِي التّوبَةِ؟ فَقَالَ: أُقسِـمُ بعَلاّمِ الْـخَفيَّاتِ (١)، وغَفَّارِ الْـخَطِيَّاتِ، إنَّ شَأْنِي لَعُجَـابٌ، وإنّ دُعَاء قَومِكَ لَمُجابٌ، فَقُلْتُ: زِدْني إفْـصَاحاً زادكَ اللهُ صَلاحاً! فَقَالَ: وأبيكَ لَقَدْ قُمـتُ فيهِمْ مَقامَ الْـمُريبِ (٢) الْـخَادِعِ (٣)، ثُمَّ انقلَبْتُ مـنهُمْ بقَلْبِ الْـمُنـيبِ الخَاشِعِ (٤)! فطوبَى لِمَنْ صَغَتْ (٥) قُلُوبُهُمْ إليْهِ، وويْلٌ لِمَنْ باتوا يدْعونَ عَلَيْهِ! ثُمَّ ودَّعَني وَانطلَقَ، وأوْدَعَني (٦) القلَقَ، فَلَمْ أزَلْ أُعـاني لأجْلِـه الفكَرَ، وأتَـشَوَّفُ (٧) إلَى خـبْرَةِ مَـا ذكرَ، وكُلَّـمَا اسْـتَنشَـيْتُ خبـرَهُ مِنَ الرُّكْـبـانِ، وجَوّابَةِ الـبُلْدانِ، كُنـتُ كمَنْ حـاوَرَ (٨) عجْماءَ(٩)، أَوْ نَادَى صخْرَةً صمّاء، إلَى أَنْ لَقِيتُ بَعْدَ تَراخي الأمَدِ، وتَراقي الكَمَدِ، ركْباً قافِلينَ مِنْ سفَرٍ، فَقُلْتُ: هلْ مِنْ مُغرِّبَةِ خبَرٍ؟ فَقَالُوا: إنَّ عِنْدَنَا لَخَبـراً أغربَ مِنَ العَنْقَـاءِ، وأعْجَبَ مِنْ نظَـرِ الزَّرْقاء، فسَـألتُهُمْ إيضـاحَ مَا قَالُوا، وأَنْ يكيلوا بِمَا اكْتالُوا (١٠)، فحكَوْا أنهمْ أَلَمُّوا (١١) بسَروجَ، بَعْدَ أَنْ فَارقَهَـا العُلُوجُ (١٢)، فَرَأَوْا أَبَـا زيْدِها الْمَعْـرُوفَ، قَدْ لبِسَ الـصّوفَ، وأَمَّ الصّفـوفَ، وصَارَ بِهـا الزَّاهِدُ الْموصُوفَ، فَـقُلْتُ: أتَعْنُـونَ ذَا الْـمَقَـامَاتِ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُ الآنَ ذُو الكَرَامَاتِ! فـحفَزَني إليْهِ النِّزَاعُ (١٣)، ورأَيْتُها فُرصَةً لا تُضاعُ، فارْتَحلْتُ رِحـلَةَ الْـمُعِدِّ (١٤)، وسِرْتُ نحـوَهُ سيرَ الْـمُجِـدِّ، حَتَّى

---

(١) هو الله المطّلع على الأسرار عزَّ وجلَّ.
(٢) الشاك.
(٣) الماكر.
(٤) التائب إلى الله الخاضع.
(٥) مالت.
(٦) ترك عندي أو أورثني أو ضمنني.
(٧) أتطَلَّع.
(٨) خاطب وكلم.
(٩) بهيمة.
(١٠) يخبروا كما سمعوا ورأوا.
(١١) نزلوا.
(١٢) كبار الرّوم.
(١٣) الشّوق.
(١٤) المستعدّ كامل العدّة.

حللْتُ بمسْجِده، وقرارَةِ متعبَّده [١]، فإذا هُوَ قَدْ نبَذَ صُحبَةَ أصْحَابِه، وَانْتَصَبَ فِي محْرابِه، وهو ذُو عَبَاءَة مَخْلولَة [٢]، وشمْلَة موصولَة، فهبْتُهُ مَهابَةَ مَنْ ولَجَ عَلَى الأسود، وألْفَيْتُهُ ممَّنْ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ولَمَّا فرَغَ مِنْ سُبْحَته [٣]، حَيَّاني بِمُسبِّحَتَه [٤]، مِنْ غيرِ أَنْ نغَمَ بحديث، وَلاَ اسْتَخْبرَ عَنْ قديمٍ ولاَ حَديث، ثُمَّ أقْبلَ عَلَى أوْراده، وتركَني أعجَبُ مِن اجتهاده، وأغبطُ مَنْ يَهدي اللهُ مِنْ عِباده، ولَمْ يزَلْ فِي قُنوت وخُشوعٍ، وسُجود وركُوعٍ، وإخْبات [٥] وخُضوعٍ، إلَى أَنْ أكْملَ إقامَةَ الخَمْسِ، وصارَ الْيَوْمُ أمْسِ، فَحينَئذٍ انْكَفَأَ بِي [٦] إلَى بيته، وأسْهَمَني فِي قُرْصه وزيْته، ثُمَّ نهضَ إلَى مُصلاّه، وتخلَّى بِمُنَاجاة مولاه، حَتَّى إذَا التمعَ الفجرُ، وَحَقَّ للمُتَهَجِّد الأجْرُ، عَقَّبَ تَهَجُّدَهُ بالتَّسْبيحِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ ضِجْعَةَ الْمُستريحِ، وجعلَ يرجِّعُ بصوْتٍ فَصيحٍ:

خَلِّ ادّكَارَ الأرْبُعِ … وَالْمَعْهَدِ الْمُرْتَبَعِ
وَالظّاعِنِ الْمودِّعِ … وعدِّ عَنْهُ ودَعِ [٧]
وَانْدُبْ زَمَانًا سلَفَا … سوّدْتَ فيه الصُّحُفَا [٨]
ولمْ تزَلْ مُعتكِفَا … عَلَى القبيحِ الشَّنِعِ [٩]
كمْ ليلَةٍ أودَعْتَهَا … مآثمًا [١٠] أبْدَعْتَهَا [١١]

---

(١) موضع عبادته. (٢) مشكوكة بالخلال. (٣) أي: ورده.
(٤) السبابة. (٥) تذلل.
(٦) انقلب بي. (٧) تَنَحَّ عن تذْكَار ذلك واتركه.
(٨) فعلت به من الخطايا والمآثم ما يسود صحيفتك.
(٩) الزَّائد في القُبْح الذي يُتَحدَّثُ بِقُبْحٍ.
(١٠) ضمنتها ذنوبًا. (١١) ما سبقك بها من أحد.

لِشَهْوَةٍ أطَعْتَهَا ... فِي مَرْقَدٍ ومَضْجَعِ
وكَمْ خُطًى حَثَثْتَهَا (١) ... فِي خِزْيَةٍ أحْدَثْتَهَا
وتَوْبَةٍ نَكَثْتَهَا (٢) ... لِمَلْعَبٍ ومَرْتَعِ
وَكَمْ تَجرَّأْتَ عَلَى ... رَبِّ السَّمَوَاتِ العُلَى
وَلَمْ تُرَاقِبْهُ ولا ... صَدَقْتَ فِي مَا تَدَّعِي
وَكَمْ غَمَصْتَ بِرَّهُ (٣) ... وَكَمْ أمِنْتَ مَكْرَهُ
وَكَمْ نَبَذْتَ أمْرَهُ ... نَبْذَ الحِذَا المُرَقَّعِ (٤)
وكَمْ رَكَضْتَ فِي اللَّعِبْ ... وفُهْتَ عَمْداً بالكَذِبْ
وَلَمْ تُرَاعِ مَا يَجِبْ ... مِنْ عَهْدِهِ المُتَّبَعِ (٥)
فَالْبَسْ شِعَارَ النَّدَمِ ... واسْكُبْ شَآبِيبَ الدَّمِ
قَبْلَ زَوَالِ القَدَمِ ... وَقَبْلَ سُوءِ المَصْرَعِ
وَاخْضَعْ خُضُوعَ المُعْتَرِفْ ... ولُذْ (٦) مَلاذَ المُقْتَرِفْ (٧)
وَاعْصِ هَوَاكَ وَانْحَرِفْ ... عَنْهُ انْحِرافَ المُقْلِعِ (٨)
إلامَ تَسْهُو وتَنِي ... ومُعْظَمُ العُمْرِ فَنِي
فِي مَا يَضُرُّ المُقْتَنِي (٩) ... ولَسْتَ بالمُرْتَدِعِ
أمَا تَرَى الشَّيْبَ (١٠) وخَطْ ... وخَطَّ (١١) فِي الرَّأسِ خِطَطْ

---

(١) استعجلت بها وجهدت نفسك فيها.

(٢) نقضتها.

(٣) حقرت وتنقصت إحسانه.

(٤) كنبذ النعال المرقعة.

(٥) من ميثاق مولاك الذي يجب عليك اتّباعه.

(٦) والجأ.

(٧) كما يلوذ ويلجأ مقترف الذنوب المكتسب لها.

(٨) الذي يقلع عما هو متلبس به مما يستقبح.

(٩) المكتسب.

(١٠) خالط أو فشا.

(١١) كتب وعلم.

ومنْ يلُحْ وخْطُ الشّمَطْ · بفَوده فَقَدْ نُعي
ويْحَكِ يا نَفْسِ احْرصي عَلَى ارْتِيَادِ المَخلَصِ
وطَاوعي وأخْلصي واسْتَمعي النُّصْحَ وعي
واعْتَبري بِمَنْ مضَى من القُرون وانْقَضَى
واخْشَيْ مُفاجاةَ القَضا (١) وحَاذري أنْ تُخْدَعي
وانتَهِجي سُبْلَ الهُدَى (٢) وادَّكِري وَشْكَ الرَّدَى (٣)
وأنّ مَثْوَاكِ غدا في قَعْرِ لحْدٍ بَلْقَعِ (٤)
آهاً لَهُ بيْتِ البِلَى والمنزلِ القَفْرِ الخَلا
وموْرِدِ السّفْرِ الأُلَى واللاّحِقِ المُتّبعِ
بيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ (٥) قد ضمّهُ واسْتُودِعَهْ
بعْدَ الفَضاءِ والسّعَهْ قِيدَ ثَلاثِ أذْرُعِ (٦)
لا فرْقَ أنْ يحُلّهُ داهيَةٌ (٧) أوْ أبْلَهُ (٨)
أو مُعْسِرٌ أوْ منْ لهُ مُلْكٌ كمُلْكِ تُبّعِ
وبعْدَهُ العَرْضُ الّذي يحْوي الحَيِيَّ والبَذي (٩)
والمُبتَدي والمُحتَذي ومَنْ رعَى ومنْ رُعي
فَيا مَفازَ المتّقي وربْحَ عبْدٍ قدْ وُقي
سوءَ الحِسابِ المُوبِقِ (١٠) وهَوْلَ يومِ الفَزَعِ

(١) هجوم الموت.
(٢) اسلكي وسيري في طريق الهدى والرَّشاد.
(٣) سرعة الهلاك.
(٤) خال.
(٥) من تُرِكَ فيه.
(٦) مكان قدر ثلاث أذرع.
(٧) بليغ في الدَّهاء مجرّب للأمور حاذق.
(٨) مغفل زائد الغفلة.
(٩) ذا الوقاحة المتكلم بفحش الكلام.
(١٠) الموقع في الهلاك.

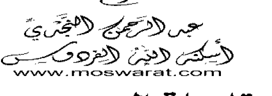
وَيَا خَسَارَ مَنْ بغَى ... وَمَنْ تعَدَّى وطَغَى (١)
وشَبَّ نيرَانَ الوَغَى (٢) ... لِمَطْعَمٍ أَوْ مَطْمَعِ
يا مَنْ عَلَيْه الْمُتَّكَلْ ... قَدْ زَادَ مَا بي مِنْ وجَلْ
لِمَا اجْتَرَحْتُ مِن زلَلْ (٣) ... فِي عُمْرِي الْمُضَيَّعِ
فَاغْفِرْ لعَبْدٍ مُجتَرِمْ ... وَارْحَمْ بُكَاهُ الْمُنسجِمْ (٤)
فأَنْتَ أوْلَى مَنْ رَحِمْ ... وخَيْرُ مَدْعُوٍّ دُعِي

قَالَ الْحَارِثُ بن هَمَّام: فَلَمْ يزَلْ يرَدِّدُها بصوتٍ رقيقٍ، ويصلُها بزَفيرٍ(٥) وشَهيقٍ، حَتَّى بكيتُ لبُكاء عينيه، كَمَا كُنتُ مِنْ قبلُ أبكي عَلَيْه، ثُمَّ برزَ إِلَى مسجِده، بوُضُوء تَهَجُّده (٦)، فانطلَقْتُ رِدْفَهُ، وَصَلَّيتُ مَعَ مَنْ صَلَّى خلفهُ، ولَمَّا انفضَّ مَنْ حَضَرَ، وتفرَّقُوا شغَرَ بغَرَ، أَخَذَ يُهَينِمُ بدَرْسه (٧)، ويسْبِكُ يومَهُ فِي قالِبِ أمْسِه، وَفِي ضِمْنِ ذَلكَ يُرِنُّ (٨) إرْنَانَ الرَّقُوب، ويبْكي وَلاَ بُكاءَ يَعْقُوبَ، حَتَّى استَبَنْتُ أَنَّهُ التَحقَ بالأفْرَاد، وأُشرِبَ قَلْبُهُ هَوَى الانفِرَاد، فأَخطَرْتُ بقَلْبي عَزْمَةَ الارتِحَال، وتخْلِيَتَهُ وَالتَّخَلِّي بتِلكَ الْحَال، فكأَنهُ تَفرَّسَ مَا نويْتُ، أَوْ كُوشِفَ (٩) بمَا أخْفَيْتُ، فَزَفَرَ (١٠) زَفيرَ الأوَّاه، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، فَأَسْجَلْتُ عِنْدَ ذَلكَ بِصدْقِ الْمُحَدَّثِينَ (١١)، وأيقَنْتُ أَنَّ فِي الأمَّةِ مُحَدَّثِينَ، ثُمَّ دنَوْتُ إليْه كَمَا يَدْنُو

(١) تجاوز الحدّ في بغيه.
(٢) الحرب.
(٣) جمع زلة، بمعنى: الخطأ.
(٤) أي: المنسكب.
(٥) بتنفس محرور.
(٦) بوضوئه الذي صلّى به نافلة اللّيل.
(٧) جعل يقرأ أوراده بصوت منخفض.
(٨) الإرنان كالرَّنين: صوت فيه غنَّة.
(٩) اطلع.
(١٠) تنفس بحرقة.
(١١) الذين حدَّثوا بتوبة السّروجي وأنه أناب إلى مولاه.

الْـمُصَافِحُ، وقُلْتُ: أَوْصِني أَيُّهَا العَبْدُ النَّاصِحُ، فَقَالَ: اجْعَلِ الْـمَوتَ نُصْبَ عَـيْنِكَ، وَهَـٰذَا فِـراقُ بَيْنِي وبَـينِكَ، فَـوَدَّعْتُـهُ وَعَبَـرَاتِي[1] يَتَحَـدَّرْنَ مِنَ الْـمَآقِي[2]، وَزَفَرَاتِي يَتَصَعَّدْنَ مِنَ التَّرَاقِي، وَكَانَتْ هَـٰذِهِ خَاتِمَةَ التَّلاقِي.

(١) دموع عيني.
(٢) ينزلق من أطراف أجفاني متراسلة.

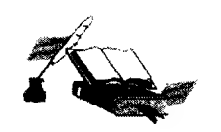


خاتمة

قَالَ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ أَبُو مُحَمَّدٍ القَاسِمُ بْنُ عَلِيٍّ - بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَهُ -:

هَـذَا آخِرُ الْـمَقَامَاتِ الَّتِي أَنْشَأْتُهَا بِالاغْتِرَارِ، وَأَمْلَيْتُهَا بِلِسَانِ الاضْطِرَارِ، وَقَدْ أُلْجِئْتُ (١) إِلَى أَنْ أَرْصَدْتُهَا (٢) لِلاسْتِعْرَاضِ، وَنَادَيْتُ عَـلَيْهَا فِي سُوقِ الاعْتِرَاضِ، هَـذَا مَعَ مَعْرِفَتِي بِأَنَّهَا مِنْ سَقَطِ الْـمَتَاعِ، وَمِمَّا يَسْتَوْجِبُ أَنْ يُبَاعَ وَلاَ يُبْتَاعَ، وَلَوْ غَـشِيَنِي (٣) نُورُ التَّـوْفِيقِ، وَنَظَرْتُ لِنَفْـسِي نَظَرَ الشَّـفِيقِ، لَسَتَرْتُ عَوَارِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ مَسْتُوراً، وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً، وَأَنَا أَسْـتَغْـفِرُ اللهَ تَعَـالَى مِمَّـا أَوْدَعْتُـهَا مِنْ أَبَـاطِيلِ (٤) اللَّغْوِ، وَأَضَـالِيلِ اللَّهْوِ (٥)، وَأَسْتَرْشِدُهُ إِلَى مَا يَعْصِمُ مِنَ السَّهْوِ (٦)، وَيُحْظِي بِالْعَفْوِ، إِنَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْـمَغْفِرَةِ، وَوَلِيُّ الْـخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

❁❁❁



(١) أُلزمت.

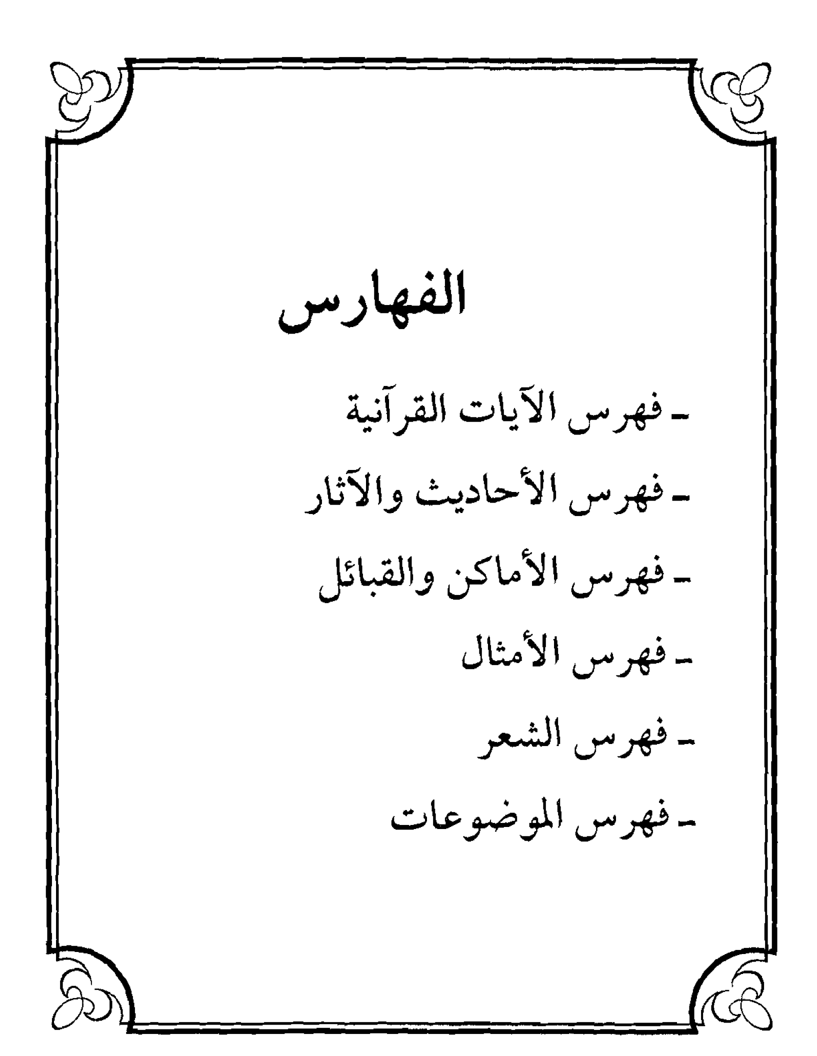
(٢) عرضتها وأعددتها.

(٣) أدركني وسترني.

(٤) الكلام الساقط عديم الفائدة.

(٥) جمع أضلولة، وهو: ما يضلّ به من ارتكبه.

(٦) يمنع ويحفظ من الخطأ.



الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾	٢٨٠	١٦٥
سورة آل عمران		
﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾	١٥٩	٣٧٦
﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾	١٨٧	٢٨٦
سورة الأنعام		
﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾	٢٥	٣١٦
سورة الأنبياء		
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾	١٠٧	١٢
سورة الكهف		
﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ﴾	١١	١٣٤
سورة الأحزاب		
﴿ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾	١٨	١٣٤
سورة المزمل		
﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾	٢٠	١٦٧
سورة الحاقة		
﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾	٧	١٦٨

فهرس أطراف الأحاديث

طرف الحديث	راوي الحديث	الصفحة
إذا ذكر الصالحون فحي هلا بعمر	ابن مسعود	١٣٥
في الرقة ربع العشر	-	٢٥٨
كل الصيد في جوف	-	٢٥٨



فهرس الأماكن والقبائل

فهرس الأمثال

المثل	الصفحة
عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان	٢٢
الذي سار سائره خير العشاء سوافره	٤٠
أفلت وله حصاص	١٩٢
ويل أهون من ويلين	١٩٢
أنا تئق وأنت مئق فكيف نتفق	١٩٢
لقيت منها عرف القربة	٢٨٦
وأنا أصرد من عين الحرباء والعنز الجرباء	٣٢٣
ليس بعشك فادرجي	٣٢٥
الإيناس قبل الإبساس	٣٢٥
أنف في السماء واست في الماء	٣٥١
يشكو إلى غير مصمت	٣٥١
هان على الأملس ما لاقى الدبر	٣٥١
الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق	٣٦٦

فهرس الشعر

بيت الشعر	رقم الصفحة
مـا بـالـهـا ... قـبـح الـرقـبـاء	٣٢٤
مـا ذاك ... رقـيـبـهـا الحـربـاء	٣٢٤
فـلا خـلا ذا ... ظـل خـصـه	١٧٩
فـإنـه بَرٌّ بمـن ... ضـوء شـهـيـه	١٧٩
زان مـزايـا ... خـوف ربـه	١٧٩
سـجـح يـهـش ... بحـقـه يـرتـاب	١٧٩
لا بـاخـل بـل ... لا يـلـيـه بـاب	١٧٩
إن عـض أزل... فـانـحـت مـنـه نـاب	١٧٩
فلـذا يحب يسـتـحق ... فلـبابه خـلاب	١٧٨
أخـلاقـه غـر ... ناضـلـتـه غـلاب	١٧٨
فـجـد في مـراضـي ... أجـره وثوابـه	١٤٢
وبـادريـه صـرف ... يـغـول ونـابـه	١٤٢
ولا تـأمـن الـدهـر ... عـلـيـه ونـابـه	١٤٢
وعـاص هـوى ... مـن عـقـابـه	١٤٢
وحـافـظ عـلـى... يـتـقى مـن عـقـابـه	١٤٢
ولا تـلـه عـن ... حـال مـصـابـه	١٤٢
ومـثـل لعـيـنيك ... ومـطـعـم صـابـه	١٤٢



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❁❁❁


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com







دَارُ الغَدِ الجَدِيدِ
لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

القَاهِرَة: ٧ ش دَرْب الأتراك خلف الجامع الأزهر
المنصورة: ش عبد السلام عارف أمام جامعة الأزهر
ت فاكس: ٢٥١٤٨٢١٦/٠٠٢٠٢ - ٢٢١٦٨٩٨/٠٠٢٠٥٠
Email:dar.alghad@yahoo.com

